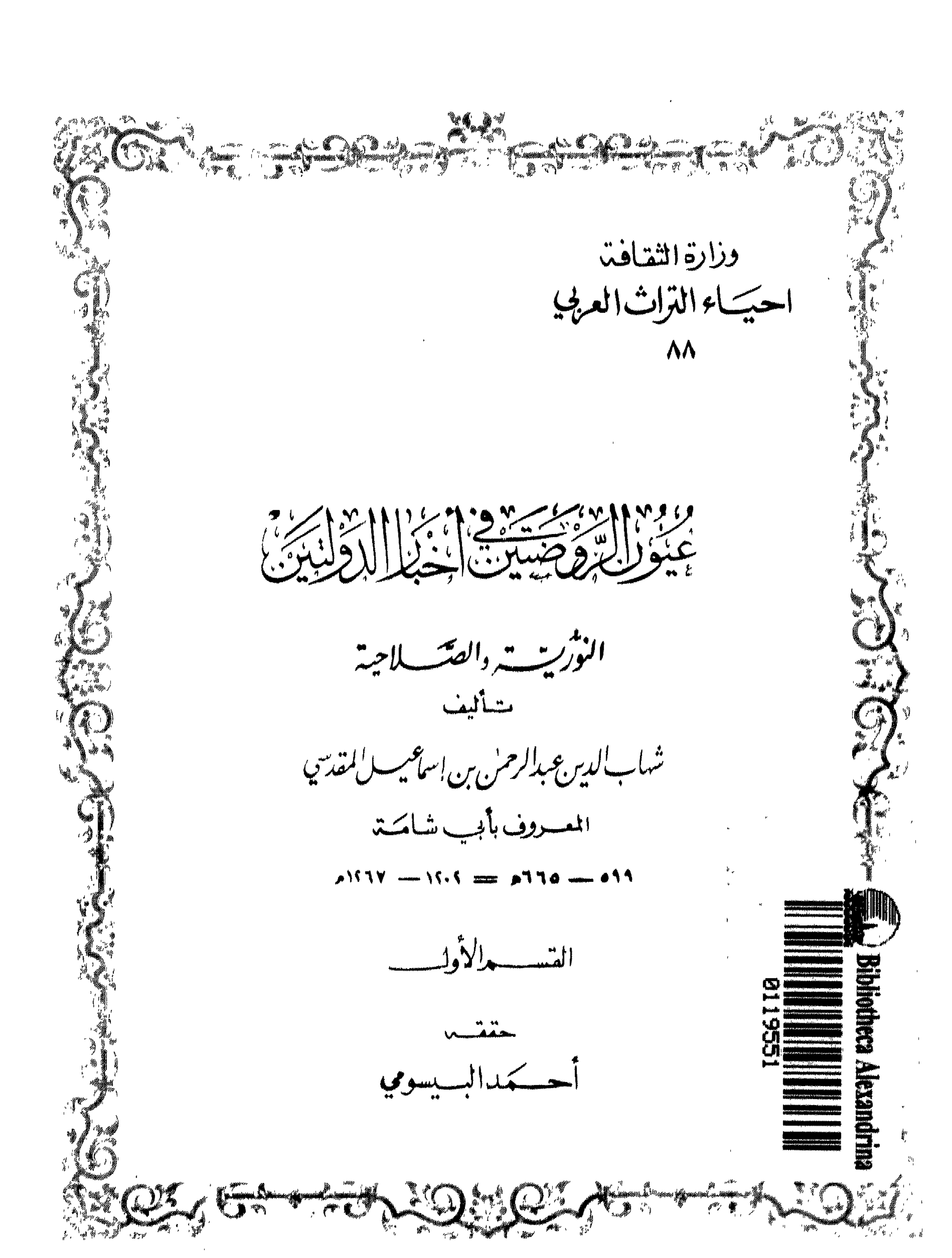


وزارة الثقافة

احياء التراث العربي

٨٨

عيون الروضتين في أخبار الدولتين

النورية والصلاحية

تأليف

شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي

المعروف بأبي شامة

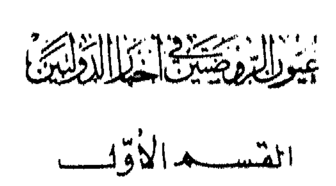
٥٩٩ — ٦٦٥م = ١٢٠٢ — ١٢٦٧م

القسم الأول

حققه

أحمد البيسومي

الاشراف الفني : زهـــــير الحـــمو


عيون الروضتين في أخبار الدولتين
القسم الأول



وزارة الثقافة
احياء التراث العربي
٨٨

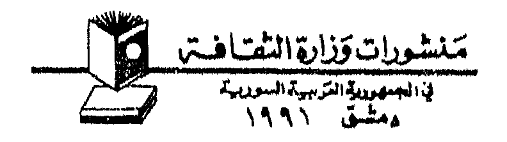
عيون الروضتين في أخبار الدولتين

النورية والصلاحية

تأليف
شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي
المعروف بأبي شامة
٥٩٩ — ٦٦٥هـ = ١٢٠٢ — ١٢٦٧م

القسم الأول

حققه
أحمد البيسومي



عيون الروضتين في أخبار الدولتين : النورية والصلاحية / تأليف شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة؛ حققه أحمد البيسومي .ـ دمشق: وزارة الثقافة ، ١٩٩١ . ـ ج ١ ؛ ٢٤ سم . ـ (احياء التراث العربي ؛ ٨٨) .

١ ـ ٩٥٦٫٠٥٤٥ ش ا م ع ٢ ـ العنوان ٣ ـ أبو شامة
٤ ـ البيسومي ٥ ـ السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ـ ١٢٣٥ /١١/١٩٩١

عصر المــؤلف

بينما كان صلاح الدين يوسف والأمير علم الدين سليمان بن جندر (في سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م) عائدين من حران نحو الشام قال له ابن جندر : (بأي رأي كنت تظن أنك تمضي إلى الصيد فلا يخالفونك ؟ بالله أما تستحي ، يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة ؟ قال : وكيف ذلك ؟ وهو يضحك ، قال : إذا أراد الطائر أن يعمل عشاً لفراخه ، قصد أعالي الشجر ليحمي فراخه ، وأنت سلّمت الحصون إلى أهلك ، وجعلت أولادك على الأرض ، هذه حلب بيد أخيك ، وحماة بيد تقي الدين ، وحمص بيد ابن شيركوه ،وابنك العزيز مع تقي الدين بمصر يخرجه أي وقت أراد ، وهذا ابنك الآخر مع أخيك في خيمة يفعل به ماأراد ، فقال له : صدقت ، واكتم هذا الأمر ...)(١).

وقد عمل صلاح الدين يوسف بن أيوب بنصيحته هذه ،فأخذ حلب من أخيه ، وأخرج تقي الدين من مصر ، وأعطى أخاه العادل حران والرها وميافارقين ،ليخرجه من الشام ومصر ، لتبقى لأبنائه(٢) .

---

(١) الكامل لا بن الأثير ١١ / ٥٢٥ ، مفرج الكروب ٢/١٨٣ ،وفيات الأعيان ٦/١٧١ — ١٧٢.

(٢) الكامل ١١/٥٢٣ — ٥٢٥ ، الروضتين ٢ / ٦٩ — ٧١ .

يفيد هذا إذا تقبلنا الخبر على حاله -- ليخدم كمدخل -- أن صلاح الدين يوسف بن أيوب، ما إن أكمل إشادة دولته ووحد أجزاءها، حتى شرع في تفتيتها حيث وزعها إلى إقطاعات على بعض جنده وأهل بيته، ثم قام بتعديل توزيع الإقطاعات سنة (٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م) حيث أعاد مسح الأراضي الزراعية ومن ثم قام بتوزيعها، لكنه اضطر في سنة (٥٧٧ هـ / ١١٨١ م) إلى إعادة النظر في التوزيع الإقطاعي العام (١) وبعد ذلك اضطر أن يعمل بنصيحة سليمان بن جندر، واستقر رأيه في سنة (٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م) على أن يجعل : ولده الملك العزيز عماد الدين أبا الفتح عثمان بن يوسف بن أيوب نائباً له في الديار المصرية .

ودمشق -- المقابلة لبيت المقدس -- لولده الأفضل نور الدين أبي الحسن علي بن يوسف بن أيوب .

وحلب المقابلة لأنطاكية لولده الظاهر غياث الدين أبي منصور غازي بن يوسف بن أيوب. وحماة والمعرة ومنبج، ومن ثم أضاف إليها ميافارقين .

وحمص -- المقابلة لطرابلس وقلعة الحصن -- إلى ناصر الدين محمد المنصور بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (أخي صلاح الدين) .

وجعل لأخيه العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب الكرك والشوبك . وإقطاعات كثيرة بمصر، وجعله أتابكاً للملك العزيز (٢).

---

(١) الروضتين ٢ / ٢٢ -- ٢٤ ، النظم المالية في مصر ص ٢٩ -- ٣٠ .

(٢) الكامل ج ١١ ص ٥٢٣ -- ٥٢٥ ، الروضتين ج ٢ ص ٦٩ -- ٧١.

إن هذا النظام الذي اتبعه صلاح الدين مرتبط بنظام الإقطاع العسكري (١) ، وهو نظام أعاد تمزيق دولة صلاح الدين بعدما وحدها ، ودون الدخول في تفاصيل وقواعد هذا النظام ، يهمنا أن نقول إنه كانت له مساوئه ، إذ إنه كان يحول بين المقاتلين وبين البقاء تحت السلاح مدة طويلة ، وبخاصة في مواسم فلاحة الأرض ، ومواسم جني المحاصيل الزراعية (٢) .

وبعد معركة حطين سنة (٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م) (٣) ، واستعادة صلاح الدين لبيت المقدس من أيدي الصليبيين وأثناء تصديه لما يعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة . وخلال حصار عكا ، ظهرت عيوب نظام الإقطاع العسكري الإسلامي ، ووضحت معالم الخلل السياسي في دولة صلاح الدين (٤) التي بناها بذاته . فوضح أن صلاح

---

(١) الإقطاع العسكري نظام اتبعه السلاجقة والأيوبيون ومن بعدهم المماليك ، فيقطع السلطان أحد أفراد أسرته وكبار رجال دولته منطقة من بلاده ، يستقل بشؤونها وعليه تهيئة الجند ، ودفع عطاءاتهم ، ويرجع الى السلطان مباشرة في كل أمر من أمور إقطاعه ، ويقوم هذا بدوره باقطاع الاقطاعات لكبار رجالاته وقادة جنده ، ويرجعون إليه مباشرة ، ويعملون على تأمين الجيش وعطاءاته.
انظر من صبح الأعشى السفر الثاني ص ٣٩٨ — ٤٠٤ .

(٢) يضع ابن الأثير اللوم على صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ويعتبره المسؤول عن زيادة قوة صور ، لأنه سمح للفرنج بالتوجه إليها بعد احتلاله لبلادهم وإعطائه لهم الأمان . وانظر أيضاً موقف أصحاب الإقطاعات أثناء حصار صلاح الدين لمدينة صور سنة ٥٨٣ هـ ورحيله عنها في أول يوم من كانون الأول / آخر شوال في : الكامل ج ١١ ص ٥٥٥ — ٥٥٦ ، الروضتين ج ٢ ص ١١٩ — ١٢٠.

(٣) انظر الكامل ج ١١ ص ٥٣٤ — ٥٣٦ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٢٠ .

(٤) انظر الكامل ج ١٢ ص ٦٠—٦٣ ، الروضتين ج ٢ ص ١٦٥.

الدين فقد سيطرته على الإقطاعيات أثناء حصار عكا ، فأخذ أصحاب الإقطاعيات من الأمراء وكبار الجند بالتأفف والاستياء لطول بقائهم مرابطين على عكا ، وما أن حلّ شتاء سنة (٥٨٧ هـ / ١١٩١ م) حتى اضطر صلاح الدين يوسف بن أيوب تحت ضغط الأمراء وكبار الجند إلى أن يأذن للعساكر في العودة إلى بلادها ، لتأخذ قسطاً من الراحة على أن تعود بعد انقضاء الشتاء . وحصل هذا بالرغم من بقاء الفرنج محاصرين لعكا . فسار أكثر الأمراء مع جندهم إلى بلادهم ، ولم يبق عند صلاح الدين في مواجهة الصليبيين إلا نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاصة .

ويظهر لنا خلل هذا النظام (١) بشكل جلي ، ماحدث أثناء عملية البدل بين من خرج من الأمراء وقادة الجند ، ومن دخل إلى عكا — خلال حصار الفرنج لها — حيث خرج من المدافعين عن عكا ستون أميراً مقدمهم حسام الدين أبو الهيجاء ، ودخل إليها بدلاً عنهم عشرون أميراً ومعهم مقدمهم الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب . فالى جانب عـدم وجود المساواة في التعداد بين من خرج ومن دخل فإن من دخل إلى عكا كانوا أضعف ، وأقل دراية في فنون القتال إذا ماقورنوا بمن خرج منها ، وهذا الحدث أضعف دفاع عكا من الناحيتين : العسكرية والمعنوية ، بل الأدهى والأغرب من هذا أن عدداً من هؤلاء الأمراء الذين دخلوا للدفاع عن عكا ، تخاذلوا في الدفاع عنها ، وفرّوا منها على ظهر

---

(١) الكامل ج ١٢ ص ٥٥ و ٦٦ ، الروضتين ج ٢ ص ١٨٠—١٨١ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٤٠..

مركب صغير – بركوس – غير مبالين بالمصير الذي ستؤول إليه عكا ، وهم من الأهمية بمكان ، منهم : حسام الدين تمر تاش ابن الجاولي،وسنقر الوشاقي – وهو من الأسدية الأكابر – ، وعز الدين أرسل الأسدي ، وغيرهم ، وكان ذلك ليلة الخميس تاسع جمادى الآخر سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

صحيح أن صلاح الدين حافظ على وحدة دولته ظاهرياً منذ نشوئها – في مصر – سنة (٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م) وحتى وفاته سنة (٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) لكن التمزق الواقعي لدولته،يكاد يعتبر المسؤول الأول عمّا آل إليه مصير عكا . ولقد أدرك صلاح الدين هذا الخلل، وحاول جاهداً إصلاحه ، لكنه لم ينجح في ذلك ، لأنه كان يتطلب منه القيام بعمليات عسكرية داخلية أولاً ، ليتمكن من الإصلاح ولم يتمكن من ذلك ، لأنه كان في مواجهة الصليبيين أمام أسوار عكا ، ثم إن صلاح الدين الكهل الآن ، غير صلاح الدين الشاب مؤسس الدولة .

وبعد وفاة صلاح الدين سنة (٥٨٩ هـ / ١١٧٣م) استقل أبناؤه وكبار أمراء دولته بإقطاعاتهم ، وأصبحت الإمبراطورية التي أنشأها صلاح الدين يوسف بن أيوب تتألف من عدة دول ، فهناك دولة أيوبية بدمشق وبلادها المنسوبة إليها ،وسلطانها ولده الملك الأفضل نور الدين علي . وثانية في مصر وما ينسب إليها،وسلطانها ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان . وثالثة بحلب وبلادها،وسلطانها ولده الملك الظاهر غياث الدين غازي . ورابعة باليمن وسلطانها الملك العزيز سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب .واستقل بالكركوالشوبك

والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب . هذا فضلا عن دويلات أخرى أصغر واقعة تحت إقطاع الأمراء وكبار رجالات الدولة وهي : حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم وسلطانها الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين .

وحمص والرحبة وتدمر ، وسلطانها الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه . وبعلبك وأعمالها ، وسلطانها الملك الأمجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بن أيوب . وبصرى وسلطانها الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين وهو في خدمة أخيه الملك الأفضل .

وإلى جانب ذلك كان يوجد بيد جماعة من أمراء الدولة بلاد وحصون ، منهم : سابق الدين عثمان بن الداية بيده شيزر وأبوقبيس . وناصر الدين منكورس بن خمارتكين بيده صهيون وحصن برزية . وبدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق بيده تل باشر . وعزالدين أسامة بيده كوكب وعجلون . وعز الدين إبراهيم بن شمس الدين المقدم بيده بعرين وكفر طاب وحصن أفاميا(١).

وقد خلق هذا الوضع مرحلة جديدة يمكننا أن نطلق عليها :

مرحلة الصراع الأيوبي

في هذا الصراع شغل أمراء الدولة ورجال الدين دوراً بارزاً في توسيع شقة الخلاف بين الأخوين الملك الأفضل نور الدين علي والملك العزيز عثمان .

---

(١) انظر الكامل ج ١٢ ص ٩٧ - ٩٨ ، الروضتين ج ٢ ص ٢٢٤-٢٢٦ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٦ ، مفرج الكروب ج ٣ ص ٣ - ٤ ، الأخبار السنية ص ٢٩٩ .

نحن نعلم أن الافضل أكبر أولاد السلطان والمعهود إليه بالسلطنة ، وكان عنده بدمشق جماعة كبيرة من أمراء الدولة من أصحاب والده ، وعند الملك العزيز بمصر جمهور العساكر من الصلاحية والأسدية والأكراد وهو أقوى من الأفضل لعظم الديار المصرية وكثرة مغلاتها .

وأخطأ الأفضل نور الدين علي بتفويضه أمور البلاد إلى وزيره ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير ، كما أخطأ أيضاً بإصغائه إلى وزيره هذا الذي حسن له إبعاد أمراء أبيه وأكابر أصحابه ، وأن يستجد غيرهم . فكان يقول له : (هؤلاء خواص السلطان ، وينظرون إليك بتلك العين ، ويعتقدون أن حقهم واجب وجوب الدين ، وهم - بحكم المعرفة لك من الصغر - يتبسطون ويشتطون ولا يقنعون وأعمال دمشق لاتسعهم وجميعها لاتقنعهم ، والأعمال المصرية لهم أفسح وأوسع . وأما الغرباء فإنهم يقنعون بأي شيء أعطيتهم ، ويعترفون بحقك ، ويعظمونك) .

لهذا أرسل الأفضل القاضي ضياء الدين أبا الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزوري رسولاً إلى ديوان العزيز ، وأرسل القاضي بهاء الدين بن شداد إلى الملك الظاهر - صاحب حلب - فأكرمه وفوض إليه قضاء بلاده ، وصار أقرب الناس إلى الظاهر منزلة (١) .

وأعرض الملك الأفضل عن أصحاب أبيه ، ففارقه أكثرهم ، منهم : الأمير فخر الدين جهاركس بن عبد الله الناصري الصلاحي ،

---

(١) انظر مفرج الكروب ج ٣ ٤ - ١١ .

أبو منصور ، وفارس الدين ميمون القصري ، وشمس الدين سنقر الكبير ، وتوجهوا إلى الملك العزيز بمصر ، فأكرمهم وأحسن وفادتهم .

وولى فخر الدين جهاركس أستاذية داره ، وفوض إلى فارس الدين وشمس الدين سنقر صيدا وأعمالها ، وكان ذلك لهما فأقرهما عليه ، وزادهما أعمال نابلس وبلادها ، ولما رأى القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني من الأفضل ووزيره ضياء الدين بن الأثير ما لايعجبه ، عزم على مفارقته ، فاستأذنه بالرحيل فأذن له ورحل إلى الديار المصرية فخرج إلى استقباله الملك العزيز عماد الدين وأعظمه غاية الإعظام ، وصار لايصدر أمراً إلا عن رأيه ومشورته. واستقطب الملك العزيز أصحاب والده وأمراءه ومماليكه ، وقربهم فعظم شأنه . واجتمعت كلمتهم على نصرته وتقرير قواعد ملكه (١) فحسّن هؤلاء للملك العزيز الاستبداد بالملك والقيام بالسلطنة مقام والده .

وبرز الصراع بين الاخوين الأفضل والعزيز إثر خلاف وقع بينهما على تبعية بيت المقدس ، وذلك سنة (٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م) وكان هذا هو العامل المباشر للصدام بينهما ، وفي الحقيقة كان يكمن خلفه عامل رئيسي خفي لهذا الصراع . والمرجح أنه حب السلطة والتسلط والاستبداد بالملك ، ضاربين بمصالح الأمة عرض الحائط .

إن انقسام الإمبراطورية الأيوبية إلى دويلات ساهم أولاً : في إضعاف قوتها العسكرية ، وثانياً خلق جواً مشحوناً بالتوتر الدائم . فغدا ملوك هذه الدويلات وأمراؤها في عداء دائم فيما بينهم ، الهدف

---

(١) انظر مفرج الكروب ج ٣ ص ١٠ - ١٢ .

الرئيسي لكل منهم الاستبداد بالسلطة ، فاستنزفوا بذلك طاقات الأمة وإمكاناتها المادية والبشرية (١) .

ولقد أسلفنا أن الصراع بدأ بين الأخوين الملك الافضل بدمشق ، والملك العزيز بمصر وذلك سنة (٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م) ، فإننا نجد بعد ذلك انضمام الملك العادل سيف الدين محمد بن أيوب — أخي صلاح الدين — إلى حلبة الصراع على السلطة وتجدد الخلاف بين الأفضل نور الدين وأخيه العزيز عثمان ، وذلك سنة (٥٩١هـ/١١٩٥م) فقدم العزيز عثمان من مصر بالعساكر لاستخلاص دمشق من الأفضل ، واضطر الأفضل إلى الاستنجاد بعمه العادل سيف الدين محمد بن أيوب ، الذي تمكن بدقيق حيله من الإيقاع بين أمراء العزيز الصلاحية — نسبة إلى صلاح الدين يوسف — والأسدية — نسبة إلى أسد الدين شيركوه — وكانت الصلاحية متقدمة عند العزيز ، فحسدتها الأسدية ووقع الاستيحاش بين الأسدية والعزيز عثمان ، وعزموا على مفارقته ، وحسنوا ذلك للأكراد المهرانية ، فوافقوهم عليه ، وكان مقدم الأكراد حسام الدين أبا الهيجاء السمين . فلما كانت عشية اليوم الرابع من شوال سنة (٥٩١ هـ / ١١٩٥ م) رحل الأمراء الأسدية والأكراد جميعهم ، وانضموا إلى الأفضل نور الدين علي وعمه العادل ، ولما رأى العزيز عثمان ماأصاب جيشه من الفرقة ، أسرع في العودة بمن معه إلى مصر ، واتفق الملك الأفضل والملك العادل ومن معهما من الملوك والأمراء على ملاحقة العزيز إلى مصر ومنعه من دخولها (٢) ،

---

(١) الكامل ج ١٢ ص ١٠٩ — ١١٠ و ١١٨ — ١٢٣ ، الذيل على الروضتين ص ٦ ، مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٦ — ٣٠ ، الأخبار السنية ص ٢٩٩ — ٣٠٠.

(٢) الكامل ج ١٢ ص ١١٨ — ١١٩ ، الذيل على الروضتين ص ٥٧ ، مفرج الكروب ج ٣ ص ٤١ — ٥٢ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ١٢٣ — ١٢٨.

ولما وصل الأفضل والعادل بعساكرهما مع من انضم إليهما إلى الديار المصرية ، نازلوا بلبيس وفيها جموع الصلاحية ، وكان نزولهم عليها وزيادة النيل قد بلغت أوجها ، فغمرت مياهه الأراضي ، فحمت بذلك البلاد ، وارتفعت الأسعار ، وقلّت الأقوات على العسكر الشامي ومن معهم ، واستظهر الصلاحية عليهم ، وطلب العادل الاجتماع بالقاضي الفاضل ، وتقرر الصلح بين الأطراف المتنازعة ، وعفا الملك العزيز عن الأسدية والأكراد ، وعادوا إلى خدمته بعد أن منحهم الإقطاعات ، وعاد الأفضل إلى دمشق ، وبقي العادل في مصر عند الملك العزيز عثمان (١) . بصفته المنقذ الأول للملك العزيز .

والواقع أن العادل عندما قدم إلى دمشق لنجدة الأفضل أدرك ضعفه . فداخله الطمع في الاستيلاء على السلطة بدمشق ، لهذا رأيناه يوقع بين الأسدية والصلاحية في جيش العزيز ، ويجعله يعود إلى مصر طالباً النجاة ، وكان هم الأسدية اللحاق به ومنعه من دخول البلاد ، لكن العادل استبطأهم لغاية في نفسه ، وليمكن العزيز من الوصول إلى الديار المصرية ، ويذكر ابن واصل : أنه أرسل إلى العزيز يعلمه بضرورة تقوية بلبيس بالمقاتلة ، وأن العادل منع الأفضل من ترك بلبيس والتوجه إلى مصر واستيلائه عليها عنوة ، ويذكر أيضاً : أن هذا التدبير من العادل إنما قام به ليشعر العزيز بالمنة ، فهو قد أعاده إلى ملكه بعد أن كان زواله محققاً .

ويذكر ابن واصل أيضاً : أن العادل بعد كل ما فعله للعزيز (طلب منه في الباطن أن تكون دمشق له ، ويكون نائباً عنه فيها ، ويعطي

---

(١) الكامل ج ١٢ ص ١١٩ — ١٢٠ ، مفرج الكروب ج ٣ ص ٥٢ — ٥٤ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ١٢٩ .

الملك الأفضل موضعاً صغيراً بعد إخراجه من دمشق ، وتكون الخطبة والسكة للملك العزيز في الممالك الأيوبية كلها ، ويكون هو السلطان الأعظم مكان والده ، فأجابه الملك العزيز إلى ذلك وتحالفا واتفقا عليه لكن كان ذلك بينهما ، ولم يظهر للناس سره إلا بعد وقوع ماوقع ....) (١) .

ويذكر المقريزي رواية عن العماد أن الاتفاق بين العزيز والعادل هو : إن ملك العزيز دمشق ، بقي فيها ، ويعود العادل إلى مصر نائباً عنه . ويعتبر ابن واصل ذلك غير معقول ، ومنطق الأحداث يفرض علينا ترجيح رأي ابن واصل عمّا سواه لأنه أكثر معقولية ، ويتمشى مع منطق الأحداث .

وهذا ماحدث فعلاً ، إذ تمكن العزيز والعادل من الاستيلاء على دمشق في السادس والعشرين من رجب ، ويقال : السابع والعشرين ، سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، وأُخرج الأفضل من دمشق إلى صرخد ، واستقر أمر العادل بدمشق رابع شعبان ، ويذكر المقريزي أن العادل استقر بدمشق ، رابع عشر شعبان ، وهذا تصحيف واضح ربما من الناسخ ، لأنه يذكر أن العزيز رحل عن دمشق في ليلة التاسع من شعبان (٢) .

---

(١) مفرج الكروب ج ٣ ص ٥٦ – ٥٧ و ٦٦ – ٦٧ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ١٣٥ .

(٢) انظر الكامل ج ١٢ ص ١٢١ – ١٢٣ ، مفرج الكروب ج ٣ ص ٦١ – ٦٨ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ١٣٥ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٢ .

وهكذا تمكن العادل من بسط نفوذه على دمشق وأعمالها ؛ وكانت تبعيته للملك العزيز عثمان تبعية اسمية، وعلى مايبدو أنه أعد نفسه ، ورتب أموره للاستيلاء على البلاد كلها ، منتظراً الفرصة المناسبة لذلك ، ولم يطل انتظاره ففي سنة (٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م) توفي الملك العزيز عثمان ، وخلفه ولده الملك المنصور محمد ، وكان عمره يوم توفي والده تسع سنين وشهوراً (١) .

وكانت فرقة المماليك الأسدية والأكراد محبين للملك الأفضل ومؤثرين له ، وفرقة المماليك الصلاحية ضده ، وبالرغم من ذلك فقد تم الاتفاق بين فخر الدين جهاركس مقدم الصلاحية وسيف الدين ياركوج مقدم الأسدية ، على جعل الطفل ولد الملك العزيز ملكاً ، وأن يدبر أمره الملك الأفضل نورالدين علي إلى أن يكبر .

واستدعي الملك الأفضل من صرخد ليتولى تدبير أمر ابن أخيه، ووصل إلى بلبيس خامس ربيع الأول سنة (٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م) ، ثم أخذ الملك الأفضل يعد العدة لاستعادة مايبــد عمه العادل ، فاتفق مع أخيه الظاهر غياث الدين أبي منصور غازي صاحب حلب، وسار الأفضل من مصر بعساكره ، وخرج الملك الظاهر غياث الدين من حلب بعساكره نحو دمشق ، وحاصرا عمهما العادل بدمشق ، بعد أن أحرقا جميع ماهو خارج باب الجابية من الفنادق والحوانيت ، وأحرقا النيرب وأبواب الطواحين وقطعت الأنهار ،

---

(١) الكامل ج ١٢ ص ١٤ ، الذيل على الروضتين ص ١٦ (فهو يذكر وفاة العزيز عثمان سنة ٥٩٦ هـ) ، مفرج الكروب ج ٣ ص ٨٢ — ٨٧ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٨ — ١٩ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٣١٩ .

وحرقت غلة حرستا من الحبوب وهي في بيادرها ، وشدّدا الخناق على المدينةوكادأن ينتهي أمر العادل ، لكنه بدهائه تمكن من استمالة عدد من أمراء الأفضل، كما أوقع أيضاً بين الأخوين — لامجال هنا إلى الدخول في تفاصيل أسباب هذا الخلاف — وعاد الملك الظاهر غياث الدين إلى حلب ، ولما رأى الأفضل ذلك ، اضطر إلى فك الحصار عن دمشق ، والعودة إلى مصر بمن بقي معه من العساكر . وتبعه العادل بعساكره إلى الديار المصرية ، وتمكن من إخراجه منها ، وتنصيب نفسه أتابكاً للملك المنصور محمد بالقاهرة ، ثم بعد ذلك عزله عن الملك ، ونصب نفسه سلطاناً على البلاد وذلك في الحادي والعشرين من شوال سنة (٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م) (١) .

وكان العادل قد استناب بدمشق ولده الملك المعظم شرف الدين عيسى ، وبالبلاد الشرقية ولده الملك الفائز إبراهيم ، وأقر بحلب ابن أخيه الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب ، وبحماةالملك المنصور بن تقي الدين عمر ، واستدعى العادل ولدهالكامل ناصرالدين محمداً ، فحضر إلى القاهرة في يوم الخميس لثمان بقين من رمضان ونصّبه نائباً عنه بديار مصر ، وجعل الأعمال الشرقية إقطاعه ، وجعله ولي عهده وحلف له الأمراء .

وبعد استلام العادل زمام أمور البلاد ، استمر الصراع بين أفراد البيت الأيوبي من أجل السلطة ، لكن هذا الصراع تحول من صراع كان

(١) يذكر ابن الأثير أن العادل استولى على السلطة في شوال ، أما ابن واصل يذكر ذلك أنه كان في أواخر أيام شهر ربيع الآخر . أنظر الكامل ج١٢ص ١٤١– ١٥٦ ، مفرج الكروب ج ٣ ص ٩٥ – ١٠١ و ١٠٦ – ١١٠ ، السلوكج ١ ق ١ ص ١٥١ – ١٥٣ .

في أول الأمر بين الأبناء إلى صراع بين كتلتين تنتميان للبيت الأيوبي ، الأولى : وتتألف من العادل وأبنائه ، والثانية : تضم أبناء صلاح الدين ابن يوسف .

كنا قد أسلفنا أن الأفضل نور الدين علياً خرج من مصر بعد استيلاء العادل عليها وعلى مايبدو أن الأفضل خرج من مصر بعد أن وعده عمه بالتعويض عليه بميّافارقين وحاني وجبل جور وسميساط بالإضافة إلى صرخد ، وأرسل الأفضل نوابه ليتسلموا ما وقع الإتفاق عليه من البلاد ومن جملتها ميافارقين التي كانت بيد الملك الأوحـــد نجم الدين أيوب ابن الملك العـــادل ، فرفض تسليمه إياها ، وتسلم باقي البلاد التي أسلفنا وقيل إنه لم يسلم إليه إلا سميساط (١) .

وشرع الأفضل وهو بصرخد بمكاتبة الصلاحية يغريهم بالعادل لخلعه الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان وكان قد حصل وحشة بين الملك الظاهر وعمه ، وسيّر إليه وزيره علم الدين قيصر ونظام الدين ، فمنعهما العادل أن يعبرا إلى القاهرة ، فعادا مغضبين واجتمعا بميمون القصري في نابلس ، وما زالا به حتى مال إلى الأفضل وأخيه الظاهر ، وانضم الى الأفضل الأمير عز الدين أسامة صاحب عجلون وكوكب ، وحلف له ، واستخلف الأفضل على صرخد أخاه الملك الظافر خضر ، وسار إلى أخيه الظاهر بحلب في عاشر جمادى الأولى . وعلم العادل ، فتيقظ لنفسه ، وأرسل إلى ابنه المعظم بدمشق يأمره بمحاصرة الأفضل بصرخد ،

---

(١) انظر مفرج الكروب ج ٣ ص ١١٢ — ١١٥ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

فجمع وخرج من دمشق ، وأرسل إلى فخر الدين جهاركس وميمون القصري يأمرهما بالمسير إليه لحصار صرخد ، فلم يجيبا ، وجمعا أنصارهما وسارا إلى الظافر بصرخد فأرسلا الكتب إلى الظاهر بحلب يحثانه على الخروج وأخذ دمشق ، فوافته الكتب وعنده الأفضل ، فجمع العساكر وسار الأفضل وأخوه الظاهر ، ونازلا دمشق ، وانضمت الصلاحية إليهما وهما محاصران لدمشق وذلك سنة (٥٩٧ هـ/١٢٠١ م) وضايقا دمشق ، في رابع عشر ذي القعدة ، واشتد القتال حتى كادا أن يأخذا البلد، وكان العادل قد خرج من القاهرة بعساكره ، واستولوا على دمشق قبل حصارها ، فدبر العادل مكيدة ،أوقع بها بين الأخوين ، ففترت الهمة عن القتال ، وفي أول المحرم سنة (٥٩٨ هـ/ ١٢٠٢م) رحل الأفضل والظاهر عن دمشق ، فسار الظاهر الى حلب ، وخطب للعادل بها في يوم الجمعة حادي عشر جمادى الآخرة سنة (٥٩٨ هـ/١٢٠٢م)،وأقطع الأفضل قلعة نجم مع سروج وسميساط (١).

بعد أن استعرضنا أهم أحداث الصراع على السلطة منذ وفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة (٥٨٩ هـ/١١٩٣ م) ، وحتى عام (٥٩٨ م / ١٢٠٢ م) لابد لنا من أن ننوه ، ومن خلال ماأسلفنا من أحداث هذا الصراع ، بأن هؤلاء الحكام ليس لهم هدف غير الوصول إلى السلطة وحياة الترف والبذخ بأموال الشعب دون حدود ، منهكين كاهل الشعب بمتطلباتهم ، مستنزفين كل طاقاته وإمكاناته ، مسببين له الويلات والدمار ، تاركين مصيره إلى الأقدار ، فلو تتبعنا الأحداث ، أمكننا التعرف إلى مآل إليه مصير الشعب ، فالمقريزي

(١) الكامل ج ١٢ ص ١٦٠ - ١٦٣ ، السلوك ج ١ ق ١ ص١٥٥- ١٥٩ ، مفرج الكروب ج ٣ ص ١١٧ - ١٣٣.

يذكر لنا خلال أحداث سنة (٥٩٢ هـ / ١١٩١ م) فيقول : (وفي صفر وشهر ربيع الاول، كثرت الطرحى من الأموات على الطرقات، وزادت عدتهم بمصر والقاهرة في كل يوم عن مائتي نفس ، وبقي بمصر من لم يوجد من يكفنه وأكثرهم يموت جوعاً، وانتهى القمح إلى مائة وثمانين ديناراً المائة إردب ، والخبز إلى ثلاثة أرطال بدرهم ، وعمد الضعفاء إلى شراء الجرار ، وغدوا إلى البحر وترددوا إليه ، ليستقوا منه في الجرار ويبيعونها بثمن درهم الجرة ، وقد لايجدون من يشتريها منهم ، فيصيحون : من يتصدق علينا بثمن هذه الجرة ؟ ومن يشتريها منا بكسرة ؟ وزاد السعر ، رضاق الخناق ، وهلك الضعفاء ، وفشا الموت وأكثره في الجياع ، ودارت الأقفاص التي يحمل فيها الطعام يحمل فيها الأموات ، ولايقدر على النعوش إلاّ بالنوبة ، وامتدت الأيدي إلى خطف ألواح الخبز ، ويضرب من ينهب ، ويشج رأسه ، ويسال دمه ولا ينتهي ولا يرمي مافي يده مما خطفه ، وعدم القمح إلاّ من جهة الشريف ابن ثعلب ، فإن مراكبه تتواصل ، وتبيع بشونة . وورد الخبر بأن عربان الغرب هبطوا إلى البحيرة واشتروا القمح كل وَيْبَة بدينار ،وأن بلاد الغرب قد عدمت فيها الأقوات في السنة الخالية ، وانقطعت عنها الأمطار السنة الحاضرة ، وزاد الجراد بالشام وعظم خطبه وكثرت بمصر والقاهرة الأمراض الحادة والحميات المحرقة ، وزادت وأفرطت وغلت الأشربة والسكّر وعقاقير العطّار ، وبيعت بطيخة بأربعة وعشرين درهماً ، وصار الفروج لايقدر عليه ، وانتهى سعر القمح إلى مائتي دينار كل مائة أردب ، وغلظ الأمر في الغلاء ، وعدم القوت ، وكثرت

السؤّال ، وكثرت الموتى بالجوع ، وخطف الخبز متى ظهر ، وشوهد من يستف التراب ومن يأكل الزبل، وازدحم الناس على الطير الذي يرمى من مطابخ السكر ، وكثرت الأموات أيضاً بالإسكندرية ، وتزايد وجود الطرحى بها على الطرقات ، وعدمت المواساة ، وعظم هلاك الأغنياء والفقراء وانكشاف الأحوال ، وشوهد من يبحث المزابل القديمة على قشور الترمس وعلى نقاضات الموائد وكناسات الآدر (١) ، ومن يقفل بابه يموت ومن عمي من الجوع يقف على الحوانيت ويقول : أشموني رائحة الخبز). ويقول أيضاً : (واستخدم رجل في ديوان الزكاة ، وكتب خطة بمبلغ اثنين وخمسين ألف دينار لسنة واحدة من مال الزكاة ، وجعل الطواشي بهاء الدين قراقوش الشاد في هذا المال وألا يتصرف منه ، وأن يكون في صندوق مودعاً للمهمات التي يؤمر بها ، ووقع لابن ثعلب الشريف الجعفري بخبز مبلغه في السنة ستون ألف دينار ، ودفع له كوس (٢) ، وآل الأمر إلى وقوف وظيفة الدار العزيزية عليه من لحم وخبز وإلى أن يتمحل في بعض الأوقات لاكلها ، لبعض مايتبلغ به أهلها من خبز ، وكثر ضجيجهم وشكواهم فلم يسمع)(٣) .

---

(١) وهو بالمد جمع دار.

(٢) الكوسات من رسوم السلطات وآلاته ، وهي (صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بايقاع مخصوص) ويتولى ذلك الكوسي (القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٩ — ١٣) أما إعطاء الكوسات لهؤلاء الأمراء ، بعد خلع الأفضل عليهم فالراجح أن معناه أنه منح كلاً منهم رتبة أمير طبلخاناه ، فيصبح من حق الواحد منهم أن يكون له طبلخاناه خاصة به تدق كوساتها على بابه . (انظر زبدة كشف الممالك ص ١١٣ ، والحاشية رقم ٣ في السلوك ج ١ ق ١ ص ١٢٦) .

(٣) انظر السلوك ج ١ ق ١ ص ١٣٠ — ١٣٢ .

ويقول المقريزي أيضاً : (وفي شهر ربيع الآخر صرف صارم الدين خطلج الغزي عن شدّ الأمـــوال بالدواوين ، وسلّم الشدّ إلى بهاء الدين قراقوش مضافاً إلى شد الزكوات ، فكمل شدّ المال له وفيه كثر الموت بحيث لم تبق دار إلا وفيها جنازة أو مناحة أو مريض ، واشتد الأمر ، وغلت العقاقير ، وعدم الطبيب ، وصار من يوجد من الأطباء لايخلص إليه من شدة الزحام...) (١) .

جميع هذه الويلات حلت بهذا الشعب المسكين والملك العزيز عثمان سلطان مصر والملك الافضل نور الدين علي سلطان دمشق يتقاتلان من أجل السلطة ، ولا همّ لهما غيرها ، أما أمراء البلاد وكبار رجالاتها ورجال الدين ، فكان موقفهم لايقل سوءاً عن موقف ملوكهم ، فكان همهم أيضاً الحصول على الإقطاعات الكبيرة والوظائف الهامة والتقرب والتزلف لصاحب الشأن . ويذكر لنا المقريزي في سنة (٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) فيقول : (وانقضت هذه السنة والأفضل والظاهر على منازلة دمشق ، وفيها : تعذرت الأقوات بديار مصر ، وتزايدت الأسعار وعظم الغلاء حتى أكل الناس الميتات ، وأكل بعضهم بعضاً وتبع ذلك فناء عظيم ، وابتدأ الغلاء من أول العام ، فبلغ كل إردب قمح خمسة دنانير — أي مايعادل أكثر من ضعفي غلاء عام /٥٩٢هـ/ — وتمادى الحال ثلاث سنين متوالية ، لايمد النيل فيها إلاّ مداً يسيراً حتى عدمت الأقوات . وخرج من مصر عالم كثير بأهاليهم وأولادهم إلى الشام ، فماتوا في الطرقات جوعاً ، وشنع الموت في الأغنياء والفقراء . فبلغ من كفنه العادل من الأموات — في مدة يسيرة — نحواً من مائتي

---

(١) انظر : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٣٢.

ألف إنسان وعشرين ألف إنسان . وأُكلت الكلاب بأسرها ، وأكل من الأطفال خلق كثير ، فكان الصغير يشويه أبواه ويأكلانه بعد موته ، وصار هذا الفعل لكثرته بحيث لايُنكر . ثم صار الناس يحتال بعضهم على بعض ، ويؤخذ من قدر عليهفيؤكل ، وإذا غلبالقوي ضعيفاً ذبحه وأكله . واتفق أن شخصاً استدعى طبيباً ، فخافه الطبيب وسار معه على تخوف ، فصار ر ذلك الشخص يكثر في طريقه من ذكر الله تعالى ، ولا يكاد يمر بفقير إلا ويتصدق عليه ،حتى وصلا إلى الدار ، فإذا هي خربة ، فارتاب الطبيب مما رأى،وبينا هو يريد الدخول إليها ، إذ خرج رجل من الخربة ، وقال للشخص الذي قد أحضر الطبيب : مع هذا البطء جئت إلينا بصيد واحد ؟ . فارتاع الطبيب ، وفرّ على وجهه هارباً فلولا عناية الله به وسرعة عدوه لقبض عليه) . ويقول أيضاً :

(وخلت مدينة القاهرة ومصر من أكثر أهلها ، وصار من يموت لايجد من يواريه ، فيصير عدة أشهر حتىيؤكل أو يبلى ، واتفق أن النيل توقف عنالزيادة فيسنة ست وتسعين ، فخاف الناس،وقدم الى القاهرة ومصر من أهل القرى خلق كثير ، فلما حلت الشمس برج الحمل تحرك هواء أعقبه وباء وكثر الجوع ، وعدم القوت حتى أكلت صغار بني آدم : فكان الأب يأكل ابنه مشوياً ومطبوخاً وكذلك الأم . وظفر الحكام منهم بجماعة ، فعاقبوهم حتى أعياهم ذلك ، وفشا الأمر : فكانت المرأة توجد وقد خبأت في عبها كتف الصغير أو فخذه ، وكذلك الرجل . وكان بعضهم يدخل بيت جاره فيجد القدر على النار ، فينتظرهاحتى تنزل ليأكل منها ، فإذا فيها لحم الأطفال ، وأكثر ما كان يوجد ذلك في أكابر البيوت ،

ويوجد النساء والرجال في الأسواق والطرقات ومعهم لحوم الأطفال .... ثم فشا ذلك حتى اتخذه الناس غداء وعشاء وألفوه، وقل منعهم منه، فإنهم لم يجدوا شيئاً من القوت لا الحبوب ولا الخضراوات... وكان الناس قد فنوا ، بحيث بقي من أهل القرية الذين كانوا خمسمائة نفر إمّا نفران أو ثلاثة. فلم تجد الجسور من يقوم بها، ولا القرى من يعمل مصالحها، وعدمت الأبقار ، بحيث بيع الرأس بسبعين ديناراً والهزيل بستين ديناراً ، وجافت الطرقات بمصر والقاهرة وقراهما. ثم أكلت الدودة مازرع ، فلم يوجد من التقاوى ولا من العقر مايمكن به رده . ودخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة والناس تأكل الأطفال، وقد صار أكلهم طبعاً وعادة .... وبيع القمح – إن وجد – بثمانية دنانير الأردب، والشعير والفول بستة دنانير . وعدم الدجاج من أرض مصر ، فجلبه رجل من الشام ، وباع كل فروج بمائة درهم، وكل بيضتين بدرهم. هذا وجميع الأفران إنما توقد بأخشاب المساكن، حتى دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة .– ... ولم يبق بمصر عامر إلا شط النيل) (١) :

من هذا كله يتضح لنا بجلاء ، ماوصل إليه الحكام من البيت الأيوبي من تسيب للعباد ولأمور البلاد ، ضاربين بمصلحة الشعب عرض الحائط همهم السلطة وجمع المال والعيش الرغيد ، ولو كان ذلك على حساب فناء الشعب الذي أصبح لاحول له ولا قوة، والذي بلغ به الأمر من جوع وفوضى وتسيب وتشتيت. وما كان يحدث ذلك لو أن هؤلاء الحكام من أبناء البلاد ، لكنهم غرباء عن البلاد ،

(١) انظر السلوك ج ١ ق ١ ص ١٥٦ – ١٥٨ .

فأصل البيت الأيوبي من الأكراد الرواذية من بلد (دوين) وهي بلدة أخر بلاد أذربيجان مما يلي الروم ، وقد قدم أسد الدين وأخوه نجم الدين (١) أيوب وهو أكبر أبناء شاذي — العراق ، وعملا في خدمة مجاهد الدين بهروز الخادم وهو شحنة بغداد ومتولي العراق ، فرأى في نجم الدين أيوب عقلا ورأياً وحسن سيرة ، فعينه دزدارا بتكريت ، وسار إليها ومعه أخوه أسد الدين ، فلما انهزم أتابك زنكي الشهيد والد نور الدين الزنكي بالعراق ومعه الخواجة الساقي وهو أتابك داود بن السلطان محمود وذلك في زمن المسترشد بالله سنة (٥٢٦ هـ) ، وصل إلى تكريت ، فخدمه نجم الدين أيوب ، وجهز له السفن فعبر دجلة ، ولحقه أصحابه ، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيرهم ، ثم إن أسد الدين قتل إنساناً نصرانياً بتكريت لملاحاة جرت بينهما ، فطردهما مجاهد الدين من تكريت ، وقيل إن أيوب كان يحسن الرماية، فرمى شخصاً من مماليك بهروز بسهم فقتله ، فخشي على نفسه ، فتوجه نحو الشام وخدم مع زنكي ، وقيل: لما قتل أسد الدين شيركوه النصراني وكان عزيزاً عند بهروز هرب إلى الموصل والتحق أيوب به (٢) فتلقاه زنكي بالرحب والسعة عرفاناً منه بحسن صنيعه معه وأقطعه عدة قطائع في بلد شهرزور ،وقيل : إنه أقطع أسد الدين بالموزر ، وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودة عظيمة ، حتى حلف كل واحد منهما للآخر أنه يقوم بأمره في حياته

---

(١) في الروضتين ج ١ ص ٢١٠ أن مولد نجم الدين كان ببلد شبختان (كذا حكى مؤيد الدين بن منقذ ، وحدثني جماعة أن مولد نجم الدين كان بجبل جور ، وربي في بلد الموصل . . .) .

(٢) الروضتين ج ١ ص ٢١٠ — ٢١١.

وبعد وفاته ، وتجرد جمال الدين في أمر أسد الدين وأمر أخيه نجم الدين حتى قربهما من قلب أتابك ، فجعلهما عنده بالمنزلة العظيمة ، وشهدا معه حروب الفرنج ، وقد رزق نجم الدين أيوب بالسلطان صلاح الدين يوسف يوم أمره صاحب قلعة تكريت بمغادرتها(١) واستمرت هذه الأسرة في خدمة نور الدين الزنكي إلى أن توفاه الله سنة (٥٦٩ هـ / ١١٧٣م)(٢).

وكان صلاح الدين نائباً عنه بالديار المصرية ، فاستقل بها ثم توجه إلى دمشق ودخلها يوم الإثنين آخر شهر ربيع الأول سنة (٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م) ، وبه بدأ حكم هذه الأسرة الدخيلة للبلاد ،وإن أحسن صلاح الدين يوسف بن أيوب السيرة ، وجاهد ضد الفرنج ، واستعاد بيت المقدس وكثيراً من البلاد والحصون والقلاع من أيدي الصليبيين ، نرى أن أبناءه وأفراد أسرته الذين حكموا البلاد بعد وفاته سنة (٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) إلى سنة (٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م) قد أساؤوا السيرة والتصرف ، وهدموا كل مابناه صلاح الدين ، وأهملوا شؤون البلاد والرعية ، يتقاتلون فيما بينهم ، وغارات الفرنج مستمرة على المدن والقرى بين الفترة والأخرى إلى أن استفحل أمرهم ، ففي سنة (٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) خرجوا من عكا إلى المرج ، وهددوا البلاد ، وعاثوا فساداً في بيسان ، والمناطق التي مروا بها ، وكان قصدهم استعادة بيت المقدس ،ووصلت سراياهم إلى بلدة نوى جنوبي دمشق — من أعمال حوران — ونازلوا بانياس ، وأغاروا ثانية على صيدا والشقيف ، ثم عادوا إلى عكا ، بعد أن نهبوا وقتلوا وأسروا الكثير .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢٣ — ٢٢٨.

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٥.

وكان العادل قد خرج من مصر إلى لُدّ ، لكن خروجه لم يشمر لقلة عسكره ، وعدم استعداده لمثل هذا الموقف ، فانسحب من أمامهم ، وسار إلى مرج الصفر بحجة النظر في أمر الأسطول الفرنجي (١) الذي حاصر دمياط ، والذي تمكن من احتلالها سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م) ، وكانت دمياط تعتبر مفتاح مصر كلها ، فأصبح خطر الفرنج عظيماً على مصر ، وتوفي الملك العادل سنة (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) وخلفه ولده الملك الكامل الذي طلب الصلح من الفرنج أكثر من مرة ، فكانوا يشترطون في كل مرة إعادة كل ما أخذه صلاح الدين يوسف من أيديهم منها : القدس ، وعسقلان ، وطبرية ، وجبلة ، واللاذقية ، خلا الكرك والشوبك ، وقبل الملك الكامل شروطهم لعجزه عن التصدي لهم ، وذلك مقابل تسليمهم دمياط له ، وأبى الفرنج طلبه ، وزادوا على شرطهم الأول : أن يدفع لهم خمسمائة ألف دينار ، بحجة تعمير ما خربه المسلمون ، لكن عناية الله كانت بجانب جيش الكامل ، فقد كان الوقت وقت زيادة النيل ، والفرنج يجهلون ذلك ، كما يجهلون طبيعة أرض مصر ، وقد أفلح جيش الكامل والميليشيات من أبناء الشعب في الاستفادة من هذه الميزة ، وقاموا بفتح ثغرة في النيل إلى أرض معسكر الفرنج ، ففاضت مياه النيل واندفعت من الثغرة ، وغمرت أرض معسكرهم ، وحالت بينهم وبين الوصول إلى دمياط إلا من

---

(١) هي الحملة التي تعرف بالحملة الصليبية الخامسة بقيادة حنا بريانا إمبراطور بيزنطة ، والذي اعتبر نفسه إمبراطوراً على الممتلكات الصليبية في بلاد الشام ، وليوبولدوس دي أوطربيش . انظر مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٥٤ - ٢٥٨ ، الأخبار السنية ص ٣٢٠ - ٣٢٢ ، المماليك البحرية ص ١١.

ثغرة واحدة كان يمكنهم الوصول منها إلى دمياط ، واندفع جيش الكامل وأغلق هذه الثغرة ، وضرب حصاراً شديداً على دمياط. ورأى الفرنج أنهم منتهون لا محـالة، طلبوا الصلح دون شروط، بعد أن دام قتالهم في مصر ثلاث سنين ، وتم عقد الصلح بين الكامل والفرنج لمدة ثمان سنين ، وتسلم الكامل دمياط يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رجب سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م بعد أن دام استيلاء الفرنج لدمياط سنة واحدة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً (١) .

من كل هذا نرى أن الكامل كغيره من ملوك آل أيوب همه العيش بصفاء دون أن يعكره شيء ولكي لانكون متجنين عليه في حكمنا هذا ، فلنناقش على أساس مجريات الأحداث بطرح عدد من الأسئلة سنقوم بالإجابة عليها .

عندما كان الفرنج أقوياء يهددون مصير البلاد بأكملها ، وطلب الكامل منهم الصلح ، وشرطوا شروطهم التي أسلفنا على الرغم من أنها مجحفة غير عادلة ، وعلى الرغم من قبول الكامل بها لماذا رفض الفرنج هذا الصلح ؟ ولماذا تذرعوا بطلب خمسمائة ألف دينار ؟ ثم لماذا قبلوا الصلح بعد ذلك دون شروط ؟ هذه الأسئلة تحتاج جميعها إلى الإجابة عليها : فالفرنج — أو الصليبيون — يحتلون دمياط مفتاح مصر كلها وهم قوة عظيمة ، بدأت تتحرك وتهدد باحتلال

---

(١) الكامل ج١٢ ص٣٢٠-٤٠٤ ، الذيل على الروضتين ص ١٠٢- ١٣٠ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ١٩٤ - ٢٠٨ ، مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٥٩-٢٧٦ و ج ٤ ص ١٥-١٠٠ ، الأخبار السنية ص ٣٢٩ -٣٣١ ، المماليك في مصر ص٣٣-٣٤ .

البلاد بأسرها لتنطلق منها لاستعادة كل ما أخذه صلاح الدين بن يوسف بن أيوب ، وكل مايمكن أن تطاله أيديهم ، وما يدعم صحة رأينا : أن الكامل تنازل لهم عن بيت المقدس وعسقلان ، وطبرية ، وجبلة ، واللاذقية مقابل تسليمهم دمياط له ، لكنهم أبوا ذلك وأضافوا على شرطهم أن يدفع لهم خمسمائة ألف دينار ، وهم يعلمون علم اليقين أن خزانة الكامل لا يوجد فيها عشر هذا المبلغ ، إذن فهم في الحقيقة لايبغون الصلح ، إنما يفعلون ذلك مماطلة وتسويفاً منهم ، حتى يتمكنوا من امتلاك البلاد ، وهذا هدفهم . وعندما أغرقت مياه النيل أرض معسكرهم ، وحوصروا بمياه النيل وكذلك حوصرت دمياط ، وأصبحوا لاحول لهم ولا قوة ، وافقوا على الصلح بدون شروط ، وتنازلوا عن كل ما كان الكامل قد وافق عليه قبلاً ، أليسوا هم المتغطرسون والمعتدون بقدرتهم بالأمس؟ إذن جاء عرضهم هذا بعد إدراكهم لمصيرهم المحتوم ، فميزان القوى قد انقلب رأساً على عقب ، فأصبح جيش الكامل والمتطوعة من ميليشيات الشعب هي سيدة الموقف وبيدها تقرير مصير هؤلاء الغزاة ، فما هو موقف الكامل من هذا كله ؟ فالأمر طبيعي أن يلقن هؤلاء درساً ، تتناقله الأجيال اللاحقة وأن يجتثهم ويقضي عليهم — كما أشير عليه — لكنه لم يشأ أن يخوض غمار حرب هو في غنى عنها ، والتفت إلى أهوائه وملذاته وصفاء عيشه ، وقبل الصلح ، بل والأغرب من هذا : أنه أثناء احتلال الفرنج لدمياط وتهديدهم للبلاد بأكملها ، لم تخل تلك الفترة من الصراع بين أفراد البيت الأيوبي على السلطة ففي سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م) وأثناء مواجهة العادل للزحف الصليبي نحو القدس وعجزه عن وقف زحفهم ،

نرى الأفضل نور الدين علي بن يوسف وغيره من ملوك الشام قد تحالف مع الملك الصالح الغالب عزالدين كيكاوس السلجوقي سلطان الروم ـ صاحب آمد ـ على أخذ مابيد العادل، شرط أن يسلم كيكاوس الأفضل كل ما يأخذه، ووصل كيكاوس إلى منبج، وأخذ تل باشر، لكنه لم يف بوعده للأفضل، فتقاعد عنه الناس ونهب العرب معسكره، واضطر للعودة إلى بلاده بدون طائل (١).

إن ماجرى ذكره حتى الآن، يظهر بشكل جلي الصراع القائم بين أفراد البيت الأيوبي من أجل السلطة، واستغلالهم الظروف المناسبة لتحقيق مآربهم وإبقاء البلاد ممزقة إلى دويلات كما أسلفنا، وبعد وفاة الملك العادل بمصر سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م) خلفه فيها ولده الكامل ناصر الدين محمد، وبدمشق ولده المعظم شرف الدين أبو العزائم عيسى، وفي البلاد الشرقية وخلاط ولده الاشرف مظفر الدين موسى، وولده الملك العزيز عماد عثمان ببانياس وكل ماكان بيد فخر الدين جهاركس، وولده المظفر شهاب الدين غازي بميافارقين، وببصرى ولده الملك الصالح عماد الدين إسماعيل (٢).

ويذكر لنا المقريزي في أحداث سنة (٦٢٠ هـ /١٢٢٣ م) : (أن المعظم عيسى أخذ المعرة وسلمية من أخيه الأشرف مظفر الدين موسى، ونازل حماة، فشق ذلك على الأشرف وتحدث مع الكامل في إنكار ذلك. فأرسل الكامل إلى المعظم يسأله في الرحيل عن حماة، فتركها وهو حنق).

---

(١) الكامل ج ١٢ ص ٣٤٧ – ٣٤٩، الذيل ص ١٠٩، السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٠٠، مفرج الكروب ج ٣ ص ٦٣ – ٢٦٨.

(٢) مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٧٣ – ٢٧٥.

ويذكر المقريزي لنا في أحداث سنة (٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) أيضاً : فيقـــول : (فيها فر الملك الجـــواد مظفرالدين يونس بن مودودبن العادل بن أيوب من مصر في البحر خوفاً من عمه الكامل ، ولحق بعمه المعظم ، وفيها : تخوف الكامل من أمرائه لميلهم إلى أخيه الملك المعظم ، فقبض على جماعة ، وبعث إلى الطرقات من يحفظها ، وبعث عدة رسل إلى الملوك الذين في خدمة أخيه الأشرف يأمرهم بالاتفاق وألايخالفوه)(١) . وتأكدت الوحشة بين المعظم عيسى وبين أخويه الملك الكامل والأشرف سنة (٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م) وكاد أن يقع صدام فيما بينهم ، لولا تدخل عناية الخالق ووفاة المعظم عيسى وذلك سنة (٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م) ، فأراح الله الشعب مما سيصيبه من ويلات حروبهم ، وقد سر الملك الكامل بوفاة أخيه المعظم لتخلصه من أكثر الطامعين بالسلطة ، وخلف المعظم بدمشق ولده الملك الناصر داود ، وسار على نهج والده في عدائه لعمه الكامل (٢) .

وهكذا نرى أن الصراع استمر في البيت الأيوبي بتدبير المكائد والدسائس لبعضهم بعضاً بل وبالتحالف مع الأعداء إن اقتضى الأمر للحفاظ على سلطتهم ، فلقد بلغ الأمر أن الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل ، وقع اتفاقاً مع الإمبراطور فردريك ملك الفرنج سنة (٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) ، تنازل فيه للملك فردريك

---

(١) الذيل على الروضتين ص ١٣٣-١٣٤ ، المختصر لأبي الفداء ١٣٢ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٢١٤-٢١٥ ، مفرج الكروب ج ٤ ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) الكامل ج ١٢ ص ٤٦٣ - ٤٧٢ ، الذيل على الروضتين ص ١٤٨-١٥٤ ، المختصر ص ١٣٤ - ١٣٨ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٢٤ .

عن بيت المقدس على أن يبقيها ملك الفرنج على ماهي عليه من الخراب ، وأن لايجدد سورها ، وأن يبقي الحرم بيد المسلمين ، وأن تكون القرى التي فيما بين عكا ويافا وبين لُدّ والقدس بأيدي الفرنج ماسواها من قرى القدس (١) .

ويتحدث المقريزي : أن الكامل فعل ما فعل خوفاً منه على المسلمين في القدس ولعجزه عن الوقوف في وجه فردريك الثاني الذي يصوره لنا المقريزي بصورة الملاك الطاهر الرحيم المهتم بأمر الإسلام والمسلمين . فيقول : (...وبعث الإمبراطور بعد ذلك يطلب تبنين وأعمالها فسلمها الكامل له . فبعث يستأذن في دخول القدس ، فأجابه الكامل إلى ماطلبه وسير القاضي شمس الدين قاضي نابلس في خدمته ، فسار معه إلى المسجد المقدس وطاف معه ما فيه من المزارات . دون وأعجب الإمبراطور بالمسجد الأقصى وبقبة الصخرة وصعد درج المنبر ، فرأى قسيساً بيده الإنجيل ،وقد قصد دخول المسجد الأقصى فزجره ، وأنكر مجيئه وأقسم : لئن عاد أحد من الفرنج يدخل هنا بغير إذن ليأخذن مافيه عيناه ، فإنما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده ، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه ، فلا يتعدى أحد منكم طوره ... وأمر شمس الدين قاضي نابلس المؤذنين ألا يؤذنوا تلك الليلة فلم يؤذنوا البتة فلما أصبح ، قال الملك – أي ملك الفرنج – للقاضي : لِمَ لَمْ يؤذّن

---

(١) الكامل ج ١٢ ص ٤٧٧ – ٤٨٣ ، الذيل ١٥٤ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٣٠ ، وفي الأخبار السنية يذكر أنه : الملك فريدريكوس الثاني واستيلائه على القدس صلحاً أنظر ص ٣٣١ – ٣٣٣ .

المؤذنون على المنائر ؟ فقال له القاضي : منعهم المملوك إعظاماً للملك واحتراماً له ، فقال له الإمبراطور : أخطأت فيما فعلت والله إنه كان غرضي في البيت المقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم في الليل ، ثم رحل الإمبراطور إلى عكا ..) .

ونحن هنا لسنا بصدد تفنيد أو تأييد ماذكره المقريزي وابن واصل عن رواية شمس الدين قاضي نابلس ، إنما أردنا أن ننوه بأن الملوك الأيوبيين بهذا الاتفاق أضاعوا كل مااستعاده صلاح الدين يوسف بن أيوب . يروي لنا ابن واصل عن والده قال : (لما نودي بالقدس بخروج المسلمين ، وتسليم القدس إلى الفرنج ، وقع في أهل القدس الضجيج والبكاء ، وعظم ذلك على المسلمين ، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم ، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه ، إذ كان فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من الكفار من أعظم مآثر عمه الملك الناصر صلاح الدين . . .) . ويتحدث المقريزي عن ذلك فيقول : (وبعث السلطان فنودي بالقدس بخروج المسلمين منه ، وتسليمه إلى الفرنج ، فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل ، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل ، وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان ، فعز عليه ذلك ، وأمر بأخذ ما كان معهم من الستور والقناديل الفضة والآلات وزجرهم ، وقيل لهم : امضوا إلى حيث شئتم ، فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء ، واشتد الإنكار على الملك الكامل ، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار) (١) .

وسبب عجز الملك الكامل عن الوقوف في وجه الإمبراطور فردريك

---

(١) السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٢٨ — ٢٣٢ ، مفرج الكروب ٢٣٣—٢٤٥ .

الثاني يعود إلى أن الكامل والملك النــاصر داود ابن المعظم عيسى كانا في صراع ، ففي سنة (٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م) يذكر المقريزي : أن الملك الكامل استوحش من ابن أخيه الناصر داود ، وعزم على قصده وأخذدمشق منه ، وعهد إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بالسلطنة من بعده بديار مصر ، وأركبه بشعار السلطنة .....

وفيها :ـأي سنة٦٢٥هـ ـ ظلم الناصر داود أهل دمشق ، وأخذ أموالهم ، واشتغل باللهو وأعرض عن مصالح الدولة فشق ذلك على الكامل ، وجعله سبباً يؤاخذه به ، وتجهز في شهر رجب للمسير لمحاربته ، واستناب على مصر ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب وأقام معه الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، ليحصل الأموال ويدبر أمور المملكة ، وخرج الكامل من القاهرة يوم الأحد تاسع عشر شعبان .... فاستولى أصحاب الملك الكامل على نابلس والقدس .

وبلغ ذلك الناصر فحلّف عسكره واستعد للحرب ، وقدم إليه عمه الصالح صاحب بصرى والأمير عزالدين أيبك من صرخد . وأصله مملوك أبيه المعظم فقويت بهما نفسه ، وسير الناصر يستدعي عمه الأشرف من البلاد الشرقية مع الأمير عماد الدين بن موسك وفخر القضاة نصر الله بن بصاقة وأردفهما بالأشرف ابن القاضي الفاضل فأجاب الأشرف إلى معاونته ، ... وسار إلى دمشق ، فتلقاه قلج أرسلان صاحب حماة من سلمية بأموال وخيول ، وتلقاه أسد الدين شيركوه صاحب حمص وأولاده ، وقدم الأشرف إلى دمشقفتلقاه الناصر في أخريات شهر رمضان ... وقد سر الناصر به سروراً

كبيراً ، وحكمه في بلاده وأمواله ، فأعجب الأشرف بدمشق ، وعمل في الباطن على انتزاعها لنفسه من الناصر ، ثم قدم إلى خدمة الأشرف بدمشق المجاهد وأسد الدين شيركوه بن محمد صاحب حمص. وسيّر الأشرف إلى الكامل الأمير سيف الدين علي بن قلج يشفع في الناصر ، ويطلب منه إبقاء دمشق عليه ، ويقول : إنا كلنا في طاعتك ، ولم نخرج عن موافقتك . . . ثم سار الأشرف ومعه الناصر من دمشق ، يريدان ملاقاة الملك الكامل والترامي عليه ليصلح الأشرف الأمر بينهما ... فبلغه قدوم الأشرف وهو بتل العجول ، فقام إلى لقائه ، وقدم به إلى معسكره ونزلا ، وتم الاتفاق بينهما على انتزاع دمشق من ابن أخيهما الناصر داود ، وأن تكون للملك الأشرف وما معها إلى عقبة فيق ، ويكون للكامل مابين عقبة فيق وغزة من البلاد والحصون ، وهو الفتح الصلاحي بأسره ، ويكون للناصر — عوضاً عن دمشق — حران والرقة وسروج ورأس عين وهي ما كان مع الأشرف ، وأن تنزع حماة من الملك الناصر قلج أرسلان بن المنصور ، تعطى للمظفر تقي الدين محمود بن المنصور ، وأن تؤخذ من المظفر سلمية وتضاف إلى المجاهد صاحب حمص....وفيها — أي ٦٢٥ هـ قدم الامبراطور — فريدريك الثاني — ملك الفرنج إلى عكا ، باستدعاء الملك الكامل له . كما تقدم ، ليشغل سر أخيه المعظم ، فاتفق موت المعظم..) (١)وأعلم الملك الأشرف ابن أخيه الناصر ماتم الاتفاق عليه ، فلما فرغ الأشرف من كلامه ، (قام الأمير عز الدين أيبك —

---

(١) الكامل ج ١٢ ص ٤٧٩ — ٤٨٠ ، المختصر ص ١٣٧ — ١٤١ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٢٥ — ٢٢٨ ، مفرج الكروب ج ٤ ص ٢٣٦ — ٢٤٥ .

وهو أكبر أمير مع الناصر داود ــ وقال : لا كيد ولا كرامة ، ولا نسلم من البلاد حجراً واحداً ونحن قادرون على دفع الجميع ومقاومتهم . . .) ثم ركب مع الملك الناصر ، وسار إلى دمشق وتخلف عن الناصر وعمه الصالح وابن عمه المغيث ، ولما دخل الناصر إلى دمشق استعد للحصار ، وقام معه أهل البلد لمحبتهم لأبيه ، وسار الأشرف وحاصر دمشق وقطع عنها أنهارها: بانياس والقنوات ويزيد وتورا، فخرج إليه العسكر وأهل البلد وحاربوه، وانضم الكامل إلى الأشرف في حصاره لدمشق وذلك في جمادى الأولى سنة (٥٢٦ هـ/ ١١٢٨م) وجدّا في حصارها ، حتى اشتد عطش الناس في دمشق ، وظلت الحرب بينهما قائمة إلى آخر رجب ، فغلت الأسعار، ونفدت أموال الناصر ، وفارقه جماعة من أصحابه،وساروا إلى الكامل والأشرف، فأخذ الناصر في ضرب أوانيه من الذهب والفضة دنانير ودراهم وفرقها حتى نفد أكثر ماكان عنده من الذخائر، وناصحته العامة مناصحة كبيرة وأبلوا في عسكر الكامل والأشرف بلاءً عظيماً ، ثم وقع الصلح بين الكامل والملك الناصر داود بحضور الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ ، وعوضه الكامل عن دمشق الكرك والشوبك وأعمالهما مع الصلت والبلقاء والأغوار جميعها ونابلس وأعمالها القدس وبيت جبريل (١). كل هذه الأحداث جارية والفرنج يهددون

---

(١) الكامل ج ١٢ ص ٤٨٣ – ٤٨٦ ، الذيل ص ١٥٤ – ١٥٦ ، المختصر ج٣ ص ١٤٠ – ١٤٢ ، السلوك ج ١ ق١ ص ٢٢٩ – ٢٣٤ ، مفرج الكروب ج ٤ ص ٢٥٢ – ٢٥٨ .

البلاد ، فبدلاً من أن يوحد الأيوبيون صفوفهم ، ويعبئوا الشعب للجهاد، ويوقفوا كل طاقاتهم وإمكاناتهم من أجل دحر الغزو الصليبي وطرده من البلاد، نجد الملك الكامل والملك الأشرف وغيرهما من الملوك الأيوبيين كما أسلفنا ، يتنازلون بغير عناء عن القدس ، ويفضّلون عليها الصراع الدائر فيما بينهم من أجل الوصول إلى السلطة، فالأشرف طمع أولاً في الحصول على السلطة بدمشق ، وبعد أن حصل عليها نرى أن أطماعه كبرت ، فتنكر للملك الكامل ، وراسل أهل حلب على منع الكامل من بلاد الشام فأيدوه في ذلك ، وانتظمت كلمة ملوك الشام على مخالفة الكامل ، وذلك سنة (٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م) لكن الأشرف توفي بدمشق سنة (٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م) وعهد بالحكم من بعده لأخيه الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب بصرى الذي نهج في أطماعه نهج أخيه الأشرف ، وسار الكامل من مصر بعساكره سنة (٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م) ونزل على دمشق ، وحاصر المدينة حصاراً شديداً، وقطع الماء عنها ، فغلت الأسعار وقلت الأقوات ، وكان الوقت شتاء ، وسلّم أخيراً الملك الصالح عماد الدين إسماعيل دمشق للكامل ، وعوّضه بدلاً عنها : بعلبك والبقاع وبصرى السواد ، وتوفي الكامل بعد أخيه الأشرف بنحو ستة أشهر بدمشق سنة (٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م) لمرض ألم به .

وخلفه في حكم البلاد بمصر العادل سيف الدين أبو بكر ابن الملك الكامل ، ورتب الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل أبابكر ابن أيوب نائباً عنه بدمشق ، وفي جمادى الآخرة سنة (٦٣٦ هـ /

١٢٣٨ م) قام الجواد بتسليم الملك الصالح أيوب (١) دمشق وأخذ عوضاً عنها سنجار والرقة وعانة ، فسر الصالح بذلك ، ورتب ابنه الملك المعظم تورانشاه على بلاد الشرق، وألزمه الإقامة بحصن كيفا ، وأقام نواباً بآمد وديار بكر ، وسلم حران والرها وجميع البلاد الجزرية الذين في خدمته ، وكان مقدمهم حينئذ حسام الدين بركة خان ، وطلب نجدة من الأمير لؤلؤ — صاحب الموصل — فبعث إليه نجدة .

ثم سار يريد دمشق ، فقطع الجواد اسم الملك العادل من الخطبة ، وخطب للصالح نجم الدين أيوب بن الكامل بدمشق ، وضرب السكة باسمه ، ودخل إلى دمشق في مستهل جمادى الأولى سنة (٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م) ومعه الملك المظفر صاحب حماة ، واستقر الملك الصالح بدمشق ، وزوج أخته من أمه ، وأبوها الفارس قليب مملوك أبيه الملك الكامل ، للأمير حسام الدين بركة خان مقدم الخوارزمية. وخرج الجواد من دمشق إلى بلاده ، وعاد الملك المظفر والخوارزمية إلى حماة ونازلوا حمص دون طائل ، ثم سار الخوارزمية إلى بلادهم بالشرق .

ولم تتوقف أطماع الملك الصالح ، فهو يريد مصر إلى جانب دمشق ، لهذا أخذ يعد العدة ، ثم خرج يريد مصر ، فاستولى على نابلس والأغوار وأعمال القدس والسواحل ، وحلت سنة (٦٣٧ هـ

---

(١) أمه الست السوداء المعروفة ببنت الفقيه نصر ، ومولده في سنة ٦١٧هـ — ١٢٢٠ م استقر الأمر له يوم الخميس ثاني عشر رجب سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨م وهو السلطان السابع من بني أيوب . انظر السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٦٧ .

/ ١٢٣٩ م) والملك الصالح نجم الدين أيوب في نابلس على نية الاستيلاء على مصر ، فراسل عمه الملك الصالح عماد الدين بن إسماعيل في الوصول إليه بنابلس ، وبعث إليه الطبيب سعد الدين الدمشقي ومعه حمام ليسرح إليه الرسائل على جناحها مايتجدد (١) .

ويذكر لنا المقريزي (٢) ماجبلت عليه طبائع ملوك البيت الأيوبي من الخداع والمكر فيقول : (أنه لما وصل سعد الدين إلى قلعة بعلبك أنزله الصالح عماد الدين إسماعيل بداره ، وبدّل عوض الحمام الذي في قفص سعد الدين بحمام آخر ، من حمام القلعة ببعلبك ،وأخذ الصالح عماد الدين في التدبير على أخذ دمشق وانتزاعها من يد ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأرسل جواسيسه سراً إلى ابن أخيه الملك العادل — بمصر — ، بما عزم عليه من أخذ دمشق ، وأنه منتم إليه وفي طاعته ، وإذا ملك دمشق خطب له على منابرها ، وضرب السكة باسمه وكتب الصالح عماد الدين إسماعيل أيضاً إلى المجاهد — صاحب حمص — في معاونته ، وهو يواصل كتبه مع ذلك إلى الملك الصالح نجم الدين ، يعده بالوصول إلى نصرته ...) . وسار الصالح عماد الدين ومعه المجاهد صاحب حمص إلى دمشق في جمع كبير وأخذاها ، وأظهرا طاعة للملك العادل صاحب مصر وذلك في سابع عشر صفر سنة (٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) ، وملكا قلعة دمشق واعتقلا المغيث ابن الملك الصالح نجم الدين ، فلما بلغ الخبر

---

(١) الذيل ص ١٦٥ ، المختصر ج ٣ ص ١٥٩ — ١٦٤ ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٢٥٦ — ٢٧٤ و ٢٨١ — ٢٨٥ ، الأخبار السنية ص ٣٣٤ .

(٢) انظر : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٢٨٥ ، المختصر ج ٣ ص ١٦٤ .

الملك الصالح نجم الدين كتم الخبر وسار يريد دمشق ، لكن الخبر اشتهر عند عسكره ، ففسدت نياتهم وطمعوا فيه لتلاشي أمره وفارقوه، وبقي معه من أمرائه وجنده دون المائة، فقصد نابلس ونزل بها بمن معه ، وسمع الناصر داود بذلك — وكان بالكرك — فنزل بعسكره ، وأمسك الملك الصالح أيوب ، وأرسله إلى الكرك واعتقله بها ، ولما علم بذلك الملك العادل أرسل إلى الناصر داود يطلب تسييره إليه ، فلم يسيّره لغاية في نفسه. ففي أواخر رمضان عقد الناصر مع الصالح أيوب اتفاقاً على أن تكون الديار المصرية للصالح أيوب ودمشق والبلاد الشرقية للناصر داود ، فأفرج عنه، واجتمعت عليه مماليكه، ثم سار إلى غزة وعظم على العادل ظهور أمر أخيه الصالح وبرز بعسكر مصر ، ونزل ببلبيس لقصد الناصر داود والصالح أخيه ، وأرسل إلى عمه الصالح إسماعيل بدمشق أن يبرز ، ويقصدهما من جهة الشام ، فسار الصالح إسماعيل بعساكر دمشق ونزل الفوار ، وأصبح الناصر داود والصالح أيوب محاطين بعساكر مصر في بلبيس والعسكر الشامي في الفوار وبينما هما في هذه الشدة ، إذ ركبت جماعة من المماليك الأشرفية ومقدمهم أيبك الأسمر ، وقبضوا على الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل وهو في دهليزه ، وجعلوا عليه من يحفظه في خيمة صغيرة ، وأرسلوا إلى الملك الصالح أيوب يستدعونه ، وسار الصالح أيوب والناصر داود إلى مصر ، ودخل إلى قلعة الجبل صباح الأحد لست بقين من ذي القعدة سنة (٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) ، ولم يف الملك الصالح أيوب ما وعد الناصر داود به ، فاستشعر كل من صاحبه ، فطلب الناصر الإذن بالمسير وتوجه إلى بلاده الكرك وغيرها .

ومن البديهي أن لايفي الصالح أيوب بوعده للناصر ، لأنه يدرك أن أطماع الناصر داود لاتقل عن أطماعه .

كما أسلفنا أن الخوارزمية أقطعهم الصالح أيوب البلاد الشرقية ففي سنة (٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م) رحلوا من حران ، وعبروا الفرات من الرقة ، ووصلوا إلى الجبول وتل أعزاز وسرمين والمعرة ، وهم ينهبون مايجدونه في طريقهم ، فاجتمع الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه — صاحب حمص — ومعه عسكر من عسكر الصالح إسماعيل المستولي على دمشق مع الحلبيين ، وقصدوا الخوارزمية، واستمر الخوارزمية على ماهم عليه من النهب حتى نزلوا على شيزر ومنها رحلوا إلى حماة ، فلم يتعرضوا إلى نهب لانتماء صاحبها الملك المظفر إلى الملك الصالح أيوب، وتابعت الخوارزمية مسيرها إلى سلمية ثم إلى الرصافة باتجاه الرقة ، والتقت الخوارزمية بعسكر الملك المنصور إبراهيم قريب الرها لتسع بقين من رمضان سنة(٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م)، وفر الخوارزمية واستولى الملك المنصور على حران، وفرت الخوارزمية منها إلى عانة . وبادر بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى نصيبين ودارا — وكانتا للخوارزمية — فاستولى عليهما ، وخلص من كان بهما من الأسرى . واستولى عسكر حلب على الرقة والرها وسروج ورأس عين ، وعسكر الملك المنصور على بلد الخابور ، ثم حاصر عسكر حلب الملك المعظم ابن الملك الصالح أيوب بآمد وتسلموها منه ، وتركوا له حصن كيفا وقلعة الهيثم (١) .

---

(١) المختصر ج ٣ ص ١٦٦ – ١٦٨ ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٢٨٩–٣٠٣.

واتفق الملك الصالح إسماعيل . صاحب دمشق مع الناصر داود صاحب الكرك مع الصليبيين وسلّما لهم عسقلان وطبرية ، فعمّر الصليبيون قلعتيهما ، وسلمّا أيضاً إليهم القدس بما فيه الأماكن المقدسة للمسلمين ، وذلك من أجل معاضدتهم لهما ضد الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة (٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م) وعلى مايبدو أن الملك الصالح نجم الدين بلغه خبر هذا الاتفاق ، فاستدعى الخوارزمية من بلادهم ، سنة (٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م) فوصلوا إلى غزة ، ووصلت إليهم عساكر كثيرة من مصر مع ركن الدين بيبرس مملوك الصالح نجم الدين ، وأرسل الصالح إسماعيل العساكر الشامية بقيادة الملك المنصور إبراهيم ابن شيركوه ووعدهم بجزء من بلاد مصر ، والتقى الفريقان بظاهر غزة ، فولى عسكر دمشق وصاحب حمص إبراهيم والفرنج منهزمين ، وتبعهم العسكر المصري والخوارزمية فقتلوا منهم عدداً كبيراً ، واستولى الصالح نجم الدين على غزة والسواحل والقدس ، ثم أرسل الملك الصالح باقي العسكر المصري بقيادة معين الدين ابن الشيخ ، وتابعوا مسيرهم إلى دمشق ، وحاصروها ، ثم تسلمها معين الدين بن الشيخ من الصالح إسماعيل ، وأقطعه عوضاً عنها بعلبك وبصرى والسواد وذلك سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) وتوفي معين الدين ابن الشيخ لمرض ألم به ، وبقي حسام الدين بن أبي علي بدمشق نائباً للملك الصالح أيوب ، وأقطع الخوارزمية منطقة الساحل ، ومنعوا من دخول دمشق ، فحقدوا على الوزير الصاحب معين الدين بن الشيخ — قبل وفاته — وخرجوا عن طاعة الصالح نجم الدين أيوب ، وعاضدوا الصالح إسماعيل والناصر داود ، وساروا إلى دمشق وحصروها سنة (٦٤٤هـ / ١٢٤٦م)، ويتحدث ابن

واصل في وصف ماألم من جراء ذلك بالمدينة فيقول : (وغلت بها الأقوات ، وقاسى أهلها شدة عظيمة ، لم يسمع بمثالها) (١) . أما المقريزي فيقول في ذلك : (وألح الخوارزمية — ومعهم الصالح إسماعيل — في القتال ونهب الأعمال ، وضايقوا دمشق،وقطعوا عنها الميرة ، فاشتد الغلاء بها ، وبلغت الغرارة القمح إلى ألف وثمانمائة درهم فضة ، ومات كثير من الناس جوعاً ، وباع شخص داراً إقيمتها عشرة آلاف درهم بألف وخمسمائة درهم ، اشترى بها غرارة قمح ، فقامت عليه في الحقيقة بعشرة آلاف وبيع الخبز كل أوقية وربع بدرهم واللحم كل رطل بسبعة دراهم ، ثم عدمت الأقوات بالجملة ، وأكل الناس القطاط والكلاب والميتات ،ومات شخص بالسجن فأكله أهل السجن ، وهلك عالم عظيم من الجوع والوباء ، واستمر هذا البلاء ثلاثة أشهر ، وصار من يمر من الجبل يشتم ريح نتن الموتى ، لعجز الناس عن مواراة أمواتهم ...)(٢) .

وحفظ حسام الدين ابن أبي علي الهذياني دمشق ، ورحل الخوارزمية عنها واتجهوا نحو حلب ، لأن الحلبيين وصاحب حمص الملك المنصور اتفقوا فيما بينهم ، وقصدوا الخوارزمية وتوجهوا نحو دمشق ، فالتقى الطرفان على القصب (٣) فكسر الخوارزمية شر كسرة ، وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان ، وفر الباقون مع مقدمهم كسلوخان الخوارزمي إلى التتر وصاروا معهم (٤) ، والتحق

---

(١) مفرج الكروب ج ٣ ص ١٧٥ .

(٢) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٢٢ .

(٣) القصب (في السلوك ج ١ ق ٢ ص ٢٣٤) اسم منطقة ظاهر حمص .

(٤) مفرج الكروب ج ٣ ص ١٧٢–١٧٤ ، السلوك ج ١ ق٢ص ٣١٤–٣٢٤ .

بعضهم بالملك الناصر داود فتقوى بهم ، وسار قسم آخر إلى نابلس واستولوا عليها ، فسار إليهم فخرالدين يوسف بن شيخ‌الشيوخ وأوقع بالخوارزمية والناصر داود في غزة وهزمهم ، وفر الناصر إلى الكرك فنازلها فخرالدين يوسف وتسلمها منه بالأمان ، وتسلم معها ، الخوارزمية ثم أخذ بعد ذلك بصرى ، وفي رجب سنة (٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م) استولى‌الأمير حسام الدين بن أبي علي الهذياني على بعلبك ، واعتقل صاحبها الملك المنصور نور الدين محمود ابن الملك الصالح إسماعيل وأخاه الملك السعيد عبد الملك ، وحملا إلى مصر حيث اعتقلا ،أما الصالح إسماعيل فقد فر مع بعض الخوارزمية، والتجأ إلى الملك الناصر صاحب حلب ، وكانت الحال قد انصلحت بين المللك الناصر والصالح نجم الدين كما أسلفنا ، وفي سنة (٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) عادا إلى الصراع فيما بينهما لأن الملك الناصر صاحب حلب أرسل عسكراً مع شمس الدين لؤلؤ الأرمني وحاصر حمص مدة شهرين فسلمها إليه صاحبها الملك الأشرف موسى ابن الملك المنصور ابراهيم وتعوض عنها تل باشر مضافاً إلى مابيده‌من‌تدمر والرحبة ، وشق ذلك على الملك الصالح نجم الدين وسار إلى الشام لارتجاع حمص من الحلبيين ، ووصل إلى دمشق ، ثم أرسل عسكراً إلى حمص مع حسام الدين بن أبي علي فخر الدين بن الشيخ وحاصرها ، لكن استفحال مرض الصالح نجم الدين ، ووصول الخبر إليه وهو بدمشق بوصول الفرنج إلى جهة دمياط اضطر إلى قبول الصلح مع الحلبيين وعلى إبقاء حمص بيدهم (١) . واستناب الصالح بدمشق

---

(١) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٣٠ – ٣٣١ ، مفرج الكروب ج٣ ص ١٧٥–١٧٧.

جمال الدين بن يغمور، ثم رحل عائداً إلى مصر، ونزل بأشموم طناح في المحرم سنة (٦٤٧ هـ/١٢٤٩م) ، وأمر الأمير فخرالدين ابن شيخ الشيوخ أن ينزل قبالة دمياط بالعساكر ، ليصير قبالةالفرنج أثناء قدومهم ، فتحول الأميرفخر الدين بالعساكر ، فنزل بالجيزة تجاه دمياط ، وصار النيل بينه وبينها، وفي يوم الجمعة لتسع بقين من صفر وصلت مراكب الفرنج البحرية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا — وهي ماتعرف بالحملة الصليبية السابعة — وتمكن الصليبيون بعد فرارمن بدمياطمن المسلمين من الاستيلاء عليها يوم الأحد لسبع بقين من صفر سنة (٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م) ، ورحل الصالح بعدذلك من أشموم طناح إلى المنصورة ، حيث قدمت إليه الشواني المصرية، وتوفي الملك الصالح نجم الدين أيوب بالمنصورة ليلة الاثنين نصف شعبان من نفس السنة ، وعهد لولده الملك المعظم تورانشاه بالملك من بعده — وقيل إنه لم يعهد إلى أحد بالملك وأنه قال للأمير حسام الدين ابن أبي علي : (إذا مت لاتسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله ، ليرى فيها رأيه) (١) . — وأثناء ذلك قام الفرنج بتقوية وتحصين أسوار دمياط ، وكتمت زوجة الملك الصالح نجم الدين وهي شجرالدر أمر وفاته،ولم تعلم بوفاته سوى فخر الدين بن شيخ الشيوخ والطواشي جمال الدين محسن ، وطلبت منهما كتمان ذلك خوفاً من أن يطمع الفرنج بالبلاد إذا علموا بذلك ، واتفقا معها على تدبير أمور البلاد إلى حين قدوم ولده الملك المعظم تورانشاه من حصن كيفا ، وكانت شجر الدر قد سيرت له الفارس أقطاي رأس المماليك البحرية

---

(١) السلوك ج١ ق٢ ص ٣٣٩ — ٣٤٢ ، مصر في دولة المماليك البحرية ص ١١.

لاحضاره ليتسلم عرش والده ، لكن الفرنج علموا بوفاة الصالح ، فخرجوا من دمياط ونزلـوا على فارسكور وأسطولهم يحاذيهم في النيل ، ثم رحلوا إلى شار مساح ، ثم نزلوا على البرمون ، فعظم الخطر لقربهم من معسكر المنصورة ، وفي الثالث عشر من رمضان وصلوا إلى طرف البر المقابل للمنصورة ، وصار بينهم وبين المسلمين بحر أشموم ، وفي خامس ذي القعدة تمكنوا من العبور عن طريق مخاضة إلى معسكر المنصورة على حين غرة ، واقتحموا المنصورة، وفر الناس ، وكادت الكسرة تتم على المصريين لولا شجاعة ركن الدين بيبرس البندقداري وطائفته التركية التي تعرف بالبحرية والجمدارية ، الذين تمكنوا من صد الصليبيين من أمام باب قصر السلطان الصالح واضطروهم للتراجع إلى منزلتهم الجديلة ، وكانت شجر الدر تدير أمور البلاد إلى أن وصل الملك المعظم تورانشاه بن الصالح نجم الدين أيوب يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة (٦٤٧هـ / ١٢٤٩ م) وأعلن يومها وفاة الملك الصالح ، وتسلم المعظم أمور البلاد ، وكانت ترد الأزواد للصليبيين في منزلتهم من دمياط عن طريق النيل ، فكمنت شواني المصريين للاسطول الفرنجي ، وكان عدد مراكبه اثنتين وخمسين مركباً ، فأخذوها أخذاً وبيلاً ، ففنيت أزواد الصليبيين ، وانقطع عنهم المدد من دمياط ، فرحلوا من منزلتهم ليلة الأربعاء لثلاث مضين من المحرم سنة (٦٤٨هـ / ١٢٥١ م) متوجهين إلى دمياط ، وتبعهم المصريون وخالطوهم صباح الأربعاء ، وبذلوا فيهم السيف ، وانحاز لويس التاسع بمن سلم معه إلى

تل المنية (١) وطلبوا الأمان ، فأمنهم الطواشي محسن الصالحي ثم احتيط عليهم ، وأحضروا إلى معسكر المنصورة وأمر المعظم بقتل الأسرى ، ثم رحل من المنصورة ونزل بفارس كور وضرب بها الدهليز السلطاني ، وعلى مايبدو أن شجر الدر زوج والده الصالح تآمرت مع المماليك البحرية وعلى رأسهم مقدمهم ركن الدين بيبرس وقتلوه بفارس كور وذلك يوم الاثنين لليلة بقيت من المحرم (٢) .

وبقتل الملك المعظم غياث الدين تورانشاه ، انقرضت دولة بني أيوب من مصر ، بعد أن دام حكمهم فيها مدة إحدى وثمانين سنة — أي منذ إلغاء صلاح الدين الخطبة للفاطميين بمصر وجعلها لبني العباس — وذلك سنة (٥٦٧ هـ / ١١٧١ م) (٣) إلى سنة مقتل المعظم (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠٠ م) لتبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة دولة المماليك البحرية في مصر .

المماليك والدولة المملوكية في مصر :

عرف المجتمع الإسلامي منذ عظمة الدولة العباسية أعداداً من الرقيق الأبيض الذين كانوا يجلبون من وسط وشمال آسيا وغربها وعلى وجه التحديد من مناطق الأمم المغلوبة على أمرها ، وكانوا يباعون وهم في مقتبل العمر في أسواق النخاسة بيع الأرقاء ، ثم

---

(١) المقصود هنا : منية عبد الله القريبة من ناحية شرمساح . انظر الحاشية رقم ١ في السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٥٦ .

(٢) انظر السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٣٣–٣٥٨ ، مفرج الكروب ج ٣ ص ١٧٨ — ١٨١ ، الأخبار السنية ص ٣٤٢ — ٣٥١ .

(٣) الروضتين ج ١ ص ١٩٣ ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٦١ .

ينقلون إلى مصر خاصة الذين قدر لهم أن يقبضوا على زمام الحكم فيه، دون أن تربطهم به صلة وطن أو صلة قرابة، وليس من الغرابة أن يعاملوا هذا البلد وأهله معاملة البلدان المغلوبة على أمرها، إذ لم يكن يعنيهم من أمره سوى التفنن في ابتكار طرق الابتزاز للأموال، واستدرار الخير، فتطوروا بتطور ركب الحضارة، وبلغوا في عيشهم غاية النعيم والترف، إلى أن غدا حكمهم القائم على الهمجية سلسلة متصلة الحلقات من الفوضى والمكائد، الغاية منها تعزيز الأطماع الشخصية وتفشي وسائل العنف والقهر بما يؤدي إلى سفك الدماء لتحقيقها.

وبالرغم من وفود المماليك على مصر، فقد تناقص عدد سكانها منذ الفتح العربي وعندما جاءت الحملة الفرنسية، قدرت عدد سكانها بمليوني نسمة فقط، وربما يعود سبب هذا النقص إلى اختلال النظام واستبداد الحكام والتنازع على السلطة. لكن السبب المباشر لهذا النقص ربما يعود إلى كثرة ما أصاب مصر من الأمراض الفتاكة كالطواعين وإلى المجاعات التي اصابتها كما نوهنا سابقاً، والمسؤول عن هذا كله أولاً وآخراً حكام البلاد الذين لا هم لهم سوى اشباع رغباتهم والقبض على زمام السلطة فوق رقاب العباد (١).

واهتم السلاطين الأيوبيون في مصر كغيرهم من حكامها السابقين أيضاً — من أخشيديين وطولونيين وفاطميين بشراء الرقيق الأبيض، والاعتماد عليهم في تدعيم سلطانهم داخل البلاد، وحمايتهم من أخطار

---

(١) مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٢، المماليك في مصر ص ١٥ — ١٦، الدولة المملوكية ١٦ — ١٧.

الدول المجاورة لهم ، بحيث أصبحت كل مجموعة منهم تنسب لمن اشتراها ، وقام بتربيتها وتدريبها للعمل في خدمته ، فمثلاً : الأسدية نسبة إلى سيدهم أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، والصلاحية نسبة إلى سيدهم صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، فصلاح الدين كي يتمكن من خوض معاركه ضـد الصليبيين ، اضطر لشراء اثني عشر ألف ممـلوك من الجراكسة والأتراك ، قام بتدريبهم على مختلف فنون القتال ، وألف منهم جنداً ، لم يلبثوا أن صاروا أشد الجنود بأساً ، وأقواهم بطشاً .

والعادلية نسبة إلى العادل (١٢٠٠ م — ١٢١٨ م) وخليفته .

والكاملية نسبة إلى الكامل (١٢١٨ م — ١٢٣٨ م)ابن العادل .

والصالحية نسبة إلى الصالح نجم الدين بن الكامل (١٢٤٠م — ١٢٤٩ م) .

ويعود الفضل الأكبر لانتصار المسلمين على ملك فرنسا وجيوشه الصليبية سنة (١٢٥٠ م) إلى طوائف الجند من المماليك .

والمماليك السلطانية كانوا فرقة واحدة مؤلفة من عدة فئات هي :

الخاصكية : وهم المماليك الذين كانوا يلازمون السلطان في خلواته ويقومون بالمهمات الشريفة وهذه الفئة أقرب فئات المماليك إلى السلطان . ويليها فئة المشتروات : وهم المماليك المنسوبون إلى السلطان المستقر . وفئة القرانيص : وهم غالباً ما نكل بهم السلاطين ، وفئة المماليك السيفية وكانوا على نوعين : مماليك منسوبة إلى السلاطين السابقين ، وسيفية منسوبون إلى الأمراء ، وقد نقلوا إلى الديوان الشريف ، وهذه الفئة عاشت بدون أمل أو هدف .

والمماليك السلطانية كما نلاحظ من هذا التقسيم غير متجانسة ، وهي ذات أصول متعددة الانتماءات أهدافها متباينة .

ويبدو أن الصالح نجم الدين بن الكامل أكثر من استخدام المماليك في جيشه أكثر من سابقيه من السلاطين الأيوبيين ، واتخذ منهم حرساً خاصاً له بعد أن أصبح لا يأمن على نفسه شر مؤامرات ودسائس أقاربه الملوك من البيت الأيوبي لأن الفضل في تسلمه عرش البلاد يعود إلى المماليك الكاملية وغيرهم من طوائف المماليك ، وهذا ما جعله لا يثق بهذه الطوائف بعد أن وضح فضلهم عليــه ، فاستقر رأيه على تأليف طائفة من المماليك ترتبط به ، وتدين بالتبعية له . وأطلق الصالح نجم الدين أيوب على هذه الطائفة من المماليك والذين جلبهم من خوارزم اسم الصالحية البحرية ، فالصالحية اشارة إليه ، أما البحرية : فلأنهم كانوا يحيطون بقلعة الصالح أيوب التي بناها لنفسه ، ويقطنون في قلعة الروضة في بحر النيل من ناحية ثانية وعمد إلى إعداد هذه الفرقة إعداداً عسكرياً رفيع المستوى ، وعمل على تربيتها تربية إسلامية صحيحة (١) .

غير أن هؤلاء المماليك المتعددي الأصول والانتماءات والغرباء عن البلاد ، فطروا بوجه عام على الخيانة والخديعة . وانتهاز الفرص ، فالتربية الإسلامية والإعداد الجيد كل هذا لم يجد أمام مغريات الأنانية الشخصية التي لازمت المماليك في أواخر العهد الأيوبي وطيلة العهد المملوكي .

---

(١) انظر المماليك البحرية ص١٣ — ١٤ ، المماليك في مصر ص١٤ — ١٨ ، الدولة المملوكية ٨ — ٩ و ١٦ — ١٧ .

وليس أدل على ذلك شعور هؤلاء المماليك بفضلهم في الانتصار ضد الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا سنة (١٢٥٠ م) في موقعتي المنصورة وفارسكور ، وأدركوا قوتهم الحقيقية في البلاد ، لهذا نراهم يناصبون تورانشاه ابن أستاذهم الصالح أيوب العداء ، ثم قتله سنة (١٢٥٠ م) .

فئات الشعب المملوكي :

المجتمع المملوكي كان طبقياً مغلقاً على نفسه جامداً ، وحقوق الفرد فيه ينظر إليها من خلال إنتمائه الطبقي ، وطبقات هذا المجتمع كانت متفاوتة من حيث الدخل والطمأنينة ، والاستقرار ، والمراكز الإدارية والسياسية ، فالمقريزي قسمه إلى سبع فئات :

- أرباب الدولة .
- مياسير الناس من التجار والفقهاء والمتعممين .
- متوسطو الحال من التجار والباعة وأصحاب المعاش والسوقة .
- الفلاحون من أهل الزراعة .
- سكان الأرياف والقرى .
- أرباب الصناعات والحرف البسيطة .
- والمعدمون (١) .

ويمكن اعتبار الطبقة الأولى — أي أرباب الدولة — طبقة تتألف من السلطان وأمرائه وأجناده وتشكل طبقة عسكرية حاكمة مغلقة على الشعب والانتماء لهذه الطبقة لابد من توفر شروط : العرق

(١) إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٧٢ — ٧٣ ، الدولة المملوكية ص ٨٥ ، القاهرة مدينة الفن والتجارة ص ١٠٨ — ١٠٩ .

واللغة والرق والتربية في الطباق والعتق والتدرج بالإمرة ، والمنتمي لهذه الطبقة لابد من أن تكون ولادته خارج البلاد وبالتحديد من السهوب الأسيوية الأوروبية الممتدة من آسيا الوسطى حتى البلقان والبحر الأدرياتيكي ، فهذه الشعوب تختلف عرقياً عن الشعوب التي خضعت للحكم المملوكي ، وتوفرت فيها الشروط التي تطلبها النظام العسكري المملوكي إذ تميزت بتأصل الفروسية فيها كالشدة والجرأة في القتال والعناية الشخصية بالمطية والسلاح ، لهذا كانوا يجلبون صغاراً لتنقطع كل صلة لهم بموطنهم عندما يكبرون ، والمماليك كانوا يكرهون الرقيق من غير الجنس الأبيض ، والشرط الأساسي التحدث باللغة التركية للانتساب إلى الطبقة العسكرية الحاكمة ، فهم يتحدثون باللغة التركية في اجتماعاتهم ومجتمعاتهم والقليل منهم من أتقن العربية ، بل البعض منهم كان لايفقه من العربية شيئاً ، فالأمير قجماس لم يكن يحسن التلفظ بالشهادتين ولا تلاوة الفاتحة ، وانحصر زواج الأمراء من نساء تركيات جيء بهن خصيصاً لهذه الغاية أو من بنات الأمراء ، وقليلون هم الأمراء الذين تزوجوا من بنات مياسير التجار أو من بنات المتعممين (١) .

وعاشت هذه الطبقة بعيدة عن مآسي الشعب وآلامه ، لا محرك لها سوى العامل المالي ، واقتسمت فيما بينها جميع خيرات البلاد على حساب شعب فقير محطم ، ولهذه الطبقة ميزات خاصة بها تميزها عن باقي

---

(١) ابن تغري بردي ج ١ ص ٥١ – ٥٢ ، القلقشندي ج ٤ ص ٤٧٢ ؛ العريني ص ٢٤٦ – ٢٥٧ ، الدولة المملوكية ص ٨٦ – ٨٧ .

الطبقات الأخرى كاللباس واقتناء الرقيق الأبيض وركوب الخيل ، وسكنت هذه الطبقة القاهرة – رغم وجود إقطاع لكل منهم – وكونوا مجتمعاً مغلقاً خاصاً بهم ، لكنهم لم يتمكنوا من تشكيل طبقة أرستقراطية ، إذ كان ينقصهم لتكوين مثل هذه الطبقة شروط منها : الاستثمار المنتج والوراثة والاستقرار .

وتحدثنا معظم المصادر عن ثراء السلاطين والأمراء المماليك وبذخهم في حياتهم المعيشية ، والذي بلغ أوجه في مأكلهم واقتنائهم للجواري والأواني وبنـــاء القصور والمنازل ، فكان يصل تعداد عمال المطبخ السلطاني إلى ستمائة شخص يعملون تحت إشراف الأستدار ، ويعدون خمسة أسمطة عادية يومياً فمثلاً : السلطان كتبغا كان يستهلك من اللحم يومياً في مطبخه عشرين ألف رطل من اللحم ومصاريف السلطان الناصر محمد كانت : سبع مئة طير يومياً ، عدا عن اللحم الذي كان يصل أحياناً إلى ستة وعشرين ألف رطل يومياً ، فضلاً عن الخراف والجدايا والغزلان المشوية ، .وكان يستهلك في شهر رمضان ألف قنطار من السكر ، وهذا الرقم ارتفع في عهد ابنه الصالح إلى ثلاثة آلاف قنطار .

وتمتعت الزوجات بإسراف كبير في اقتناء حاجيات وأثاث المنزل ، فمثلاً : كانت إحداهن تملك مقتنيات منزلها من الفضة الخالصة المرصعة بالذهب ، قد أربت ثروتها على ستمئة ألف دينار (١) .

---

(١) القلقشندي ج ٥ ص ٤٥٧ – ٤٥٨ ، الظاهري : زبده ص ١٢١ – ١٢٢ ، الطرخان : النظم الاقطاعية ص ٣٠٣ ، الدولة المملوكية ص ٨٦ – ٩٠ .

أحوال الشعب الاقتصادية :

إن بذخ وسيطرة الطبقة العسكرية الحاكمة من المماليك ، يعطينا مثلاً بارزاً عن أوضاع الشعب بمختلف طبقاته الغنية والمتوسطة والمعدمة ، فطبقات الشعب هذه كانت دائماً في تقهقر وترد مستمر ، كلما تقدمنا في العصر المملوكي ، ونلاحظ زوال حرف ومهن واقفال متاجر كانت عامرة من قبل .

فهذه الطبقة امتصت خيرات ومقدرات البلاد فما أن تنتهي من قطاع الأغنياء حتى نراها تمتد لتبتلع قطاعاً آخر ، فأنهكت طبقات الشعب وسحقته ، مما أدى إلى انهيار الدولة مالياً ، وتحول كثير من الناس الذين أبقت عليهم الأمراض والمجاعات والأوبئة إلى أجناد في الحلقة الاحتياط ، ومنهم من ترك أعماله وتجارته وتحول إلى عميل في المتجر السلطاني الشريف .

وطبقات هذا الشعب كانت مفتوحة لأننا نرى بعض الناس يصيب ثراء والبعض الآخر يخسر أمواله إثر منافسة السلطان له أو مصادرة أمواله أو تغريمه بمبلغ فوق طاقته ، والتحول العام في طبقات الشعب كان باستمرار نحو القاعدة .

وانطلاقاً من تركيبة هذا المجتمع المتفككة ، تركز الصراع في المجتمع المملوكي على العامل الاقتصادي ، ليس بين أهالي البلاد فيما بينهم إنما بينهم وبين المقيمين على السلطة الذين طمعوا بكل شيء ، بل واسترقاق الأحرار من أهالي البلاد ، ومن هنا بدأت المقومات الاقتصادية تنهار تدريجياً ، متأثرة بانحطاط النظام الإقطاعي وتسلط الطبقة الحاكمة على العاملين في الميادين الاقتصادية ذوي الدخل

الجيد . وواضح أن النظام الإقطاعي في بداية العصر المملوكي ، شكل الدعامة الأولى في الاقتصاد ، لارتباطه الشديد بأفراد الطبقة العسكرية الحاكمة ، بحيث شكل الدخل الرئيسي لهم ، وبتعبير أوضح : إن رواتب هذه الطبقة ، كانت عبارة عن إقطاعات تمنح لهم (١) .

بعد أن أعطينا قدر الإمكان فكرة عن أصل المماليك ، وتركيبتهم الاجتماعية لابد لنا من إيضاح ماحدث بعد مقتل تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين فقد اجتمع قادة المماليك البحرية، وتم الاتفاق فيما بينهم على اختيار شجر الدر لمنصب السلطنة، وتسلمت شجر الدر زوج الملك الصالح نجم الدين أيوب السلطنة سنة (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م) وتلقبت باسم : (السلطانة شجر الدر عصمة الدين أم خليل الصالحية) . (٢) .

وشجر الدر تركية الأصل — وقيل من أرمينية — اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب وحظيت عنده ، وولدت له ولداً اسمه خليل مات وهو صغير ، وهذا مايدعم اعتقادنا أن اعتلاء شجر الدر السلطة تعتبر مرحلة جديدة هي : مرحلة بداية نشوء دولة المماليك، وتسلم الأمير عزالدين أيبك التركماني الصالحي وهو من البحرية — أتابك عسكرها ، وخطب لها على المنابر في مصر والقاهرة ، وضربت السكة باسمها ، وعقدت شجر الدر اتفاقاً مع الملك الفرنسي الأسير لويس التاسع يتضمن دفعه فدية قدرها أربعمئة

---

(١) انظر الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٩٤ — ١٠٧ ، الدولة المملوكية ٩٣ — ٩٤ .

(٢) دولة المماليك البحرية ص ١٩ .

ألف دينار وتسليمه دمياط للمسلمين مقابل إطلاق سراحه ، وتسلم المسلمون دمياط يوم الجمعة لثلاث مضين من صفر سنة(٦٤٨هـ / ١٢٥٠ م) .

وفي دمشق استنكر الأمراء القيمرية الوضع الجديد بمصر وانطلق منها أول صوت معارضة ، ورفضوا أن يحلفوا لشجر الدر ، وتكتلوا مع صاحب حلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وقاموا بتسليم دمشق له يوم السبت ثامن شهر ربيع الآخر سنة (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م) ، وقبض على الأمراء المماليك الصالحية واعتقلهم ، وخلع على أمراء القيمرية ، وكردة فعل قام المماليك الصالحية بمصر باعتقال عدد من أمراء مصر الذين هم ليسوا من أصل تركي ، وحدث نتيجة لذلك اضطراب كثير في القاهرة ، وتم القبض على كل من يتهم بالميل إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن العزيز محمد (١) .

وأدرك المماليك البحرية فساد الأمور إذا تركوا السلطنة بيد امرأة ، فالخليفة العباسي ببغداد لم يرض عن هذا الوضع ، وملوك البيت الأيوبي ببلاد الشام تعاضدوا فيما بينهم أيضاً ضد ماحدث في مصر ، لهذا

---

(١) انظر : المختصر ص ١٨١ – ١٨٣ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٧٩ ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٦١ – ٣٦٣ ، الأخبار السنية ص ٣٥٣ – ٣٥٤ ، المماليك البحرية ص ١٨ – ٢٠ ، الدولة المملوكية ص ٩ .

كله اتفق زعماء المماليك على أن يتزوج عز الدين أيبك (١) شجر الدر ، وأن تتنازل له عن السلطنة. وبالفعل تم هذا الأمر يوم السبت آخر ربيع الآخر سنة (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م) وخطب له على المنابر ، وضربت السكة باسمه، وهذا الحل نرى أنه قد فتح جبهتين الأولى داخلية : يتزعمها أقطاي وحزبه من المماليك البحرية ، والذين اعترفوا به مرغمين كسلطان للبلاد ، حتى تحين فرصة للتخلص منه ، وتحقيق أطماعهم في السلطة ، وهذه الجبهة بسيطة إذا ماقيست بمخاطر الجبهة الخارجية : والتي أثارها حكام البلاد الشرعيون من البيت الأيوبي في بلاد الشام ، واعتبروا ماحدث في مصر خروجاً للسلطنة من أيديهم ، وهذا بالطبع شكل خطراً كبيراً على عز الدين أيبك ، فبحثوا عن وسيلة لإسكات الأصوات المعارضة من الأيوبيين ، فوجدوا في تنصيب الأشرف موسى بن يوسف بن الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب مخرجاً ، رغم أنه لم يبلغ السادسة من العمر ، وهذا في نظرهم كاف مادام من البيت الأيوبي ، ومهمة عز الدين أيبك تنتهي عندما يبلغ الملك الأشرف موسى رشده ، وتم ذلك يوم السبت لخمس مضين من جمادى الأولى سنة (٦٤٨ هـ / ٣٠ يوليو ١٢٥٠ م) .

---

(١) (أيبك : لفظ أعجمي مركب من لفظين تركيبيين وهما آي وبك ، والأول يعني القمر ، أما الثاني فيرادف بالعربية لفظ أمير . ويلاحظ أن أسماء معظم السلاطين المماليك وأمرائهم هي أسماء أشياء أو حيوان في اللغات الفارسية والتترية والتركية مثل : بيبرس ومعناه الأمير الفهد ، قلاوون ومعناه البطة ، وبكتمر ومعناه الأمير حديد . ..) انظر الحاشية رقم ٢ في السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٦٨ .

ولم ينخدع أبناء البيت الأيوبي بفعل عزالدين أيبك فالسلطة الفعلية بقيت بيده لكن عز الدين أيبك أثبت أنه أصلب مما ظن البعض ، فأعلن تبعية مصر للخليفة العباسي في بغداد ، وأنه يحكم مصر نيابة عن الخليفة ، وتقرب من الملك لويس التاسع المقيم بعكا ليحول دون اتفاقه مع الأيوبيين الزاحفين على مصر ، وكان الأيوبيون قد وصلوا بعساكرهم إلى الأطراف المصرية ، فأرسل عزالدين أيبك جيشاً بقيادة أقطاي لردهم عن أطراف البلاد ، واصطدم الفريقان عند غزة أولاً ، ثم اصطدما للمرة الثانية قرب الصالحية حيث هزم أقطاي الأيوبيين سنة (٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م) وأسرع زعيمهم الناصر يوسف في الفرار والعودة إلى دمشق (١) .

وشاءت الأقدار أن تتعرض البلاد الإسلامية في منطقة الشرق الأوسط والأدنى لخطر المغول وهم قوم من شمالي بلاد الصين — ومساكنهم جبال طمغاج — وتمكنوا من الاستيلاء على الصين بقيادة ملكهم جنكيز خان ثم ساروا إلى تركستان وكاشغر وبخارى ، واستولوا على هذه البلاد سنة (٦١٦ هـ / ١٢١٤ م) (١). ويحدثنا ابن واصل عن هؤلاء القوم — أي المغول — فيقول (ومن حديث هؤلاء

---

(١) المختصر ص ١٨٣ — ١٨٥ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٧٨ ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٦٦ — ٣٧٧ ، الأخبار السنية ص ٣٥٤ ، المماليك البحرية ص ٢ — ٣ و ٢٢ — ٢٤ ، العلبي : عصر المماليك والعثمانيين ص ١٧ .

(٢) انظر : الكامل ج ١٢ ص ٣٥٨ — ٣٧٠ مع خلاف حيث يذكرها في أحداث سنة ٦١٧ هـ ، المختصر ص ١٢٢ — ١٢٩ ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ، مفرج الكروب ج ٤ ص ٣٤ — ٤٤ .

القوم : أنهم كانوا يسكنون في آخر الشرق في البراري والقفار، وهم أهل خيام وعمد ،ليس لهم إلا الأغنام والخيل يأكلون لحومها، ويشربون من ألبانها ، ولا مأكل لدوابهم سوى الحشيش ، وتحفر بحوافرها الأرض وتأكل عروق النبات ، فإذا نزلوا منزلاً لا يحتاجون إلى شيء من خارج وهم لايدينون بدين غير أنهم يعترفون بالصانع سبحانه وتعالى ويعظمونه ، ولا يعتقدون شريعةمن الشرائع ....)(١) . ويتحدث ابن الأثير أيضاً عن همجية المغول والأساليب التي اتبعوها أثناء وبعد استيلائهم على البلاد المغلوبة من قتل النساء والأطفال والرجال ، وشق بطون الحوامل وقتل الأجنة ، كما عرفوا بضراوتهم وشدة بأسهم في القتال ، وتمكنوا من اجتياح البلاد الإسلامية التي بيد جلال الدين بن خوارزم شاه ، وجرت بينه وبينهم حروب كثيرة انتصر المغول في أكثرها واستمرت المعارك بينه وبين المغول من سنة (٦١٧ هـ — ٦٢٥ هـ / (١٢١٥ م — ١٢٢٣ م) .

وانتهت بالقضاء على بلاد جلال الدين ، واستفحال خطر المغول على الخلافة العباسية ببغداد ، الذي بدأ يلوح في الأفق منذ سنة (٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م) ، لذلك أرسل الخليفة العباسي إلى الملك الناصر يوسف صاحب دمشق يأمره بمصالحة الملك أيبك ، ويتفقاعلى حرب المغول ، وتم الاتفاق بينهما على أن يكون لأيبك إلى الأردن وللناصر ماوراء ذلك ، وأن يدخل فيما للمصريين — أيبك — غزة والقدس والساحل كله (٢) .

---

(١) مفرج الكروب ج ٤ ص ٣٦ .

(٢) الكامل ج ١٢ ص ٣٥٨ — ٣٥٩ ، المختصر ١٢٧ — ١٤١ ، السلوك ج ١ ق ١ ص ٢١٢—٢٢٨ و ق ٢ ص ٣٨٥ ، مفرج الكروب ج ٤ ص ٤٤ — ٦٣ و ٢٣١ — ٢٣٣ ، طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٣ ، ممالك ربيعة العربية ص ٩٧ وما بعد ، دولة المماليك البحرية ص ٢٤ .

لكن الأحوال في القاهرة لم تصف للملك المعز أيبك ، لأن عبث المماليك بالنظام والقانون أدى إلى إثارة الكراهية لحكمهم ، حيث اتخذت هذه الكراهية شكل ثورة جامحة قام بها الأعراب الذين أنفوا الخضوع لحكم المماليك الذين مسهم الرق . ويتحدث لنا المقريزي عن هذه الثورة فيقول : (وفيها — أي سنة ٦٥١ ه / ١٢٥٣ م — ثارت العربان ببلاد الصعيد وأرض بحري ، وقطعوا الطريق براً وبحراً . فامتنع التجار وغيرهم من السفر وقام الشريف حصن الدين ثعلب ابن الأمير الكبير نجم الدين علي ابن الأمير الشريف فخر الدين إسماعيل بن حصن الدولة مجد العرب ثعلب بن يعقوب بن مسلم بن أبي جميل الجعدي ، وقال : نحن أصحاب البلاد ، ومنع الأجناد من تناول الخراج ، وصرح هو وأصحابه بأنا أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أنّا خدمنا بني أيوب وهم خوارج خرجوا على البلاد ، وأنفوا من خدمة الترك وقالوا إنما هم عبيد للخوارج ، وكتبوا إلى الملك الناصر صاحب دمشق يستحثونه على القدوم إلى مصر . واجتمع العرب — وهم يومئذ في كثرة من المال والخيل والرجال — إلى الأمير حصن الدين ثعلب وهو بناحية دهروط (١) قتربان ، وبلغ عدة الفرسان العرب اثني عشر ألف فارس وعدد كبير من الرجالة ، وعندما علم السلطان المملوكي معز الدين أيبك (٦٤٨ — ٦٥٥ ه / ١٢٥٠ — ١٢٥٧ م) بذلك أرسل جيشاً مكوناً من خمسة آلاف فارس مدربين تدريباً جيداً ، وساروا نحو الثوار العرب في ذروه (٢) وهزموهم في معركة قاسية

---

(١) دهروط : بليدة على شاطىء غربي النيل من ناحية الصعيد قرب البهسنا . وانظر الخطط المقريزية ج ١ ص ٢٠٥ . نقول : هي ديروط الحالية إحدى مراكز مديرية أسيوط بالقطر المصري . (معجم البلدان) .

(٢) ذروه (في الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٧٣) قريتان بهذا الاسم إحداهما بمديرية المنوفية ، والثانية في المرتاحية من قسم نوسة الغيط ، والمرجح أن الثانية هي المقصودة هنا ، بدليل أن معسكر جيش المعز كان في بلبيس .

في قرية دهروط في بلاد الاشمونين ، وفر حصن الدين ثعلب ، ويذكر المقريزي أن حصن الدين ثعلب طلب الأمان من المعز فأمنه ووعده بإقطاعات له ولأصحابه ، وانخدع الشريف حصن الدين فوقع في قبضة معز الدين أيبك حيث شنق مع كافة أصحابه في بلبيس ، بينما يذكر عوض محمد خليفات أنه قبض عليه بعد عدة سنوات حيث سجن بالإسكندرية ثم قتل وصلب من قبل السلطان المملوكي الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) .

وبالرغم من هزيمة القبائل العربية فإن هذه القبائل في الصعيد استمرت في صراعها ضد المماليك . فما أن تسنح فرصةلهمللعصيان والثورة المسلحة إلا واستغلوها ضد المماليك الغرباء عن أبناء الشعب والذين اتبعوا الأساليب الوحشية في معاملة أبناء الشعب . فأصاب الناس بلاء عظيم ، وازداد نفوذ المماليك البحرية، وازداد أذاهم للناس ، وخافهم المعز أيبك ، فدبر مكيدة قتل فيها زعيمهم أقطاي في قلعة الجبل ، وذعر أتباع أقطاي من المماليك البحرية وفروا إلى دمشق وأخذوا يثيرون الملك الناصر يوسف وغيره من أمراء بني أيوب على مهاجمة مصر . وهذا الحدث أقلق المعز أيبك أربع سنوات متتالية منذ عام (٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م) الى عام (٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م)واضطره لأن يبقى متيقظاً طيلة هذه الفترة خوفاً من وقوع هجوم على أطراف دولته في فلسطين ومصر إلى أن قتلسنة (٦٥٥هـ / ١٢٥٧ م) في الحمام — وذلك بتدبير مؤآمرة كانت على رأسها زوجه شجر الدر ، وتسلطن على البلاد المصرية ولده الملك المنصور

نور الدين علي وذلك يوم الخميس سادس عشر من شهر ربيع الأول سنة (٦٥٥ هـ/ ابريل ١٢٥٧ م) وهو في الخامسة عشرة من العمر ونصب الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة، ومدبر أمور الدولة، وعين فارس الدين أقطاي المستعرب الصالحي أتابكاً للعساكر، وفي اليوم الثاني لتسلم المنصور للسلطنة حُملت شجر الدر إلى أم المنصور، فضربها الجواري بالقباقيب، مما كان سبباً لوفاتها في اليوم التالي أي يوم السبت الثامن عشرية ربيع الأول سنة (٦٥٥ هـ / ١٢٥٦ م) (١).

والجدير بالذكر أن المماليك لايعتبرون السلطنة حكماً وراثياً، إنما السيادة كانت في عرفهم للأقوى، لكنهم كانوا يلجأون غالباً بعد وفاة سلطان أو مقتله إلى اختيار ابنه ليأخذ مكان أبيه كإجراء مؤقت، ريثما يتم الاتفاق بين كبار أمراء المماليك على من يتولى السلطنة.

وقد أسلفنا أن المغول غدوا منذ القرن الثاني عشر ميلادي قوة حربية، وأن زعيمهم جنكيز خان تمكن من تنصيب نفسه سيداً مطلقاً على قبائل المغول في آسيا فضلاً عن قبائل الأتراك في مناطق السهوب الآسيوية، وما أن انتصف القرن الثالث عشر حتى كانت جيوشه قد استولت على فارس ومعظم جنـوب روسيا وأطراف أوروبا الشرقية.

وقد أدى اتساع سلطان المغول في الشرق الأوسط وشرق أوروبا إلى ظهور فئتين كبيرتين. فالفئة الأولى: كانت تشمل مغول

---

(١) المختصر ص ١٩٠ – ١٩٣، صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٣، السلوك ج ١ ق٢ ص ٣٨٦ – ٣٩٨ و٤٠٣ – ٤٠٥، المماليك البحرية ص ٢٤ – ٢٥، مملكة ربيعة العربية ص ٩٨.

فارس وكان ملكها هولاكو بن طولى ، والفئة الثانية : ضمت مغول القفجاق الذين أطلق عليهم اسم القبيلة الذهبية نسبة للون مخيماتهم . ومقرهم الرئيسي كان شمالي بحر قزوين والبحر الأسود وحوض نهر الفولجا ، وكان ملكهم في أواسط القرن الثالث عشر باطوخان (ت ١٢٥٦ م) وكان التنافس بين هاتين الفئتين كبيراً ، لكن الخطر الحقيقي الذي هدد الشرق الأدنى وبخاصة بلاد العراق والشام ومصر جاء من ناحية مغول فارس . وهذا ساعد على التقارب بين المماليك في مصر والشام من ناحية ، وبين مغول القفجاق من ناحية ثانية للوقوف في وجه زحف مغول فارس .

وبعد أن قضى هولاكو على معاقل طائفة الحشيشية في فارس ، أصبحت الطريق أمامه ممهدة للاستيلاء على العراق . وأخذ هولاكو بالزحف نحو بغداد وتمكن من دخولها في الرابع من صفر سنة (٦٥٦ هـ / ١٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م) واستباح المغول بغداد من قتل وتدمير ونهب مدة أربعين يوماً ، وقتل هولاكو الخليفة المستعصم بالله عبد الله بعد يومين من تسلمه بغداد . وقتل ولديه أبي العباس أحمد وأبي الفضائل عبد الرحمن (١) . وأثارت أخبار سقوط بغداد والخلافة العباسية وما أصابها وأهلها على يد المغول من قتل ونهب وتدمير وإحراق الرعب في نفوس حكام بلاد الشام والناس . فدخل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في طاعتهم . ومما زاد الأمر تعقيداً ما أصاب البلاد في هذه السنة من الغلاء في سائر البلاد وارتفاع

---

(١) المختصر ص ١٩٣ - ١٩٥ ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٠٩ - ٤١٠ ، الأخبار السنية ص ٣٥٩ - ٣٦١ ، المماليك البحرية ٢٩ - ٣٠ .

الأسعار بدمشق وحلب ومصر. فيذكر المقريزي هذه المحنة فيقول : (وارتفعت الأسعار بدمشق وحلب وأرض مصر، وبيع المكوك القمح بحلب بمائة درهم والشعير بستين درهماً والبطيخة الخضراء بثلاثين درهماً وبقية الأسعار من هذه النسبة) . ويقول أيضاً : (وفيها كثر الوباء ببلاد الشام ، فكان يموت من حلب في كل يوم ألف ومائتا إنسان ، ومات من أهل دمشق خلق كثير ، وبلغ الرطل التمر هندي ستين درهماً).

وانتهز سيف الدين قطز الأوضاع في البلاد بشكل عام ، وخروج الأمراء للصيد الفرصة وقبض على الملك المنصور وعلى أخيه قاقان وأمهما ، واعتقلهم ببرج قلعة الجبل وذلك يوم السبت الرابع والعشرون من ذي القعدة سنة (٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م) معللاً فعلته تلك بأن البلاد تمر بظروف عصيبة وخطر المغول يداهمها ، والبلاد بحاجة إلى سلطان يحسن تدبيرها وقيادة جيشها ، لا إلى ولد يلعب مع الفتيان في الطرقات ، وهكذا تسلطن قطز على البلاد المصرية وأخذ يستعد لصد المغول عن البلاد والذين تمكنوا من الاستيلاء على حلب يوم الاحد تاسع صفر سنة (٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) ويذكر لنا أبو الفداء أن القتل والنهب دام فيها من يوم الأحد المذكور إلى الجمعة رابع عشر صفر ، ثم سلمت قلعتها بالأمان بعد شهر وذلك يوم الإثنين الحادي عشر من ربيع الأول سنة (٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) ويتحدث المقريزي لنا عما فعله المغول بحلب فيقول : (وقتلوا خلقاً كثيراً ، وأسروا النساء والذرية ونهبوا الأموال مدة خمسة أيام استباحوا فيها دماء الخلق حتى امتلأت الطرقات من القتلى ، وصارت عساكر التتر تمشي على جيف من قتل ، فيقال إنه أسر منها زيادة عن مئة ألف

من النساء والصبيان....) وخرب المغول قلعة حلب وسورها ومساجدها وبساتينها .

وبعد أخذ المغول لحلب بستة عشر يوماً، تابعوا تقدمهم نحو دمشق ، تعاضدهم قوات صليبية من قبل هيثوم ملك أرمينيا الصغرى وبوهيموند السادس أمير أنطاكيـة ، وكان هولاكو قد بلغه وهو بحلب خبر وفاة منجك خان المغول الأعظم ، فاضطر إلى العودة إلى قلب آسيا للمشاركة في اختيار الخان الجديد تاركاً قيادة جيشه في الشام إلى كتبغا الذي تمكن من الاستيلاء على دمشق سنة (٦٥٨ هـ / مارس ١٢٦٠ م) .

وبعد ذلك أخذ المغول يتطرقون إلى فلسطين في طريقهم إلى مصر ، وكان قطز قد خرج بجيشه من مصر لصد المغول عنها ، بعد أن ضمن حياد الصليبيين في عكا ولم يشعر المغول إلا والمماليك قد وصلوا إلى طبرية - وهو أمر لم يتوقعه المغول - فوقع الارتباك والذعر في صفوفهم، ومن ثم هزموا هزيمة قبيحة في المعركة الفاصلة التي جرت بينهما عند عين جالوت - قرب بيسان والناصرة بفلسطين - وكان ذلك ليلة الأحد السابع والعشرين من شهر رمضان سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)،. وقد ترتب على هذا النصر أمران هامان : الأول توقف الزحف المغولي ، ثم طرد المغول بعد ذلك من دمشق وسائر بلاد الشام إلى ماوراء الفرات ، وانهيار النظرية الأسطورية التي كانت تقول : بأن المغول قوم لايغلبون .

والأمر الثاني : أدى انتصار الملك المظفر سيف الدين قطز إلى تدعيم سلطتهم في مصر بل في العالم الاسلامي كله .

إذ بعد أن طهر بلاد الشام من بقايا المغول ، أعاد أمراء بلاد الشام إلى إماراتهم من أيوبيين وغيرهم — السابقة ، واعترفوا بتبعيتهم له ، وهكذا امتد نفوذه على جميع بلاد الشام وفلسطين باستثناء الكرك .

وقتل سيف الدين قطز بعد انتصاراته هذه ، بأن تم تدبير مؤامرة ضده وقتل أثناء عودته إلى مصر ، فلا غرابة في الأمر فالمماليك استولوا على الحكم بالمكر والدهاء والخديعة وإنكار الجميل لمن رباهم ، ودربهم وأوصلهم إلى ماوصلوا إليه كما أسلفنا . فكيف لانتوقع منهم في كل لحظة الغدر لسلطانهم المملوكي الذي يعتقدون عدم وجود أية فوارق بينه وبينهم سوى أنه السلطان ؟ فكل من يشعر بالقوة منهم لابد وأن يعمل لإزاحة السلطان وبأية طريقة على مبدأ الغاية تبرر الواسطة ، لهذا نجد قائده ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي مع عدد من القادة المماليك يعمل على قتل سيف الدين قطز وتم ذلك سنة (٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) (١) واعتلى بيبرس عرش السلطنة في القلعة ، وتلقب بالملك الظاهر ، وتمكن من السيطرة على البلاد ، وقضى على سنجر الحلبي الذي خرج عليه بدمشق سنة (٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م) وأنهى آخر معقل للأيوبيين بالشوبك واعتقل صاحبها الملك المغيث عمر الأيوبي ، وضم بلاده إلى سلطنته وذلك سنة (٦٦٠ هـ / أواخر سنة ١٢٦٢ م)(٢) .

---

(١) المختصر ١٩٩–٢٠٧ ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٠٩–٤٣٣ ، الأخبار السنية ص ٣٦٣ ، المماليك البحرية ٣٠ – ٣٦ .

(٢) المختصر ٢٠٨ – ٢١١ ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٣٦ – ٤٤٧ ، الأخبار السنية ص ٣٦٣ – ٣٦٦ ، المماليك البحرية ص ٣٧ – ٣٩ .

وهكذا تمكن الظاهر بيبرس من تدعيم سلطانه ، والأوضاع الداخلية في البلاد قد استقرت أمورها له ، لكن في الواقع كان هناك خطران يهددان أمن واستقرار البلاد بصورة دائمة .

أولاهما : الخطر المغولي الذي لازال يقوم بشن الغارا ت على أراضي السلطنة المملوكية– رغم دحر هؤلاء إلى ماوراء الفرات – واستمرت غاراتهم على البلاد بين فترة وأخرى طيلة عصر المماليك .

والخطر الثاني : فيكمن في تواجد الصليبيين على أرض البلاد ، وقد أدرك بيبرس أنه لا خطر من القوى الصليبية ، والتي أصبحت ضعيفة ، فهي لاتهدد مملكته في الوقت الراهن ، إنما الخطر الحقيقي يكمن في مغول فارس الذين أقاموا تحالفاً مع الصليبيين ، فقام بيبرس رداً على هذا التحالف ، بتحالف آخر مع مغول القفجاق – القبيلة الذهبية – وكان ملكهم بركة خان اعتنق الإسلام ، ومحور هذا التحالف بين الطرفين كان العداء لمغول فارس . وقد ساعد هذا التحالف الظاهر بيبرس على الوقوف موقفاً حازماً من مغول فارس (١) .

ويتحدث لنا عاشور عما قام به بيبرس لتلافي هذين الخطرين فيقول : (بدأ – أي بيبرس – بتقوية مركزه سياسياً ضد الصليبيين منذ عام (٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) بإبرام سلسلة من المعاهدات والاتفاقات الفردية مع الملوك المجاورين وغير المجاورين، مثل الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس،ومانفرد هوهنشتاوفن

---

(١) انظر المختصر ج ٤ ص ٤ ، السلوك ج١ ق ٢ ص٤٦٥ ، المماليك البحرية ص ٣٩ – ٤٠ .

ملك صقلية وبركة خان زعيم مغول القفجاق وسلاجقة الروم بآسيا الصغرى؛ ومن الواضح أن الغرض من هـــذه المعاهدات والاتفاقات كان إحكام الحصار حول الصليبيين بالشام وحرمانهم من أية معونة يمكن أن تصلهم من الشرق أو الغرب) (١) .

لذلك نرى بيبرس يوجه حملاته الشهيرة ضد الصليبيين — على الرغم من وصف تصرفات هذه الحملات بالغدر والقسوة ونقض العهد ، فهي حملات ناجحة وسلسلة من حلقات الانتصارات العظيمة — ففي أواسط سنة (٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م) قام بالاستيلاء على قيسارية وعثليث وحيفا وأرسوف من الصليبيين ، ثم أخذت جيوشه تهاجم المدن الصليبية على امتداد ساحل الشام سنة (٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م) فاستولى بيبرس نفسه على صفد ، وأخذ يستعد بدمشق للقيام بحملة سريعة ضد مملكة أرمينيا الصغرى ، وتمخضت حملته عن تخريب عاصمتها سيس .

ثم استولى على يافا وشقيف أرنون سنة (٦٦٧ هـ / ١٢٦٨م) وحاصر أنطاكية أقوى الإمارات الصليبية ببلاد الشام واستولى عليها، ثم قام بين سنتي (٦٦٩ و٦٧٢ هـ / ١٢٧٠ و١٢٧٣ م) بالاستيلاء على قلاع طائفة الحشيشية واحدة بعد أخرى ، كما أنزل هزيمة جديدة بقوات المغول والسلاجقة سنة (٦٧٤ هـ / ١٢٧٧ م) ودخل قيصرية عاصمة السلاجقة في آسيا الصغرى ثم قفل عائداً ، وتوفي بدمشق في أوائل سنة (٦٧٩ هـ / ١٢٧٧ م) (١) .

---

(١) المماليك البحرية ص ٦١ .

(١) ج ١ ص ٢١٧ — ٢١٨ و ج ٤ ص ٣ — ١٠، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٢٥ — ٦٣٥ ، المماليك البحرية ٦٢ — ٦٦ .

إن ماأسلفنا ذكره من الأحداث التي جرت بعد وفاة صلاح الدين ، حول صراع البيت الأيوبي على السلطة ، والاجتياح المغولي ، وذكر دولة المماليك وتسلمها السلطة في مصر وبلاد الشام ، من كل هذا استهدف إعطاء صورة عن عصر المؤلف عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ، لا البحث فيه بشكل عام أو خاص .

* * *

المؤلف

أسرته وحياته :

في هذه الأجواء (١) ولد مؤلفنا عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن عباس بن محمد، أبو القاسم، شهاب الدين المقدسي الأصل، الدمشقي المولد والنشأة والوفاة، الفقيه الشافعي . المعروف بأبي شامة ، ولقب بذلك ، لوجود شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر ، ولد في أحد الربيعين سنة تسع وتسعين وخمس مائة (٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م) بدمشق ، وتذكر بعض المصادر أن ولادته كانت ليلة الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة (٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م) (٢) .

---

(١) الذيل على الروضتين : ٣ تذكرة الحفاظ ج ٤ / ١٤٦٠ -- ١٤٦٢ ، فوات الوفيات ٢ / ٣٦٧ ، غاية النهاية ٣٦٥ - ٣٦٦ ، السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٦٢ ، بغية الوعاة ٤ / ٧٧ -- ٧٨ ، الدارس ١ / ٢٣ -- ٢٤ ، شذرات الذهب ٥/٣١٨ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٥٠ .

(٢) الذيل على الروضتين ص ٣٧ ، ذيل مرآة الزمان ١ / ٣٦٧ ، وينفرد السبكي في ذكر مولده سنة ٥٧٩ ، وربما كان ذلك تصحيفاً ، لأن أكثر المصادر تجمع على أن ولادته كانت سنة ٥٩٩ باستثناء ابن شاكر الكتبي في الوفيات ٢ / ٣٦٧ حيث ذكر أن ولادته كانت سنة ٥٩٦ . وانظر المصادر في الحاشية السابقة .

وأصل جده أبي بكر من بيت المقدس . كان أبوه أحد الأعيان بها، ولعل محمداً الذي انتهى إليه النسب هو أبو بكر محمد بن أحمد ابن أبي القاسم علي الطوسي المقرىء الصوفي إمام صخرة بيت المقدس ، وذكره الحافظ أبو القاسم في تاريخ دمشق .

يقول أبو شامة عن أبي بكر نقلاً عن ابن الأكفاني : (قتلته الفرنج خذلهم الله عند دخولهم بيت المقدس في شعبان سنة (٤٩٢هـ / ١٠٩٩ م) وقد هاجرت أسرة أبي شامة من بيت المقدس في فلسطين عندما احتل الفرنج بيت المقدس في ١٦ تموز سنة (١٠٩٩م) وفلسطين ، وكان جده الأكبر إمام صخرة بيت المقدس ، وهو الذي يشير إليه أبو شامة بقوله : (ولعل محمداً الذي ينتهي إليه النسب ... هو الطوسي الصوفي إمام صخرة بيت المقدس . ونقل أبو شامة عن الأكفاني : أن جده هذا قتله الفرنج عند احتلالهم لبيت المقدس سنة (٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م) (١) . وهو أحد الشهداء الذين رؤوسهم بالمغارة المقصودة بالزيارة في مقبرة ماملة - مأمن الله - بالقدس الشريف ، فانتقل ابنه أبو بكر إلى دمشق فأقام فيها نواحي الباب الشرقي ، فولد له ولدان عثمان بن أبي بكر . وعبد الرحمن بن أبي بكر الذي كان معلماً بباب الجامع الشامي ، وعمّر طويلاً حتى بلغ نحو تسعين سنة . وتوفي سنه (٦٠٥ هـ / ١٢١٢ م) (٢) ، وكثر نسلهم بدمشق . فأولد عثمان ابن إبراهيم بن عثمان جد أبي شامة - توفي في شعبان سنة (٥٧٥ هـ / ١١٨٢ م) (٣) ، ودفن بمقبرة باب الفراديس-

(١) الذيل ص ٣٧ ، الأنس الجليل : الحروب الصليبية ص ٢٤٤ .

(٢) الذيل ص ٦٥ .

(٣) الذيل ص ٣٧ وفي ص ٦٥ يذكر أن وفاته كانت سنة ٥٨٥ هـ في السابع والعشرين من شعبان .

فأولد إبراهيم بن عثمان ولدين أبا القاسم بن إبراهيم -- توفي في يوم الجمعة تاسع شهر رمضان سنة (٦٠٤ هـ / ١٢١١م)(١)، ودفن بمقبرة بين الباب الشرقي وباب توما -- وإسماعيل بن إبراهيم--توفي ثالث عشر ربيع الأول سنة (٦٣٨ هـ / ١٢٤٥ م) (٢) -- فأولد إسماعيل ولدين هما : إبراهيم بن إسماعيل وكان مولده ليلة الاثنين الخامس والعشرين من محرم سنة (٥٩١ هـ / ١٠٩٨ م) . وهو شقيق مؤلفنا الأكبر ،والثاني هو مؤلفنا عبد الرحمن ابن إسماعيل ، وكان مولده في أحد الربيعين سنة (٥٩٩ هـ/١٢٠٣ م) (٣) بدمشق برأس درب الفواخير داخل الباب الشرقي ، وعلى مايبدو أن أباشامة من أسرة لا حظّ لها من المعرفة ، ولم يبرز من عائلته في مجال العلم سوى عبد الرحمن بن أبي بكر - وهو عم جد المؤلف -- الذي كان معلماً بباب الجامع الشامي ، وعمر طويلاً حتى بلغ نحو تسعين سنة وتوفي سنة (٦٠٥ هـ / ١٢١٢ م) وأبو شامة الوحيد الذي نبغ في هذه الأسرة نبوغاً عظيماً في جميع مجالات العلم والمعرفة في عصره .

فعرف القراءات السبع ، والفقه ، والعربية ، والحديث ،وأيام الناس ، ومعرفة الرجال (٤) .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧ و ٦٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٧ و ١٧٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٣ — ٣٧ .

(٤) الذيل على الروضتين ص ٣٧ ، ذيل مراة الزمان ج ١ ص ٣٦٧ -- ٣٦٨ ، تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٤٦٠ -- ١٤٦٢ ، العبر ج ٥ ص ٢٨٠ -- ٢٨١ ، مراة الجنان ج ٤ ص ١٦٤ ، طبقات الشافعية ج ٥ ص ٦١ -- ٦٣ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٥٠ — ٢٥١ ، غاية النهاية ج ١ ص ٣٦٥ — ٣٦٦ ، الدارس ج ١ ص ٢٣ -- ٢٤ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٣١٨ .

ولابد لنا من أن ننوه بأمرين ، قبل أن نسير مع أبي شامة وهما : الأمر الأول : دور دمشق العلمي في ذلك الوقت ، والثاني شيوخ أبي شامة . فالأمر الأول : يدعونا إلى القول : إنه منذ أواخر أيام السلاجقة (٤٢٩ — ٥٩٠ هـ / ١٠٣٨ — ١١٩٤ م) (١) انتقل مركز الثقل الثقافي والعلمي من العراق إلى الموصل ، وحلب ، ودمشق ، والقاهرة .

(فأنشأ نظام الملك المدرسة النظامية أواسط القرن الخامس الهجري / الحادي عشر ميلادي ، فانتقلت هذه إلى بلاد الشام ، وسيطرت على التعليم ، محتوى ، وأسلوباً وأهدافاً ، فكانت تعنى بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وما يتصل بهما ، والفقه وما إليه ، والعلوم المساعدة ، وهي العربية بفروعها ، والأدب باتجاهاته . أما الفلسفة ، فلم تدخل المدرسة النظامية .

ولنذكر شيئاً آخر يتعلق بالحياة العلمية في دمشق في هذه الفترة وهو يقظة الحنبلية التي عرفتها المدينة ، فبنو قدامة الفلسطينيون وبنو تيمية المشارقة (الحرانيون) أقاموا للمذهب الحنبلي في دمشق سوقاً هامة) (٢) .

ويذكر محمد أحمد دهمان أن الشيخ أحمدبن قدامة مقدسي الأصل ، كان يعلم الناس في (جماعيل) أمور دينهم ،وأن حاكم مقاطعتهم باليان بن بارزان — حاكم نابلس — أراد قتله ، لذلك فر مهاجراً إلى دمشق ، وسافر سراً مع أربعة من أقاربه ، ولما وصلوا دمشق نزلوا مسجد أبي صالح ، وهذا المسجد اليوم شرقي بستان

(١) دولة آل سلجوق ص ٧ — ٩ و ٢٧٦ .

(٢) مجلة الفكر العربي العدد ٢٧ سنة ١٩٨٢ مقالة نقولا زيادة .

الحذاء ولصيقه يمر من تحته نهر عقربا وهو خارج باب توما والباب الشرقي بينهما ، ولم يبق من هذا المسجد شيء غير قبر يزوره أصحاب البساتين وبعد ذلك لحق به أهله وأولاده ، وأخذت الهجرة تتابع لدمشق من جماعيل والقرى المحيطة بها كمردا ، وياسوف وقيره وجيت وغيرها ، وجميعهم نزلوا بمسجد أبي صالح فأصبح عددهم نحواً من مئتي إنسان ذكوراً وإناثاً وأطفالاً وكباراً . وكان هذا المسجد غير صالح لسكن هذا العدد إضافة إلى مالقيه بنو قدامة من مضايقات بني الحنبلي النظار على مسجد أبي صالح ، فقد خافوا على أوقافه أن تذهب من أيديهم ، ووصل الحال ببني الحنبلي أن رفعوا شكواهم للسلطان نور الدين على بني قدامة ،وكان حاضراً في مجلس السلطان القاضي ابن أبيعصرون فتكلم بشأن بني قدامة وأنهم مهاجرونوتجب مساعدتهم ، ووصفهم بالخير والصلاح والعلم ، فأمر نور الدين بنزع المسجد وأوقافه من بني الحنبلي وأن يسلم لبني قدامة فاستلموه ، لكن الشيخ أحمد كبيرهم لم يرض بهذا العمل ، ورفض استلام المسجد وأوقافه ، وأعادها إلى بني الحنبلي .

وكان ممن يتردد عليهمالشيخ أحمد الكهفي له دار في سفح جبل قاسيون وأراضٍ واسعة منه ، فرأى الشيخ أحمد متأففاً من سكناه في مسجد أبي صالح ، ويبحث عن مكان آخر يذهب إليه ، فقال له : إن لي في سفح الجبل مكاناً إن أعجبك وأردت أن تبني فيه فافعل ، فأعجب المكان الشيخ أحمد ، وشرع في بناء دار واسعة عرفت بعد ذلك بدير الحنابلة ، يقول الحافظ ضياء الدين : سمعت خالي

أبا عمر يقول : بنينا الدير في سنتين أول سنة بنينا ثلاث أبيات وفي السنة الثانية أتممنا عشر أبيات ثم انتقلنا إليه .

ثم أخذت الدور والبيوت بعد ذلك تبنى إلى جانب هذا الدير ، وأخذت شهرة بني قدامة تتسع ، حتى إن السلطان نور الدين كان يزور الشيخ أحمد . من هذا الوقت عمر سفح قاسيون وأصبح يسمى بالصالحية .

ثم نشروا مذهب الإمام أحمد بن حنبل – وكان قلة في الشام – فانتشرت مدارس هذا المذهب لا في الصالحية فحسب بل في دمشق أيضاً ، وكثر أتباعه في دمشق وضواحيها ، واستطاع بنو قدامة بدراساتهم وتآليفهم الفقهية وامتزاجهم بأصحاب المذاهب الفقهية ، أن يخرجوا مذهب الإمام أحمد من عداد المذاهب الحديثية إلى عداد المذاهب الفقهية . فقد كانت المذاهب الفقهية الشهيرة إلى أواخر القرن الخامس الهجري تعد ثلاثة وهي : مذهب الإمام أبي حنيفة ومالك والشافعي .

أما مذهب الإمام أحمد فكان يعد من مذاهب الحديث لا الفقه ، ولكن بواسطة العناصر والاتجاهات الجديدة التي أدخلها بنو قدامة على هذا المذهب أصبح مذهباً فقهياً رابعاً ، هذا إضافة إلى أثرهم في علم الحديث ، فانتشرت دور الحديث في الصالحية ودمشق ، وأدخلوا على علم الحديث اتجاهات جديدة كان لها أثر كبير في تنسيق علوم الحديث وتصنيف أبحاثه المتعددة (١) .

شيوخـــه :

وشيوخ أبي شامة كانوا كثراً ، وهم على مستوى رفيع من

---

(١) في رحاب دمشق ص ٣٨ – ٤٣ .

العلم والمعرفة في مجال الدين واللغة والأدب والتاريخ نذكر منهم :

الشيخ علم الدين السخاوي أخذ عنه أبو شامة القراءات السبع وأتقنها عند بلوغه السادسة عشرة من العمر ، وسمع أولاً من كريمة وأبي إسحاق بن الخشوعي وعن عبد الجليل ابن مفدويه - ت ٦١٠هـ ... ، وسمع من فخرالدين بن عساكر الحديث النبوي وطريقة فتاوى المسلمين وحاجة الناس إليه ، وسمع من الشيخ موفق الدين بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي ثم الدمشقي ... (٥٤١ - ٦٢٠ هـ) - مسند الشافعي ، وسمع الصحيح من داود بن ملاعب وأحمد بن عبدالله السلمي (العطار) ، وأخذ عن السيف الآمدي . وغيرهم من علماء عصرهم في دمشق أو من العلماء المقيمين فيها(١) ، وبالرغم من أن أبا شامة قد تلقى معظم علومه من علماء دمشق ، إلاّ أنه لاشك قد التقى أثناء تنقلاته ببعض العلماء في البلدان التي قام بزيارتها ، فأبو شامة حج مرتين في سنة (٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م) ويقول فيها: (واجتمعت .... بالشيخ الحجة أبي طالب عبد المحسن ابن أبي العميد خالد بن عبد الغفار الحنفي الأبهري ، وسمعت عليه وعلى غيره سنة (٦٢٢ هـ/١٢٢٥ م) وقام في سنة (٦٢٤هـ / ١٢٢٧ م) (٢) بزيارة بيت المقدس ، كما تذكر المصادر أنه سافر برفقة والده إلى مصر سنة (٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م) فزار دمياط والقاهرة والإسكندرية

---

(١) تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٤٦٠ - ١٤٦١ ، العبر ج ٥ ص ٢٨٠ - ٢٨١ ، طبقات الشافعية ج ٥ ص ٦١ ، غاية النهاية ج ١ ص ٣٦٥ ، البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٥٠ - ٢٥١ ، بغية الوعاة ج ٤ ص ٧٧ - ٧٨ ، الدارس ج ١ ص ٢٣ - ٢٤ .

(٢) الذيل ص ٣٧ و ١٤٤ و ١٥١ .

واجتمع إلى شيوخها ، فيتحدث السيوطي عن أبي شامة أنه اجتمع بالإسكندرية بالشيخ عيسى ابن عبد العزيز المقرئ وحبب إليه طلب الحديث سنة بضع وثلاثين (١) . كما يذكر الجزري : أن أبا شامة (روى الحروف عن أبي القاسم بن عيسى بالاسكندرية) (٢) .

ونعود الآن إلى حياة أبي شامة بعد أن ذكرنا المؤثرات الرئيسية التي ساعدت وساهمت في نشأة أبي شامة .

منذ نعومة أظافر أبي شامة ، اتجه بكليته إلى العلم والتعلم . فحفظ القرآن الكريم قبل بلوغه سن العاشرة ، حتى إن والده لا يعلم بذلك إلا عندما قال له أبو شامة : (قد ختمت القرآن حفظاً) (٣) .

وهذا يظهر لنا اعتماد أبي شامة منذ حداثته على نفسه في طلب العلم من مناهله .

فهو يجلس في جامع دمشق يقرأ القرآن (٤) ، (وينظر إلى مشايخ العلم كالشيخ فخر الدين أبي منصور بن عساكر ، ويروي طريقه في فتاوى المسلمين وحاجة الناس إليه وسماع الحديث النبوي عليه ، وهو يمر من مقصورة الصحابة — رضي الله عنهم — إلى تحت قبة النسر لسماع الحديث إلى المدرسة التقوية لإلقاء دروس الفقه ، ويرى

---

(١) الذيل ٣٧ ، تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٤٦٠ — ١٤٦١ ، فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٧٠ ، بغية الوعاة ج ٤ ص ٧٧ .

(٢) غاية النهاية ج ١ ص ٣٦٥ .

(٣) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٧٠ ، الدارس ج ١ ص ٢٣ — ٢٤ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٣١٨ ، الذيل ٣٧ .

(٤) الذيل ص ٣٧ — ٣٨ ، تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٤٦٠ ، ج ٥ ص ٦١ — ٦٢ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٥٠ — ٢٥١ ، فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٧٠ ، الدارس ج ١ ص ٢٣ — ٢٤ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٣١٨ .

إقبال الناس عليه ، وترددهم إليه مع حسن سمته واقتصاده في لباسه فيستحسن طريقته ، ويتمنى رتبته في العلم ، ونشره له وانتفاع الناس بفتاويه) .

وقرأ القراءات السبع على السخاوي وأتقنها وهو في السادسة عشرة من العمر .

وأتقن الفقه والعربية والحديث وأيام الناس ومعرفة الرجال حتى وصفه ابن كثير بقوله : (أخبرني علم الدين البرزالي عن الشيخ تاج الدين الفزاري أنّه كان يقول : بلغ الشيخ شهاب الدين أبو شامة رتبة الاجتهاد .

ويقول نقولا زيادة : (وأن يقال هذا عن عالم في وقت لم يكن للاجتهاد فيه سوق لهو بالشيء الكثير) . وظهر الشيب في لحية ورأس أبي شامة وهو في سن الخامسة والعشرين ، فأكسبه ذلك الشيخوخة صورة ومعنى .

ونظم في ذلك بعض الفضلاء :

إن يشب إذا بلغ خمساً وعشرين

فما كان المشيب فيه بعابِ

جهل الناس قدر شيخوخة العلم

فجلت أنواره في الشبابِ

نور الله الوجه والقلب منه

إن فيه هداية المرتابِ

هو شيخ معنى فعاجله الشيـ

ـب وقاراً له على الأتراب

فحوى الفضـــل يافعاً ومسنـــاً

إن زلفى لـــه وحسن مـــآب

وتعفف أبو شامة على غرار شيوخه علم الدين السخاوي وابن عبد السلام عن الاشتغال بالأعمال الحكومية ، فلم يذكر أبو شامة عن نفسه سوى أنـــه اختير ليكون أحد المعدلين بدمشق سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م (١) وعلى الرغم من ذلك فقد كانت له وظائف تعليمية أو مايشبه ذلك ، إذ تذكر المصادر أنه ولي مشيخة الإقراء بالتربة الأشرفية (٢) وفي سنة (٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م) عين بالمدرسة الركنية بدمشق ، فقد قال أبو شامة عن نفسه : (ثم دخلت سنة ستين وستمائة ففي يوم الأربعاء ثاني عشر المحرم ذكرت الدرس بالمدرسة الركنية . . وابتدأت بها درساً في مختصر المزني رحمه الله بحضرة قاضي القضاة وغيره) (٣) .

وأقام أبو شامة في المدرسة العزيزية سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م) وعلى مايبدو أن أبا شامة كان مرتبطاً بالمدرسة العادلية لفترة طويلة من سنة (٦٣٤ هـ إلى ٦٥٦ هـ / ١٢٣٦ . ١٢٥٨ م) (٤) .

---

(١) الذيل ص ١٦٧ .

(٢) تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٤٦٠ .. ١٤٦١ ، طبقات الشافعية ج ٥ ص ٦٢ ، غاية النهاية ج ١ ص ٣٦٦ ، الدارس ج ١ ص ٢٤ ، دور القرآن في دمشق ص ١٠ ، بغية الوعاة ج ٤ ص ٧٧ -- ٨٧ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٣١٨ .

(٣) الذيل ص ٢١٦ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٥٠.

(٤) مجلة الفكر العربي العدد ٢٧ عن مقالة نقولا زيادة .

وتولى دار الحديث الأشرفية (١) سنة (٦٦٢ هـ/ ١٢٦٤ م) بعد وفاة القاضي الخطيب عماد الدين عبد الكريم ابن القاضي جمال الدين عبد الصمد بن محمد المعروف بابن الحرستاني ، ويتحدث أبو شامة عن ذلك فيقول : (وفيها . أي سنة ٦٦٢ هـ . بعد صلاة الصبح من يوم الأحد التاسع والعشرين من جمادى الأولى توفي القاضي الخطيب عماد الدين عبد الكريم ابن القاضي جمال الدين عبد الصمد ابن محمد المعروف بابن الحرستاني رحمه الله .... تولى قاضي القضاة في الأيام الأشرفية ، وناب في القضاء عن أبيه في الأيام العادلية وعن شمس الدين أحمد بن الخليل الخويي عام حجه ، ثم تولى الخطابة بجامع دمشق وتدريس الزاوية الغربية ومشيخة دار الحديث الأشرفية . واستمر ذلك له من الأيام الصالحية النجمية وقبلها إلى أن توفي بدار الخطابة ، ودفن في مقابر الجبل قريباً من أبيه وأهله ، وصلى عليه بجامع دمشق قاضي القضاة بدمشق ابن خلكان ، وصليت أنا عليه إماماً ظاهر البلد تحت القلعة خارج باب الفرج.... وتوليت مكانه بدار الحديث الأشرفية ، وحضر عندي فيها أول يوم ذكرت الدرس فيها : قاضي القضاة وأعيان البلد من المدرسين والمحدثين وغيرهم ، وذكرت من أول تصنيفي في كتاب (المبعث) للخطبة

---

(١) تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٤٦١ ، ذيل مراة الزمان ج ١ ص ٣٦٧ ، مراة الجنان ج ٤ ص ١٦٤ ، طبقات الشافعية ج ٢ ص ٦٢ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٥٠ ، غاية النهاية ج ١ ص ٣٦٦ ، بغية الوعاة ج ٤ ص ٧٧ - ٧٨ ، الدارس ج ١ ص ٢٤ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٣١٨ .

والحديث والكلام على سنده وقته مع زيادات على ذلك من مكان آخر ، وكان بحمد الله وحوله وقوته مجلساً جليلاً عليه سكون وإخبات وجلالة وإنصات من الحاضرين ووقار من المستمعين وعمل في ذلك بعض الأدباء أبياتاً منها :

العلم والمعلوم قـــد أدركته
وسماعك على البحر المحيط فحدث

وبعثت في دار الحــــديث بمعجز
وأبان له وأبانه عنك افتتاح المبعث

مكثت به الألبـــاب طائعة الندا
والحسن من طرب به لم يمكث (١) .

ويتحدث في الذيل على الروضتين : أنه رويت لأبي شامة منامات حسنة كانت بشيراً له إلى ماوصل إليه من العلم ، وما يرجو من الخير منها : (أن والدته رحمها الله ت ٦٢٠ هـ (٢) — أخبرته وهو إذ ذاك صغير يتردد إلى المكتب وأبوه رحمه الله — ت ٦٣٨هـ(٣) — يعجب من حبه المكتب ، وحرصه على القراءة على خلاف المعروف من عادة الصبيان ، فقالت الوالدة : لاتعجب فإني لما كنت حاملاً به رأيت في المنـــام كأني في أعلى مكان من المئذنة عند هلالها ، وأنا أؤذن ، فقصصتها على عابر فقال : تلدين ذكراً ينتشر ذكره في الأرض بالعلم والخير .

(١) الذيل ص ٢٢٩– ٢٣٠ .
(٢) المصدر السابق ص ١٣٤ .
(١) المصدر السابق ص ١٧٠ .

ورأى هو في صفر سنة أربع وعشرين وستمائة . كأن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قد أقبل إلى الشام منجداً لأهله على الفرنج خذلهم الله ، وكان له به خصوصيّة من أفضاء أمره إليه والتحدث معه في أمور المسلمين وهو يمشي إلى جانبه ملاصقاً منكبه ، حتى كان الناس يسألونه عنه وعما يريد أن يفعل ، وهو يخبرهم. وأنّه واسطة بينه وبين الناس .

وفي هـذه السنة رأى أيضاً ، كأنّه والفقيه عبد العزيز بن عبدالسّلام سلّمه الله داخل باب الرّحمة بالبيت المقدس، وقد أراد فتحه ، وثم من يمنع من فتحه ويدفعونه لينغلق ، فما زالا يعالجان الأمر حتى فتحا مصراعيه فتحاً تاماً بحيث أسند كلّ مصراع إلى الحائط الذي خلفه .

ورأى أيضاً في جمادى الآخرة من هذه السنة كأنّ المسلمين في صلاة الجمعة في حر شديد وهو خائف عليهم من العطش ولا ماء ، ثم يعرف فنظر إلى قليب ماء قريباً منه وحوض ، فخطر له أن يسقي من ذلك القليب ، ويسكب في الحوض حتى يشرب منه الناس إذا انصرفوا من الصلاة فاستقى شخص قبله لايعرفه دلواً أو دلوين . ثم أخذ الدلو منه ، فاستقى دلاء كثيرة لم يعرف عددها ، وسكب في الحوض. ورآه المهتار هلال بن مازن الحرابي متقلّداً هيكلاً وهو يقول : انظروا فلاناً كيف تقلّد كلام الله .

ورأت امرأة كبيرة كأن جماعة صالحين اجتمعوا بمسجد قرية بيت سوا وهي : قرية من قرى غوطة دمشق وكأنّهم سُئلوا ماشأنهم ؟ قالوا : ننتظر النّبي صلّى الله عليه وسلم يصلّي بنا . قالت فحضر — يعني مصنف هذا الكتاب — فصلّى بهم .

وجاءه رجل يستفتيه وهو بالمجلس الكبير الّذي للمكتب في صدر الايوان بالمدرسة العادلية وهو الموضع الذي يجلس فيه غالباً للفتوى وغيرها ، ومنه يخرج إلى الصلاة بالمدرسة فتعجب ! فقيل له : مِمّ تتعجب ؟ قال : هذا مكان ما رأيته قط . قال : ورأيت في المنام كأني كنت بهذه المدرسة العادلية وفيها خلق كثير وأنّ قائلاً يقول للناس : تنحوا فالنّبي صلّى الله عليه وسلّم يمر . قال : فنظرت فخرج علينا من المجلس الذي للكتب ، ومرّ كما هو إلى المحراب .

ورأى الصلاح الصوفي أوّل ليلة من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسين وستمائة ، كأنّ مصنف الكتاب متوجه إلى الحجّ ومعه من الزاد جميع مايحتاج إليه تزوداً تاماً ، يعجب منه الرّائي .

ورأى حسن الحجازي في شهر رمضان سنة سبع وخمسين وستمائة ، كأن قائلاً في عالم الغيب لايراه، بل يسمع صوته يقول . الشيخ أبو شامة نبّي هذا الوقت أو كما قال : ورآه مرة أخرى فوق قنطرة عالية وتحت القنطرة حيطة كثيرة .

ومن ذلك منامات حسنة رآها له أخوه الشيخ برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل وهو أسنّ منه بنحو تسع سنين وكان من الصالحين رأى والدهما رحمه الله يقول له : عليك بالعلم انظر إلى منزلة أخيك، فنظر فإذا هو في رأس جبل والوالد والرّائي يمشيان في أسفله .

ورأى في صفر سنة سبع وخمسين وستمائة كأنّ مصنف الكتاب - أي أبي شامة - متمسّك بحبل قد دلّيَ من السّماء

وهو مرتفع فيه فسأل إنساناً عن ذلك – في المنام – فانكشف لهما البيت المقدّس والمسجد الأقصى، فقال له الإنسان من بنى هذا المسجد ؟ فقال : سليمان ابن داود . فقال: أعطي أخوك مثل ماأعطيَ سليمان، فقال له : كيف ذلك ؟ فقال : أليس سليمان أوتي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده ؟ أليس أعطي كذا وكذا ؟ وعدّد أنواع ماأوتي .فقال: بلى ، قال : وكذا أخوك أوتي أنواعاً من العلم كثيرة أو كما قال .

قال : ورآه الشرف الصرخدي فوق سطح بيت منعزل وهو يؤذّن، ثم بعد الأذان قرأ : « (واستمع يوم يناد المنادي من مكان قريب)» (١) .

ورأى أيضاً كأنّ القيامة قد قامت ومصنّف هذا الكتاب راكب على حمار وهو مسرع فقيل له : في ذلك فقال : أطلب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على الحوض .

ورأى الشرف بن الرئيس أيضاً القيامة ووصف من أهوالها. قال : ورأيت فلاناً، يعني صاحب هذا الكتاب ، فسألته عن حاله فقلت له : ماذا لقيت ؟ قال : لقيت خيراً ويقول أبو شامة أيضاً : (وإنّما سطرت هذه المنامات وغيرها تحدّثاً بنعم الله تعالى ، كما أمر سبحانه في قوله تعالى :«(وأما بنعمة ربّك فحدّث) » (٢) وقد قال النبي صلّى الله عليه وسلم : (لم يبق من المبشرات إلاّ الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له ....) (٣) .

(١) سورة ق الآية ٤١ .
(٢) سورة الضحى الآية ١١ .
(٣) الذيل ص ٣٨ – ٣٩ .

ونحن بدورنا سطّرنا هذه الرؤى لامن أجل إظهار قيمة علمية لها ، لأنّنا نعرف أنّه ليس لها قيمة علمية ، ولكننا في الوقت نفسه يمكننا أن نستخلص منها ماتوصّل إليه أبو شامة من رفعة شأن ونبوغ علمي فذ ، بهر به رجالات عصره من المثقفين وبذّهم ، فلم يذكر أحد منهم اسمه إلاّ ويقول عنه : العلاّمة المقرىء النحوي المؤرخ المحدّث الفقيه صاحب التصانيف.... وذلك لسعة اطّلاعه على كافة علوم عصره وتعمقه فيها ، كما تعطينا فكرة عن العقلية السائدة في عصره .

وكان أبو شامة على كثرة علمه متواضعاً ، ويتحدث عنه شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن الجزري — ت ٨٣٣ هـ — فيقول : (قلت : وكان مع كثرة علومه وفضائله متواضعاً مطّرح التكلّف ربما ركب الحمار بين المداوير ...) .

ويتحدث ابن كثير عن علم الدين البرزالي الحافظ عن الشيخ تاج الدين الفزاري أنّه كان يقول : بلغ الشيخ شهاب الدين أبو شامة رتبة الاجتهاد ، وقد كان ينظّم أشعاراً في أوقات فمنها ما هو مستحلى ، ومنها مالا يستحلى فالله يغفر لنا وله ، وبالجملة فلم يكن في وقته مثله في نفسه وديانته وعفّته وأمانته) (١) .

---

(١) العبر ج ٥ ص ٢٨٠ — ٢٨١ ، تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٤٦٠ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ١٦٤ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٥٠ — ٢٥١ ، غاية النهاية ج ١ ص ٣٦٦ ، الدارس ج ١ ص ٢ — ٢١ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٣١٨ .

وعلى مايبدو أنّ أباشامة رغم ما وصل إليه من الثقافة وسعة الاطلاع ، فإنّه كان مجالاً للحسد والدّس عليه من قبل معاصريه من العلماء والمشايخ ، وذلك بسبب فضحه لمساوئهم وتصرفاتهم التي لايرضى عنها ، ويتحدّث في ذلك الشيخ قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد ابن أحمد بن قطب الدين اليونيني البعلبكي الحنبلي (ت سنة ٧٢٦ هـ) فيقول : (... وكان عالماً فاضلاً متقناً متفنناً عنده مشاركة في كثير من العلوم واستقلال ببعضها ، لكنه كان كثير الغض من العلماء والأكابر والصلحاء والطعن عليهم ، والتنقص بهم (لعلة لهم) ، وذكر مساوىء الناس وثلب أعراضهم ، ولم يكن بمثابة من لايقال فيه ، فقدح الناس فيه، وتكلمّوا في حقه ، وكان عند نفسه عظيماً ، فسقط بذلك من أعين الناس مع ما كان من ثلب العلماء والأعيان ، وذكر مايشينهم به ...) (١) ، ولقد انفرد أبو الفتح موسى في ذكر هذه المقولة عن أبي شامة إذ إن المصادر الباقية لم تتحدث في أنّ أباشامة ذكر مساوىء الناس ، وثلب أعراضهم . . . ، وربما أن هذا ذكره ممن خالفوه في الرأي وحسدوه لسعة اطّلاعه وعلمه ، فحاولوا الدّس عليه ، لأنّ أبا شامة الكل أجمع على أمانته وسعة علمه وصدقه ، وأنّه ثقة . كذا وصفه ابن العماد ومحمد الذهبي ، ووصفته المصادر : بأنّه متواضع خير ومطرح للتكلف(٢)

---

(١) ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

(٢) العبر ج ٥ ص ٢٨١ ، تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٤٦١ — ١٤٦٢ ، مراة الجنان ج ٤ ص ١٦٤ ، غاية النهاية ج ١ ص ٣٦٦ ، بغية الوعاة ج ٤ ص ٧٧ — ٧٨ ، الدارس ج ١ ص ٢٤ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٣١٨ .

ويبدو أنّ أبا شامة كان مرغماً على قبول العمل في دار الحديث الأشرفية ، وأنّه كان محباً للعمل الحر ، لأنّه أدرك أن المناصب الحكومية تجعله أداةً في يد أصحابها عليه أن ينفّذ ما يملونه عليه ، وإلاّ سينصبّ عليه غضبهم وتهديد مصادر رزقه. ومن هنا جاء حبه للعزلة في منزله منفرداً غير مؤثر للتردد إلى أبواب أهل الدنيا متجنباً المزاحمة على المناصب لايؤثر على العافية والكفاية والكرامة شيئاً . وأبو شامة هو الذي يقول في شعره (١) :

(أيا لائمي مالي سوى البيت موضع
أرى فيه عزّاً أنّه لي أنفـــعُ

فراشي ونطعي فــروتي فرجيتـــي
لحافي وآكلي مــايسدّ ويشبعُ

ومركوبي الآن الأتــان ونجلهـــا
لأخلاقِ أهل الدّين والعلم أتبعُ

وقد يسّر الله الكريم بفضلــــه
غنى النّفّس مع شيءٍ به أتقنعُ

(١) الذيل ص ٢٢٧ — ٢٢٨ ، ويذكر ابن العماد خمسة أبيات من القصيدة مع خلاف في الشطر الأول من البيت الثاني فيذكر بقوله : (فراشي ونطعي وفروتي ثم جبتي) وكذا في الشطر الثاني من البيت الرابع (. . . غنى النفس مع عيش بهأتقنع). انظر شذرات الذهب ج ٥ ص ٣١٨ — ٣١٩ .

أوقّرهُ للأهلِ خوفاً يراهـــــم
عدو بعيش ضيــق فيشنـــعُ
وأصبر في نفسي على ماينــوبني
وأطلب عفو الله فالعفو أوسعُ
وما دُمتُ أرضى باليسير فإنّـــني
غنيٌّ لغير الله ماكنتُ أخضــعُ
وربّي قد آتانيَ الصّـــبر والغـــنى
عن الناس في هذا إلى العز أجمعُ
وقد مرّ من عمري ثلاث أعدّهـــــا
وستون في روضٍ من اللّطف أرتعِ
ووجهي من ذلّ التبـــذّل مقتر
مقل ومن عز القناعة موســعُ
ومن حسن ظنّي أنّ ذا يستمر لي
إلى الموت إنّ الله يعطي ويمنعُ
وإنّي لاألجأ إلى غـــير بابه
فأبقى كما قد قيل والقول يسمعُ
نرقع دنيانا بتمزيق ديننـــا
فلا ديننا يبقى ولا مانرقـــعُ
فطوبى لعبد آثر الله ربّـــــه
وجاد بدنيـــاهُ لما يتوقّـــــعُ)

وقال أيضاً : (وفي ذي القعدة سنة إحدى وستين وستمائة .. توفي الشيخ الصالح صلاح الدين أبو زيد الدينوري صاحب الشيخ عز الدين الدينوري وهو الذي بنى له زاوية بسفح جبل قاسيون غربي الجامع المظفري ، وصار لجماعة يذكرون الله عقيب صلاة الصبح بأصوات حسنة ، ثم مات عز الدين وبقي الشيخ الصلاح يقوم بهذه الوظيفة ، بت عنده ليلة في الزاوية المذكورة رحمه الله وكنت قد نظمت قبل ذلك أبياتاً في هذا المعنى وهي : (١)

صان ربّي عن التبذّل علمي
فله الحمد بكرة وأصيلا
لم يشنْ بالسؤالِ وجهي بـلْ
بارك فيما أعطى فكان جزيلا
وغنى النفس والقناعة كنـ
ـزان فكأنا لمّا ذكرت دليلا
كم رأينا من عالم عزّ بالعلم
وأضحى بالحرص منه ذليلا
احفظ الله وابذل الفضل تغنم
من غنى النّفس عزّة وقبولا
تعرف إليه يعرفك في الشدّة
فاتبع فيما يقول الرسولا

(١) الذيل على الروضتين ص ٢٢٨ .

يفعل الله مايشاء فــلا تسخطن
وكن راضياً زماناً قليــلا

كل ماقد قضاه خــير لمن
آمن فاصبر عليه صبراً جميلا

وعدَ الصابرين خــيراً فأيقــن
أنّه كان وعــده مفعـــولا)

وعلى مايبدو فإن أحوال أبي شامة الماديّة لم تكن جيّدة بالمعنى الصحيح لكنه على مايبدو كان يتمثّل بسيرة شيخيه ابن عبد السّلام والسّخاوي وأمثالهما من أصحاب الفضائل والأخلاق والسّيرة الحميدة. فأبو شامة كان يمتلك قطعة أرض كان يستغلّها ، فتدرّ عليه بعض المال الذي ساعده على العيش الكريم في عدم إراقة ماء وجهه على أبواب أصحاب المناصب ، بل إنّنا نرى أباشامة وقد ترك العمل في المدارس من أجل تأمين عيشه ، وعمل في أرضه إلى أن درّت عليه غلالاً ملأت بيته، فهويقول عن عزلته وعن بقائه مكرهاً في مدارس الفقه مدرساً ، ويعد بأنّه سيتخلّص منها هي الأخرى :

نزّهت نفسي وعرضي — وصنت هذي البقيّـــة
لمـــا انعزلت ببيتي — قولاً وفعلاً ونيـــّة
وبقت غــلقتي بالـــ — ـمدارس الفقهيّــــة
وسوف أخـلص منها — حقاً ورب البريّة
إنّي عــبد ضعيف — أخـاف نعت المنيّــة
ولست أرضى لنفسي — دوام هذي البليّـــة
إلى الممــات فربّـي — (له هبات) عليّــة

وكأنّ معرفــــة الله النعمــــة الأخرويّـــة
أنا لهـــا بانشـــراح راضية مرضيّـــة

وقال أيضاً : رداً على الذين عتبوا عليه لتركه العمل الوظيفي واشتغاله بأرضه ، قال : (فيها - أي سنة إحدى وستين وستمائة . نظمت قصيدة في شرح الحال ، وكنت قد اشتغلت بزراعة ملك لي وعمارته . فانقطعت عن المدرسة فعوتبت ، فقلت (١) :

أيّها العاذل الذّي إن تحرّى
قـال خيراً ونال بالنّصح أجْرا
لاتلمني على الفِلاحةِ واعلمْ
أنّها من أحلّ كسب وأثـرى
كيف لا ألزم الفلاحـــة باقـي
عمري لازال حصداً وبـذرا
وبها صنتُ ماء وجهي عن النّـاس
جميعاً وعشتُ في القـوم حرّا
إذْ بها صار منزلي ذا غـــلال
مع عيالٍ من بعد ماكان قَفْرا
شبع الأهل والأقـارب والإلـ
زام منها فليس يشكون فقـرا

(١) الذيل على الروضتين ص ٢٢٢ - ٢٢٦ .

ولكمْ واقف ببابي يُعطـــى

صدقات من الغـــلّ وبـــرا

كم فقير وكم يتيم وكـــم

أرملة نال من نصيبي وفـــرا

وكذا الطير والبهائم تـــرعى

من زروع ومن ثمار تـــترى

كـــل ذا فيه الأجـــر جـــاء

أحاديث بهـــذا الأئمـــة تقْرا

اتخذْ حرفةً تعيـــشُ بهـــا

ياطالب العلم إنّ للعـــلم ذكرا

لاتهنه بالاتكّـــال على الوقـــ

ـف فيمضي الزّمان ذلاً وعسرا

إنمّـــا تحصـــل الوقوف لشريـ

ـرٍ ونذلٍ من العلوم مُـــبرا

أو لمنْ يلزم الأكـــابر لايـــ

برح في خدمة لهم ومدح وإطرا

طالباً جاههُمْ مجيباً إلـــى كـ

ـلّ أمورٍ لهم عكوفاً مصـــر

فترى قاضي القضـــاة ومَنْ يـــذ

كر درساً يرعاهُ سرّاً وجهـــرا

قاصداً قربهُ فيصغي إليـــــه
فاعلاً مايـــريد نفعاً وضــــرا

والضعيف المشغول بالعـــلم يلقـــى
من ولاة الوقوف هجراً وهجـــرا

وهو المستحقّ لو أبْصروا الحـ
قّ ولكنْ عـَموا فياربّ غفرا

إنّما كانت المـــدارس عونـــاً
لأولي العلم حسب في النّاس طرّا

درست في زمـــاننا إذ تــــولاّ
ها أولُو الجهل والحماقة قهرا

قرّبوا شبههم وأقصوا وآذوا
حامل العلم أسكنوه قـــبرا

وتراهـُمْ لايحـــزنون لهـــذا
إنّهم في الضـــلال والغيّ سـَكْرى

يالــــه منصباً تداولــــه من
ليس أهلاً لــــه دهاء ومكرا(١)

جعلوا موضع المفقـّـــه والمــر
شد مـَنْ لايدري وفي الشرّ يدرى

(١) يريد بذلك منصب الوقف (اي مايسمى في عصرنا مدير الاوقاف) الذي يشرف على اموال الاوقاف ويوزع منهـا الهبات للمستحقين من العاملين عليها ، ويعين االمدرسين في المساجد والمدارس الدينية .

وأولو الأمر المالكـون يظنـو
نَ صواباً فيهم وخيراً وطُهْرا
فإذا مارأوهُـمْ هكـذا كـا
نَ لهم فعلهُمْ على الظُّلـمِ أغرى
ويظنّونَ كلّ صاحب علـمٍ
هكذا فعلـهُ فيجعل جـسرا
فعليك المعاش ياطالـب العلـم
ولا تـترك المعيشـة كبرا
واقتنع بالّـذي تسهل واشـكر
تجد الرّزقَ فاضَ فيضاً ودَرّا
واترك الوقفَ إذ جرت صورة الأم
ر كذا بينهم فبئس المجـرا
اجتنب فعلهم توكل عـلى الحـ
يِّ الذّي لايموت واسأله سترا
كُنْ أبيّاً لما يشين أما تأ
نف من أن يكونَ عيشك يـرزى
إذ يقالُ الأوقاف أوساخ الأمـوا
ل كوقف الزمنى ووقف الأضرا
والمساكين واليتامـى فـكلّ
صدقات منها اللّبيب تـبرّا
لايرى أنّهُ يُشاركُ ذي الأصـ
ناف فيها يعيشُ عيشاً مُـرّا

فجفاها مع أنّه مستحقٌّ الـ
وقف مايستغلّ منه ويُكرى
فدع العجز ياأبي إذا أنـ
صفت في الفكر لم تجدْ لكَ عُذرا
لاتُزاحم ولا تكاثر بما تأخذ
منه فقد عرفت الأمرا
وإن احتجت خُذْ كفافاً بكرهٍ
وبعزمٍ أنْ لايدوم العُمْرا
كانَ من قبلنا أئمّة هذا الدّ
ين والوقف بعد ذاك استقرّا
لم يكن ذاك مانعاً طالب العلم
من العلم فاقْفُ ذاكَ الأَثرا
معطياً كُنْ ودَعْ من الوقفِ أخذاً
إنّ يدَ الإعطاء أعلى وأرفعُ قَدْراً
صدقاتُ الوقوف ينفرُ منها
كلّ حر تأتيه صفواً ويُسْرا
كيف حال الّذي يذلُّ لها
بالقول والفعل كي يحصلَ نزرا
دائباً في التّردّد آتٍ صفيق الـ
وجه عند اللّقاء شيئاً أمرّا

ذاهب العمر في النّفاق وفي الـ
خدمة لايألى ذهاباً ومرّا
بائعاً دينه بدُنيا غيره
لقد خابَ بائع الدّين خسرا
لاحياء لـه ويطلب مـاليس
بحقٍّ لهُ لقد جاءَ نكرا
فلهذا اعتزلتُ يارب ّ تمّمْ
مابه قد منَنْتَ إنّك أدْرى
ثم لو لم يكن تصدق بالوة
ف لقد كان البُعْدُ عنه أحرى
حين صدّ صار الأخذ منه يسمى
منصباً فيهم يباعُ ويُشترى
فتعاطاهُ صاحب المال والجاه
فزالَ المقصود منه وضرّا
وأقاموه في المواريث حتى
أخذوه إرثاً صغاراً وكبرا
وغدا المستحق حيران ندما
ن من الغبن ينظرُ العيشَ شذرا
تبّتَ اللهُ بعضهم بغى النّفـ
ـس فلم يكترث وقد عاش دهرا

حُبُّ هذه الدّنيــا أصمّ وأعمى

أخذَ الوقفَ أغنياءُ وأغــرى

وأولو اللبّ والعقول يــرون الـ

أخذَ منه مع الغنى عين أزرا

والفقير الحريـــص منهـــم مكـــدّ

وكذا من يسألها مــع الإثــرا

غير أنّ الفقـــير يعذر فيهـــا

والغنّي الغبيّ يرمى ويـــذرى

عجباً من مــدرسين قضــــاة

يتبـــارون في اللّبـــاس بطرا

وهم في نفوسهم في عظـــيم

يركبون البغالَ عزاً وزهــرا

حقّ كلّ منهُمْ يكونُ حزينــــاً

إنْ أجادَ المغنى وأحسنَ فكرا

أبداً ذا يعيش بصدقــات الـ

ــنّاسِ باسْمِ الوقفِ لايتبرّا

وعليه من الشــروط تكاليــف

فإن لم يقم بها فهــو أدرى

كم رأينا مدرساً ومولـــــى

حقّهُ أن يكونَ منـــه معرا

ضحكة للورى المدرس والحـــا

كم تلقى وليس يحسن يقـــرا

يالها وصمة على أهـــل ذا الـــ

ـعصر يكفيك ما رأينـــاه خـــبرا

إنّ منهم من كـــان يلثـــغ بالقاف

ومنهم من كان يلثغ بالـــرّا

وهما من أماثل القوم فاعجـــب

واعتبر وانشر الغرائب نشـــرا

والّذي ألبس القباء ذا الكـــــ

ـنة والظالم المردى المهـــرا

والذي كاتبَ التّاتار ومن سارَ

إليهم قصداً فـــأثنى وأطـــرى

والّذي قد أتى الفواحـــش واستكبر

فاسأل ماذا جرى إذا تجـــرى

والّذي ميلـــه إلى نظم ذو

بيت وتقريب من يذاكر شعرا

ولـــه في أكل الحشيشـــــة رأي

وافق الفرع فيه ليلاً وفجرا

ولديه أبو الفـــوارس مهـــتر

بما رمى الشباب عجباً وسكـــرا

فتولّى المناصب والأشيـاخ قـ

ـد عطلوا فيشكون صغـرا

ورعاة العدل الرضى حـاضراً

مجلس الإثبات شاهداً مستمرّا

قائلاً ذا أثنى عليـه بنو علّـ

ـان والأقربون أولاد صَصْـرا

قيلَ لاتعتمد عليهم لهـم أغـ

ـراض سوء زوراً وبهتاً ووزرا

عُدْ واسأل سواهم تعـرفُ الحـ

ـقّ فإذا أعذرتني نلْتَ إصـرا

أنتَ في حقّ غيره واقف إنْ

كنت بالشّام أو تفـارق مِصْرا

عجباً مانراكَ بـه توقـف

لقد بثّ أمره مِنّكَ سـرّا

كلّما قُلْتَ دولة الحاكم الجابر

زالت قامت علينا أخـرى

وتصدّوا لأكل الأوقـاف حـتّى

ذمّهُمْ عارفوه نظماً ونَثْرا

فلذا صارت المعيشـة أولـى

بأولي العلم والصلاح وأحرى

ولقد كنت قبلها من غنى النّفس

ملياً فالحمد لله شـــكرا

بيد أنّي أنفتُ من صدقــات

الفقه شبّهتها بوقف الأســرى

وتأنّفتُ من مزاحمــة النّــذ

ل عليها يرى الوقاحة فخــرا

فتمنيت مـــنذ زمـــان أرى

رزقي عنها بمعزل فاستَـقَـدرّا

بارك الله في المعاش كمــا

شاء له الحمد إذ بدا واستمرا

فأنا اليوم أنزهُ القوم نفســاً

بخلاصي منهم وأروح ســـرّا

حسدتني جماعة قال منهم

قائل ذا ومن أين أثــرى

ويحهم ربّنا هـــو الرزاق

يُعطي قلاّ ويعطي كـــثرا

عنده الملتقى فيا خجلــة المغ

تاب والمفتري الذي هو أجرى

مايبالي ما ذا يقـــول سنجـــزى

في غد حين يحشر النّاس حشرا

ولئن قلت الأصل كان من الوقف

فمـــا ضرّ ذا ولا بــــيّ أزرى

سبباً كان إنّما اتجّـــه الاتّـــو

م على من عـــلى الوقوف أصرّا

كسلاً غـــير عاجز عن معـــاش

فهو كل على الورى ليس يسبرى

صانني الله عن مزاحمـــة القو

م على منصب فيـــارب صبرا

يارب سلّم فيما تبقّى ولا تحـــوج

إلى مـــن يستعبد النّاس قسرا

فتراهم لأجـــل حاجتهـــم بـــين

يديه في قضيّة الذلّ أسْـــرى

أقرب النّاس عنـــده دو نفـــاق

حين يسقيه من محـــال الإطرا

مَنْ يخالف يقصى ومَنْ وافـــق

القوم يكن مثلهم فحسبك شرّا

جملة الأمر ذا فكم قد سررنا

وشرحنا بما ذكرنـــاه صـــدرا

كلّ من كان منصفاً عرف الحقّ

فقد شاع الأمر بـــراً وبحرا

عدّ أبياتها هنيدة عمرة
باعدادها وطوّلت عمرا
وأرى أنّها ستُزاد عشراً
في أمور جرت وعشراً وعشرا

وهكذا تبرز لنا هذه الأبيات معاناة أبي شامة مع أصحاب السلطة وذوي الشأن ، كما تظهر فيها عفته وقناعته وعزة نفسه، فهو يطالب ذوي العلم أن يعتمدوا على أنفسهم في تأمين معاشهم ، وأن لايحطوا من قدرهم وقدر علمهم بالوقوف على أبواب ذوي السلطة، بل عليهم أن يجدوا حرفة تمكنهم من عيشهم بحرية وتبعدهم عن عبودية ذوي السلطة وعن التزلّف والمصانعة .

* * *

تلاميذه :

تلاميذ أبي شامة كُثُر فنحن نعلم أنه كان يدرس في المدرسة العزيزية والمدرسة العادلية والمدرسة الركنية — سنة ٦٦٠ هـ — قال هو عن نفسه : (ثم دخلت سنةستين وستمائة ففي يوم الاربعاء ثاني عشر المحرم ذكرت الدرس بالمدرسة الركنية ... وابتدأت بها درساً في مختصر المزني رحمه الله بحضرة قاضي القضاة وغيره) (١) .

---

(١) الذيل ص ٢١٦ .

ويقول في أحداث سنة (٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ م) : (توفي القاضي الخطيب عماد الدين ... المعروف بابن الحرستاني...وتوليت مكانه بدار الحديث الأشرفية ، وحضر فيها عندي أول يوم ذكرت الدرس فيها : قاضي القضاة (١) وأعيان البلد من المدرسين والمحدثين وغيرهم، وكان بحمد الله وحوله وقوته مجلساً جليلاً عليه سكون وإخبات وجلالة وإنصات من الحاضرين) (٢) . وهذه المدارس الثلاثة : هي من أصل مدارس الشافعية التي هي داخل مدينة دمشق وهي خمس وثلاثون مدرسة (٣) .

ومن هنا يمكننا التعرف على هوية تلاميذه فهم: قضاة وأعيان البلد من المدرسين والمحدثين إضافة إلى طالبي العلم من التلاميذ ، وتتحدث المصادر عن عددمن تلاميذه الذين رووا عنه وهم : الشيخ أحمداللبان، وبرهان الدين الاسكندراني ،وشرف الدين الفزاري الخطيب ، وشهاب الدين الكفري ،وعلي بن المهيار وولده أبو الهدى أحمد (٤) .

ويتحدث ابن الجزري في كتابه طبقات القراء : أن الشيخ شرف الدين أحمد بن سباع الفزاري الخطيب وإبراهيم بن فلاح الإسكندري ،أخذا عنه الحروف وشرح الشاطبية ، ويذكر الكتبي في كتابه فوات الوفيات معهم اسم زين الدين أبي بكر بن يوسف المزي ، وأخذ عنه القراءات الشيخ شهاب الدين حسين بن الكفري ،

---

(١) قاضي القضاة هو : شمس الدين أحمد بن خلكان . انظر السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٨٢ .

(٢) الذيل على الروضتين ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .

(٣) في رحاب دمشق ص ٧٤ .

(٤) تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٤٦١ .

وأحمد ابن مؤمن اللّبان ، وسمع عنه الحافظ أبو طاهر السلفي وأبو الفرج الثقفي ،وأبو طاهر بركات بن إبراهيم الخشوعي وغيرهم(١).

* * *

وفاته :

يتحدث أبو شامة عن نفسه بأنّه قد جرى له في حياته محنتان :

الأولى حدثت سنة (٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م) (٢) فيقول عنها :

(وفي رابع عشر رمضان جرت عليّ حكاية من نائب التاتار ... واسمه إيل سبان لعنه الله وإيّاهم إهانة وتهديداً بضرب الرقبة على أن وضعت خطي لهم بمبلغ كبير من المال ظلماً وقهراً ، فلم تمض بعد ذلك اليوم إلاّ عشرة أيام حتى كسر التّتار بأرض كنعان بعين جالوت . .) .

والمحنة الثانية (٣) حدثت له سنة (٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م) يقول عنها : (وفي سابع جمادى الآخرة جرت لي محنة بداري بطواحين الأشنان ، فألهم الله الصبر ،وفعل الله تعالى فيها من اللطف مالا نقدر على التعبير عنه بوصف ، وكان قيل لي قُمْ واجتمع بولاة الأمر فقلت : قد فوّضت أمري إلى الله، فما أغير ماعقدته مع الله وهو يكفينا سبحانه، ومن يتوكّل على الله فهو حسبه، ونظمتُ في ذلك ثلاث أبيات :

قُلْتُ لِمَنْ قالَ أما تَشْتكي
ماقد جرى فهو عظيمٌ جليـل

(١) الذيل على الروضتين ص ٣٩ ، طبقات القراء ج ١ ص ٣٦٥ ، فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

(٢) الذيل على الروضتين ٢٠٩ .

(٢) المصدر السابق ٢٤٠ .

يقيضُ اللهُ تعـــالى لنـــا

من يأخذ الحقّ ويشفي الغليـــل

إذا توكّلنــــا عليـــه كفــــى

فحسبُنا الله ونعــــم الوكيل

ويتحدث ابن كثير فيقول : (وكانت وفاته بسبب محنة ، فقد ألّبوا عليه وأرسلوا إليه من اغتاله، وهو بمنزله بطواحين الأشنان ، وقد كان اتهم برأي،الظاهر براءته منه ، وقد قال جماعة من أهل الحديث وغيرهم (١) : (أنّه كان مظلوماً ولم يزل يكتب في التاريخ حتى وصل إلى رجب من هذه السنة — أي سنة ٦٦٥ هـ — نذكر أنه أصيب بمحنة في منزله بطواحين الأشنان ، وأن الذين قتلوه جاؤوه قبل فضربوه ليموت فلم يمت، فقيل له: ألا تشتكي عليهم؟ فلم يفعل ... وكأنّهم عادوا إليه مرّة ثانية وهو في المنزل المذكور فقتلوه بالكلية في ليلة الثلاثاء تاسع عشر رمضان رحمه الله ،ودفن من يومه بمقابر دار الفراديس ، وباشر بعده مشيخة دار الحديث الأشرفية الشيخ محيي الدين أبو زكريا بن شرف الدين النووي) .

وقال أيضاً : (وهذا أيضاً ممن ينشد في ترجمته :

مازلْتَ تكتب في التـــاريخ مجتهـــداً

حتى رأيتُكَ في التّاريخ مكتوبا

---

(١) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٤٦١ ، ذيل مراة الزمان ج ١ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ ، العبر ج ٥ ص ٢٨١ ، طبقات الشافعية ج ٥ ص ٦٢ — ٦٣ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٥١ ، طبقات القراء ج ١ ص٣٦٦ ، بغية الوعاة ج ٤ ص ٧٨ ، الدارس ج ١ ص ٢٤ ، شذرات الذهبج ٥ ص ٣١٩ ، البداية والنهاية ج١٣ ص٢٥١.

ويناسب أن ينشد هنا :

إذا سيّد منّا خلا قام سـيد

قؤول لمـا قال الكرام فعول)

وكان أبو شامة قد أوقف مؤلفاته وجميع مايملكه من كتب بخزانة العادلية ، وشرط شروطاً ضيق فيها — أي أن لاتخرج —. فيقول ابن العماد : (مما أوجب إلغاء شروطه بالكلية وعدم التقيد بشيء منها ، فاحترقت جملة) . ويظهر لنا تناقض ما يذكره ابن العماد عن كتب أبي شامة وغيرها فهو يعترف بعدم التقيد بشروط أبي شامة من جهة ، أي أن كتبه كانت في متناول الجميع ، إنما ننفي احتراق جميع محتوياتها ، فعلى الأقل سلم منها ماكان في حوزة المثقفين على سبيل الإعارة للاطلاع والمعرفة .

* * *

مؤلفاته :

تتحدّث المصادر عـن مصنفات كثيرة لأبي شامة جلها تتعلق بأمور الدين والفقه والحديث واللغة والعروض وهي :

— شرح مدائح النبي للسخاوي وهي أولى مصنفاته في مجلد واحد .

— إبراز المعاني في حرز الأماني : شرح فيه قصيدة الشيخ الشاطبي وهما شرحان أكبر لم يتمه، والأصغر نهاه في مجلّدين .

— الكتاب المرقوم في جملة من العلوم : يجمع عدة مصنفات في مجلدين :

الأول فيه : خطبة العلم الكبرى التي سماها : خطبة الكتاب (المؤمل للرد إلى الأمر الأول) .

والثاني كتاب : نور المسرى في تفسير آية الإسرا : (واختار فيه أن الإسراء بالنبي صلّى الله عليه وسلّم إلى بيت المقدس وإلى السموات، وقع مرتين أو مراراً : تارة في المنام، وتارة في اليقظة . قال : وعلى ذلك يخرج جميع الأحاديث على اختلاف عباراتها والاختلاف في المكان الذي وقع فيه الإسراء . قال : وهذا القول نصره الإمام أبو نصر ابن الأستاذ أبي القاسم القشيري في تفسيره . واختاره أيضاً أبو القاسم السهيلي ، وحكاه عن شيخه أبي بكر بن العربي ، وحكاه ابن المهلب بن أبي صفرة في شرح البخاري عن طائفة من العلماء ، وتعقب فيه قول السهيلي مستدركاً قول أهل اللغة : أن أسرى وسرى لغتان بمعنى واحد . اتفقت الروايات على تسمية إسراء ، ولم يسمه أحد سرى ، فدل على أن أهل اللغة لم يتحققوا العبارة . إلى آخر ماذكر السهيلي . فقال أبو شامة : إنما أطبق الناس على تسمية إسراء محافظة على لفظ القرآن وإلا فقد جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي . ومن فوائده في هذا الكتاب قال : افتتح الله سبحانه سور كتابه العزيز بعشرة أنواع من الكلام .

الأول . الثناء في أربع عشرة سورة ، إمّا بالإشارة إلى إثبات صفات الكمال في سور سبع : الحمد لله في خمس سور ، وتبارك في

(١) طبقات الشافعية ج ٥ ص ٦١ — ٦٢ .

سورتين ، وإمّا بالإشارة إلى نفي صفات النقص في سبع أخرى سبحان سبّح يسبّح سبح .

الثاني — حروف الهجاء في تسع وعشرين سورة .

الثالث — النداء في عشر سور .

الرابع — الجمل الخبرية نحو (براءة) ، (أتى أمر الله) في ثلاث وعشرين .

والخامس — القسم في خمس عشرة .

والسادس — الشرط بإذا في سبع .

والسابع — الأمر بقُلْ واقرأ في ست .

الثامن — الاستفهام بما ،عم ،وهل ، والهمزة في ست .

التاسع — الدعاء بويل ، وتبت في ثلاث .

العاشر — التعليل في سورة واحدة وهي : لإيلاف قريش .

ثم نظم أبو شامة هذه الأنواع في بيتين وهما (١) :

أثنى على نفسهِ سبحانه بثبـــو
ت المدح والسلب لمّا استفتحَ السّوَرا

والأمر شرط الندا التعليل أقسم والد
عاء حرف الهجاء استفهم الخـــبرا

ومن تصانيفه أيضاً :

— شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى .

— وكتاب : ضوء الساري إلى رؤية الباري .

---

(١) طبقات الشافعية ج٥ ص ٦١ — ٦٢ .

- وكتاب : المحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول.
- وكتاب : البسملة الكبير ، ومختصره الصغير .
- وكتاب : الباعث على إنكار البدع والحوادث .
- وكتاب : السواك .
- وكتاب : الواضح الجلي في الرد على الحنبلي .
- وكتاب : إقامة الدليل الناسخ لجزء الفاسخ .
- وكتاب : الأصول من الأصول .
- وكتاب : المرشد الوجيز في علوم تتعلق بالقرآن العزيز .
- وكتاب : مفردات القراءة .
- وكتاب : شيوخ الحافظ البيهقي .
- وكتاب : مقدمة في النحو .
- وكتاب : الألفاظ المعربة .
- وكتاب : القصيدة الدامغة . وقصيدتان في منازل طريق الحج .
- وكتاب : نظم (مفصل) الزمخشري .
- وكتاب : نظم العروض والقوافي .
- وكتاب : شيء من متشابه القرآن .
- وكتاب : شرح عروس السمر .

ويتحدث في الذيل على الروضتين أنّه (ابتدأ كتباً كثيرة ، لم يتفق إلى الآن إتمامها ، ونجز في سنة تسع وخمسين وستمائة التي تعقبها سنة ستين فيها :

كتاب جامع أخبار مكة والمدينة وبيت المقدس شرفهن الله تعالى.

- وكتاب : تقيد الأسماء المشكلة .
- وكتاب : رفع النزاع بالرد إلى الأتباع .
- وكتاب : المذهب في علم المذهب .
- وكتاب : نية الصيام ومافي يوم الشك من الكلام .
- وكتاب : شرح نظم المفصل .
- وكتاب : الإعلام بمعنى الكلمة والكلام .
- وكتاب : شرح لباب التهذيب .
- وكتاب : الأجوزة في الفقه .
- وكتاب : ذكر من ركب الحمار .
- وكتاب : مشكلات الآيات .
- وكتاب : مشكلات الأخبار .
- وكتاب : كتاب القيامة .
- وكتاب : شرح أحاديث الوسيط .

وتعاليق كثيرة في فنون مختلفة من غير ترتيب على طريقة التذكرة لأبي علي الفارسي ،وأمالي ثعلب ، وأمالي الزجاجي ،ونحو كتاب المجالسة واختصار جملة من الدواوين).

ونحن نعلم أن أبا شامة أول ماتلقى من العلم، تلقى العلم الإسلامي وشغف به وتعلمه وعلمه، لهذا نرى في آثاره التي أسلفنا بصماته واضحة تعكس لنا ثقافته وعلمه في علم القراءات والحديث والفقه ، وتظهر لنا أيضاً مقدرته ومهارته في تعاليم اللغة وآدابها .

أما مؤلفاته في التاريخ فهي (١) :

- اختصار تاريخ دمشق لابن عساكر في خمسة عشر مجلداً، ثم اختصار هذا المختصر في خمسة مجلدات .

- كشف حال بني عبيد : وهو كما يبدو من اسمه : محاولة للتأريخ للفاطميين من زاوية فيها عداء ، وهذا شبيه بالخلاصتين اللتين أعدّهما لتاريخ دمشق لابن عساكر .

- السيرة العلائية .

- مختصر تاريخ بغداد .

- وجميع مؤلفاته بحكم المفقودة ، وليس لدينا سوى كتاب (نزهة المقلتين) والذي كان بحكم المفقود ، وقد أمكن العثور على نسخة مصورة لهذا الكتاب (٢) .

وكتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) .

وكتاب (عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) الذي بين أيدينا .

وكتاب تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، المعروف بـ (الذيل على الروضتين) .

---

(١) انظر الذيل ص ٣٩ - ٤٠ ، ذيل مراة الزمان ج ١ ص ٣٦٨ ، تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٤٦٠ - ١٤٦١ ، فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٧٠ ، مراة الجنان ج ٤ ص ١٦٤ ، طبقات الشافعية ج ٥ ص ٦١ - ٦٢ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٥٠ ، طبقات القراء ج ١ ص ٣٦٥ - ٣٦٦ ، بغية الوعاة ج ٤ ص ٧٧ - ٧٨ ، شذرات الذهب ص ٣١٨ - ٣١٩ .

(٢) انظر صورة الورقة الاولى والثانية في نهاية المقدمة .

شعر أبو شامة بعد أن تلقى علومه الدينية و الأدبية أن ثقافته لن تتم إلا بدرسه للتأريخ ، فهو يقول في ذلك : (أما بعد فإنه بعد أن صرفت جل عمري ومعظم فكري في اقتباس الفوائد الشرعية ، واقتناص الفرائد الأدبية ، عنّ لي أن أصرف إلى علم التأريخ بعضه ، فأحوز بذلك سنة العلم وفرضه ، اقتداء بسيرة من مضى من كل عالم مرتضى ، فقلّ إمام من الأئمّة إلاّ ويُحكى عنه من أخبار من سلف فوائد جمّة منهم : إمامنا أبو عبدالله الشافعي رضي الله عنه ، قال مصعب الزبيري : مارأيت أحداً أعلم بأيام النّاس من الشّافعي ، ويروى عنه أنه أقام على تعلم أيّام الناس والأدب عشرين سنة ، وقال : ماأردت بذلك إلاّ الاستعانة على الفقه . قلت : وذلك عظيم الفائدة جليل العائدة وفي كتاب الله تعالى وسنّةرسوله صلّى الله عليه وسلّم من أخبار الأمم السالفة وأنباء القرون الخالفة مافيه عبر لذوي البصائر واستعداد ليوم تبلى فيه السرائر . قال الله عز وجلّ وهو أصدق القائلين (١) : «(وكلاّ نقص عليك من أنباء الرّسل مانثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين)» .

وقال سبحانه وتعالى: « (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مُزْدَجَر . حكمة بالغة فما تُغْنِ النذر) » (٢) وحدّث النّبي صلّى الله عليه

---

(١) سورة هود الآية ١٢٠ .

(٢) سورة القمر الآية ٤ — ٥ .

وسلمّ بحديث أم زَرْع وغيره مما جرى في الجاهلية والأيام الإسرائيلية ، وحكى عجائب مارآه ليلة أسري به وعرج ، وقال : حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج .

وفي صحيح مسلم عن سماك بن حرب فقال : قلت لجابر بن سمرة أكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : نعم كثيراً ، كان لايقوم من مصلاه الّذي صلّى فيه الصبح والغداة حتّى تطلع الشمس ، فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم .

وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كان نبي الله صلّى الله عليه وسلّم يحدثنا عن بني إسرائيل حتّى نصبح مايقوم إلاّ إلى عظم صلاة .

قلت : ولم تزل الصحابة والتابعون فمن بعدهم يتفاوضون في حديث من مضى ، ويتذاكرون ماسبقهم من الأخبار والقصص ، ويستنشدون الأشعار ويتطلبون الآثار والأخبار ، وذلك بيّن من أفعالهم ، لمن اطلع على أحوالهم ، وهم السّادة القدوة ، فلنا بهم أسوة ، فاعتنيت بذلك وتصفحته ، وبحثت عنه مرة وتطلبته فوقفت والحمد لله على جملة كبيرة من أحوال المتقدمين والمتأخرين من الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين ، والخلفاء والسلاطين ، والفقهاء والمحدثين ، والأولياء والصالحين ، والشعراء والنحويين ، وأصناف الخلق الباقين ، ورأيت أنّ المطلّع على أخبار المتقدمين كأنّه قد عاصرهم أجمعين .....) (١) .

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٢ — ٣ .

لكن الاطّلاع واختزان المعلومات التاريخية شيء ، والاشتغال في علم التأريخ كتابة وتأليفاً شيء آخر . ويبدو أنّ أباشامة أدرك هذه الناحية ، لذلك عكف على كتاب (تاريخ دمشق) لابن عساكر ، ولخّصه وهذّبه ، وزاد فيه فوائد . وقد قام بهذا العمل مرتين ، الأولى اختصره في خمسة عشر مجلداً . والثانية في خمسة مجلدات كما أسلفنـــا .

فأبو شامة دمشقي الولادة والنشأة ، تراوده رغبة في تأليف كتاب في التاريخ ، ودمشق لم تعد ذات موضوع بالنّسبة إلى مؤلّف يريد أن يختص بموضوع يشق طريقه به ، لأنّ ابن عساكر قد كتب عن دمشق ، وأبوشامة قام بتلخيصه ، وكما قال : قد زاد فيه فوائد . إذن فدمشق خرجت من حسابه كموضوع يبحث فيه .

ويخيل إلينا أن مؤلفنا قد مرّ عليه وقت ، وجد فيه نفسه مؤرخاً يبحث عن موضوع ، فهل كان يبحث عن بطل في حياته وتصرفاته ، أمثلة تحتذى ؟ وإذا صحّ هذا فهل بدأ البحث من هذه النقطة .

فيكفي أن نطلع على مقدمة المؤلف لكتابه (الروضتين) ونقرأ عباراته التي يقول فيها (١) : (فعمدت إلى أكبر كتاب وضع في هذا الفن على طريقة المحدثين وهو تاريخ مدينة دمشق — حماها الله عزّ وجل — الذي صنفه الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن العساكري رحمه الله وهو ثمانمائة جزء في ثمانين مجلدة فاختصرته وهذّبته ، وزدته فوائد من كتب أخرى جليلة وأتقنته ، ووقف عليه

(١) انظر الروضتين ج ١ ص ٢ — ٤ .

العلماء ، وسمعه الشيوخ والفضلاء، ومرّ بي فيه من الملوك والمتأخرين : ترجمة الملك العادل نور الدين ، فأطربني مارأيت من آثاره وسمعت من أخباره مع تأخر زمانه وتغير خلاّنه ، ثم وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين ، فوجدتهما في المتأخرين كالعمرين رضي الله عنهما في المتقدمين فإن كل ثانٍ من الفريقين حذا حذو من تقدمه في العدل والجهاد ، واجتهد في إعزاز دين الله أي اجتهاد ، وهما ملكا بلدتنا ، وسلطانا خطّتنا ، خصّنا الله تعالى بهما ، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما ...).

وإذا كان مؤلفنا يبحث عن بطل — وهذا مانعتقده — فقد وجد على مقربة ، فقد وجد بطلين وهما كما يقول عنهما : (ملكا بلدتنا وسلطانا خطّتنا ، خصّنا الله تعالى بهما فوجب علينا القيام بذكر فضلهما...) وهنا يدخل عنصر آخر ، هو عنصر الوطنية المحلية ، وهي صفة من صفات الكتابة التـــاريخية في القرون السادس والسابع والثامن الهجري / الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر الميلادية.

فالبطلان نور الدين الزنكي وصلاح الدين الأيوبي كانا سلطانين لدمشق ويشعر أبو شامة بشيء من الاعتزاز والزهو لأنّهما ملكا بلدته وسلطانا خطته .

ثم يضيف أبو شامة (فعزمت على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف يتضمن التقريظ لهما والتعريف ، فلعلّه يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك السلوك فلا يبعد أنّهما حجّة من الله على الملوك المتأخرين وذكرى منه سبحانه (١) « (فان الذكرى تنفع

(١) سورة الذاريات — الآية ٥٥.

المؤمنين)) فانّهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين ومن حذا حذوهم من الأئمـــة السابقين ، ويقولون نحن في الزمن الأخير وما لأولئك من نظير ، فكان لما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم بمن هو في عصرهم من بعض ملوك دهرهم ، فلن يعجز عن التشبه بهما أحد إن وفق الله الكريم وسدّد ، وأخذت ذلك من قول أبي صالح شعيب بن حرب المدائني رحمه الله ، وكان أحد السادة الأكابر في الحفظ والدين ، قال : إنّي لأحسب يجاء بسفيان الثوري يوم القيامة حُجّة من الله على هذا الخلق ، يقال لهم : إن لم تدركوا نبيّكم فلقد رأيتم سفيان ألا اقتديتُمْ به ؟ وهكذا أقول : هذان الملكان حُجّة على المتأخرين من الملوك والسلاطين ، فللّه درّهما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة وجميل السريرة وهما حنفي وشافعي ....) (١) .

وهكذا وطّد أبو شامة العزم على وضع كتاب يتضمن تاريخ الدولتين النوريّة والصلاحية . وصلاح الدين توفي في سنة (٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) أي قبل ولادة أبي شامة بعشر سنوات . فكان من الطبيعي لزاماً عليه أن يعتمد على ماكتب وألف من قبل للوصول إلى أخبار هذين الملكين فنقل ووازن وقارن وغربل ونخّل ومن ثم أعطانا هذا الكتاب القيم عن الفترة الممتدة من (٥٢١ هـ / ١١٢٧ م) إلى نحو (٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م) ثم أعاد تأليف كتاب (الروضتين) في كتابه الّذي أسماه : عيون الروضتين — وتطلق عليه المصادر اسم مختصر الروضتين — ويتضمن هذا الكتاب الفترة الممتدة من

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٤ .

(٥٢١ هـ / ١١٢٧ م) إلى نحو (٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م) – أي نفس الفترة التي تضمنها كتاب الروضتين – ثم كتب فيما بعد تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين الذي بدأه في سنة (٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م) وانتهى إلى سنة (٦٦٥ هـ/١٢٦٨ م) وهي السنة التي مات فيها .

مصادر المؤلف في كتاب الروضتين وكتاب عيون الروضتين :

اعتمد أبو شامة في كتابه (الروضتين) على مؤلفات وكتابات من سبقه : فهو يقول (وقد سبقني إلى تدوين مآثرهما – قصد نور الدين وصلاح الدين – جماعة من العلماء ، والأكابر الفضلاء) .

فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي في تاريخه ترجمة حسنة لنور الدين محمود بن زنكي رحمه الله ، ولأجله تم ذلك الكتاب ، وذكر اسمه في خطبته .

وذكر الرئيس أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي المعروف بابن القلانسي في مذيل التاريخ الدمشقي قطعة صالحة من أوائل الدولة النورية إلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة – وهي السنة التي مات فيها .

وصنّف الشيخ الفاضل عز الدين أبو الحسن علي بن محمد ابن عبد الكريم الجزري عرف بابن الأثير مجلّدة في الأيام الأتابكية بأكملها وما جرى فيها وفيه شيء من أخبار الدولة الصلاحية لتعلّق إحدى الدولتين بالأخرى ، لكونها متفرعة عنها .

وصنّف القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف ابن رافع بن تميم الموصلي عرف بابن شداد قاضي حلب مجلّدة في الأيام

الصلاحية وسياق ماتيّسر فيها من الفتوح واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين رحمه الله تعالى .

وصنّف الامام العالم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني كتابين : كلاهما مسجوع متقن بالألفاظ الفصيحة والمعاني الصحيحة ، أحدهما الفتح القدسي : اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين وسيرته فاستفتحه بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، والثاني البرق الشامي : ذكر فيه الوقائع والحوادث من الغزوات والفتوحات وغيرها مما وقع من سنة وروده دمشق وهي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة إلى وفاة صلاح الدين وهي سنة تسع وثمانين . فاشتمل على قطعة كبيرة من أخبار أواخر الدولة النورية .

إلاّ أنّ العماد في كتابيه طويل النفس في السجع والوصف ، يمل الناظر فيه ، ويذهل طالب معرفة الوقائع عمّا سبق من القول وينسيه ، فحذفت تلك الأسجاع إلا قليلاً منها استحسنتها في مواضعها ، ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع نحو ماستراه من أخبار فتح البيت المقدّس شرّفه الله تعالى . وانتزعت المقصود من الأخبار من بين تلك الرسائل الطوال والأسجاع المفضية إلى الملال ، وأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام ، واخترت من تلك الأشعار الكثيرة قليلاً مما يتعلّق بالقصص وشرح الحال وما فيه من نكتة غريبة وفائدة لطيفة.

ووقفت على مجلّدات من الرسائل الفاضليّة (١) مما يتعلق

---

(١) هناك نسخة من هذه الرسائل في استانبول ، لم نتمكن من الحصول عليها .

بالدولتين أو بإحداهما وبعضه سمعته من أفواه الرجال الثقاة ومن المدركين لتلك الأوقات ، فاختصرت جميع ما في ذلك من أخبار الدّولتين وما حدث في مدتهما من وفاة خليفة أو وزير أو أمير كبير أو ذي قدر خطير وغير ذلك ، فجاء مجموعاً لطيفاً وكتاباً ظريفاً يصلح لمطالعة الملوك والأكابر من ذوي المآثر والمفاخر ، وسمّيته كتاب الروضتين في أخبار الدولتين .....) (١) .

وإذا نحن نظرنا إلى هـذه اللائحة من الأسماء التي أشار إليها أبو شامة ، نجد أنّه لم يشر إلى يحيى بن أبي طي (٢) (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) مع أنّه نقل عنه الكثير ، ولم يشر أيضاً إلى أبي الفتح بنجة ابن أبي الحسن بن بنجة الاشتري (٣) رغم أنه نقل عنه أيضاً ، فلو أضفناه إلى ماسبق لأمكننا أن ننظم مصادره مرتبة على تواريخ الوفاة للمؤلفين على الشكل التالي :

١ - أبو يعلى بن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) .

٢ - ابن عساكر : تاريخ دمشق (ت ٥٧١ هـ /١١٧٥ م) .

٣ - القاضي الفاضل : الرسائل وغيرها (ت ٥٩٦ هـ /١١٩٩ م) .

٤ - العماد الكاتب : الفتح القدسي والبرق الشامي (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) .

٥ - يحي بن أبي طي : السيرة الصلاحية (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) .

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٤ — ٥ .

(٢) فوات الوفيات ج ٤ ص ٢٦٩ .

(٣) في الروضتين ج ١ ص ١٣ — ١٤ (كان معيد بالنظامية يقال له : أبو الفتح بنجه بن أبي الحسن بن بنجه الأشتري وكان ممن ورد دمشق وجمع لنور الدين سيرة مختصرة ...) .

٦ — ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، والباهر (ت٦٣٠هـ / ١٢٣٣ م) .

٧ — ابن شدّاد : النوادر السلطانية (ت ٦٣٢ هـ١٢٣٤ م) .

٨ — أبو الفتح بنجه : سيرة نور الدين .

لابد لنا بعد ذلك من التعرف إلى التخطيط العام الّذي اتبعه أبو شامة في التحدث عن بطليه ويمكننا أن نتساءل : ماهو التخطيط العام الّذي اتبعه ؟ بعد أن ينتهي أبو شامة من تقديم الذين كتبوا عن بطليه قبله نجده قد بدأ الكتاب في التحدث عن فضائل ومزايا صلاح الدين (١) لكن أباشامة شعر بشيء من الحرج الأدبي أثناء تعداده لفضائل صلاح الدين ونور الدين لايزال سيّده وسلطانه. صحيح أنّ أباشامة كان يؤرخ عن فترة ماضية ، وأن بطليه انتقلا إلى دار الخلود ، لكن سادته ولفتّرة متأخرة من حياته هم من البيت الأيوبي لذلك فالكتابة في ذلك الحين كان يقتضيها شيء من اللبّاقة لهذا فإنّنا نرى أبا شامة يشير إشارات مقتضبة وخفيّة أحياناً إلى أخلاق صلاح الدين إلى أن يتوفى نور الدين سنة (٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م) ، فمثلاً يشير إلى عدل صلاح الدين أثناء إشارته إلى عدل نور الدين فيقول : (فمن عدله — نور الدين — أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عُشراً بل أطلقها رحمه الله جميعها في بلاد الشام والجزيرة جميعها والموصل وأعمالها وديار مصر وغيرها من حكم عليه ، وكان المكس في مصر يُؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً ، وهذا لم تتسع له نفس غيره ......) (٢) .

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٥ — ٢٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٧ .

ويشير أيضاً إلى صلاح الدين وعدله(١) فيروايته لرجل غريب استوطن بدمشق لما رأى عدل نور الدين وبعد وفاة نور الدين اعتدى عليه بعض الأجناد ، (فشكاه فلم ينصف ، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي ، وقد شق ثوبه وهو يقول : يانور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا. أين عدلك ؟ وقصدتربة نور الدين ومعه من الخلق مالا يُحصى وكلّهم يبكي ويصيح ، فوصل الخبر إلى صلاح الدين ، فقيل له : احفظ البلد والرعية وإلاّ خرج عن يدك ، فأرسل إلى ذلك الرجل وهو عند تربةنور الدين يبكيوالنّاس معه وطيب قلبه ، ووهبه شيئاً ، وأنصفه فبكى أشد من الأول ،فقال له صلاح الدين : لم تبكي ؟ قال : أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته ....). وهنا إشارته إلى أحقيّة صلاحالدين وشرعيته باستلام السّلطة بعد وفاة نور الدين .

وأيضاً نجد إشارته إلى صلاح الدين اثناء حديثه عن مجلس نور الدين . قال(٢) : (ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس إلاّنجم الدين أيوب والد صلاحالدينيوسف وأمّا من عداه كأسد الدين شيركوه ومجد الدين ابن الداية وغيرهمافإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياماً إلى أن يأمرهم بالقعود ....) . وأشار إليه أيضاً في معرض حديثه عن حضور الحافظ ابن عساكر مجلس صلاح الدين وعدم تمكنه من التحدث إليه ، كما كان يفعل مع نور الدين (... لكثرة الاختلاف من المتحدثين وقلة استماعهم فقام ، وبقي مدة

---

(١) المصدر السابق ص ٧ - ٨ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٠ .

لايحضر المجلس الصلاحي ، وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه ، فقال : نزهت نفسي عن مجلسك ، فإنني رأيته كبعض مجالس السوقة ، لايستمع فيه إلى قائل ، ولا يرد جواب متكلم ... فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه ، أنه لا يكون منهم ماجرت به عادتهم إذا حضر الحافظ . .) وهذا مدح خفي إلى صلاح الدين .

أسلفنا أن أباشامة : بدأ كتابه باستعراض فضائل نورالدين ، وبعد ذلك نجده يتحدث عن أصل البيت الأتابكي ، ثم أفرد فصلاً عن مقتل الوزير نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق . وفصلاً عن حياة السلطان ملكشاه(١) ثم نجده قد عاد إلى ذكر أخبار زنكي (٢) والد نور الدين ، وتحدّث عن عماد الدين باقتضاب . وكان عماد الدين قد شغل دوراً في تاريخ المنطقة من عام (٥٢١ هـ إلى ٥٤١ هـ / ١١٢٧ م إلى ١١٤٦) لكن على ما يبدو لنا أن مايهم أباشامة هو : نور الدين ، فلا غرابة في ذلك أليس هو أول البطلين اللذين أراد الكتابة عنهما ، ويقدمهما مثلين للعمل الصالح والفضائل لمن يريد أن يعتبر ويتمثل بهما من أهل زمان أبي شامة من ملوك المسلمين وسلاطينهم ، وقد كان عددهم كبيراً وخاصة قبل دولة المماليك سنة (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م) ، فنراه يفرد عدداً كبيراً من صفحات كتابه لحياة نور الدين (ففي طبعة أبي السعود ج ١ من ص ٤٦ — ٢٢٧) حيث يفرد بعدها فصولاً في

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٥ — ٢٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧ — ٤٦ .

وفاة نور الدين رحمه الله تعالى وما تلاها من أحداث ، حيث يبدأ بعد ذلك عنايته الخاصة بصلاح الدين وتشغل حياة صلاح الدين وسيرته في (طبعة أبو السعود من ج١ ص ٢٣٥ إلى ج٢ ص ٢١٨) ، أما باقي الصفحات من الروضتين في طبعة (أبو السعود) فهي تتحدث عما تلا وفاة صلاح الدين مباشرة وباقتضاب ، وتشغل (ج٢ / ص ٢١٨ — ٢٤٥) . أما طبعة (حلمي) فتقف عند نهاية سنة (٥٧٣هـ) فهي تشمل من حياة صلاح الدين من (ص ٦٠٢ — ٧١٦) إلى نهاية المنشور .

ولابد لنا قبل أن نتعرف إلى طريقة تعامل أبي شامة مع مصادره أن نتحدث عن مصادره في محاولة لتقييمها وتوضيح أهميتها بشكل عام وموقف أبي شامة منها .

إن أقدم المصادر التي أفاد منها أبو شامة هو (ذيل تاريخ دمشق) لابن القلانسي ،وهو دمشقي خبير ببلده وربوعها وخبير أيضاً بشمال سورية ، وقد تولى رئاسة ديوان المدينة مرتين، وقد ترجم لابن القلانسي عدد من المؤرخين على رأسهم ابن عساكر ، ثم ياقوت ، وبعده الذهبي ، ولما ذكره ابن عساكر قال عنه : (حمزة بن أسد بن علي بن محمد أبو يعلى التميمي المعروف بابن القلانسي العميد ، كانت له عناية بالحديث ، وكان أديباً له خط حسن ونثر ونظم ... وصنف تاريخاً للحوادث بعد سنة أربعين وأربعمائة إلى حين وفاته، وتولى رئاسة ديوان دمشق مرتين) . وقال عنه ياقوت : (حمزة ابن أسد بن علي بن محمد ، أبو يعلى المعروف بابن القلانسي التميمي الأديب الشاعر والمؤرخ ، كان من أعيان دمشق ومن أفاضلها المبرزين ،

ولي رئاسة ديوانها مرتين...) ، ومن هنا الإشارة إليه باسم الرئيس لتوليه رئاسة الديوان – وهي وظيفة كبيرة – أتاحت له الفرصة للاطلاع على الكثير من دخائل الأمور ، وعلى ما يبدو أنه كان حريصاً على الاطلاع على الأمور الحربية والعسكرية (١) . وقد عدد محمد حلمي أحمد اقتباسات أبي شامة عن ابن القلانسي فوجدها سبعة وثلاثين اقتباساً (٢) .

وتاريخ ابن عساكر واحد من أهم المصادر لأبي شامة ، وأسلفنا أن المؤلف لخّص تاريخ دمشق لابن عساكر مرّتين وزاد فيه إضافات (٣) ، وأدركنا المدى الذي تأثر فيه أبو شامة بالمؤرخ ابن عساكر ، لذلك فلا حاجة لنا للوقوف عند هذه النقطة .

ولابد لنا من وقفة عند القاضي الفاضل ، وهو عبد الرحيم ابن علي البيساني(٤) ولي قضاء عسقلان (لهذا لقب بالقاضي)، ولما خرج إلى مصر ولي كاتباً بالإسكندرية على باب السدرة ، وكانت قدراته الإدارية والثقافية عالية ،وله خبرة مسبقة بالإدارة الفاطمية لمصر ، ثم عين كاتباً عند الوزير الكامل ابن شاور ، فلما طلب أسد الدين شيركوه كاتباً أرسل القاضي الفاضل إليه ، لأن زملاءه أرادوا أن يتخلصوا من منافسته لهم ، فعمل لأسد الدين ثم لصلاح الدين لا كاتباً فحسب بل وزيراً ونائباً عنه في مصر سنة (٥٨٥هـ – ٥٨٨ هـ) ومستشاراً يستشيره في الأمور الصعاب . والقاضي الفاضل عاصر الدولة الفاطمية

---

(١) و (٢) محمد أحمد : المقدمة ص ٢١ .

(٣) الروضتين ج ١ ص ٣ .

(٤) انظر الروضتين ج ١ ص ٤ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص٢٤ – ٢٥ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٣٢٤ – ٣٢٥ .

والدولة الأيوبية ، وكتب لأسد الدين ثم لصـــلاح الدين والذي كانت رسائلـــه هي المكاتبات الرسمية بين سيده والعالم الخارجي ، كان مصدراً هاماً لأبي شامة في رسائله وفي مؤلفاته التاريخية التي يبدو أننا فقدناها ولم يبق منها إلاّ ماحفظه لنا أبو شامة في كتاباته .

والقاضي الفاضل أقدم ثلاثة ارتبطت حياتهمبحياة صلاح الدين والاثنان الآخران هما : العماد الاصفهاني الكاتب (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) وابن شداد (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م) ، والعمادالكاتب هو القاضي عماد الدين أبو عبدالله محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد بن نفيس الدينأبي الرجاء حامد بنمحمد بن عبد الله بن علي بن محمود ابن هبة الله بن أُلـّه الأصفهاني ولد سنة (٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م) (١) ، وصل إلى دمشق عالماً ، وقدمه في أواخر هذه السنة القاضي كمال الدين إلى نور الدين الزنكي ، فعينه في ديوانه منشئاً وذلك في أوائل سنة (٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م) ، وأرسله نور الدين رسولاً إلى شاه أرمن صاحب أخلاط في أواخر سنة (٥٦٤هـ/١١٦٨م) وإلى الخليفة ببغداد في أوائل سنة (٥٦٦ هـ / ١١٧٠م) ، وبعد ذلك فوض إليه تولية المدرسة النورية ، والتي سميت بعد ذلك باسمه — المدرسة العمادية — نسبة إليه في رجب سنة (٥٦٧ هـ / ١١٧١ م) ثم ولاّه سنة (٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م)الإشراف على ديوان الإنشاء مضافاً إلى الكتابة ، (وصار أكثر من يعتمد عليه نور الدين) . وبعدوفاة نور الدين سنة (٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) اختل أمره وضُيّق عليه ، فاضطّر للخروج من دمشق إلى الموصل ، وعندما قدم صلاحالدين

---

(١) الروضتين ج ١ ص ١٤٤ .

إلى الشام،رجع العماد ليدخل في خدمة صلاح الدين بشفاعة القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني ، فصار معاون القاضي الفاضل وكاتب أسرار السلطان،وبقي مع السلطان صلاح الدين حتى وفاته سنة (٥٨٩هـ) ، وشهد معه المشاهد كلّها إلاّ وقعة الرملة في أوائل سنة (٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م) وفتح عسقلان ومحاصرة القدس سنة(٥٨٣ هـ/١١٨٧م)، وللعماد في التأريخ كتابان هما : (الفتح القسي في الفتح القدسي) الذي يكاد يكون تاريخاً حربياً لصلاح الدين بين (٥٨٣و٥٨٩ هـ/ ١١٨٧ – ١١٩٣ م) أي بدأ من فتح القدس بعد معركة حطين إلى وفاة صلاح الدين . والكتاب الثاني هو (البرق الشامي): الذي يبدأ الحديث فيه منذ سنة (٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م) وينتهي الكتاب بوفاة صلاح الدين .

وكتابه الأول موجود ، أما كتابه الثاني : فلا يوجد منه سوى مخطوطة من جزأين (الثالث والخامس)في مكتبةبودليان بأوكسفورد، (وأصل البرق الشامي : سبعة مجلدات) (مخطوطة المغرب) . وأبو شامة نقل عن الكتابين ، كما نقل رسائل ووثائق عن العماد أيضاً ، لكنه كما أسلفنا كان يضيق ذرعاً بأسلوب العماد فكان يلخصه دون أن تتأذى الرواية أو المادة التاريخية قط (١) وكان يحذف ماورد من الكلام المسجوع والذي أطال فيه العماد بشكل ممل للقارىء ، فكان أبو شامة لايدون منه إلاّ ماكانت تقتضيه الحاجة منه .

---

(١) سنا البرق الشامي ص ٧ – ٤١ ، الروضتين ج ١ ص ٤ – ٥ ، محمد أحمد حلمي : المقدمة ص ٢٤ – ٢٧ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٥٣ .

ويرى (هملتون غب) أن العماد لم يضع تاريخاً عادياً لصلاح الدين وأيامه إن ماوضعه كان أقرب إلى التقرير الرسمي لموظف كبير ، كان من نوع كبير الأمناء لصلاح الدين ، وأنه كان يضمّن تاريخه (الفتح والبرق على السواء) بعض رسائله التي كان يعدها نيابة عن سيده إلى أصحاب الشأن وبعض مكاتباته مع القاضي الفاضل وما إلى ذلك، كما أن (غب) يرى أن العماد كان المصدر الأساسي لأبي شامة ، وأن هذا نقل عنه بدقة ومهارة مع تجنبه سجع العماد وأسلوب البديعي ، ومع أنه كان يعيد ترتيب المادة (العمادية) أحياناً ، فإن أباشامة لم يخل بمحتواها الأصلي (١) .

وثالث الثلاثة هو القاضي يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد، والملقب بهاءالدين،والمكنى بأبي المحاسن (٢) (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م) وهو صاحب كتاب(النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) والتحق ابن شداد بصلاح الدين في شهر جمادى الأولى سنة(٥٨٤هـ/ ١١٨٨ م) ، فحين كان ابن شداد عائداً من أداء فريضةالحج في عام (٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م) مرّ بدمشق وكان قاصداً زيارة بيت المقدس ، سمع به صلاح الدين الذي كان على أسوار كوكب محاصراً لها ، فاستدعاه وآنسه،وعند خروجه كلف العمادالأصفهاني أن يسأله الاتصال به حين يعود ، ولما عاد في السنة التالية ، طلبه صلاح الدين كي يستمر في خدمته فقبل ، ويقول ابن شداد في ذلك (ثم سير

---

(١) H. A. Rgibb « The Arebicsorces Fov Ehe Life Opsalabin » ir Speculum 25 (1950) PP. 28 - 72 .

مع الاهتمام خاصة بالصفحات ٦٠ — ٦٥ — ٧١ — ١٢٥ — ١٦٨ — ١٦٩ .

المصدر السابق ترجمة عباس ونجم و زايد ص ١٢٤ .

(٢) مختارات من النوادر السلطانية ص ٧ .

صلاح الدين إلي مع الفقيه عيسى الهكاري ، وكشف لي أنه ليس في عزمه أن يمكنني من العود إلى بلادي ، وكان الله تعالى قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته وحب الجهاد ، فأجبته إلى ذلك وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة (٥٨٤ هـ /١١٨٨ م) وهو يوم دخوله الساحل الأعلى ، وجميع ماحكيته من قبل إنما هو روايتي عمّن أثق به ممّن شاهدوه ، ومن هذا التاريخ ماأسطر إلاّ ما شاهدته ، أو أخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان والله الموفق) (١) . ولقب ابن شداد بالقاضي ،لأنه تولى قضاء العسكر ، كما أن صلاح الدين ولاّه فيما بعد قضاء القدس ، ولازم ابن شداد صلاح الدين حتى وفاة هذا الأخير ، ثم التحق بابنه الملك الظاهر صاحب حلب ومن بعده بابنه الصغير الملك العزيز ، وتوفي القاضي بهاء الدين بحلب سنة (٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م) (٢) وقد تحدث عنه أبو شامة في الذيل فقال : وفيها (أي سنة ٦٣٢ هـ) توفي القاضي بهاء الدين ابن شداد بحلب واسمه يوسف ابن رافع بن تميم، وكان من رؤسائها وكان للناس به نفع ، وكنت قد اجتمعت بابن شداد بدمشق وأجاز لي جميع مايرويه، ثم سمعت عليه بمصر وعند قبة الشافعي رحمه الله تعالى سنة ثمان وعشرين وستمائة (٣) . والفترة

---

(١) الروضتين ج ٢ ص ١٢٤ – ١٢٥ .

(٢) مختارات من النوادر السلطانية ص ١٣ – ١٤ .

(٣) الذيل على الروضتين ص ١٦٣ .

للتي لازم فيها ابن شداد السلطان صلاح الدين هي السنوات التي كان السلطان يحارب فيها الصليبيين.

وابتدأ ابن شداد كتابه في فصول قصار ، يدور كل منها حول صفات الملك الناصر صلاح الدين ، أما القسم الثاني فيتحدث فيه عن أعمال صلاح الدين في حروبه ، وسِلْمِه ، في حله وترحاله ، في مجالسه ومقابلاته ، وقد نقل ابو شامة عن ابن شداد هذه الأخبار والروايات.

وأبو شامة نقل الكثير عن ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٣م)(١) في كتابيه: (الكامل في التاريخ) وهو في اثني عشر مجلداً و (الباهر في أتابكة الموصل) . والكامل في التاريخ : واحد من الكتب التاريخية العربية التي خرجت عن النطاق المحلي ، فهو في طليعة المؤرخين العرب العالميين الذي التفت شرقاً وغرباً ، وحاول أن يدرك ما يدور خارج نطاق العراق وسورية (٢) . وكان يتمتع بمنزلة مرموقة كمصدر موثوق به عارف بخفايا الأمور ومجرياتها ، لكن هذه الثقة أخذت تتزعزع مؤخراً ، فتبين للدارسين أن ابن الأثير كان يحرف الكلم عن موضعه أحياناً لينال من صلاح الدين أو غيره ، فابن الأثير كان يعيش في حمى أتابكة الموصل كما عاش أسلافه من قبل ، لذلك نقم على صلاح الدين لما فعله بنور الدين وبابنه وبأسرته فيما بعد (١) .

لكن مهما أصاب ابن الأثير على يد النقاد المحدثين ، فإنه يظل مؤرخاً حقيقياً .

---

(١) الكامل ج ١ ص ١١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢ - ١٢ .

(٣) الفكر العربي العدد ٢٧ عن مقالة نقولا زيادة .

والكتاب الثاني مجلد صغير هو (الباهر في أتابكة الموصل) ومن عنوان الكتاب يتضح لنا مضمون الكتاب فهو يتناول فيه تاريخ أتابكة الموصل من تولي آق سنقر والد عماد الدين زنكي إلى بدء ولاية القاهر مسعود (٤٧٧ — ٦٠٧ هـ / ١٠٨٤ — ١٢١١ م) . وابن الأثير صنف كتابه الكامل أولاً دون أن يتم تنقيحه، وعندما برزت الحاجة إلى كتاب عن الأتابكة استخلص فترتهم من الأصل وعني به ، والراجح أنــه أضاف إليــه شيئاً من اللون المحلي .

ولا بدّ من التنويه إلى أن ابن الأثير كان يقول : إن والده حكى له معظم ما أورده في كتابه (الباهر) لكن المؤرخ ابن الأثير لم يدون الأحداث إلاّ بعد وفاة والده . واعتمد أبو شامة في أخبار البيت الأتابكي الموصلي على (الباهر) كما أنه نقل عن (الكامل) الكثير من الأحداث، لكنه كان في الوقت نفسه حذراً في كل مانقله عنه فيما يتعلق بصلاح الدين .

ويتضح تحيز ابن الأثير لأتابكة الموصل في قوله :(وقد ذكر العماد الكاتب في كتاب البرق الشامي في تاريخ الدولة الصلاحية أن سيف الدين كان عسكره في هذه الوقعة — انهزام سيف الدين غازي بن مودود أمام قوات صلاح الدين يوسف بن أيوب قبل السلطان سنة إحدى وسبعين وخمسمائة — عشرين ألف فارس ، ولم يكن كذلك إنما كان على التحقيق يزيد على ستة آلف فارس أقل من خمسمائة فإنني وقفت على جريدة العرض، وترتيب العسكر للمصاف ميمنة وميسرة وقلباً وجاليشية وغير ذلك ، وكان المتولي لذلك والكاتب له أخي مجد الدين أبا السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم رحمه الله،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإنما قصد العماد: أن يعظم أمر صاحبه بأنه هزم بستة آلاف عشرين ألفاً . .) (١) وهذا دليل واضح على تحيزه لأتابكة الموصل وعدائه لصلاح الدين الأيوبي وفي تاريخه الكثير من الغمز والمحاولات ليحط من قدر صلاح الدين .

ونقل أبو شامة عن مؤلف آخر الكثير من الأحداث الهامة ومع ذلك فهو لم يشر إليه في معرض حديثه عن مصادره التي أشرنا إليها سالفاً.

والمؤلف هو ابن أبي طي وله كتب كثيرة ووالده على على مايبدو كان من كبار رجال الشيعة في حلب الأمر الذي حمل نور الدين على نفيه منها ، والمؤلف صرف وقته في الدرس والتأليف ، فدرس القرآن ، وقرأ الموطأ في الحديث ، وتأدب باللغة والبلاغة والأدب والتصوف ، وبما أنه شيعي فقد وقف ذلك عائقاً في مجال مناصب التدريس ، فانصرف إلى الكتابة والتأليف .

وقد ذكر محمد حلمي أحمد أن لابن أبي طي مؤلفات تاريخية هي : كتاب (كنز الموحدين في حياة صلاح الدين) ، وكتاب (معادن الذهب في تاريخ حلب) ، وكتاب (مختار تاريخ المغرب)(٢) وقد ضاعت كتب ابن أبي طي بأجمعها ، ولذلك فالأمر كما يقول محمد حلمي أحمد هو أن التحديد لأي من الكتب التي استعملها أبو شامة صعب ، إن لم يكن مستحيلاً ، فلا أبو شامة أشار إلى الكتب ولا المادة الأصلية موجودة ، لكن أباشامة ينقل عن صاحبنا الحلبي أموراً كثيرة وهي غاية في الدقة ، لأن الرجل مثل ابن القلانسي كان مواطناً لمدينة وحريصاً على أخبارها وأحيائها ومنازلها (٣) .

---

(١) الكامل ج ١١ ص ٤٢٩ .
(٢) مقدمة محمد أحمد حلمي ص ٣٠ - ٣١ .
(٣) الفكر العربي العدد ٢٧ مقالة نقولا زيادة .

استخدام أبي شامة لمصادره :

وقد قسم محمد حلمي أحمد كتاب الروضتين إلى سبعة أقسام على أساس أن نوافقه في هذا التقسيم، كل قسم زمني يتميز بمجموعة من هذه المصادر ، لأن أباشامة أخذ عن هذه المصادر والتي تنتهي بوفاة مصنفيها فيضطر للعودة إلى غيرها من المصادر التي تمكنه من إتمام ما هدف إليه . ونحن وبعد أن أشرنا إلى المصادر من قبل سنكتفي بذكرها ، إلا حيث يتوجب الأمر عناية خاصة .

القسم الأول : من بدء كتاب الروضتين وإلى تعيين عماد الدين زنكي بولاية الموصل وأعمالها سنة (٥٢١ ه / ١١٢٧ م) وفي هذا القسم يعدد أبو شامة فيه مآثر نور الدين وفضائله وعدله ومجلسه وصفاته وذلك بشكل عام، ومصادر أبي شامة في هذا القسم ثلاثة هي مصنفات بن الأثير، والعماد الكاتب ، وابن شداد . (ويشغل هذا القسم في (محمد حلمي أحمد) ص ١ — ٧٥ ، وفي (أبو السعود) ج ١ ص ٢ — ٣٠ .

القسم الثاني : ويتضمن الفترة من سنة (٥٢١) إلى (٥٥٥ ه / ١١٢٧ — ١١٦٠ م) (ويشغل هذا القسم في (محمد حلمي أحمد ص ٧ — ٣١٠ ، ابو السعود ج١ ٣١ — ١٢٤) وفي نهاية هذا القسم وهي سنة (٥٥٥ ه)توفي ابن القلانسي وهو مصدر هام لأبي شامة ، كان يستقي منه أخبار دمشق وما حولها ، ومن ابن الأثير في (الباهر) لتاريخ الموصل وأعمالها ومن يحيى بن أبي طي لأمور حلب، لكنه كان أيضاً ينقل عن العماد وعمارة اليمني وابن عساكر .

القسم الثالث : ويتضمن الفترة من سنة (٥٥٥ إلى ٥٦٢ ه / ١١٦٠ — ١١٦٦ م) ويشغل هذا القسم في(محمد حلمي أحمد)

ص ٣١١ ــ ٣٦٣ ، (أبو السعود) ج١ ص ١٢٤ــ ١٤٤ وفي نهاية هذا القسم ــ أي سنة ٥٦٢ هـ ــ كان وصول العماد الأصفهاني إلى الشام ومن ثم التحاقه بنور الدين وفي هذا القسم يشغل ابن الأثير منزلة خاصة ، ثم يأتي دور العماد مع بقاء شيءمن المنزلة لابن عساكر وعمارة اليمني .

القسم الرابع : يمتد من سنة (٥٦٢ إلى ٥٧٣ هـ (١١٦٦ــ ١١٧٧ م)
وهذا القسم يشغل في (محمد حلمي أحمد) من (ص ٣٦٣ ــ ٧١٩)، و (أبو السعود) ج ١ من (ص ١٤٤ ــ ٢٧٩) . وهذه الفترة تتضمن توسع نور الدين في الحرب مع الصليبيين وتطلعه نحو مصر وفيها : أيضاً تدخل شخصية صلاح الدين وقضاؤه على الدولة الفاطمية في القاهرة ثم وفاة نور الدين ووراثة صلاح الدين له وما يتبع ذلك من حروب مع الصليبيين في الساحل الشامي وفي جنوب الأردن ، وهنا يتصدر لائحة المصادر العماد الكاتب ويحيى ابن أبي طي وهذا الأخير يتمتع بمركز خاص .

القسم الخامس : ويمتد من حوادث سنة ٥٧٤ إلى ٥٨٤ هـ (١١٧٧ ــ ١١٨٨ م) هذا من الجزء الثاني وهو منشور في طبعة(ابو السعود) ج ١ ص ١ ــ ١٢٤ ،ويلتحق ابن شداد في سنة (٥٨٤ هـ / ١١٨٧ م) بخدمةالسلطان صلاح الدين و (هنا يتأكد مركز العماد كمصدر أول لأبي شامة ... ومن ثم ابن شداد وفي نهاية هذه الفترة يختفي ابن أبي طي نهائياً ، ويقل شأن ابن الأثير) .

القسم السادس : ويمتد من سنة (٥٨٤ إلى ٥٨٩ هـ / ١١٨٨ ١١٩٣ م) وهي تنتهي بسنة وفاة صلاح الدين (٥٨٩ هـ) ويشغل

هذا القسم في (أبو السعود ج٢ ص ١٢٤ — ٢١٧) . وهنا يحتل ابن شداد المركز الأول كمصدر لأبي شامة وقل شأن العماد لأن أباشامة اقتبس من كتابيه (الفتح القسي في الفتح القدسي)و(البرق الشامي) ووثائقه ، أما ابن شداد فله كتاب واحد هو : (النوادر السلطانية) .

القسم السابع : يتحدث أبو شامة في هذا القسم عمّا أصاب إمبراطورية صلاح الدين من انقسام وضعف بسبب الخلافات التي حدثت في الأسرة الأيوبية بسبب المطامع والاستيلاء على السلطة ، وهنا يعتمد أبو شامة على رسائل العماد القصار .

إن هذا التقسيم الذي أعتمده محمد حلمي أحمد بالنسبة للمصادر له مايسوغه فذلك خير من التكرار غير اللازم للمصدر الواحد مرات قليلة في فترة قصيرة أو طويلة .

ومن الملاحظ أن أباشامة عند اختياره للمصدر ، كان يراعي نقطتين هامتين وهما الأولى: معاصرة المؤلف للأحداث ، والثانية: المكان الجغرافي (١) الذي تواجد فيه هذا المؤلف .

ويقول محمد أحمد حلمي : إن دراسة الحديث هيأت لأبي شامة المجال لأن يلجأ إلى طريقة الحكم القطعي (٢) . وهذه نقطة نختلف معه بشأنها فالغالب على أبي شامة أن يروي ويكرر الروايات دون أن ينقدها ، أو يعلق عليها أو يبدي رأيه فيها ، وهذه في الحقيقة طريقة المحدثين ، لكن الذي نراه خلال قراءتنا لكتابه هو أن أباشامة كان أميناً دقيقاً في نقله أو تلخيصه (٣) .

---

(١) مقدمة محمد حلمي أحمد ص ٣٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٧ .

(٣) مجلة الفكر العربي العدد ٢٧ عن مقالة نقولا زيادة .

ويتبع أبو شامة نظام الحوليات في كتاب الروضتين شأن مؤرخي العرب في غالبهم من الطبري إلى صاحب النجوم الزاهرة وما بعدها .

أهمية كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية :

من حيث إنه تاريخ للدولتين النورية والصلاحية كما يقول المؤلف ومن حيث إنهما في الواقع تاريخ للرجلين اللذين قامت الدولتان على أكتافهما — أي نور الدين ، وصلاح الدين — .

فلو أننا فقدنا كتاب الروضتين فهل الصورة التي نتوصل إليها في ضوء مابين أيدينا من الأدب النوري والصلاحي أقل وضوحاً ؟ وهل أظهر لنا كتاب الروضتين خطوطاً أوضح لملامح الرجلين مما لو أن الكتاب فقد ؟ هل تساعدنا قراءة كتاب الروضتين من التعرف على نواح في شخصية كل من بطلي (المؤلف) كانت غامضة بالنسبة لنا ، أو كانت قد تخفى علينا لو أننا اضطررنا إلى الاكتفاء بمصادر الأدب التاريخي لتلك الفترة والتي هي بين أيدينا ؟ وهذه أسئلة (ذاتية) والإجابة عنها تكون لهـا صفة الذاتية . والسؤال الموضوعي الذي نطرحه : أين يقع كتاب الروضتين في هذا البناء الكبير والشامخ من الكتابة التاريخية التي شهدناها في هذه الفترة من التاريخ العربي الإسلامي ؟

وإذا نحن أخذنا أنفسنا بالإجابة عن السؤال الأخير أولاً ، وتذكرنا معاصري أبي شامة على مدى قرن ونصف القرن (من حول ٥٥٠ — ٧٠٠ هـ / حول ١١٥٠ — ١٣٠٠ م) واستعرضنا مواقفهم وطرق معالجتهم للقضايا ، وجدنا أن كتاب الروضتين بالنسبة إلى الدولتين الأوضح والأبعد عن الضغوط الخارجية .

فأبوشامة منذ ولادته وحتى وفاته (٥٩٩ — ٦٦٥ هـ / ١٢٠٢ — ١٢٦٧ م) لم يستلم منصباً حكومياً بمعنى الكلمة فهو كان مدرساً ، صحيح أنه كان عزل في وقت من الأوقات فالأمر بسيط لأن هذا العمل كان منوطاً بالقاضي مبدئياً ، ونحن لاندري كم ظل أبو شامة في هذا العمل وإلى أيمدى كان يقوم بهذا الواجب حتى وفيما إذا طلب منه ذلك . وأما وظائف التدريس التي تسلمها في مدارس دمشق وكان أهمها وظيفة التدريس في المدرسة الركنية التي عين فيها سنة (٦٦٠ هـ / ١٢٦٠ م) كانتوظائف دولة ، لكن من المألوف كان قاضي القضاة أو قاضي المدينة هو الذي يتولى الإشراف على هذه المدارس ، إن لم تكن شروط الإنشاء تقتضي غير ذلك . صحيح أننا نقع على عزل لأستاذ أو شيخ أو مدرس ، وتعيين آخر مكانه بناء على رغبة أصحاب المقامات ، لكن الغالب أن الأستاذ أو الشيخ أو المدرس ، كان يتمتع بكثير من الحرية والاحترام مادام يراعي أمرين : أن الدولة كانت سنية وأن النقد للحاكم أو الأمير يصح أن يكون قليلاً ومبطناً ، أو أنه يتجنب ذلك ، والنقد للحاكم يكون القصد منه النصيحة والمثل لا التجريح .

وقد أسلفنا أن أوضاع أبي شامة المادية لم تكن جيدة ، لكنه كان عفيفاً لايحب التعلق والوقوف على أعتابالمسؤولين . فكان له قطعة أرض استغلها في الزراعة فساعدهذلكعلى الحياة الكريمةوالعيشالكفاف ، وأسلفنا مانظمه من شعر في ذلك .

ولقد أوردنا ذلك لنقول : إن مؤلفنا أباشامة لم يكن مؤرخ بلاط أو قصر أو سلطان ، فهو كان يتمتع بالكثير من الحرية فيما يدون

ولعل ماساعد أباشامة على الابتعاد عن الضغوط الرسمية هو أنه لم يكن يؤرخ لمعاصريه من ذوي السلطان فشخصيته الثانية وبطلها صلاح الدين توفي قبل أن يولد أبو شامة بنحو عشر سنوات وعلى سبيل الافتراض إن على أبي شامة مراعاة أبناء وأحفاد صلاح الدين الأيوبي الذين لازالوا أصحاب السلطان في البلاد ،ولكن يمكننا أن نقـــول : إن هؤلاء الأحفاد كانوا هم أنفسهم مثلاً للتفرقة والخصومة والخلافات .

وأسلفنا أن أباشامة لم يكتب عن بطليه نور الدين وصلاح الدين إلا من أجل هؤلاء ، محاولة منه لتنبيه هؤلاء الحكام من معاصريه إلى الخطأ الفادح الذي يقعون فيه لعدم سبرهم على سيرة الأب والجد: صلاح الدين الأيوبي ومن قبله نور الدين الزنكي .

من هنا يمكننا أن نقول : إن أباشامة استطاع أن يرسم صورة بطليه في الإطار الذي اختاره ، ولكن ماهو هذا الإطار ؟ وما هي الخطوط التي وضعها لنفسه أبو شامة ؟ يقول نقولا زيادة : (إطار أبي شامة دائري حتى لانحسب أن ضلعاً من ضلوعه فيما لو كان شكله غير ذلك ذو أهمية خاصة . وهذه الدائرة / الإطار/تبدأ عند نقطة هامة في الحيـــاة الإسلامية يومها وهي أن السنّة كانت قاعدة الحياة الأولى وما عداها (من الاتجاهات الإسلامية) لايستحق الاهتمام فالحكم سنّي والمدرسة النظامية سنيّة ومدرسوها سنيون ومحتوى التدريس فيها ماتقبله السنّة والجماعة .

ولقد لقي القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر ، ثم القضاء على التشيع (والإسماعيلية) فيها تقبلاً عاماً في بلاد الشام والعراق وغيرهما ، ونحن نزعم أن هذا العمل الذي قام به صلاح الدين في

مصر ، كان أحد الأسباب الرئيسية في أن اختاره أبو شامة (بطلاً) للكتابة عنه .

والنقطة الثانية التي تعيننا على رسم الدائرة / الإطار / لعمل أبي شامة في كتاب الروضتين (بشكل خاص) هي أن قلب العالم الإسلامي سقط جزء كبير منه تحت نفوذ الفرنجة الصليبيين ، وتم ذلك في غفلة من الزمن ، وذلك فإن قيمة الحاكم أو الأمير أو السلطان أو الملك مرتبطة بمدى مايقوم به من مناوشة أو مهاجمة للصليبيين ، وتزداد قيمته فيما إذا انتصر عليهم وغنم منهم ، ثم ترتفع هذه القيمة فيما إذا استرد منهم مدينة أو حصناً أو قلعة ، فكيف إذا كان الذي فعل ذلك نور الدين — الذي حال دون احتلالهم مصر — وصلاح الدين الذي استرد القدس ؟ .

ويساعدنا على فهم الدائرة / الإطار / التي رسمها أبو شامة لنفسه إذا نحن تذكرنا أن المؤلف كان يحس مع القوم العاديين في دمشق ، لأنه يقيم بينهم ، ويعيش عيشهم وكان يدرك أن العدالة كانت لاتخيم دوماً ، وأن الظلم أو التعسف كانا يلقيان بظلهما على الناس (من مثل المصادرات) فالمؤلف نفسه تعرض للتعسف فهو يقول عن نفسه .

(وفي رابع عشر رمضان سنة (٦٥٨ هـ) جرت علي حكاية من نائب التاتار المذكور واسمه إيل سبان — لعنه الله وإياهم — إهانة وتهديداً بضرب الرقبة على أن وضعت خطي لهم بمبلغ كبير من المال ظلماً وقهراً (١) . ومن ثم فقد انتزعت عدالة بطليه إعجاب أبي شامة ،

(١) الذيل ص ٢٩٠ .

ومن جهة أخرى نجد أن نور الدين وصلاح الدين لم ينتزعا إعجاب أبي شامة المواطن الدمشقي لنشاطهما الحربي فحسب بل للعدالةالتي أشاعاها بين‌الناس والمكوس التي أزالاها والمدارس التي نشرا بها العلم بين المواطنين ، نصيب في تكوين الصورة الجميلة التي انتزعت إعجاب أبي شامة ، فأراد أن يكشف عنها .

وأسلفنا أن مصنفه : السيرة العلائية من بين مصنفاته‌التي هي بحكم المفقود ، وخلال بحثنا أمكن العثور على هذا الكتاب ، وهو مختصر كتاب (سيرةالسلطان جلال الدين منكبرتي) للمنشىء شهاب الدين محمد ابن أحمد النسوي واسم هذا المختصر كتاب (نزهة المقلتين في سيرة أخبار الدولتين العلائية والجلالية ، وما كان فيهمامن‌الوقائع‌التاتارية). ونسخة هذا الكتاب موجودة في المغرب ، الخزانة العامة بالرباط — برقم (٢٥١) .

ويتحدث في هذا الكتاب عن أربع عشرة وقعة، خلال إحدى عشرة سنة (٦١٥ هـ — ٦٢٥ هـ / ١٢١٧ — ١٢٢٧ م) . ويقول أبو شامة في خطبة كتاب (نزهة المقلتين):(.... ثم إني أردت الوقوف على أخبار ملكي بلاد العجم في زماننا االذين قهرا العباد، ثم خربت في ولايتهما البلاد ، واستولى على تيك الديار الكفرة لعنهم الله وسفك أولئك الملاعين دم الكبير والصغير من المسلمين وجرى في تلك المدة من العجائب والغرائب مالم يتقدم مثله ، ولا أظنه يأتي — إن شاء الله تعالى — فإنها من أفظع المصاب ، فوجدت قد جمع أخبار تلك الدولتين ، الكاتب الفاضل العالم شهاب الدين‌بن أحمد بن علي بن محمد النسوي المعروف بالمنشىء الذي كان في صحبتهم

وخدمتهم مطلعاً على أحوالهم منصرفاً لهم في أعمالهم،جمع ما جرى من ذلك في مجلدة واحدة، فاختصرت المقاصد منها على عادتي في مثل ذلك والغرض الأهم كما ذكر من إثبات الآثار وإخلاد الأخبار وإفادة التجربة والاعتبار . وأما السلطانان فهما : علاء الدين محمد بن تكس بن إيل أرسلان بن آتسز ، وولده جلال الدين منكبرتي المعروف بخوارزم شاه ، وقد تقلبت الأيام به بين إهباط وإصعاد بينا تملكه إذ كاد يهلكه ، وحال مايعليه إذ رأيته يبتليه) (١) .ويقول أيضاً : (قال المنشيء : وحسبك منها أربع عشرة وقعة مذكورة في إحدى عشرة سنة لفظته فيها بلاد الترك إلى أقاصي الهند ، وأقاصي الهند إلى أواسط الروم من مليك مطاع وطريد مرتاع ،قال : وها أنا مملِ منها ماشاهدته ، أو سمعت ممن شاهده . بلغ من أمر السلطان محمد بن تكش وعظم شأنه أنه جمع إلى ماأورثه أبوه من خراسان وخـــوارزم ملك العراق ومازندران وكرمان ومكران وكيش وسجستان وبلاد الغور وغزنه وباميان إلى مايليها من الهند بأغوارها وانجادها ، ملكها بتلهيبه صفواً عفواً ، وملك على الخطابية وغيرهم من ملوك الترك وقدوم ما وراء النهر بعد اخافتهم واستئصال شأفتهم ، وألجأ المفلتين منهم إلى أقاصي الصين ما يقارب أربعمائة مدينـــة ، وخطب له على منابر فارس وآران وأذربيجان إلى مايلي دربند شروان ، فتواصلت له فتوح الاقاليم اتساق الأنابيب لامهلة بينها ولا فرجة غير أن الطامة الكبرى من حادثة التاتار هجمت فطمت على المؤلف وتأليفه والسلطان في لفه ولفيفه ...) (١) .

---

(١) نزهة المقلتين الا صل (٢ / م) .

(٢) نزهة المقلتين الأصل (٢ / م) ، سيرة جلال الدين منكبرتي ص٣٤-٣٧.

ويستهل النسوي كتابه بسرد حوادث المغول في موطنهم الأول ، ويتابع مراحل حركاتهم إلى أن حطوا رحالهم على ثغور الشرق الإسلامي،ثم يسرد أحداث الدولة الخوارزمية في عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه وصراعه مع المغول ، الذي انتهى بسقوطه وسقوط دولته .

والنسوي في كتابه (سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي) لم يتبع الطريق الذي اتبعه المؤرخون المعاصرون له من حيث تدوين الأحداث وسردها حسب ترتيبها الزمني ، كما أنه لم يفصل الأحداث التي تتعلق بالاجتياح المغولي للبلاد، إذ اعتبرها كلهامتشابهة: قتل وتخريب،ويدون الأحداث التي يهتم بها دون أن يتقيد بترتيبها زمنياً (١).

وعلى ما يبدو أن أبا شامة لم يقم باختصار الكتاب فحسب ، بل إنه أعاد تأليف الكتاب فنرى أنه يسرد الأحداث حسب ترتيبها الزمني ، ومتبعاً طريقته في الاختصار حيث يذكر الأحداث الهامة في الكتاب والتي تتعلق بالسلطانين علاء الدين (٥٩٦ هـ / ٦١٧ هـ — ١١٩٩ — ١٢١٩ م)(١) وولده جلال الدين (٦١٧ — ٦٢٥ هـ / ١٢١٩—١٢٢٧م) فيتحدث عن فتوحاتهما ثم صراعهما مع المغول ، ومآل إليه أمرهما وأمر بلادهما ومآثرهما وأخلاقهما .

كتاب مختصر الروضتين أو مايطلق عليه اسم (عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) :

قبل كل شيء لابد أن نسأل أنفسنا السؤال التالي :

---

(١) سيرة جلال الدين ص ٢٥ — ٢٦ .

(٢) الحاشية رقم ٣ سيرة السلطان جلال الدين ص ٣٥ .

هل يوجد بين تصنيفات أبي شامة كتاب مختصر لكتاب الروضتين ؟ وللإجابة على تساؤلنا لابد من البحث والتنقيب بين المصادر التي تتحدث عن تصانيف أبي شامة . فنرى أن الشيخ قطب الدين أبا الفتح موسى ابن محمد بن أحمد ابن قطب الدين اليونيني البعلبكي الحنبلي (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م) يذكر بين تصانيف أبي شامة كتاب (مختصر الروضتين) (١) ويتحدث أبو شامة عن وجود كتاب مختصر لكتاب الروضتين(٢) بين تصانيفه ، وفي نسخة الأصل يتحدث خليل بن كيكلدي بن عبدالله العلائي الدمشقي في مقدمة الكتاب فيقول : (فهذا مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية الذي صنفه العلامة شهاب الدين أبو محمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل ابن إبراهيم المقدسي المعروف بأبي شامة رحمه الله ، ثم اختصره(٣) هذا المختصر) (٤) .

ومن الباحثين المعاصرين يذكر صلاح الدين المنجد بين تصانيف أبي شامة كتاب مختصر الروضتين (كتاب عيون الروضتين في أخبار الدولتين) (٥) .

---

(١) ذيل مراة الزمان ج ١ ص ٣٦٨ .
(٢) الذيل على الروضتين ص ٣٩ ، الأصل (٢ / و) .
(٣) الهاء هنا ضمير يعود على كتاب الروضتين : أي أن أبا شامة اختصر هذا المختصر عن كتابه الروضتين .
(٤) انظر الأصل (٢ / و) .
(٥) معجم المؤرخين الدمشقيين ص ١٠١ .

وهكذا بعد أن كونا – باعتقادنا – قناعة بوجود (كتاب مختصر الروضتين) لمؤلفنا أبي شامة ، لابد لنا من التنويه بما لهذا المختصر من نسخ مخطوطة :

تذكر المصادر الحديثة نسخة مخطوطة في كوبريلي – بتركيا – تحت رقم (١١٥٣) في (١٥٢) ورقة ، يعتقد أنها بخط المؤلف (١) .

ونسخة ثانية مخطوطة في المتحف البريطاني – بلندن – تحت رقم (٥٥٤) في (١٥١) ورقة ، بخط خليل بن كيكلدي بن عبدالله العلائي الدمشقي ، ويذكر أنه فرغ من نسخها وتنقيحها سنة (٧٤٣ هـ) (٢) .

ونسخة ثالثة مخطوطة في الخزانة العامة بالمغرب – الرباط – تحت رقم (٢٥١) في (١٨٥) ورقة وهي كما يبدو لنامنسوخة عن نسخة صلاح الدين أبي سعيد خليل ابن كيكلدي العلائي الشافعي (ت ٧٦١ هـ) وذلك بسبب تطابقها معها في الشكل والمضمون ، ولا خلاف بينهما إلاّ بالخط وعدد الأوراق ، ويذكر الناسخ في نهايتها أنه فرغ من نسخها في ثاني عشر شوال سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة .

وقد تعذر علينا الحصول على نسخة كوبريلي – بتركيا – رغم الجهود الكبيرة التي بذلناها ، وقد تمكنا من الحصول على نسخة لندن – والتي نرمز لها بالحرف (ل) وعلى نسخة المغرب

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٢ .

— والتي نرمز لها بالحرف (م) — وبعد أن أجرينا مقارنة دقيقة بين المخطوطتين اتضح لنا من تاريخ نسخهما أن نسخة لندن هي النسخة الأم لهذا اعتمدناها أصلاً في تحقيق الكتاب .

وبعد أن تعرفنا على مابين أيدينا من مخطوطات لهذا المختصر ، لابد لنا من الإجابة على سؤال يتبادر إلى أذهاننا وهو: هل مابين أيدينا من مخطوطات هما هذا المختصر ؟ وللإجابة على سؤالنا لا بد لنا من الاطلاع على مقدمة الأصل حيث يتحدث الناسخ خليل بن كيكلدي بن عبدالله العلائي الدمشقي فيقول (فهذا مختصر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية الذي صنفه العلامة شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي المعروف بأبي شامة رحمه الله ، ثم اختصره هذا المختصر — أي اختصر هذا المختصر عن الروضتين — ومن خطه نقلت وزدت على مختصره هذا فوائد وتتمات حسنة ، كانت عندي معلقة من كتابه الكبير المسمى بالروضتين وبالله التوفيق) (١).

وهذا اعتراف صريح وواضح من الناسخ ابن كيكلدي أن هذا المخطوط هـو مختصر كتاب الروضتين لمؤلفنا أبي شامة مع زيادات وتتمات حسنة أضافها الناسخ ابن كيكلدي عن كتاب أبي شامة الكبير المسمى بالروضتين .

ويتحدث أبو شامة في خطبة هذا المختصر فيقول : (هذا مختصر كتاب الروضتين الذي كنت جمعته في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، وماجرى في زمانهما ...)(٢) . ويقول أبو شامة في مقدمة كتابه (نزهة المقلتين) (... فإني جمعت

---

(١) و(٢) الأصل ٢ / و .

في كتابين : مطول ومختصر ماكان في زمن آبائنا من مناقب سلطانين جليلين متتابعين ببلادنا الشامية ، جمعت فيهما من أخبارهما ومآثرهما ما غير في وجوه من قبلهما من الملوك ، فكيف من بعدهما ؟ فسقى الله عهدهما . وسميت الكتاب المطول بالروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، والآخر مختصره ...) (١) .

وهكذا يتضح لنا أن مابين أيدينا هو مختصر الروضتين الذي صنفه أبو شامة .

يقول ابن كيكلدي في مقدمة الكتاب: (... ومن خطه نقلت ، وزدت على مختصره هذا فوائد وتتمات حسنة، كانت عندي معلقة من كتابه الكبير المسمى بالروضتين وبالله التوفيق) (٢) .

فما هي تلك الفوائد والتتمات الحسنة ، والتي كانت عند ابن كيكلدي معلقة وأضافها إلى مختصر الروضتين ؟

نحن نعلم أن أباشامة توفي سنة (٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) وأنه أرخ آخر ماأرخ المحنة التي حدثت له وهو في بيته بدار الطواحين ،والتي مات على أثرها (٣) .

وبعد اطلاعنا على مختصر الروضتين اتضح بعض الإضافات أضافها الناسخ لأحداث جرت بعد وفاة أبي شامة بزمن بعيد ، ذكرها : بعد استيلاء الصليبيين نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة (٥٨٧هـ / ١١٨٩ م) على عكا وقتلهم للمدافعين عنها بعد أن أعطوهم

(١) نزهة المقلتين نسخة المغرب المصورة (٢/غ) الخزانة العامة بالرباط رقم ٢٥١ .

(٢) الأصل ٢ / و

(٣) الذيل على الروضتين ص ٢٤٠

الأمان ، وأراد ابن كيكلدي أن يريح نفوس المسلمين مما أصاب عكا فاستطرد حديثه عن استعادة المسلمين لعكا من أيدي الصليبيين على يد الملك الأشرف بن الملك المنصور يوم الجمعة سابع عشر من جمادى الأولى سنة (٦٩٠ هـ / ١٢٩٢ م) (١) وهذا الاستطراد لم يرد في كتاب الروضتين وهذا أمر بديهي لأن مؤلفنا أباشامة مات سنة (٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) وأضافها ابن كيكلدي ؛ وثمة إضافات لقصائد شعرية ذكرها في مناسبات مختلفة لم ترد في الروضتين ، وهذا دليل على إضافة ابن كيكلدي لها إلى مختصر أبي شامة ونذكر هذه الإضافات للقصائد الشعرية مرتبة حسب تسلسل وقوعها في الأصل .

يذكر ابن كيكلدي أن الشاعر المشهور أبا الفوارس سعد بن محمد الصفي المعروف بحيص بيص قد ارتجل بيتين من الشعر في مدح وزير الموصل جمال الدين الأصفهاني بعد وفاته (٢) .

وفي الروضتين أورد أبو شامة للشاعر أبي الحسن الذروي المصري بيتين من قصيدة يمدح بها نور الدين الزنكي ، وقد ورد في الأصل ثمانية أبيات من قصيدته هذه (٣) وأورد في الأصل قصيدتين للشاعر محمد بن نصر القيسراني في مدح نور الدين محمود بن زنكي (٤) لم ترد في الروضتين .

وأورد في الأصل قصيدتين للحليم الفاضل بن الفضل عبد المنعم الجلياني في مدح السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إثر انتصاره في معركة حطين ، ذكر من القصيدة الأولى ثلاثة عشر بيتاً ، أولها :

---

(١) الروضتين ج ٢ ص ١٨٢ - ١٨٨ - ١٨٩ ، الأصل ٢٤٧ / ظ - ٢٥٢ / و .
(٢) الأصل ٤٣ /ظ .
(٣) الأصل ٦٩ / ظ .
(٤) الأصل ١٠١ / ظ - ١٠٢ / و .

ياوقعة التل ماأبقيت من عجب

جحافل لم يفت من جمعها بشر

وأورد من القصيدة الثانية أربعة عشر بيتاً بدأها :

أتـــوا بحبال أبرمت لأســـــارنا

فسقناهم فيها قطيناً محددا (١)

وأورد سبعة عشر بيتـــاً من قصيـــدة شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد الحلبي في مدح الملك الأشرف ابن السلطان المنصور سيف الدين أبي المعالي قلاوون بن عبد الله التركي النجمي بمناسبة استيلائه على عكا سنة(٦٩٠ هـ / ١٢٩٢ م) واستعادتها من الصليبيين ، مطلعها :

الحمـــد لله ذلّت دولـــة الصلب

وعز بالنصر دين المصطفى العربي(٢)

وهكذا نكون قد أدركنا ماأضافه ابن كيكلدي على مختصر الروضتين ، ولم يرد في كتاب الروضتين لمؤلفنا أبي شامة .

أما قول ابن كيكلدي أنه قد أضاف على مختصر أبي شامة فوائد وتتمات حسنة ، كانت معلقة لديه من كتاب أبي شامة الكبير المسمى بالروضتين (١) ، فهذا أمر يصعب على الباحث تحديده بشكل

---

(١) الأصل ١٨٦ / و – ١٨٧ / ظ .
(٢) الأصل ٢٥٤ / و .
(٣) الأصل ٢ / و .

دقيق ، وفي هذه الحالة لابد لنا من التمعن الدقيق الفاحص لما يقوله أبو شامة في خطبة كتاب عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. يقول فيها : (هذا مختصر كتاب الروضتين الذي كنت جمعتهفي أخبار الدولتين النورية والصلاحية وما جرى في زمانهما ، اقتصرت فيه على الإشارة إلى الوقائع والنوازل وبسط القول في وصف الملكين القائمين بتلك الفضائل ، إذ كان قصدي بذلك الكتاب ، تنهيض همم الملوك إلى الاقتداءبهما واستقباح التخلف عنهما خوفاً من زلة القدم فما بالعهد من قدم ، وليشتهر فيما بعد فضلهما بتدوين ذكرهما فلا ينسى بعد طول الزمان أمرهما ، بل تعطر المجالس بأخبارهما ، وتزين المحافل بتذكار أحوالهما ومواظبتهما على الجهاد وفتح البلاد والنظر الدائم في مصالح العباد فرضي الله عنهما،فما أكثر المآسف على زمانهماووفق ملوكنا، لسلوك مسالكهما والتخلق بأخلاقهما آمين)(١) .

وخطبة أبي شامة هذه يؤكد فيها مؤلفنا أنه أشار إلى الوقائع والنوازل التي وقعت في عهد الدولتين النورية والصلاحية ، كما يؤكد بأنه بسط القول في وصف الملك نور الدين محمود الزنكي ، والملك صلاح الدين يوسف ابن أيوب ـ أي أن مختصر أبي شامة يتضمن كل الأحداث التي تتعلق بالدولتين النورية والصلاحية وكل ما يتعلق بصفات وفضائل وأعمال وفتوحات وجهاد الملكين نور الدين محمود الزنكي وصلاح الدين الأيوبي — فمؤلفنا أبو شامة لم يؤلف كتابه هذا اعتباطاً إنما فعل ذلك عن قصد فهو يقول :

(إذ كان معظم قصدي بـذلك الكتـاب تنهيض همم

---

(١) انظر الأصل (٢ / و) .

الملوك إلى الاقتداء بهما واستقباح التخلف عنهما خوفاً من زلة القدم فما بالعهد من قدم ، وليشتهر فيما بعد فضلهما بتدوين ذكرهما ، فلا ينسى بعد طول الزمان أمرهما ، بل تعطر المجالس بأخبارهما ، وتزين المحافل بتذكار أحوالهما ، ومواظبتهما على الجهاد وفتح البلاد ، والنظر الدائم في مصالح العباد فرضي الله عنهما فما أكثر المآسف على زمانهما ووفق ملوكنا لسلوك مسالكهما والتخلق بأخلاقهما آمين) (١) .

إذن فقد ألف كتابه (عيون الروضتين) لهدف عظيم ، فهو هدف من وراء ذلك جمع كلمة ملوك البلاد من البيت الأيوبي ، والذين أصبحوا كثراً في عصر أبي شامة وأن يتحلوا بفضائل وعدل هذين الملكين ، وبما قاما به من جهاد وفتوح .

هذا إذن هدفه من تأليفه كتاب (عيون الروضتين) ، فلننظر إلى خطبته في كتابه الكبير المسمى بالروضتين ، لنتعرف إلى ماهدف إليه من تأليفه ، فهو يقول أثناء حديثه عن اختصاره لكتاب تاريخ مدينة دمشق للحافظ الثقة أبي القاسم علي بن الحسن العساكري :

(ومر بي فيه من الملوك المتأخرين ترجمة الملك العادل نور الدين ، فأطربني ما رأيت من آثاره ، وسمعت من أخباره مع تأخر زمانه وتغير خلانه ، ثم وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين فوجدتهما في المتأخرين كالعمرين رضي الله عنهما في المتقدمين ، فإن كل ثانٍ من الفريقين حذا حذو من تقدمه في العدل والجهاد ، واجتهد في إعزاز دين الله

---

(١) انظر الأصل (٢ / و) .

أي اجتهاد، وهما ملكا بلدتنا وسلطانا خطتنا، خصّنا الله تعالى بهما، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما، فعزمت على أفراد ذكر دولتيهما بتصنيف يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعله يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا يبعد أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين، وذكرى منه سبحانه فإن الذكرى تنفع المؤمنين فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين، ويقولون نحن في الزمن الأخير ومالاؤلئك من نظير، فكان لما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم بمن هو في عصرهم من بعض ملوك دهرهم، فلن يعجز عن التشبه بهما أحد إن وفق الله الكريم وسدد (١).

وهكذا يتضح لنا أن هدفه واحد من كتابيه (الروضتين) و (عيون الروضتين) وهذا مايدعونا إلى التساؤل، مادام هدفه واحداً في كتابيه، فلماذا ألف كتاب عيون الروضتين، مادام كتابه الكبير المسمى بالروضتين يفي بالغرض ؟

على مايبدو أنه أدرك أن كتابه الكبير المسمى بالروضتين كتاب شامل يحتاج إلى التنقيح والتهذيب، لهذا قام بإعادة تأليفه في كتاب مختصر عنه، أطلق عليه اسم (كتاب عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) فنجد أنه قد أعاد فيه ترتيب الأحداث بدقة أكبر، بحيث يأتي الحدث في وقته، فمثلاً : في كتاب الروضتين نرى أنه يبدأ حديثه فيه عن صفات وأخلاق نور الدين محمود ابن زنكي، قبل

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٣ - ٤ .

أن يعرفنا عمّا قام به من أعمال، ثم يذكر من مدحه من الشعراء وغيرهم ليدخل بعد ذلك في حديثه عن الدولة النورية ...)(١) .

أما في كتابه (عيون الروضتين) نرى أنه يدخل في أصل النص مباشرة فيحدثنا عن أخبار وأعمال نورالدين ، ويرجىء صفاته وأخلاقه وذكر من مدحه إلى سنة وفاته (٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م)(٢).

إذن فكتابه الكبير المسمى (بالروضتين) كتاب شامل ، بينما نرى أن كتابه (عيون الروضتين) كتاب متخصص ، يمكن الاستفادة منه كمصدر هام عن أخبار الدولتين النورية والصلاحية وصفات وأعمال ملكيهما والحروب الصليبية خلال (القرن السادس الهجري / الثاني عشر ميلادي) وبخاصة أن كتاب الروضتين لم يحقق كاملاً حتى الآن .

وإذا نظرنا إلى كتاب الروضتين ، وجدنا أنه في الحقيقة يتألف من حيث المضمون من قسمين رئيسيين ، الأول : يتحدث فيه عن الدولة النورية ، والثاني: يتحدث فيه عن الدولة الأيوبية .

كما نجد أن كل قسم من هذين القسمين يتألف من مقدمة وصلب الموضوع. فالقسم الأول : يقدم له بذكر أحداث قسيم الدولة آق سنقر جد نور الدين محمود (ت ٤٨٧ هـ) (٣) رغم الفارق الزمني الكبير بينهما .

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٥ - ٢٤ .
(٢) انظر الأصل ٢ / و و ٧٥ / ظ وما بعد حتى ١٠٧ / ظ .
(٣) الروضتين ج ١ ص ٢٤ - ٢٧ .

ثم يبدأ صلب الموضوع بأحداث عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود (ت ٥٤١ هـ) وأعمــاله ثم مقتله (١) لينتقل بعــد ذلك إلى نور الدين محمود الزنكي وأعمــاله ومــن ثم وفاته وما جرى بعد وفاته إلى دخول صلاح الدين دمشق (٢) . حيث يبدأ القسم الثاني ؛والذي يبدأه أيضاً بمقدمة عن أعمال نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه (٣) وقدوم نجم الدين أيوب من دمشق إلى مصر مع أهله (٤) واستلام صلاح الدين زمام الأمور في مصر سنة (٥٦٤ هـ) (٥)ثم دخوله دمشق وأعماله وفتوحاته ووفاته ثم صفاته وأخلاقه (٦) ، ثم أحداث ما بعد وفاته(٧) .

ولايختلف كتاب(عيون الروضتين)عن كتاب (الروضتين) من حيث المضمون ، فيمكننا تقسيمه إلى قسمين رئيسيين الأول : يتحدث فيه عن الدولة النورية ، والثاني: يتحدث فيه عن الدولة الأيوبية .

ويتــألف القسم الأول من مقــدمة يتحــدث فيها عن أصل البيت الأتابكي ، وقسيم الدولة آق سنقر جد نور الدين محمود (ت ٤٨٧ هـ) ومن ثم مقتله (٨) .

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧ — ٤٦ .
(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٤٦ — ٢٣٥ .
(٣) الروضتين ج ١ ص ١٢٩ — ١٣٣ و ١٤٢ — ١٤٧ ١٥٤— ١٦٠ .
(٤) المصدر السابق ج ١ ص ١٨٣ — ١٨٤ .
(٥) الروضتين ج ١ ص ١٦٠ — ١٦٤ .
(٦) المصدر السابق ج ١ ص ٢٣٥—٢٧٧ و ج ٢ ص ٢ —٢٢٤
(٧) الروضتين ج ٢ ص ٢٢٤ — ٢٤٥ .
(٨) الأصل (٢ / و — ٣ / ظ) .

وصلب الموضوع : ويتحدث فيه عن فضائل وفتوحات عماد الدين زنكي ومقتله سنة (٥٤١ هـ) (١) ، ثم يتحدث بعد ذلك عن نور الدين وأعماله وفتوحاته ووفاته سنة (٥٦٩ هـ) ثم صفاته وأخلاقه وعدله ، وماجرى بعد وفاته إلى دخول صلاح الدين يوسف بن أيوب دمشق (٢) .

والقسم الثاني يتألف أيضاً من مقدمة في وصف حال نجم الدين الأيوبي بن شاذي وأخيه أسد الدين شيركوه في اتصالهم بالدولة النورية ، وذلك خلال حديثه لنا عن أحداث سنة (٥٥٩ هـ) واختيار نور الدين زنكي لأسد الدين شيركوه قائداً للجيش الذاهب إلى مصر لإعادة شاور إلى الوزارة ، وهي المرة الأولى التي يدخل فيها أسد الدين لمصر (٣) .

ثم مسير أسد الدين إلى مصر للمرة الثانية سنة (٥٦٢ هـ) ، وعودته إلى دمشق (٤) .

ثم مسير أسد الدين إلى مصر للمرة الثالثة سنة (٥٦٤ هـ) واستلامه وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد (٥) ووفاته ، ثم يتحدث في صلب الموضوع عن صلاح الدين وتسلمه الوزارة ثم الخطبة لبني العباس والقضاء على الدواة الفاطمية بمصر (٦) ، ثم يتوقف ليتابع بعد دخول

---

(١) الأصل (٣ / ظ – ٨ / و) .
(٢) الأصل (٨ / و – ١١٠ / و) .
(٣) الأصل ٣٥ / ظ – ٣٨ / و) .
(٤) الأصل (٤٥ / ظ – ٤٦ / و) .
(٥) الأصل (٤٧ / ظ – ٤٩ / ظ) .
(٦) الأصل (٥٠ / و – ٥٢ / و) .

صلاح الدين إلى دمشق ليتابع سرد أحداث الدولة الأيوبية(١) ثم يذكر أولاد صلاح الدين وما آلت إليه دولته بين أولاده (٢) .

وبعد ذلك لابد من التعرف على حجم كل قسم من القسمين بالنسبة للآخر في كتاب الروضتين : فلو أحصينا تعداد صفحات القسم الأول الذي يتحدث فيه عن أصل البيت الأتابكي ونور الدين الزنكي ، وبعد أن نسقط ثماني عشرة صفحة ، تدخل في نطاق القسم الأول الذي يتحدث فيه عن نجم الدين أيوب بن شاذي وأخيه أسد الدين شيركوه ، فإننا نجده مائتين وسبع عشرة صفحة .

بينما القسم الثاني الذي يتحدث فيه عن دولة صلاح الدين الأيوبي بعد إضافة الصفحات الثماني عشرة التي أسقطناها من القسم الأول إلى هذا القسم نجده /٢٨٣/ مائتين وثلاثاً وثمانين صفحة ، بعد أن أسقطنا منه إحدى وعشرين صفحة تخص أحداث مابعد وفاة صلاح الدين .

فنجد أن الفارق بين القسمين تقريباً ست وستون صفحة ، وهذا يعني أن القسم الثاني الذي يخص صلاح الدين أكبر تقريباً من القسم الأول الذي يخص نور الدين بنسبة (٣٠٪) .

فلو تساءلنا هل يعني ذلك أن أباشامة يميل بعاطفته لصلاح الدين يوسف أكثر مما يميل إلى نور الدين الزنكي ؟ الحقيقة أننا نرجح مساواة أبي شامة بين الإثنين في عاطفته ، فهو لايفضل أحدهما على الآخر .

---

(١) الأصل (١١٠ / و - ٢٩١ / ظ) .

(٢) الأصل (٩١ / ظ - ٩٦ / و) .

والفارق بين القسم الذي يتحدث فيه عن نور الدين وبين القسم الذي يتحدث فيه عن صلاح الدين هو فارق اقتضته ظروف الأحداث في عهد صلاح الدين .

لأننا لو أمعنا النظر فيما يحدثنا به أبو شامة ، سواء في خطبة كتابه الكبير المسمى (بالروضتين) أو في خطبة كتـابه (عيون الروضتين) عن أخلاقهما وصفاتهما وعدلهما لأدركنا أنه يوازي بينهما في عاطفته ، فلا يرجح كفة أحدهما على الآخر . فلا عجب في ذلك ، أليْسا هما بطليه اللذين هدف مـن وراء تدوين سيرتهما إيقاظ ضمائر الحكام المعاصرين له ، وليعتبروهما مثلاً أعلى وقدوة حسنة يقتدون بهما ، ويحذوا حذوهما في الفتوحات ومقارعة الصليبيين وغيرهم ، وأن يتحلوا بالفضائل والأخلاق الكريمة ، وأن يحققوا العدل بين أفراد الرعية (١) إذن فالفارق بـين القسمين أمـر طبيعي اقتضته ظروف الأحداث كما أسلفنا ، لهذا نجد أيضاً في كتابه (عيون الروضتين) مثل هذا الفارق ، فنجد نسبة القسم الأول الذي يتحدث فيه عـن نور الدين ثلث القسم الثاني الذي يتحدث فيه عن صلاح الدين يوسف ابن أيوب .

لابد لنا بعد ذلك من أن نطرح السؤال التالي : ما هي نسبة كتاب (عيون الروضتين) إلى كتابه الكبير المسمى (بالروضتين) ؟

وقبل إجابتنا على سؤالنا ، رأينا من المفيد أن نتعرف إلى نسبة

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٣ — ٤ ، (والأصل ٢ / و) .

ماأورده أبو شامة مــن قصــائد شعرية في كتابه الكبير المسمى (بالروضتين) إلى ماأورده مــن قصائد شعريه في كتابه (عيون الروضتين) .

وكتاب الروضتين كما نعلم جزءان الجزء الأول ويشتمل على (٢٧٩) صفحة ، بعد أن قمنا بتدقيقها وجدنا أن مــن أصلها يوجد (١٢٠) صفحة ، تضم قصائد شعرية لشعراء تلك الفترة في وصف ومدح الملكين نــور الدين وصلاح الدين الايوبي أو شخصيات هامة في تلك الفترة ، وبذلك تغطي القصائد الشعرية من أصل هذا الجزء (٤٣ ٪) تقريباً . وإذا اعتبرنا أن كتاب الروضتين بجزأيه يشتمل على فترتين هما : الأولى وتشتمل على الدولة النورية وحتى وفاة نور الدين فاننا نجد أنها تشتمل على (٢٣٥) صفحة مــن أصل كتاب الروضتين وتشتمل على (١٠١) صفحة من القصائد الشعرية ، فنرى أن نسبة القصائد الشعرية خلال هذه الفترة تغطي أيضاً (٤٣٪) تقريباً .

والفترة الثانية التي تتحدث عن دولة صلاح الدين بعد وفاة نور الدين وتشتمل على (٤٨) صفحة في نهاية الجزء الأول و(٢٤٥) صفحة الجزء الثاني من كتاب الروضتين ، وتشكل القصائد الشعرية خلال هذه الفترة (١٨,٥٪) تقريباً وتشكل القصائد الشعرية من أصل كتاب الروضتين ككل نسبة (٢٩٪) تقريباً .

أما في كتاب عيون الروضتين ، فنرى القصائد الشعرية تشكل من أصل الفترة الأولى والتي تنتهي بوفاة نور الدين محمود زنكي (الأصل ــ ١١٠ /ل) تقريباً (١٨٪) والقسم الثاني والذي يشتمل على أحداث دولة صلاح الدين هي (٨,٥٪) تقريباً . وهكذا نرى أن نسبة

القصائد الشعرية في كتـــاب عيون الروضتين تصل إلى (١٢,٥٪) تقريباً ، فنجد أن نسبة الفارق بين كتاب الروضتين وكتاب عيون الروضتين في القصائد الشعرية هي (١٦,٥ ٪) في كتاب الروضتين تزيد عنها في كتاب عيون الروضتين .

أمـــا نسبة مختصر الروضتين (عيون الروضتين) إلى الكتاب الأصل (الروضتين) لا بد لنا من إجراء مقارنة بين كتاب الروضتين ومختصره ، آخذين بعين الاعتبار ماجاء في خطبة مؤلفنا أبي شامة من تركيزه على أخبار الدولتين النورية والصلاحية ؛ لهذا فقد قسمنا تجاوزاً كتاب الروضتين إلى عشر فترات زمنية ، تتضمن كل فترة منها الأحداث الهامة والبارزة ، وقمنـــا بمقارنتها بنفس الفترات الزمنية في مختصر الروضتين – عيون الروضتين – مـــن حيث تعداد الصفحات ، وقبل أن نجري هذه المقارنة لابد لنا من أن نتعرف :

أولاً : إلى تعداد كلمات السطر الواحد في كتاب الروضتين والتي تتراوح بين ١٧ – ١٨ كلمة ، وعدد سطور الصفحة الواحدة (٣٧) سبعة وثلاثون سطراً (في نسخة أبي السعود – طبعة دار الجيل–بيروت) .

ثانياً : يبلغ تعداد كلمات السطر الواحد في كتاب عيون الروضتين (الأصل/ل) بين (١١ – ١٢) كلمة ، وعدد سطور الصفحة الواحدة (٢٣) ثلاثة وعشرون سطراً أي أن كل صفحة في كتاب الروضتين تزيد في عدد السطور عما في صفحة المخطوط أربعة عشر سطراً إضافة إلى زيادة تتراوح بين خمس إلى ست كلمات في السطر الواحد .

وهكذا يمكننا على وجه التقريب مـــن تحديد نسبة الصفحة الواحدة في كتاب الروضتين إلى مثيلها في كتاب عيون الروضتين ، فنجد أنها في كتاب الروضتين تعادل ضعف مثيلها في كتاب عيون الروضتين .

وبعد أن أوضحنا ذلك ، يمكننا الآن أن نجري المقارنة بين الفترات العشر للكتابين في الجدول التالي :

* * *

مسلسل	الأحداث	صفحاته في الروضتين		صفحاتــه في مختصر الروضتين		
		من صفحة	إلى صفحة	من صفحة	إلى صفحة	الفارق بين الصفحات
١	أصل البيت الاتابكي وترجمــة نور الديــن الزنكي وصفـــاته وأخلاقه ، ســيرة وأعمال عمـــاد الدين زنكي ومقتله سنة (٥٤١ هـ) وتسلم نور الدين حلـــب	ج١ ٥	٤٦	٢/ل	١٨/ل	٣٢
٢	من سنة ٥٤١ هـ – ٥٤٩ هـ واستيـــلاء نور الدين على دمشق ، احـــداث مابعدها	ج١ ٤٦	٩٧	١٠/ل	١٨/ل	٤٣
٣	إلى عودة أسد الدين إلى مصر للمرة الثالثـــة سنة ٥٦٤ هـ – ووفـــاته ، واستلام ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب وزارة مصرومن ثم قضائه على الدولة الفاطمية والخطبة لبني العباس .	ج٢ ٩٧	١٨٠	١٨/ل	٤٧/ل	٥٤
٤	نزول الفرنج على دمياط سنة ٥٦٥ هـ وحـــتى وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ هـ وما جرى حتى دخول صلاح الدين إلى دمشق سنة ٥٧٠ هـ ومآثر نور الدين زنكي حتى بداية أحداث سنة ٥٧١ هـ .	ج١ ١٨٠	٢٣٧	٤٧/ل	١٢٠/ل	١٦
٥	من أحداث سنة ٥٧١ هـ حتى وفاة الملك الصالح بحلب سنة / ٥٧٧ / هـ .	ج١ ٢٣٧	٢٧٩	١٢٠/ل	١٤٩/ل	٦٥
٦	من تسلم السلطان صلاح الدين بحلب إلى فتحه بيت المقدس عام /٥٨٣ هـ/ وماجرى بعد الفتح من خطب وغير ذلك	ج٢ ٥٠	١١٩	١٤٩/ل	٢٠٦/ل	١٢
٧	من حصار صور وفتح هونين وغير ذلك ودخول صلاح الدين الساحل وفتحه عدداً من البلاد والحصون إلى أحداث سنة خمس وثمانين وخمسمائة	ج٢ ١١٩	١٣٨	٢٠٦/ل	٢١٧/ل	٨
٨	من فتح شقيف أرنون ونزول الفرنج على عكا واحتلال الفرنج لها سنة /٥٨٧هـ/.	ج٢ ١٣٨	١٩٠	٢١٧/ل	٢٥٤/ل	١٥
٩	فيما جرى بعد انفصال عكا من خراب عسقلان ، وعزم الفرنج على قصد القدس والهدنة مع ملك الانكلمز وما جرى بعد الهدنة.	ج٢ ١٩٠	٢٠٤	٢٥٤/ل	٢٦٤/ل	٤
١٠	أحداث سنة ٥٨٩ ووفاة صلاح الدين ، وسيرته وعدله وأخلاقه وتركته ، وانقسام ممالكه بين أولاده ، ووفاة القاضي الفاضل .	ج٢ ٢٠٤	٢١٨	٢٦٤/ل	٢٩٦/ل	٩

التحقيق :

سلف الذكر أنّه تعذّر الحصول على نسخة كوبريلي — بتركيا — التي يعتقد بأنّها النسخة الأم ، ولا نعلم عن أمرها غير ذلك ، ويعود سبب عدم التمكن من الحصول عليها — رغم الجهود الكبيرة التي بذلت لهذه الغاية — إلى سياسة الدولة التركية حيال كتب التراث بشكل عام ، وإلى القيود المشدّدة واللاعقلانية في تركيا ...

لهذا اضطررنا أن نعتمد أصلاً في نصّ الكتاب — بادىء ذي بدىء — على نسخة المغرب — الرباط — والتي أمكن الحصول عليها ، وعلى مايبدو أنّها كانت نسخة جيّدة ، لكن ربّما أثّر عليها سوء الحفظ ، فأصبحت قراءتها تحتاج إلى تدقيق ، وتمحيص ، وجهد ووقت طويل ، بل إنّ عدداً من أوراقها أصبحت شبه بيضاء (١) من المحال فهمها أو قراءة حرف منها ، وقد رمزنا لها بالحرف (م) .

ثمّ أمكن بعد ذلك الحصول على نسخة لندن ، وبعد مقارنتها بمخطوطة المغرب ، وضح لنا أنّ نسخة لندن هي نسخة الأم لها ، لهذا اعتمدت أصلاً في نصّ الكتاب ، ورمزنا لها بالحرف (ل) ؛ وهي نسخة نسخت بخط واضح ، جميل في مجموعه ، لكن الأخطاء الإملائية فيها كثيرة وأكثر منها الأخطاء الناتجة عن عدم دقّة الناسخ في تنقيط الحروف ، وقد لايكتب حرفاً أو حرفين متتالين ، فمثلاً يكتب (سيدنا محمد حاتم انبيا والمرسلين) بدلاً من كتابتها بالشكل الصحيح وهو : (سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين) ، أو لا يضع

---

(١) النسخة الثانية (٤ — ٥ — ٤٠ — ٤١ — ٢١٩ — ٢٢٠ — ٢٣٣ — ٢٣٤ — ٢٣٤ / م) .

ألفاً ، فمثلاً يكتب (ابرهيم) عوضاً عن كتابتها بالشكل الصحيح وهو (ابراهيم) أي أنّه أسقط حرف الألف ، كما أنه أسقط كثيراً من نقاط الحروف والّتي جاءت في أمثلتنا منقوطة ، وذلك لعدم وجود حروف غير منقوطة في الطابعة ، ويكفي أن نلقي نظرة إلى مقدمة الناسخ ، وخطبة الكتاب في الأصل (٢/ل – و) ، لندرك وجود مثل هذه الأخطاء وكثرتها .

فقمنا بتقويم النّص ، ونقي هذه العيوب منه ، لكننا لم نشر إليها في الحواشي لكثرتها ، ولكي لاتزحم الحواشي ، وتزيد من حجم الكتاب ، وفي المخطوط بياض في أماكن قليلة متفرّقة منها ، أشرنا إليها في حواشي النصّ ، وقد استطعنا ملء بعض هذا البياض من النسخة (م) ، والباقي استدركناه من الروضتين ، والمصادر الّتي اعتمدناها في بحثنا، وقد أشرنا إليها في الحواشي .

وهنا لاندري أمردّ هذا البياض إلى المؤلف أم إلى الناسخ . ويرجّح أنّه نجم عن عمل النسّاخ ، نظراً لتوفّر معظم المواد الساقطة في الروضتين .

واعتمدنا في تقويم نصّ الكتاب على عدد كبير من المصادر ، وذلك بالإضافة إلى كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين) ، لمؤلفنا أبي شامة ، الّذي هو أصل كتابنا ، وأهم هذه الكتب :

– أبو يعلى ، هو العميد بن القلانسي ، أبو يعلى حمزة بن راشد التميمي الدمشقي ، صاحب كتاب (تاريخ دمشق) (ت ٥٥٥ هـ – ١١٦٠ م) (١) ، وهو أصل من أصول أبي شامة ،نقل عنه أخبار الدولة

(١) انظر تاريخ دمشق للقلانسي ، شذرات الذهب ج ٤ ص ١٧٤ .

الزنكية من (٥٢٠ هـ — ٥٥٥ هـ / ١١٢٥ — ١١٦٠ م) ، وهي سنة وفاة أبي يعلى ، وقد عدنا إلى كتابه ، أثناء التحقيق والضبط وأثناء التوطيد للدراسة .

— ابن عساكر ، هو الإمام الحافظ المؤرخ ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي ، المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١ هـ — ١١٧٥ م) (١) ، صاحب كتاب (تاريخ دمشق الكبير) ، وهو أصل من أصول أبي شامة ، وقد عدنا إلى كتاب (تهذيب تاريخ دمشق الكبير) ، هذّبه ورتّبه الشيخ عبد القادر بدران (ت ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٦م) وكتابه الأصل ، كتاب ضخم ، ذكر مؤلفنا أبو شامة في كتابيه (الروضتين في أخبار الدولتين) و (عيون الروضتين في أخبار الدولتين) الّذي هو موضوع بحثنا ، أنّه ثمانون مجلّداً .

— العماد ، هو عماد الدين أبو عبدالله محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد بن نفيس الدين أبي الرجاء حامد بن محمد بن عبد الله ابن علي بن محمود بن هبة الله بن أله الكاتب الأصفهاني ، وهو فارسي المحتد (ت ٥٩٧ هـ — ١٢٠١ م)(٢) ، صاحب كتابي (البرق الشامي) و (الفتح القسّي في الفتح القدسي) ، وهو أصل من أصول أبي شامة ، وكتابه (البرق الشامي) يسجّل أحداث الدولتين النوريّة

(١) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩٤ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٣٩ ،تهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ٧ — ١٠ .

(٢) انظر : سنا البرق الشامي ص ٧ وما بعد ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣١ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٣٣٢ — ٣٣٣ .

والصلاحية من سنة (٥٦٣ هـ - ١١٦٨ م (وحتى وفـاة صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٨٩ هـ - ١١٩٣ م) ، وقـد عدنا إلى مخطوطة للبرق الشامي ، غير كاملة ، مصوّرة من المغرب ، لكن تعذّر علينا الاستفادة منها لسوء خطّها ، ووضعها العام ، لهذا استعضنا عن كتاب البرق الشامي بكتاب (سنا البرق الشامي) لقوام الدين الفتح بن علي البنداري (ت ٦٤٤ هـ - ١٢٤٦ م) (١) وهو مختصر البرق الشامي للعماد ، وهو سجّل الحوادث للدولتين النوريّة والصلاحية من سنة (٥٦٣ هـ ولغاية ٥٨٩ / ١١٦٨ - ١١٩٣ م) في مصر وما يجاورها ، والحوادث الجارية في اليمن بعد سنة (٥٦٩ - ١١٧٣ م) ، ولا يهمل ذكر التغيرات الجارية في مقام الخلافة ومـا يجاورها ، بسبب أهميتها المتعلّقة بالمكاتبات .

وكتابه (الفتح القسي في الفتح القدسي) وهـو سجّل الحوادث للدولة الأيوبية من سنة (٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م) ولغاية وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٨٩ هـ - ١١٩٣ م) ، وقد عدنا إلى هذين الكتابين أثناء التحقيق والضبط ، وأثناء التوطيد للدراسة .

- يحيى بن أبي طي (ت ٦٣٠ هـ - ١٢٣٢ م) (٢) ، صاحب كتاب السيرة الصلاحية ، وكتابه هـذا لازال بحكم المفقود ، وهو أصل من أصول أبي شامة ، نقل عنه الأحداث التي جرت في حلب وما يجاورها ، وقد عدنا كما أسلفنا إلى كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين) ، وإلى ابن العديم ، وهو : كمال الدين أبي القاسم

---

(١) انظر سنا البرق الشامي المقدمة .

(٢) انظر : سنا البرق الشامي ص ٣٤ ، الروضتين ج ١ ص ١٦٥- ١٧٤ .

عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم : (٥٨٨-٦٦٠ هـ / ١١٩٢ - ١٢٦٢ م (١)) ، وهو صاحب كتاب (زبدة الحلب في تاريخ حلب) فهو ينقل عن يحيى بن أبي طي الشيء الكثير .

- ابن الأثير : هو علي بن محمد الشيباني ، كنيته أبو الحسن ، ولقبه عز الدين ، ويعرف بابن الأثير الجزري ، نسبة إلى جزيرة ابن عمر - بلدة فوق الموصل على نهر دجلة - (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م)(٢) ، وهو صاحب كتابي (الكامل في التاريخ) و(التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيّة) وهو أصل من أصول مؤلفنا أبي شامة ، وقد عدنا إلى كتابه (الكامل في التاريخ) ، وهو كتاب ضخم ، جامع لأكثر ملوك الشرق ، ولبعض ملوك الغرب ومابينهما ، بدأه منذ أوّل الزمان إلى نهاية أحداث سنة (٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م) ، وكتابه التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيّة ، وهو سجّل حوادث الدولة الأتابكيّة ، التي عاش في ظلّها ، إلى وفاة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي سنة (٥٦٩ هـ - ١٢٧١ م) .

- ابن شدّاد ، وهو يوسف بن رافع بن تميم ، المعروف بابن شدّاد ، والملقّب بهاء الدين ، (ت ٦٣٢ هـ - ١٢٣٤ م) (٣) ، صاحب كتاب النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة (سيرة صلاح الدين الأيوبي) ،

---

(١) انظر : البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٣٦ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٢) الكامل ج ١ ص ٩ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٣٩ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ١٣٧ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٤٣ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ١٥٨ - ١٥٩ ، مختارات من النوادر السلطانية ص ٧ - ٩ .

وهو أصل من أصول أبي شامة ، وقد عدنا إلى كتابه هذا أثناء التحقيق والضبط ، وأثنـــاء التوطيد للدراسة ، وكتابه هذا سجلّ الحوادث لسيرة صلاح الدين ، وهو قسمان :

الأوّل : منذ ولادة صلاح الدين الأيوبي ، ولغاية التحاق ابن شداد بالبلاط سنة (٥٨٤ هـ – ١١٨٨ م) .

والثاني : يبدأ بهذا الالتحاق ، وينتهي بوفاة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة (٥٨٩ هـ – ١١٩٣ م) .

– ياقوت الحموي : هو الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الـــرومي البغـــدادي (ت ٦٢٦ هـ – ١٢٢٨ م) (١) ، وهو صاحب كتاب معجم البلدان ، وقد عدنا إليه أثناء التحقيق والضبط لأسماء الأماكن والمدن والقلاع .

– أبو عبيد البكري : وهـــو عبدالله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت ٤٨٧ هـ – ١٠٩٢ م) (٢) ، صاحب كتـــاب (معجم مااستعجم من أسماء البلاد والمواضع) .

– الامام العلامة أبو الفضل ، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظـــور الافريقي المصري : (ت ٧١١ هـ – ١٣١٣ م) (٣) ، صاحب كتاب (لسان العرب) ، وهو كتاب لغوي ضخم ، يعتبر

---

(١) معجم البلدان ج١ ص ٦ .

(٢) معجم ما استعجم ج ١ ص ١ وما بعد .

(٣) لسان العرب ج ١ ص ٤ .

من أضخم وأهمّ المعاجم في اللغة العربية ، وقد عدنا إليه في ضبط وتوضيح الكلمات التي رأينا أنّها تحتاج إلى ذلك .

— ابن كثير : وهو الإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير ، قرشي النسب ، دمشقي الدار (ت ٧٧٤ هـ — ١٣٧٠ م) (١) ، وهو صاحب كتاب (البداية والنهاية) وهو كتاب ضخم يقع في (١٤) جزءاً ويقسّم ابن كثير كتابه إلى ثلاثة أقسام :

الأوّل : سجّل الحوادث منذ بدء الخليقة ، ولمعاً من تواريخ الأمم الغابرة والعرب في العصر الجاهلي ، ونشأة الرسول — صلّى الله عليه وسلّم — ثمّ الوحي ، فظهور الهداية ولغاية الهجرة إلى المدينة المنوّرة .

والثاني : يؤرخ فيه للعهد الراشدي ، فالدولة الأموية ، فالعباسية ، والدويلات التي تفرّعت عنها ، إلى عصر الانحطاط والتدهور ، ثمّ قضاء المغول عليها حتى وفاته سنة (٧٧٤ هـ — ١٣٧٠ م) .

والثالث : فهو ذكر للآخرة ومظاهر قرب الساعة ، وعلاماتها ، ووعظ ديني بمخافة الله ، ويقتصر هذا الجزء على المجلّد الأخير فقط .

— ابن العماد : هو أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد ، المعروف بابن العماد العسكري الدمشقي الحنبلي ، (ت ١٠٨٩ هـ — ١٦٨٤ م)(٢) ، صاحب كتاب (شذرات الذهب في أخبار من ذهب)

---

(١) انظر البداية والنهاية ج١ ص ٣ ، شذرات الذهب ج٦ ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

(٢) انظر شذرات الذهب ج ١ ص ٢ .

وهو كتاب ضخم يقع في ثمانية أجزاء ، وهو سجلّ الحوادث والوفيات منذ السنة الأولى للهجرة ولغاية سنة (١٠٠٠ هـ — ١٥٩٥ م) .

— فولفغانغ مولّر — فينر ، صاحب كتاب القلاع أيام الحروب الصليبية ، ترجمه إلى العربية مركز الدراسات العسكرية — بدمشق — وقد عدنا إليه أثناء التحقيق والضبط .

أما الدراسة : فهي كما وردت جاءت قسمين :

— العصر الذي عاش فيه مؤلفنا أبو شامة .

— ثمّ ترجمة المؤلّف .

بالنسبة لعصر المؤلّف فقد كانت أهم المصادر التي عدنا إليها :

— أبو شامة : هـو مؤلفنا عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥ هـ — ١٢٦٨ م) (١) ، صاحب كتـاب (رجال القرنين السادس والسابع الهجري المعروف بالذيل على الروضتين) وقد ذكرناه بشكل مفصّل بين مصنّفات أبي شامة .

— ابن واصل : وهو جمال الدين محمد بن واصل (ت ٦٩٧ هـ — ١٢٩٤ م) (٢) ، صاحب كتـاب (مفرّج الكروب في أخبـار بني أيوب) ، وهو في أربعة أجزاء ، وقد عدنا إلى الجزأين : الثالث وهو سجلّ الحوادث مابعد وفاة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة (٥٨٩ هـ — ١١٩٣ م) ولغاية سنة (٦١٤ هـ — ١٢١٦ م) ،

---

(١) الذيل على الروضتين ص ٣٧ — ٤٠ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٥٠ — ٢٥١ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٣١٨ — ٣١٩ .
(٢) شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٣٨ — ٤٣٩ .

والجزء الرابع وهو سجلّ الحوادث من عـام (٦١٥ هـ ولغـاية ٦٢٨ هـ / ١٢١٧ — ١٢٣٠ م) .

— أبو الفدا : هو الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي ، أبو الفدا بن الأفضل ابن الملك المظفر بن الملك المنصور صاحب حماة (ت ٧٣٢ هـ — ١٣٢٨ م)(١) صاحب كتاب (المختصر في أخبار البشر — تاريخ أبي الفداء) وهو في ثلاثة مجلدات وقد عدنا إلى كتابه هذا — المجلّد الثاني — ويتضمن هذا المجلد الجزأين الثالث والرابع ، وهذا المجلّد سجلّ الحوادث منذ عام (٥٢٣ هـ — ولغاية ٧٣٠ هـ / ١١٢٩ م — ١٣٢٦ م) (حيث تبدأ تتمة الكتاب لابن الوردي ، والتي تنتهي سنة (٧٤٧ هـ — ١٣٤٣ م) .

— المقريزي : وهو تقي الدين أحمد بن عبد القادر بن إبراهيم ابن محمد بن تميم بن عبـد الصمد المقريزي ، الحنفي البعلي الأصل — نسبة إلى حارة في بعلبك ، تعرف بحارة المقارزة — المصري المولد والدار (ت ٨٤٥ هـ — ١٤٤١ م) ، صاحب كتاب السلوك ، وقد عدنا في دراستنا لعصر المؤلف إلى كتاب السلوك ، الجزء الأوّل ، القسم الأوّل ، والثاني ، ويقع الكتاب في أربعة أجزاء : يبدأ بأخبار من ملك مصر بعد الخلفاء الفاطميين من الأكراد الأيوبية ، والسلاطين المماليك التركيّة ، والجركسيّة إلى عصره .

— أنور زقلمة صاحب كتاب (المماليك في مصر) ، ويبدأ كتابه منـذ الفتح العربي لمصر ويعرض الأحداث بصورة مختصرة جداً

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ١٨٣ — ١٨٨ ، شذرات الذهب ج ٦ ص ٩٨ — ٩٩ .

وسريعة ، ثمّ ينتقل إلى نشأة المماليك وحكمهم وأخلاقهم ، وحياتهم الاجتماعية ، وعلاقتهم بالحروب الصليبية .

— الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، صاحب كتاب (مصر في عصر دولة المماليك البحرية) وهو كتاب سجلّ الحوادث من سنة ١٢٤٩ م أي منذ الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة ، وسقوط الدولة الأيوبية في مصر وقيام دولة المماليك ، ولغاية الحملة الصليبية التي قام بها بطرس لوزجنان ملك قبرص على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ م على عهد السلطان شعبان حفيد الناصر (١٣٦٣ — ١٣٧٦ م) مع ذكره في فصول مستقلّة النواحي الاجتماعية والاقتصادية والفنية .

— د . أنطون خليل ضومط ، صاحب كتاب (الدولة المملوكية ، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري) ، ويتضمن حوادث الفترة من (١٢٩٠ — لغاية — ١٤٢٢ م) .

— د . عوض محمد خليفات ، صاحب كتاب (مملكة ربيعة العربية في وادي النيل) ، ويتضمّن الكتاب هجرة العرب إلى وادي النيل منذ أقدم العصور وأثرها على المنطقة ، ثم هجرة قبيلة ربيعة العربية في النصف الأول من القرن الثالث الهجري إلى مصر ، ثم توسع سلطة قبيلة ربيعة ومدّ سلطانها على الصعيد، واتخاذها أسوان عاصمة لها ، ثم يتحدث في الفصل الثالث عن مملكة ربيعة في وادي النيل ، والعلاقات بين مصر المملوكية وبلاد النوبة ومصر والقبائل العربية في الصعيد والنوبة ، وفي الفصل الرابع يتحدث عن بعض المظاهر الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في جنوب مصر ، وبلاد البجة والنوبة إبان حكم دولة ربيعة .

أما بالنسبة لترجمة المؤلف :

فقد كانت أهم المصادر التي عدنا إليها :

— أبو شامة : تراجم رجـــال القرنين السادس والسابع الهجري المعروف بالذيل على الروضتين حيث يذكر ترجمة مطولة لأبي شامة .

— الإمام تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت ٧٧١ هـ — ١٣٦٧ م) صاحب كتاب (طبقات الشافعية الكبرى) وقد عدنا إلى الجزء الخامس منه ، حيث يذكر فيه ترجمة حسنة لأبي شامة .

— اليونيني البعلبكي : وهو الشيخ قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد بن أحمد بن قطب الدين اليونيني البعلبكي الحنبلي (ت٧٢٦ هـ — ١٣٢٦ م) ، وهو صاحب كتاب (ذيل مرآة الزمان) حيث يذكر في الجزء الأوّل من كتابه هذا ترجمة وافية لأبي شامة .

— الحافظ شمس الدين الذهبي : وهو محمد بن أحمد بن عثمان ابن قايماز ، أبو عبدالله الذهبي (ت ٧٤٨ هـ — ١٣٤٧ م) صاحب كتاب (العبر في خبر من غبر) حيث يذكر في هذا الكتاب ترجمة حسنة لأبي شامة .

— الذهبي : وهو الامـــام أبو عبدالله شمس الدين محمد الذهبي (٧٤٨ هـ — ١٣٤٧ م) صاحب كتاب (تذكرة الحفاظ) . وهو نفس المؤلف السابق الذكر — ويذكر أيضاً في كتابه هذا في الجزء الرابع ترجمة وافية لأبي شامة .

ـ الكتبي ـ وهو محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن ابن شاكر بن هارون بن شاكر ، داراني المولد ، دمشقي الدار ، صاحب كتاب (فوات الوفيات والذيل عليها) ، (ت ٧٦٤ هـ ـ ١٣٦٤ م)، ويذكر في الجزء الثاني من كتابه هذا ترجمة وافية لأبي شامة .

ـ اليافعي : وهو الإمام أبو محمد عبدالله بن علي بن سليمان ، اليافعي اليمني المكي (ت ٧٦٨ هـ ـ ١٣٦٨ م) صاحب كتاب (مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان) ، حيث يذكر ترجمة وافية في الجزء الرابع من كتابه هذا لأبي شامة .

ـ ابن كثير : وهو الامام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤ هـ ـ ١٣٧٠ م) صاحب كتاب (البداية والنهاية) ، يذكر ترجمة وافية لأبي شامة في كتابه هذا في الجزء /١٣/ منه .

ـ ابن الجزري : وهو شمس الدين ، أبو الخير ، محمد بن محمد الجزري (ت ٨٣٣ هـ ـ ١٤٢٩ م) صاحب كتاب (غاية النهاية في طبقات القراء) ، ويذكر في الجزء الأول منه ترجمة وافية لأبي شامة .

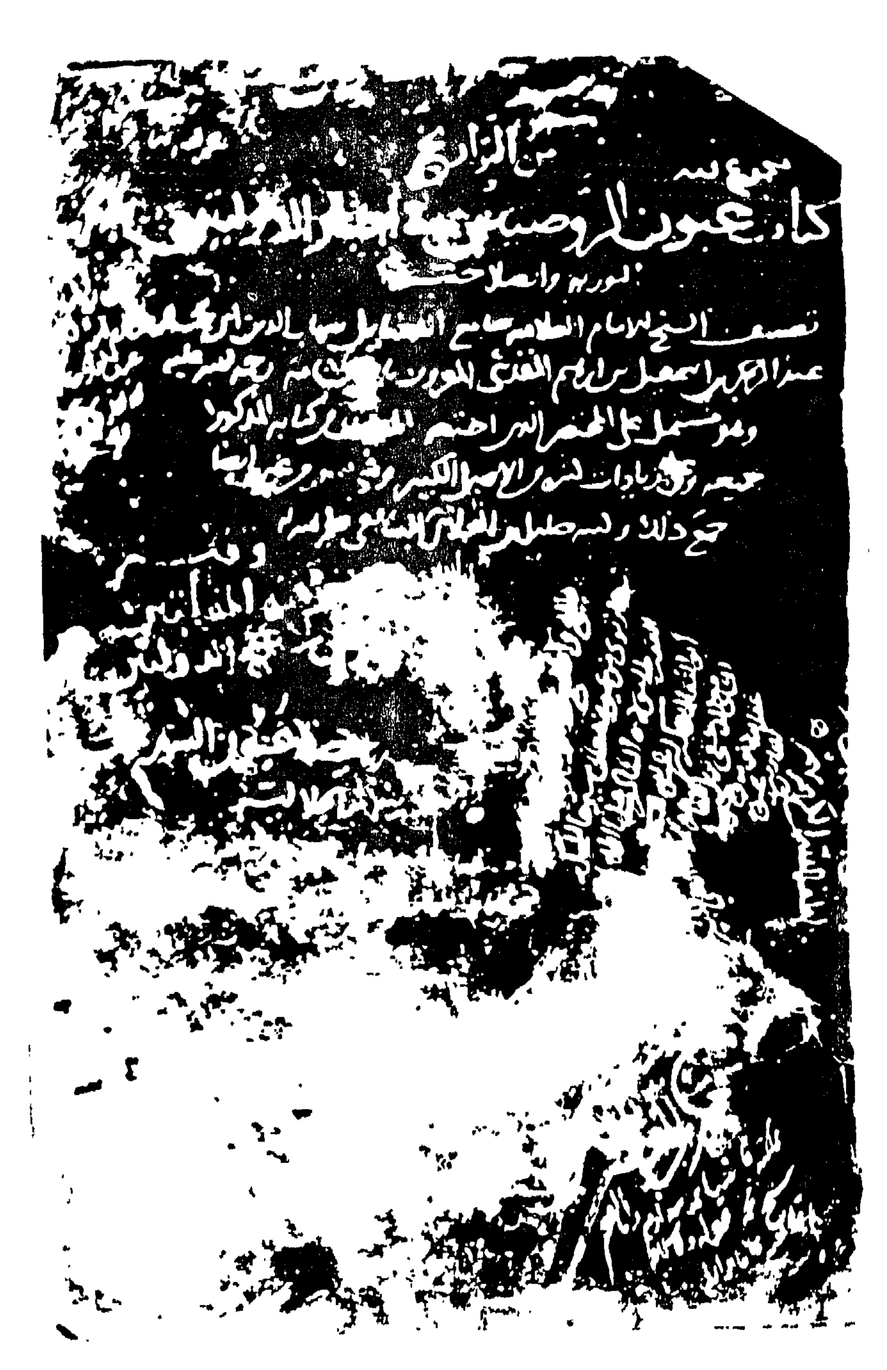
ـ المقريزي : وهو تقي الدين أحمد بن عبد القادر بن محمد ابن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد المقريزي الحنفي البعلي الأصل ـ نسبة إلى حارة في بعلبك تعرف بحارة المقارزة ـ المصري المولد والدار (ت ٨٤٥ هـ ـ ١٤٤١ م) صاحب كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) ، حيث يذكر أبا شامة في كتابه هذا في الجزء الأول القسم الثاني في أحداث وفيات (٦٦٥ هـ ـ ١٢٦٨ م) .

- السيوطي : وهو الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ — ١٥٠٦ م) ، وهو صاحب كتاب (بغية الوعاة) ، يذكر في الجزء الثاني منه ترجمة وافية لأبي شامة .

— النعيمي : وهو عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت ٩٢٧هـ — ١٥٢٢ م) صاحب كتاب (الدارس في تاريخ المدارس) وهو في عدّة أجزاء ، يذكر في الجزء الثاني منه ترجمة وافية لأبي شامة .

— ابن العماد : وهو عبد الحي بن العماد الحنبلي أبو الفلاح (ت ١٠٨٩ هـ — ١٦٨٤ م) صاحب كتاب (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) ، يذكر في الجزء الخامس منه ترجمة وافية لأبي شامة .

* * *



وجه الورقة الأولى من مخطوطة لندن (ل)

ظهر الورقة الأولى من مخطوطة لندن (ل)

الصفحة الثانية من مخطوطة المغرب (م)

وجه الورقة الثانية من مخطوطة المغرب (م)

عيون الروضتين في أخبار الدولتين

النورية والصلاحية

تأليف

شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي

المعروف بأبي شامة

٥٩٩ ــ ٦٦٥هـ = ١٢٠٢ ــ ١٢٦٧م

القسم الأول

حققه

أحمد البيسومي



بسم الله الرحمن الرحيم ، (الحمد لله وسلامه على عباده الذين اصطفى) (١) ، [وصلّى الله على سيّدنا محمد وصحبه وسلم](٢) .

الحمد لله رب العالمين . والعاقبة للمتقين ، وصلّى الله على سيدنا محمد خاتم أنبيائه والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا مختصر كتاب الروضتين ، في أخبار الدولتين ، النورية ، والصلاحية ، الذي صنفه العلاّمة شهاب الدين ، أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي المعروف بأبي شامة رحمه الله .

ثم اختصره هذا المختصر ، ومن خطّه نقلت وزدت على مختصره (هذا) (٣) فوائد وتتمات حسنة كانت عندي معلقة من كتابه الكبير المسمى بالروضتين ، وبالله التوفيق .

قال : الحمد لله على كل حال ، وصلواته وسلامه على خير خلقه من الملائكة والأنبياء والأولياء والأبدال .

هذا مختصر كتاب الروضتين ، الذي كنت جمعته في أخبار الدولتين : النوريّة ، والصلاحيّة وما جرى في زمانهما ، اقتصرت

---

(١) ما بين قوسين لم يرد في نسخة المغرب .

(٢) ما بين القوسين إضافة عن نسخة المغرب .

(٣) ما بين القوسين سقط من نسخة المغرب .

فيه على الإشارة إلى الوقائع والنوازل . وبسط القول في وصف الملكين القائمين بتلك الفضائل ، إذ كان معظم قصدي بذلك الكتاب . تنهيض همم الملوك إلى الاقتداء بهما ، واستقباح التخلف عنهما . خوفاً من زلّة القدم . فما (بالعهد) (١) من قدم ، وليشتهر فيما بعد فضلهما بتدوين ذكرهما ، فلا ينسى بعد طول الزمان (أمرهما بل تعطر المجالس بأخبارهما ، وتزين المحافل بتذكار أقوالهما) (٢) ومواظبتهما على الجهاد ، وفتح البلاد ، والنظر الدائم في مصالح العباد ، فرضي الله عنهما ، فما أكثر التأسف على زمانهما ووفق (ملوكنا) (٣) لسلوك مسالكهما والتخلّق بأخلاقهما ، آمين .

* * *

---

(١) في نسخة المغرب (بالعند) وهو تصحيف .

(٢) سقط من نسخة المغرب .

(٣) في نسخة المغرب (ملكو كنا) .

أمّـــا الدولة النوريّـــة

فسلطانها (١) الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن عماد الدين أتابك (٢) وهو أبو ســعيد زنكي بن قسيم / الدولة آق سنقر [٢ / و] التركي (٣) ، ويلقب زنكي أيضاً : بلقب والده ابن قسيم الدولة . ويقال لنور الدين ابن القسيم ، وكان قسيم الدولة آق سنقر تركياً من أصحاب السلطان ركن الدين ملكشاه بن ألب أرسلان السلجقي ، وهـــو عم الملك دقاق بن تتش (٤) الذي كان هو وأبوه سلطاني دمشق مدة

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٢٢١ — ٢٢٣ ، ابن القلانسي : تاريخ دمشق ص ١٢٥ — ١٢٧ ، ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٣٢ — ٢٣٣ و ٦٤٣ — ٦٤٧ بتصرف ، الباهر ص ٤ — ٢٨ ، ابو شامة : الروضتين ج ١ ص ٥ — ٢٦ بتصرف ، المقريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٣٣ — ٤١ ، وانظر ترجمة آق سنقر قسيم الدولة في زكار : الحروب الصليبية ص ٢٦٩ — ٢٧٧ .

(٢) أتابك : كلمة تركية مركبة من أتا وتعني (المربي) وبك : وتعني (الأمير) .

(٣) هو آق سنقر بن عبد الله ، المعروف بقسيم الدولة ، مملوك السلطان أبي الفتح ملكشاه ، وقيل إنه لصيق له ، وقيل اسم أبيه آل ترغان من قبيلة ساب يو قتل سنة (٤٨٧ هـ) انظر تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٢٢٠ ، ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٣٢ —٢٣٣ ، والباهر ص ٤ ، أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٤ بتصرف ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٤٧ ، المقريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٣٣ — ٣٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج ٣ ص ٣٨٠ .

(٤) هو دقاق بن تتش بن ألب أرسلان أبو نصر المعروف بالملك شمسين الملوك، ولي إمرة دمشق بعد مقتل أبيه تاج الدولة سنة سبع وثمانين وأربعمائة . وتوفي سنة ٤٩٧هـ . (انظر ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٣٣٣ و ج ١٠ ص ٣٧٥ — ٣٧٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٦٣ — ١٦٤ ، المقريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٣٠ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج٣ ص ٤٠٥ ، زكار : الحروب الصليبية ص ٣٨٦ .

بإقطاع ملك شاه إياها لتتش. وكان قسيم الدولة آق سنقر من أصحاب ملكشاه وأترابه وممن ربي معه في صغره ، واستمر في صحبته إلى حين كبره . فلما أفضت السلطنة إلى ملك شاه تبناه بعد أبيه ، جعله من أعيان أمرائه ، وزاد قدره إلى أن صار يتقيه وزيرهم نظام الملك (١) ومن الدليل على علو مرتبته ، تلقيبه قسيم الدولة ، وكانت الألقاب حينئذ مصونة لاتعطى إلا لمستحقيها،وكان يقوم إلى جانب تخت الملك عن يمينه(٢) لايتقدم عليه أحد،وقدمه على جيش عظيم،سيّره إلى الموصل .

ثم أشار الوزير نظام الملك على السلطان ملكشاه ، أن يولي قسيم الدولة آق سنقر مدينة حلب وأعمالها ، ومنبج ، وحماة واللاذقية ، فأقطعه الجميع وظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده . ثم ملك بعد موت ملكشاه ، تكريت ، والرحبة ، وحمص ، وفامية(٣) ، ثم قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، قتله تاج الدولة تتش ، صاحب دمشق ، والد دقاق ، وكان تتش ، قد خرج بعد موت أخيه ملكشاه ، يطلب السلطنة ، ليأخذها من بركياروق ابن أخيه ملك

---

(١) هو الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس أبو علي الطوسي ،الوزير المعروف بنظام الملك ويعرف بالخواجة بزرك وخواجه بالفارسية الوزير . وبزرك العظيم . وزر للسلطان ألب أرسلان بن جعفر ، وقدم معه حلب في سنة ٤٦٣ حين قدمها محاصراً لها ثم وزر بعده لولده السلطان ملكشاه أبي الفتح . قتل سنة ٤٨٥ هـ / ٩٢ . ١ م .
انظر شذرات الذهب ٣ ص ٣٧٣ ، زكار : الحروب الصليبية ٣٤٩ .

(٢) قال ابن الأثير : (وكان البهلوان يقف عن يمين التخت ، فلما حضر شرف الدين ، انتقل البهلوان عن مقامه ، وقال لشرف الدين : هذا لكم من قديم الزمان ليس لأحد غيركم أن يقف (فيه مع حضوركم . . .) . الباهر ص ٤ .

(٣) أفامية : مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص . . . ويسميها بعضهم فامية بغير همزة . (ياقوت) .

شاه وكان قسيم الدولة مقدم جيش لبركياروق فالتقاهم تتش خارج حلب فأسر قسيم الدولة ، ثم قتله صبراً (١) . ولم يخلف مـن الأولاد سوى زنكي (٢) والد نور الدين (٣) .

وكان صبياً له نحو عشر سنين (٤) فاجتمع عليه مماليك (والده وأصحابه أمراء) (٥) الموصل الذين كانوا يلونها من قبل السلاطين السلاجقة واحداً بعد واحد إلى أن كبر وصار يحضر معهم الحروب، وظهرت شهامته وكفايته ، وقدم مع الأمير مودود دمشق وغزا معه الفرنج بطبرية وغيرها ، فاشتهر ذكره وبقي [يعرف] (٦) في عساكر العجم بزنكي الشامي ، ثم أقطع زنكي / مدينة واسط . [٢/ظ] وشحنكية البصرة (٧) ، ثم ولي الموصل ، فأخـذ جزيرة ابن

---

(١) الصبر : نصب الإنسان للقتل ، وصبر الإنسان على القتل نصبه عليه وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تصبر الروح . (لسان العرب) .

(٢) وهو عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر قتل أثناء حصاره لقلعة جعبر سنة ٥٤١ هـ . انظر : الكامل ج ١١ ص ١١٠ — ١١١ ، الروضتين ج ١ ص ٢٧ و ٤٢ — ٤٣ ، البداية والنهاية ج٢ ص ٢٢١ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ١٢٨.

(٣) في حاشية الأصل (٣ ظ) وبإزائه (أن قسيم الدولة لم يخلف سوى زنكي والد نور الدين أي بنت) .

(٤) انظر الكامل ج ١٠ ص ٦٤٣ — ٦٧٩ و ج ١١ ص ١٣ — ١١١ ، الروضتين ج ١ ص ٢٧ — ٣٢ .

(٥) في الأصل (٣ / ظ) مطموسة وفي نسخة المغرب بياض والاضافة عن الروضتين ج ١ ص ٢٧ .

(٦) في الأصل ٣ / ظ مطموسة والإضافة عن الروضتين ج ١ ص ٢٧ .

(٧) شحنكية : أي قيادة الحامية .

عمر (١) وإربل (٢) وسنجار (٣) والخابور ونصيبين (٤) ودارا (٥) وبلاد الهكارية (٦) وبني قلعة العمادية (٧) وملك من ديار بكر

---

(١) جزيرة ابن عمر : بلدة فوق الموصل ، بينهما ثلاثة أيام ، ولها رستاق مخصب واسع الخيرات . (معجم البلدان) .

(٢) إربل : (في ياقوت) بالكسر ثم السكون ، وباء موحدة مكسورة ولام : قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء واسع من الأرض ، ولقلعتها خندق عميق ، وهي بين الزابين تعد من أعمال الموصل .

(٣) سنجار : (في ياقوت) بكسر أوله وسكون ثانية ثم جيم وآخره راء : مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام وهي لحف جبال عال .

(٤) نصيبين (في ياقوت) بالفتح ثم الكسر ثم ياء علامة الجمع الصحيح : وهي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل الى الشام . . وهي حاليا في الأرض التركية تقع الى شمال مدينة القامشلي السورية بـ ٢ كم (زيارة ميدانية) . .

(٥) دارا : (في ياقوت) وهي بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين ، قالوا : طول بلد دارا سبع وخمسون درجة ونصف وثلث ، وعرضها ست وثلاثون درجة ونصف وانها من بلاد الجزيرة ذات بساتين ومياه جارية ،ومن أعمالها يجلب المحلب الذي تتطيب به الأعراب .

(٦) بلاد الهكارية : هي المنطقة الواقعة شمالي الموصل ، وكانت البلاد بيد الأكراد فأكثروا الفساد فيها : فملك الشهيد زنكي قلعة الشعباني بعد حصاره لها ثم هدمها، وأمر ببناء قلعة العمادية عوضا عنها (انظر الروضتين ج ١ : ص ٣٦) .

(٧) العمادية (في ياقوت) قلعة حصينة مكينة عظيمة في شمالي الموصل ومن أعمالها عمرها عماد الدين زنكي بن آق سنقر في سنة ٥٣٧ هـ وكان قبلاً حصناً للأكراد فلكبره خربوه فأعاده زنكي وسماه باسمه في نسبه إليه ، وكان اسم الحصن الأول (أشيب) وانظر الروضتين ج ١ ص ٣٦ ويذكر في الكامل ١١ : ٩١ انه استولى على قلعة أشيب سنة ٥٣٧ هـ .

طنزة (١) وإسعرد (٢) ومدينة المعدن (٣) وحيزان (٤) وحائي (٥) وعانة (٦) وغيرها ، واستولى على قلاع الحميدية وولاياتهم من العقر (٧) وقلعة شوش (٨) وعبر الفرات فملك منبج، وحلب ، وحماة.

---

(١) طنزة : (في ياقوت) بفتح أوله ، وسكون ثانيه ، وزاي بلفظ واحدة الطنز ، وهو السخرية : بلد بجزيرة عمر من دياربكر وهي حاليا تقع في أقصى الجنوب الشرقي من تركيا .

(٢) إسعرد ، ويقال (سعرت) و (إسعرت) و (سعرد) و (إسعرد) : مدينة في تركية بالقرب من شط دجلة ، في شماله إلى الشرق ، وهي جنوب ميافارقين على مسيرة يوم ونصف (تقويم البلدان ٢٨٩) .

و (سعرد) لفظة كردية مركبة من (سي) بمعنى ثلاثة و(عرد) بمعنى الأرض أو المبنى ، لادعاء مفاده أن المدينة خربت مرتين ثم بنيت ثالثة (الديارات ١٩٨ — التعليق رقم ٣) .

(٣) مدينة المعدن : لم أعثر على ترجمة لها ، والمرجح أنها من دياربكر .

(٤) حيزان : (في ياقوت) بكسر أوله ، وسكون ثانية ، وزاي ، وألف ، ونون : وهي قرب اسعرت من دياربكر ، فيها الشاه بلوط والبندق وليس الشاه بلوط في شيء من بلاد العراق والجزيرة والشام إلا فيها .

(٥) حائي : (في ياقوت) حاني بالنون ، بوزن قاضي وغازي : اسم مدينة معروفة بدياربكر فيها معدن الحديد ومنها يجلب الى سائر البلاد .

(٦) عانة : (في ياقوت) بالنون ، بلد مشهور بين الرقة وهيت يعد في أعمال الجزيرة وهي مشرفة على الفرات قرب حديقة النورة وبها قلعة حصينة .

(٧) العقر : (في ياقوت) : قلعة حصينة في جبال الموصل أهلها أكراد وهي شرقي الموصل تعرف بعقر الحميدية .

(٨) قلعة شوش : (في ياقوت) بتكرير الشين وسكون الواو : موضع قرب جزيرة ابن عمر من نواحي الجزيرة ، والشوش : قلعة عظيمة عالية جدا قرب عقر الحميدية من أعمال الموصل قيل : هي أعلى من العقر وأكبر ولكنها في القدر دونها .

وحمص وغيرها ، وفتح شيزر (١) وبعلبك ، وحاصر دمشق ، ولم يفتحها ؛ وتزوج بالخاتون زمرد ابنة الأمير جاولي أم شمس الملوك إسماعيل وإخوته بني تاج الملوك بوري بن طغتكين أتابك ، وهي أخت الملك دقاق لأمه وهي المنسوب إليها الخاتونية (٢) التي على الشرف القبلي بأرض صنعاء الشام .

وكان قد ولد له نور الدين محمود في سنة إحدى عشرة وخمس مائة (٣) وكان دخوله إلى الشام وملكه البلاد المذكورة وتزويجه هذا في سنة اثنتين وثلاثين وخمس مائة .

وكانت الفرنج (٤) قد اتسعت بلادهم وعظمت هيبتهم وامتدت

---

(١) شيزر : (في ياقوت) بتقديم الزاي على الراء وفتح أوله : قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة ، بينها وبين حماة يوم ، في وسطها قنطرة في وسط المدينة أوله من جبل لبنان – يقصد نهر العاصي – تعد في كورة حمص وهي قديمة . انظر وصفها مطولاً في القلاع أيام الحروب الصليبية ص ٩٦ ط ١٩٨٢ مركز الدراسات العسكرية .

(٢) وتسمى بالخاتونية الجوانية : كانت بمحلة حجر الذهب محلة البيمارستان النوري ، إنشاء خاتون ابنة سعيد الدين أتز وزوجة نورالدين الشهيد ، وقفها أخوه سعدالدين عليها . وهي غير الخاتونية البرانية والتي على الشرق القبلي في مكان كان يسمى صنعاء دمشق مطل على وادي الشقراء ، وقفتها زمرد خاتون أخت الملك دقاق صاحب دمشق وهي أم شمس الملوك إسماعيل ومحمود زوجة تاج الملوك بوري (ت ٥٥٧ هـ) .

انظر : البداية والنهاية ١٢ : ٣١٧ ، شذرات الذهب ٥ : ٢٥٠ ، خطط الشام ٦ : ٩٠ ، في رحاب دمشق ٧٥ .

(٣) في هامش الأصل (٤ / و) حاشية (قف على تاريخ مولد نورالدين) .

(٤) انظر القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٦٤ – ٢٦٦ ، ابن الأثير : الباهر ٥٥ – ٤٦ . أبوشامة : الروضتين ج١ ص ٣٠ – ٣٢ ، ابن العديم : تاريخ حلب ج ٢ ص ٦٢٧ – ٦٣٣ .

مملكتهم من ناحية ماردين (١) إلى عريش مصر (٢) لم يتخلله مـن ولاية المسلمين غير حلب وحمـاة وحمص وبعلبك ودمشق وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى آمد (٣) ، ومن ديار الجزيرة إلى نصيبين ورأس عين (٤) وأما أهل الرقة وحران (٥) فقد كانوا معهم

---

(١) ماردين : (في ياقوت) بكسر الراء والدال : قلعة مشهورة على قنة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين ، وقدامها ربض عظيم فيه أسواق كثيرة وخانات ومدارس وربط وخانقاهات ودورهم فيها كالدرج كل دار فوق الأخرى وكل درب فيها يشرف على ما تحته من الدور ، ليس دون سطوحهم مانع ، وعندهم عيون قليلة الماء وجل شربهم من صهاريج معدة في دورهم ، والذي لا شك فيه أنهم ليس في الأوض كلها أحسن منها ولا أحصن ، ولا أحكم .

ونقول : وهي حالياً تقع في الأراضي التركية .

(٢) عريش مصر (في ياقوت) عريش : بفتح أوله وكسر ثانية ، ثم شين معجمة بعد الياء المثناة من تحت ، وهو ما يستظل به : وهي مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم في وسط الرمل . . . .

(٣) آمد : (في ياقوت) بكسر الميم وهي أعظم مدن دياربكر وأجلها قدراً وأشهرها . . . وهو بلد قديم حصين ركين مبني بالحجارة السود على نشز ودجلة محيطة بأكثره مستديرة به كالهلال ، وفي وسطه عيون وآبار قريبة نحو الذراعين ، يتناول ماؤها باليد ، وفيها بساتين ونهر يحيط بها السور . وهي أيضاً في الأراضي التركية حاليا .

(٤) رأس عين : (في ياقوت) ويقال رأس العين . . . وهي مدينة كبيرة ومشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر وبينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخا أو قريب من ذلك بينها وبين حران ، وهي الى دنيسر أقرب بينها نحو عشرة فراسخ وفي رأس عين عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور قلت وتقع حاليا في أقصى الشمال الشرقي من القطر العربي السوري .

(٥) حران : (في ياقوت) بتشديد الراء وآخره نون : وهي مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة آقور ، وهي قصبة ديار مضر ، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان ، وهي على طريق الموصل والشام والروم .

في ذل وهوان ، وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة (١) والبر ، ثم زاد شرهم ، فجعلوا على أهل كل بلد جاورهم خراجاً وجزية . يأخذونها منهم ، ليكفوا أذيتهم عنهم . ثم لم يقنعوا بذلك ، حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية . وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود (إلى) (٢) أوطانهم . فمن اختار المقام تركوه ، ومن آثر العود إلى وطنه أخذوه ، وناهيك بهذه الحالة . ذلة للمسلمين وصغاراً ، (وبلغني أن من جملة من أخذوا أم أولاد لبعض أئمة المسلمين بدمشق) (٣) . وأما حلب فإن الفرنج أخذوا منهم أعمالها مناصفة حتى في الرحا التي على باب الجنان (٤) وبينها وبين المدينة عشرون خطوة . وأما باقي بلاد الشام ، فكان حال أهلها أشد من حال أهل هذين البلدين . فلما نظر الله سبحانه إلى بلاد المسلمين : ولاّها لعماد الدين زنكي ، فغزا الفرنج في عقر ديارهم وأخذ للموحدين (٥) منهم بثأرهم ، واستنقذ منهم حصوناً ومعاقل ، هو وابنه من بعده ، ومن قدمه ابنه من صالحي جنده .

ولما كانت سنة اثنتين وثلاثين : خرج ملك الروم من

---

(١) رحبة : (في ياقوت) قرية بينها وبين دمشق يوم . أقول : وهي اليوم تقع الى الشرق من القطيفة وتبعد عنها نحو ٥ كم وتدعى الرحيبة .

(٢) مكررة في الأصل .

(٣) العبارة مابين القوسين لم ترد في الروضتين ج ١ ص ٣٠ .

(٤) باب الجنان (في ياقوت) : جمع جنة ، وهي البستان ، باب من أبواب مدينة حلب .

(٥) الموحدون : يقصد بهم المسلمين .

القسطنطينية / ومعه خلق عظيم لايحصون كثرة من الروم والفرنج [٣/و]
وغيرهم من أنواع النصارى ، فقدموا الشام ، ففتح بزاعة (١) ،
عنوة ، قتل المقاتلة ، وسبى الذرية ، وحاصر شيزر ، فجاء زنكي ؛
ونزل على حماة ، وظهرت كفايته في مقابلة العدو ، حتى رجع خائباً .

فكان يركب كل يوم في عساكره ويسير إلى شيزر ، بحيث يراه
ملك الروم ، ويرسل السرايا ، يتخطف من يخرج من عساكرهم
للميرة والنهب ، ثم يعود آخر النهار وأرسل إلى العدو يقول لهم :

إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال ، فاخرجوا عنها إلى الصحراء
حتى نلتقي — ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم ، وإنما كان يفعل هذا
ترهيباً لهم — فأشير على الملك بلقائه ، فألقى الله تعالى في قلبه الرعب
من ذلك وقال لهم : أتظنون أن معه من العساكر ماترون وله البلاد
الكثيرة وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا ، وتصحروا له ،
فحينئذ ترون من كثرة عسكره مايعجزكم .

وكان زنكي هذا يراسل فرنج الشـام ويحذرهم ملك الروم ؛
ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصناً واحـداً ، أخذ البلاد التي بأيديهم
منهم ، وكان يراسل ملك الروم يتهدده ، ويوهمه أن الفرنج معه ،
فاستشعر كلٌ من صاحبه ، فرحل ملك الروم ، وترك المجانيق (٢)

---

(١) بزاعة (في ياقوت) : سمعت من أهل حلب من يقوله بالضم والكسر ،
ومنهم من يقول بزاعا بالقصر : وهي بلدة في أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج
وحلب بينها وبين كل واحدة منهما مرحلة .

(٢) المجانيق : جمع منجنيق ، وهي آلة حربية تقذف بها الحجارة وكرات من
النار على الحصون ، انظر الروضتين ج ١ ص ٢٣٥ .

وآلات الحصار بحالها فســار زنكي خلفه فظفر بطائفة منهم في ساقة (١) العسكر ، فغنم منهم وقتل ، وأسر وأخذ جميع ماخلفوه ، ورفعه إلى قلعة حلب «(وكفى الله المؤمنين القتال)» (٢) .

ونزل (٣) إلى حصن عرقة (٤) ، وهو من أعمال طرابلس ، فحصره ، وفتحه عنوة ، ونهب مافيه ، وأسر من به من الفرنج ، وأخربه ، وعاد سالماً غانماً .

وفي سنة أربع وثلاثين سار زنكي إلى بلاد الفرنج وأغار عليها واجتمع ملوك الفرنج ، وســاروا إليــه فلقيهم بالقرب من حصن بارين (٥) ، وهو للفرنج . فصبر الفريقان صبراً لم يسمع بمثله ، ونَصَرَ الله المسلمين ، وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم ، فدخلوا حصن بارين ، وفيهم ملك القدس لأنــه كان أقرب حصونهم ، وأسلموا عدتهم ، وعتادهم ، وكثر فيهم الجراح .

ثم سار زنكي إلى حصن بارين ، فحصره حصراً شديداً ، فراسلوه في طلب الأمان ليسلموا ويسلموا الحصن ، فأبى إلاّ

(١) ساقة العسكر : مؤخرة الجيش .

(٢) سورة الأحزاب — آية ٢٥ .

(٣) انظر الباهر ص ٥٧ — ٦١ ، ابوشامة : الروضتين ج ١ ص ٣٣ — ٣٤ .

(٤) حصن عرقة : (في ياقوت) بكسر أوله ، وسكون ثانيه : بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ وهي آخر عمل دمشق ،وهي في سفح جبل،بينها وبين البحر نحو ميل ، وعلى جبلها قلعة لها .

(٥) حصن بارين أو بعرين : بلدة صغيرة ذات قد دثرت ، لها أعين وبساتين وهي غربي حماة بميلة يسيرة الى الجنوب وبها آثار عمارة قديمة تسمى الرفنية . انظر الحاشية رقم ١ في القلاع أيام الحروب الصليبية ص ١٥ .

أخذهم قهراً فبلغه أنّ / من بالساحل من الفرنج قد ساروا إلى بلاد [٣ /ظ]
الروم والفرنج يستنجدونهم ، وينهون إليهم مافيه ملوكهم من الحصر .
فجمعوا وحشدوا ، وأقبلوا إلى الساحل . ومن بالحصن لايعلمون بشيء
من ذلك ، لقوة الحصر عليهم ، فأعادوا مراسلته في طلب الأمان
فأجابهم إليه وتسلم الحصن ، وساروا فلقيتهم أمداد النصرانية .
فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن (١) . فلاموهم .
وقالوا لهم : عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين . فحلفوا : أنا لم
نعلم ، ولم يبلغنا عنكم خبر ، منذ حصرنا وإلى الآن . فلما عميت
الأخبار عنا ، ظننا أنكم أهملتم أمرنا ، فحقنّا دماءنا بتسليم الحصن .

وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين : فإن أهله
كانوا آخربوا مابين حماة وحلب من البلاد ، ونهبوها . وانقطعت
السبل . فأزال الله تعالى بزنكي هذا الضرر العظيم . وفي مدة مقامه
على حصار بارين ، سيّر جنده إلى المعرة (١) . وكفر طاب(٢) ،
وتلك الولايات (٣) جميعها ، فاستولى عليها ، وملكها . وهي بلاد
كثيرة وقرايا عظيمة .

ولما وصل الروم والفرنج إلى الشام (٤) . ورأوا الأمر قد

---

(١) في الأصل (٦ / و) حاشية (تسلم زنكي حصن بارين) .

(١) المعرة : بلدة تقع على طريق دمشق — حلب ، وتبعد عن حلب ٨٣ كم جنوباً
وتتبع اليوم محافظة إدلب .

(٢) كفرطاب (في ياقوت) بالطاء مهملة،وبعد الألف باء موحدة : بلدة بين المعرة
ومدينة حلب في برية معطشة ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج .

(٣) في الباهر (الولاية) .

(٤) انظر الباهر ص ٦٢ — ٦٣ بتصرف ، الروضتين ج ١ ص ٣٤ — ٣٦ .

قات ، أرادوا جبر مصيبتهم بمنازلة بعض بلاد المسلمين ، فنزلوا على حلب ، وحصروها ، فلم ير زنكي أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم ، لأنهم كانوا في جمع عظيم ، فانحاز عنهم ، ونزل قريباً منهم ، يمنع عنهم الميرة ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدو فيها ، والإغارة عليها ، وأرسل إلى السلطان مَسْعود بن محمد بن مَلِكْشاه السَّلْجُقِي ، وهو يومئذ بدار السلطنة ببغداد يطلب [النجدة] (١) فأنجد وعبرت العساكر إلى الجانب الغربي ، فوصل الخبر بأن الروم والفرنج رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضاً (٢) .

ثم فتح زنكي(٣) مدينة الرُّها (٤) في جُمادى الآخرة ، سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وكان مدة حصاره لها ثمانيةً وعشرين يوماً (٥) ،

---

(١) ما بين المعقوفين إضافة عن الباهر ص ٦٢ لتوضيح المقصود .

(٢) في هامش الأصل (٦ / و) قف على فتح زنكي لمدينة الرها في جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٢٧٩ – ٢٨٠ ، الباهر ص ٦٦ – ٧١ ، الروضتين ج ١ ص ٣٦ – ٣٧ ، ابن العديم : تاريخ حلب ج ٢ ص ٦٤٢ – ٦٤٥ ، الحريري : الأخبار السنية ص ٨٥ – ٨٧ .

(٤) الرها (في ياقوت) بضم أوله ، والمد والقصر : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ ، وهي : أورفا حالياً في تركيا . وذكرها أبو الفداء في تقويم البلدان ص ٢٧٧ .

وكانت الرها مدينة كبيرة ، وبها كنيسة عظيمة ، وفيها أكثر من ثلاثمائة دير للنصارى ، وهي اليوم خراب . قال في العزيزي : والرها مدينة رومية عظيمة ، فيها آثار عجيبة ، وهي بالقرب من قلعة الروم من الجانب الشرقي الشمالي من الفرات . انظر الحاشية رقم ٣ ص ١٢ ، القلاع أيام الحروب الصليبية .

(٥) في الأخبار السنية : ثمانية عشرة يوماً .

وكان على المسلمين من الفرنج الذين بها شر عظيم ، وملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات على طريق شبختان (١) عدة حصون كسروج (٢) والبيرة (٣) ، وجملين (٤) والموزر (٥) وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد (٦) من ديار بكر وماردين ، ونصيبين (٧) ، ورأس عين (٨) ، والرقة، وأما حران (٩) : فكانت منهم في

---

(١) شبختان : لم أعثر على تعريف بها .

(٢) حصن سروج : (في ياقوت) فعول ، بفتح أوله ، من السرج ، وهو من أبنية المبالغة : وهي بلدة قريبة من حران من ديار مضر ، قالوا : طول سروج اثنتان وستون درجة ونصف وثلث ، وعرضها ست وثلاثون درجة .

(٣) البيرة (في ياقوت) بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية ، وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع . وفي الروضتين ج ١ ص ٤٠ حصن البيرة أوجعبر حصن حصين مطل على الفرات .

(٤) حصن جملين والموزر : قلعتان لهما عملان متسعان بين بلاد ديار مضر وبلاد ديار بكر ، على يوم من حران . انظر الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١ ص ٦٨ وغيرها ، تاريخ مختصر الدول لابن العبري ص ٢٩٣ .

(٥) حصن الموزر (في ياقوت) : بالضم وتشديد الزاي ، وراء : كورة بالجزيرة من نصيبين الروم ، كذا أخبرني بعض من رآها .

(٦) انظر تعريفنا في الحاشية رقم (٣) ص ١٨٧ .

(٧) نصيبين (في ياقوت) : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل الى الشام وفيها وفي قراها على ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان بينها وبين سنجار تسعة فراسخ ، وبينها وبين الموصل ستة أيام ، وبين دنيسر يومان عشرة فراسخ ،وعليها سور كانت الروم بنته وأتمه أنوشروان الملك عند فتحه إياها .

(٨) انظر تعريفنا بها في الحاشية (٤) ص ١٨٧ .

(٩) انظر تعريفنا لها في الحاشية (٥) ص (١٨٧) .

الجزري كل يوم قد صبّحوها بالغارة . فألحّ زنكي ، رحمه الله ، في / حصارها . ففتحها عَنْوَةً فاستباحها . ونكّس صُلبانها ، وأباد [٤ /و] قُسوسَها ورُهبانَها ، وقتل شجعانها وفرسانها . وملأ الناسُ أيديَهم من النهب والسبي . ثم إنه دخل البلد فَراقَه ، فأنف لمثله من الخراب(١) فأمر بإعادة ما كان أُخذ منه من أثاث ، ومال ، وسبيٍ ، ورجالٍ ، وجَوارٍ ، وأطفالٍ ، فرُدوا عن آخرهم ، ثم رتب البلد ، وأصلح من شأنه ، وسار عنه ، فاستولى على ما كان بيد الفرَنج من المدن والحصون والقرَايا ، كَسروج وغيرها ، وأخلى (٢) الديار الجزرية من مضرّة الفَرنَج وشرِّهم ، وأصبح أهــل تلك البلاد بعد الخوف آمنين ، وكان فتحاً عظيماً ، طار في الآفاق ذِكْرُه ، وطاب بهــا نَشْرُه ، وشهده خَلْقٌ كثير مــن الصالحين ، والأولياء ، وقال بعضهم : رأيت زَنْكي في المنام ، بعد موته ، بأحسن حال ، فقلت له : مافعل الله بك ؟ فقال : غفر لي ، فقلت : بماذا ؟ فقال : بفتح الرّها .

ثم حاصر زَنكي حصن البيرة ، وكان للفرنج أيضاً ، ثم رحل عنه لخبرٍ بَلَغه (٣) من الموصل فسلمه الفرنج إلى صاحب ماردين .

---

(١) العبارة في الأصل : « فأنف كمثله من الخراب » ولا يستقيم المعنى بذلك والوجه « فأنف لمثله من الخراب » لأن الخبر في الكامل – الجزء ٩ ص ٨ : « فلما رأى أتابك البلد أعجبه ، ورأى أن تخريب مثله لا يجوز في السياسة » .

(٢) في الأصل : « وأخلا » .

(٣) عنى خبر قتل نصر الدين جقر نائبه بالموصل والبلاد الشرقية (انظر الباهر ٧٠) ، الحريري : الاخبار السنية في الحروب الصليبية ص ٨٦ .

ثم سـيـر زنكي عسكراً إلى حصن فَنَك (١) يحصره ـ وكان للأكراد البشنوية ـ وسار هو بنفسه إلى قلعة جَعْبَر (٢) يحصرها.

وكان الباعث له على حصرها(٣) ، وحصر فَنَك ، أن لا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره خوفاً من فتقٍ يحدث إذا كان غائباً في الجهاد ، فأقام يحصره إلى أن مضى من شـهر ربيع خمسُ ليالٍ (٤) ، فبينا هو نائم ، دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه غِيلَةً وهربوا (٥) . وكان ذلك في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وقُبر بصِفّين ، ثم نُقل إلى الرّقّة . رحمه الله .

---

(١) حصن فنك : (في ياقوت) بالفتح أولاً وثانياً ، وكاف : قلعة حصينة منيعة للأكراد البشنوية ، قرب جزيرة إبن عمر بينهما نحو من فرسخين ، ولا يقدر صاحب الجزيرة ولا غيره ، مع مخالطتهم للبلاد عليها . هي بيد هؤلاء الأكراد منذ سنين كثرة نحو الثلاثمائة سنة وفيهم مروءة وعصبية ويحمون من يلتجيء إليهم ويحسنون إليه .

(٢) قلعة جعبر : في (ياقوت) : على الفرات بين بالس والرقة صفين ، وكانت قديماً تسمى دوسر . فملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له : جعبر بن مالك وكان يخيف السبيل ويلتجيء اليها . وأثناء حصار زنكي لها كان صاحبها :الأمير عزالدين علي بن مالك بن سالم بن مالك العقيلي (انظر الأخبار السنية في الحروب الصليبية) ص ٨٦ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤ ـ ٢٨٦ بتصرف في اللفظ ، الباهر ص ٧٣ ـ ٧٤ ، الروضتين ج١ ص ٤٢ ،تاريخ حلب ج٢ ص ٦٤٥ ـ ٦٤٩ .

(٤) في هامش الأصل (٧ / ظ) : مطلب شهادة زنكي بقتل مماليكه إياه وهو نائم في سنة ٥٤١ .

(٥) انظر في الباهر الحاشية ص ٧٤ ، الروضتين ج١ ص٤٢ ، وذكر البنداري سبب مقتله فقال : أنه نام يوماً مخموراً وكان بعض مماليكه يلعبون ويطربون فهددهم ، فقتلوه خوفاً منه . (انظر : البنداري : تاريخ آل سلجوق ص ١٨٩ ـ ١٩٠) .

قال يحيى بن أبي طي في السيرة الصلاحية (١) : ومـــن عجيب مايحكى(٢) : أنه لما اشتد حصارُ قلعة جعبر ، جاء في الليل ابن حسان المنبجي ووقف تحت القلعة ، ونادى صاحبها ، فأجابه فقال له : هذا المولى أتابك زنكي ، صاحب البلاد ، وقد نزل عليك بعساكر الدنيا ، وأنت بلا وزير ولا معين ، وأنا أرى أن أدخل في قضيتك ، وآخذ لك من المولى أتابك مكاناً عِوَضَ هذا المكان ، وإن لم تفعل ، فأي شيء تنتظر ؟ فقال له صاحب القلعة : أنتظر الذي انتظرَ أبوك (٣) — [٤/ظ] ففي تلك الليلة قُتل أتابك / زنكي .

والقصة التي أشار إليهـــا صاحب جعبر هي : أن بَلَك بن بَهرام (٤) ، صاحب حلب كان قد نزل على حسان المنبجي ، والد المخاطِب المتقدم ، وحاصره في مَنْبِـــج أشدّ حصار ، ونصب عليه عدة مجانيق ، فقال يوماً لحسان ، وقـــد أخرقه بالحجارة : أي شيء تنتظر ؟ ماتُسلّمُ الحصن ؟ فقال له حسان : أنتظر سهماً من سهام الله تعالى . فلما كان من الغد ، بينا بُلُك يرتب المنجنيق ،

---

(١) يحيى بن أبي طي (ت ٦٣٠ هـ — ١٢٣٢ م) صاحب كتاب السيرة الصلاحية وكتابه هذا لا زال بحكم المفقود ، وهو أصل من أصول أبي شامة نقل عنه الأحداث التي جرت في حلب وما يجاورها .

(٢) انظر الروضتين ج ١ ص ٤٢ — ٤٣ .

(٣) في الباهر لابن الأثير ص ٧٤ (. . . . وما الذي يمنعك مني ؟ فقال : قل له : يمنعني منه الذي منعك ياحسان من الأمير بلك ...) وفي تاريخ حلب لابن العديم ج ٢ ص ٦٤٧ (وقال له : ياأمير علي ، إيش بقا يخلصك من أتابك فقال له : ياعاقل يخلصني الذي خلّصك من حبس بلك) (يعني حين قتل بلك على منبج وخلص حسان ...) .

(٤) انظر الخبر مطولاً حول مقتل بلك بن بهرام بن أرتق ، وملك تمرتاش حلب في : الكامل ج ١٠ ص ٦١٩ .

إذ أصابه سهمٌ غَرْب (١) وقــع في لَبَّتهِ (٢) فخرّ ميْتاً ، ولم يكن من جسده شيء ظاهر إلاّ ذلك المكان ؛ لأنــه كان قد لبس الدرع ، ولم يزرّها على صدره ، فكان هذا من الاتفاقات العجيبة (٣) .

وخلّف الأتابك(٤) زنكي من الأولاد سيفَ الدين غازياً ، وهو الذي وَلِي بعده المَوْصل . ونورَ الدين محموداً الملكَ العادلَ حقــاً ، وهو الذي وُضع هذا الكتاب لأجل ســيرته (٥) ، وقطبَ الدين مودوداً ، وهو أبو الملوك بالمَوْصِل ، ونصرةَ الدين أمير أميران ، وبنتاً ، فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والإناث ، ونور الدين من الذكور ، ولم يبق المُلْك إلاّ في عَقِب قطب الدين ، وقد انقرض في زماننا .

ولقد أنجب زنكي — رحمه الله — ، فإنّ أولاده الملوك لم يكن مثلهم ، ونور الدين رحمة الله عليه فيهم كعمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، في بني مروان . وسيأتيك من أخباره مايغني عن العيان .

* * *

---

(١) السهم الغرب : الذي لا يدرى راميه (القاموس) .

(٢) اللبة : وسط الصدر والمنحر ، والجمع لبات والباب . (انظر لسان العرب) .

(٣) في هامش الأصل (٨ / و) : (ذكر أن زنكي خلف من الأولاد ذكوراً وبنتاً) .

(٤) انظر : الباهر ٧٦ بتصرف ، الروضتين ١ ص ٤٢ — ٤٣ ، المقريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٣٨ .

(٥) قصد المؤلف كتاب (عيون الروضتين) .

فصـــــل

لما توفي زنكي (١) ، استقر ولده سيف الدين بالمَوْصِل ، ومعه أخوه قطب الدين واستقر نور الدين بحلب ، ومعه نصرة الدين ، وحصل الاتفاق بين الأخوين الملكين . وقال سيف الدين لنور الدين : غرضي أن يعلم الملوكُ والفَرنج اتفاقَنا ، فمن يريد السوء بنا يكف عنه .

ولما بلغ الفرنج خبر وفاة زَنْكي ، قصد طائفةٌ منهم جهة حلب ، وطائفةٌ جهةَ حماة ، فأغاروا على غِرَّةٍ من المسلمين ، فقتلوا ، وسبوا ، وخرج عسكر حلب ، فاستنقذ كثيراً مما أُخذ .

قال ابن الأثير : (٢) « لما قُتل زنكي ، كان جوسلين (٣) الفرنجي صاحبُ الرُّها قد راسل أهلَ الرُّها ، بعدما أُخذت منه ، وكان عامّتهُم

---

(١) انظر الخبر مطولا في : الكامل ج١١ ص ١١٢ — ١١٣ ، والباهر ٨٤ — ٨٦ ، الروضتين ج ١ ص ٤٦ — ٤٩ ، تاريخ حلب ج ٢ ص ٢٤٩ — ٢٥٠ ، الأخبار السنية ص ٨٧ .

(٢) انظر : تاريخ القلانسي ص ٢٨٨ ، الكامل ج ١١ ص ١١٤ — ١١٥ ، الباهر ٨٦ — ٨٧ بتصرف ، تاريخ حلب ص ٦٥٣ — ٦٥٥ ، الأخبار السنية ص ٧٧ — ٧٨ .

وهو في الكامل ج ١٠ ص ١١٤ — ١١٥ أكثر بسطاً يحمل معناه دون لفظه .

(٣) هو : جوسلين الثاني بن جوسلين الأول (انظر الحريري : الأخبار السنية في الحروب الصليبية ٨٥ — ٨٧ . وفي الأصل المخطوط : « جوسكين » .

من الأرمن ، وأوعدهم يوماً يصل إليهم فيه . فأجابوه إلى ذلك ،
فسار إليها وملكها . وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين ،
فقاتلهم وجدّ في قتالهم . وبلغ الخبرُ نورَ الدين وهو بحلب فسار إليها
في زُهاء عشرة آلاف فارس(١) / ووقفت الدواب في الطرقات [٥ / و]
من شدة السير . فهجموا على الفرنج بالرُّها ووقع السيف فيهم والنهب .
وهرب جُوسلين . واستنقذ نُور الدين من كان فيها أسيراً من
المسلمين ، وفي هذه النوبة نُهبت الرُّها ، وخُرِّبت وسُبي أهلُها .

(ومن عجيب) (٢) ماجرى فيها : أن نور الدين ، رحمه الله ،
أرسل من غنائمها إلى الأمراء ، وأرسل نور الدين إلى أحد أمرائه (٣)
جملة من الجواري ، فَحُمِلْنَ إلى داره ، ودخل لينظر إليهن ،
فخرج وهو يضحك مسرعاً ، فسئل عن ذلك ، فقال : لما فتحنا
الرُها مع الشهيد أتابك زنكي ، كان في جملة ما غنمتُ جاريةٌ ،
مالت نفسي إليها فعزمت على أن أبيت معها ، فسمعت منادي الشهيد ،
وهو يأمر بإعادة السبي والغنائم . وكان مَهيباً مخوفاً ، فلم أجسر على
إتيانها ، فأطلقتُها ، فلما كان الآن أرسل إليّ نور الدين سهمي من
الغنيمة وفيه تلك الجارية بعينها ، فوطئتها خوفاً من العَوْد (٤) .

---

(١) لم يرد في الباهر والكامل تعداد الجيش ووقوف الدواب في الطرقات ، وقد وردت في تاريخ ابن القلانسي ٢٨٨ و ٢٨٩ بتصرف في اللفظ . كما يذكر ابن الأثير في كتابيه يقول (. . فبلغ الخبر نورالدين محمود بن زنكي ، وهو بحلب ، فسار مجداً اليها في عسكره ، فلما قاربها خرج جوسلين هارباً عائداً الى بلده) هذا يعني عدم وجود أي صدام بين الفريقين ، بخلاف ما يذكر أبوشامة عن ابن الأثير .

(٢) في الأصل (٦ / ظ) غير واضحة والإضافة عن نسخة المغرب .

(٣) هو : الأمير زين‌الدين علي الذي كان نائب الشهيد وأولاه بقلعة الموصل ، انظر الكامل ج ١١ ص ١١٤ — ١١٥ .

(٤) في هامش الأصل (٦ / ظ) : (أول فتح وقع لنورالدين فتح الرها) .

وهذا أول فتح اتفق لنور الدين ، رحمه الله ، وفيه يقول ابن منير (١) من قصيدة :

تِلْكَ بِكْرُ الفُتوحِ فالشامُ منها (٢)
شامةٌ والعراقُ بعدُ عِراقُه

ولابن القَيْسراني من أخرى (٣) :

فإنْ يَكُ فتحُ الرُّها لُجّةً
فساحلُها القدس والساحلُ

---

(١) هو الرفاء عين النهار ، أبو الحسين أحمد بن منير أحمد بن مفلح الطرابلسي الشاعر المشهور ، وكان شيعياً هجاءً ، له ديوان شعر (ت ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣ م) انظر ترجمته مطولة مع بعض قصائده في الخريدة ج ١ : ص ٧٦ – ٩٥ ، أبو شامة : الروضتين ج ١ ٢١ و٩١ – ٩٤ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج ٤ ص ١٤٦ وفي ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٣١ هو (أبو الحسن أحمد بن منير الجوني) .

(٢) أبو شامة الروضتين ١ : ٤٩ الهرفي : شعر الجهاد ص ٢٨١ حيث يورد سبعة أبيات من أصل القصيدة (لكنه يذكر أن هذا الفتح في عام ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م) والعراق .

(٣) هو الشاعر أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني الحلبي . ت ٥٤٨ بدمشق . (انظر البداية والنهاية ١٢ : ٢٣١ وفي الشذرات ٤ : ١٥٠ و ١٥١ هو : أبو عبدالله بن القيسراني محمد بن نصر بن صغير بن خالد الأديب حامل لواء الشعر في عصره ، الروضتين ١ : ٥٤ و٩١ ، والأصل (٢٣ / ظ) ،الخريدة ١ : ٩٦ – ١٦٠ شعر الجهاد في الحروب الصليبية ٢٢٤ – ٢٢٧ ، وفيات الأعيان ٤ / ص ٨٢ وابن العماد في الشذرات أصحف في تقدير سنة ولادته لأنه يذكر أنه عاش سبعين عاماً و ولادته بعكا سنة ٤٨٧ هـ وهذا يعني أنه عاش ٦١ عاماً ، بينما في المصادر التي ذكرنا ولادته كانت سنة ٤٧٨ هـ فيكون عاش إحدى وسبعين عاماً ، وهذا برأينا أقرب الى الصواب .

وانظر الروضتين ١ : ٤٩ ، الخريدة ج ١ ص ١١٠ .

فَهَلْ عَلِمَتْ عِلْمَ تلكَ الديـــا
رِ أن المقيمَ بهـا راحـــلُ

واسترد صاحب دمشق بَعْلَبَكَّ من نائب زنكي بها لما بلغه قتله بعد حصارٍ لها شديد(١) ، ثم انعقد الصلح بين نور الدين ومعين الدين أنر مقدم عسكر صاحب دمشق ، وتزوج ابنته الخاتون ، وهي عصمة الدين ، المنسوب إليها المدرسة (٢) التي داخل دمشق ، والخانقاه (٣) خارجها على نهر باناس ، وتربتها على نهر يزيد بالجبل . وكان عقد نكاحه عليها في هذه السنة التي ملك فيها نور الدين حلب ، وقتل فيها والده ، وهي سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .

* * *

(١) انظر الخبر مطولاً في الروضتين ١ : ٤٨ — ٥٠ .

(٢) هي المدرسة الخاتونية انظر حاشيتنا رقم ٢ص ١٨٦ .

(٣) الخانقاه : والخانكاه جمعها خوانك : وهي كلمة فارسية معناها بيت ، وقيل أصلها خونقاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك ، واحدثت الخوانك في الاسلام في حدود الأربعمائة من سني الهجرة وخصصت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله عز وجل ، والصوفية : هم خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف واشتهر الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة . انظر الخطط المقريزية ٢ : ٤١٤ .

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين :

ففيها فتح (١) نور الدين أرتاح (٢) بالسيف ، وحصن باراه (٣) وبلد بصرفوث (٤) وكفرلاثا (٥) ، وكان الفرنج قد طمعوا وظنوا أنهم بعد قتل زنكي يستردون ماأخذ منهم من البلاد ، فلما رأوا من نور الدين هذا / الجد ، علموا أن ما أمّلوه بعيد . [٥/ظ]

وفيها : استعان معين أنر (٦) بنور الدين على من عصى عليه

---

(١) انظر الكامل ١١ : ١٢٢ ، الروضتين ١ : ٤٨ ، تاريخ حلب ٢ : ٦٥٥ ، الأخبار السنية ٨٨ — ٩٣ ويذكر الحريري في الأخبار السنية أن (الفرنج طلبوا المساعدة من البابا أوجانيوس الثالث الذي كان مقيماً في مدينة فيثاريوه ، وأن سلفه كان البابا أوبانوس الثاني)،ويذكر أيضاً نص الخطبة التي ألقاها الراهب برنردوس لتحريض الفرنج للتطوع لقتال المسلمين ...) .

(٢) أرتاح : (في ياقوت) بالفتح ثم السكون ، وتاء وفوقها نقطتان وألف وحاء اسم حصن منيع كان من العواصم من أعمال حلب ،وفي السيرة النورية ص ١٢٤ (أرياح : وهي غربي حلب) .

(٣) حصن باراه (في ياقوت) : البارة بليدة وكورة من نواحي حلب ، وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة . وفي ابن العديم٢ : ٦٥٥ (ما بوله) .

(٤) بصرفوث (في ياقوت) بسرفوث : وهو حصن من أعمال حلب الآن — أي زمن ياقوت — قرب بهسنا .

(٥) كفرلاثا (في ياقوت) : كفرلاثا بالثاء المثلثة والقصر : بلدة ذات جامع ومنبر ، في سفح جبل عال من نواحي حلب بينهما يوم وأحدوهي ذات بساتين ومياه جارية ، نزهة طيبة وأهلها إسماعيلية .

(٦) انظر الخبر مطولا في القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٩ — ٢٩٧ بتصرف في اللفظ ، أبو شامة الروضتين ج ١ : ٥٠ — ٥١ ، ابن العديم : تاريخ حلب ج ٢ ص ٦٥٥ — ٦٥٧ .

من أتباعه بحصن صَرخَد (١) وبُصْرى (٢) واستنجدوا (٣) على معين بالفَرَنج فجاء نور الدين في عسكرٍ حسن ، فاجتمع بعسكر دمشق وساروا فسبقوا الفرنج ، وتسلم معين الدين بُصرى، وصَرْخَد، وانهزم العدو وظفر بمن كان عصى عليه .

وفيها (٤) : تواصلت الأخبار من ناحية قسطنطينية (٥) وبلاد

---

(١) حصن صرخد : (في ياقوت) بالفتح ثم السكون والخاء معجمة ، والدال مهملة بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق ، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة ينسب اليها الخمر . ونقول : هي بلدة من أعمال محافظة السويداء حاليا واسمها صلخد وتقع الى الشرق من مدينة بصرى في حوران .

(٢) بالعربية : وقديما بصرى أسكي الشام ، والتسمية الفرنجية : بوسترا وهي مدينة على أطراف حوران في جنوب سوريا ، كانت في يوم من الأيام مقاطعة (أرابيا) الرومانية ، وأكبر المباني القديمة العديدة التي ظلت باقية فيها هو : المسرح الروماني ، ولقد حول هذا المسرح ، كما ،في أماكن عدة أخرى ، الى قلعة خلال العصور الوسطى ... انظر التعريف بها في: القلاع أيام الحروب الصليبية ص ٨٧ — مركز الدراسات العسكرية — ط ١٩٨٢ دمشق) ، ومعجم البلدان .

(٣) هو : والي صرخد ، المعروف بالتونتاش ، غلام أمين الدولة كمشتكين الأتابكي انظر الروضتين ج ١ ص ٥٠ .

(٤) تاريخ القلانسي ص ٢٩٠ — ٢٩٧ بتصرف ، الروضتين ج١ ص ٥٠ — ٥٢ .

(٥) قسطنطينية (في ياقوت) كانت رومية ، دار ملك الروم ... عمرها ملك في الروم يقال له قسطنطين فسميت باسمه ... . ولها خليج من البحر يطيف بها من الوجهين مما يلي الشرق والشمال ، وجانبها الغربي والجنوبي في البر وسمك سورها الكبير أحد وعشرون ذراعاً وسمك الفصيل مما يلي البحر خمسة ، بينها وبين البحر فرجة نحو خمسين ذراعاً، وذكر أن لها أبواباً كبيرة نحو مائة باب ... ونقول : هي ما يطلق عليها اليوم استانبول واسطنبول هي حالياً من المدن التركية تقع على مضيق البوسفور وعلى الساحل من الجزء الواقع في القارة الأوربية (انظر الأطلس مصور تركيا) .

الفَرنج والروم وما والاها بظهور ملوك الفرنج مـن بلادهم (١) منهم : الألمان ، والفنش (٢) . وجماعة من كبارهم في العدد الذي لايحصى لقصد بلاد الإسلام.بعد أن نادوا في سائر بلادهم ومعاقلهم : النفيرَ النفير ، واستصحبوا ذخائرَهُم وأموالَهم وخلّوا بلادهم خاليةً شاغرةً ويقال : إن عِدّتهم ألفُ ألفٍ من الرَّجّالة والفرسان ، ويقال : أكثر من ذلك ، وغلبوا على أعمال قسطنطينية ، واحتـاج ملكُها إلى الدخول في مداراتهم ، ومسالمتهم . وحين شاع خبرهم شرعت ولاة الأعمـال المصاقبة للأطراف الإسلامية القريبة منهم في التأهب للمدافعة لهم ،والاحتشاد على المجاهدة فيهم ، وقصدوا منافذَهم ، ودروب معابرهم . لكي يمنعوهم من العبور والنفوذ إلى بـلاد الإسلام ، وواصلوا شن الغارات على أطرافهم ، واستحرَّ القتلُ فيهم والفتكُ بهم ، إلى أن هلك منهم العدد الكثير ، وحلّ بهم من عدم القوت والعلوفات والميرَ وغلاءِ السعر ، إذا وجدوه ، ماأفنى الكثير منهم بالجوع والمرض ، ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء أعدادهم ، إلى أواخر هـذه السنة ، بحيث سكنت النفوس بعض السكون (٣) .

---

(١) هو لويس السابع وكان على رأس الحملة الملك كونراد الثالث ملك المانيا والنمسا (انظر : الحريري الاخبار السنية ص ٩٣) عاقل : الامبراطورية البزنطية ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٢) هو الفونسو

— انظر الحاشية رقم ٢ في ابن العديم : تاريخ حلب ج ٢ ص ٦٢٣ .

(٣) في هامش الأصل (١٠ / و) : (وفاة شيخ الاسلام أبو الفتح المصيصي) .

قال أبو يعلى التميمي : (١) « وفي ليلة الجمعة ، الثالث من ربيع الأول ، توفي شيخ الإسلام ، الفقيه أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد القوي المَصِّيصي بدمشق . وكان بقية الأئمة الفقهاء المفتين على مذهب الشافعي ، رضي الله عنه ، ولم يَخْلُف بعدَه مثلُه . رحمه الله » .

وفي الحادي والعشرين مـن شهر شوال (٢) — وهو مستهل نيسان — أظلم الجـو ، ونزل غيث ساكن ، ثم أظلمت الأرض في وقت العصر ظلامـاً شديداً ، بحيث كان ذلك كالغدرة بين العشاءين (٣) وبقيت السماء في عين الناظر إليها كصفرة الوَرْس ، وكذلك الجبال وأشجار الغوطة ، وكل مايُنظر إليه من حيوان وجمادٍ / [٦ / و] ونبات ، ثم جاء في أثر ذلك من الرعد القاصف والبرق الخاطف ، والهدّات المزعجة ، والرجفَات المفزعة ، مارتاع لهـا الشِّيْب والشبـاب ، فكيف الوِلدان والنسوان ؟ وقلقت لذلك الخيـل في مرابطها ، وبقي الأمر على هذه الحال إلى وقت العشاء الآخِرة .

ثم سكن بقدرة الله تعالى ، وأصبح على الأرض والأشجار وسائر النبات ، غبارٌ في رقة الهواء بين البياض والغُبْرة .

* * *

---

(١) انظر : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .

(٢) في هامش الأصل (١٠ / ٥) : (واقعة مهولة) .

(٣) في القاموس المحيط : « الغدراء : الظلمة » .

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين

وتواترت الأخبار(١) بوصول مراكب الفرنج ، وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية (٢) : صور وعكا واجتماعهم مع من بها من الفرنج . ويقال : إنهم بعدما فني منهم بالقتل والمرض والجوع ، وصل تقدير مائة ألف ، وقصدوا بيت المقدس ، فقضوا حجّتهم ، وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر ، وقد هلك منهم بالموت ، والمرض ، الخلق العظيم ، وهلك من ملوكهم من هلك ، وبقي اللمان أكبر ملوكهم ، ومن هو دونه ، واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدونه من البلاد الإسلامية إلى أن استقرت الحال على منازلتهم دمشق (٣) .

وبلغ ذلك معين الدين أنر (٤) ، وهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر ، وصاحب دمشق يومئذ مجير الدين أرتق محمد بن نوري بن

---

(١) انظر الخبر مطولا في : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٢٩٧ — ٣٠٠ ، الكامل ج ١١ ص ١٢٩ ، الباهر ٨٨ — ٨٩ ، الروضتين ج١ ص ٥٢ — ٥٣ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ ، تاريخ حلب ج ٢ ص ٦٥٥ — ٦٥٧ ، الكواكب الدرية ١٢٦— ١٢٨ ، الأخبار السنية ٩٥ — ٩٩ .

(٢) لقد عم لسقوط الرها على يد الشهيد زنكي (سنة ١١٤٤ م) صدى بالغ الأهمية في الشرق والغرب إذ كانت تلك أقسى ضربة حلت على أولى فرنجية تأسيساً في الشرق ، وأثارت أخبار سقوطها مشاعر البابوية وحرضتها للدعوة الى حملة صليبية كبيرة تمضي الى الشرق لاستعادة الرها ولاكمال السيطرة على بلاد الشام ، وجاءت هذه الحملة لهذه الغاية . انظر خبر الحملة مفصلا في زكار : مسيرة التحرير ٦٥ — ٦٩ .

(٣) انظر ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٨ ، وفي الأخبار السنية يقول بعد إقامة الملوك الصليبيين بالقدس ، عقد بدوين الثالث ملك القدس مجلساً للمشورة على محاربة الإسلام ، حضره الملكان المذكوران — أي ملك فرنسا السابع وملك الألمان .

(٤) في هامش الأصل (١١ /ظ) : (ذكر صاحب دمشق يومئذ مجير الدين أرتق).

(طغتكين) (١) وليس له مـن الأمر شيء . إنما الأمر لأنز . وهو مملوك جده طغتكين ، وكان عاقلاً خيّراً ديّناً حسن السيرة . فاستعد لحربهم فجاؤا في تقدير خمسين ألفاً ، وزحفوا بخيلهم ورَجِلِهم يوم السبت سادس ربيع الأول ، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم ، واستشهد في هـذا اليوم الفقيه الإمـام الزاهد أبو الحجاج يوسف الفندلاوي (٢) المالكي ، شيخ المالكية ، رضي الله عنه ، قريب الربوة على الماء لوقوفه في وجوه الفرنج ، وتركه الرجوع عنهم . وقال: بعنا واشترى (٣) وقبره بمقابر باب الصغير(٤) يزار ويدعى عنده ، وقد رؤي في المنام بعد موته ، فقيل له : أين أنت ؟ فقال : في جنـات عَدْنٍ على سُرُرٍ متقابلين .

---

(١) كذا في الأصل ، وكذا في الأخبار السنية ، وفي الكامل ح ١١ ص ١٢٩ (طغدكين) وكذا في الباهر ٨٨ .

(٢) هو حجة الدين يوسف ذي ناس الفندلاوي المغربي . انظر الكامل ج١١ ١٢٩ ، الباهر : ٨٩ ، الروضتين ج ١ : ٥٣ ، وفي البداية والنهاية ج١٢ ص ٢٢٥ هو : أبو الحجاج يوسف بن درباس ، وفي شذرات الذهب ج ٤ ص ١٣٦ هو :الفندلاوي يوسف بن دوباس دوناس المغربي الفندلاوي شيخ السادة المالكية بدمشق . وفي هامش الأصل عنوان جانبي بخط مختلف : « ذكر وفاة أبو الحجاج يوسف الفندلاوي شهيداً في المعركة . » .

(٣) في الكامل ج ١١ ص ١٣٠ (قد بعت واشترى مني) ، وفي الباهر ٨٩ (قد بعت واشترى) ، وقصد بذلك قول الله تعالى : « (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) » الآية ١١١ سورة التوبة ٩ .

(٤) مقابر باب الصغير : هي المقابر الواقعة حالياً الى جنوب باب الجابية بدمشق في طريق الصابونية أي الطريق العام الذي يؤدي الى الميدان (ميدان الحصى) اليوم والى الجنوب منها يقع مخفر الشيخ حسن . انظر : النعيمي: دور القران في دمشق ص ٤٦ — ٤٧.

وكذلك استشهد أيضاً يومئذ(١) الزاهد عبد الرحمن الجلجاولي(٢) ، ودفن بشرقي الجبل على نهر يزيد ، وهو المكان المعروف الآن بمسجد طالوت ونفذت المكاتبات إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد ، وجعلت / خيل التركمان تتواصل ، ورجّالة الأطراف تتتابع ، [٦ /ظ] وقوي أمر الفرنج ، وتقدموا فنزلوا بالميدان الأخضر ووصل سيف الدين غازي من الموصل إلى حمص للإنجاد ، ونور الدين أيضاً ، فأرسل معين الدين إلى الفرنج الغرباء يتهددهم . ويقول : قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر ما لا طاقة لكم به ، فإن أنتم رحلتم عنّا ، وإلا سلّمتُ البلد إليه ، وحينئذ لاتطمعون في السلامة منه . وأرسل إلى فرنج الشام ، يخوفهم من أولئك الفرنج ، الواردين إلى بلادهم ، ويقول لهم : أنتم بين أمرين مذمومين ، إنْ مَلَكَ هؤلاء الغرباء دمشق ، لايُبقون عليكم مابأيديكم من البلاد ، وإنْ سَلّمتُ أنا دمشق إلى سيف الدين ، فأنتم تعلمون أنكم لاتقدرون على منعه من البيت المقدس ، وبذل لهم أن يسلّم إليهم بانياس إن رَحّلوا ملك الألمان عن دمشق ، فأجابوه إلى ذلك ، وخوّفوا ملك الألمان من كثرة عساكر سيف الدين وتتابُع أمداده ، وأنّه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل ، فرحل ورحلوا معه ، وبرز المسلمون في إثرهم ، فقتلوا عدداً كثيراً من الرجال والدواب(٣) ، ولله الحمد .

---

(١) في هامش الأصل (١١ / ظ) : (استشهاد عبدالرحمن الحلحولي فيها) .

(٢) عبد الرحمن الحلحول : قبره في بستان الشعباني في جهة شرقه ، وهو المسجد المحاذي لمسجد شعبان المعروف الآن بمسجد طالوت وكان مقامه في حياته في ذلك المكان رحمه الله . انظر : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٢٩٨ يذكر اسمه (عبدالرحمن الحلحولي) ، الروضتين ج ١ ص ٥٣ .

(٣) لم تذكر المصادر المتوفرة ملاحقة المسلمين للفرنج بعد خروجهم ، فتتحدث المصادر فتقول : (ولم يزالوا به حتى رحل عن البلد وتسلموا قلعة بانياس وعاد الفرنج إلى بلادهم وهي وراء القسطنطينية) . انظر : الكامل ج ١١ ص ١٣١ ، الباهر ص ٨٩ ، الروضتين ج ١ ص ٥٣ .

وكان تاج الملك بوري بن طغتكين (١) وهو جد مجير الدين قد كسر الفرنج على دمشق في سنة ثلاث وعشرين وخمس مائة في واقعة تشبه هذه الواقعة وللقيسراني فيها قصيدة حسنة (٢) .

ولما (٣) رحل نور الدين عن دمشق ، سار معين الدين ونور الدين إلى حصن العُريمة (٤) من عمل أطرابلس وبه ابن الفنش ، فملك المسلمون الحصن ، وأخذوا كلّ من بــه من رجل وصبي وامرأة وأخربوا الحصن .

وافتتح نور الدين أيضاً باسوطا(٥) وهاب (٦) ثم إنه توجه في عسكره إلى ناحية الأعمال الفرنجية ، وقصد فامية(٧) وظفر بعدة من

---

(١) حول حصار الفرنج لدمشق وفشلهم انظر : الكامل ج ١١ ص ١٢٩ — ١٣٠ .

(٢) انظر مطلع القصيدة في الروضتين ج ١ ص ٥٤ يذكر مطلع القصيدة . والقيسراني : تقدم التعريف به ص ٢٠٠ — الحاشية ٣ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٢ — ٣٠٣ بتصرف ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٣١ — ١٣٢ ، والباهر ٩٠ بتصرف ، أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٥٥ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ص ١٢٩ .

(٤) عريمة : بالعربية أرايمة وعريمة ، وقلعة عريمة : بالفرنجية ، وأريمة وآريما الخ . وهي : قلعة متهدمة في المنطقة الساحلية الجنوبية من سوريا تربض فوق حرف يتاخم السهل العريض الذي يجتازه النهر الكبير وتتحكم في مدخل وادي نهر الأبرش . انظر تعريفها مفصلا في القلاع أيام الحروب الصليبية ص ٦٥ .

(٥) باسوطا أو باسوطة : بليدة تقع شمال غرب حلب وتتبع منطقة عفرين تبعد عن عفرين ٩ كم وعن حلب ٦٩ كم (التقسيمات الادارية في الجمهورية العربية السورية ص ٣٣٩) تشتهر برمانها .

(٦) هاب : (في ياقوت) : قلعة عظيمة من العواصم (لم يذكر موقعها والأغلب أنها تقع على الشريط الساحلي لبلاد الشام) .

(٧) انظر تعريفنا لها في حاشيتنا (٣) ص ١٨٢ .

الحصون والمعاقل وبعدة وافرة من الفرنج ، وجمع صاحب إنطاكية
[الفرنج] (١) وقصده على حين غفلة منه ، فنال من عسكره
[٧ / و] وأثقاله / وكُراعه ماأوجبته الأقدار . وانهزم بنفسه وعسكره وعاد
إلى حلب ، بعد قتل جماعة وافرة من الإفرنج ، وأقام بحلب أياماً
بحيث جدد ماذهب له من اليزك (٢) ، ومـا يحتاج إليه من آلات
العسكر ، وسار إلى بَعْرين (٣) وقد اجتمع بها الفرنج عازمين على
قصد بلاد الإسلام ، فالتقى بهم هنالك، واقتتلوا أشد قتال ، ثم أنزل
الله نصره على المسلمين ، وانهزم الفرنج بين قتيل وأسير .

وفيها يقول القيسراني (٤) :

تَفي بضمانِها البيضُ الحِدادُ (٥)
وتقضي دَيْنَها السُمْرُ الصِّعادُ

أظنّوا أن نارَ الحرب تَخبو
ونورُ الدين في يده الزِنادُ

---

(١) الإضافة من قبلنا لما بين القوسين لتوضيح المقصود ، وصاحب انطاكية هو رايموند ، انظر : الأخبار السنية ص ١٠٠ .

(٢) اليزك : وهي شبه الحرس الملكي في عهدنا أو الشرطة العسكرية ، أو سرية الاستطلاع. وهي لفظ فارسي معناه طلائع الجيش . انظر الحاشية رقم٥١٧ في شفاء القلوب ص ١٦١ .

(٣) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم (٥) ص ١٩٠ .

(٤) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم (٣) ص (٢٠٠) .

(٥) انظر : الخريدة ص ٧٥ وما قبل حيث أورد ٤٥ بيتاً من القصيدة ولم يذكر هذين البيتين ، ابو شامة : الروضتين ج ١ ص ٦ .

في قصيدة حسنة .

وفي هذه السنة أمر نور الدين(١) بإبطال « حي على خير العمل » في أواخر تأذين الغَداة ، والتظاهر بسبّ الصحابة بحلب ، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً ، وساعده على ذلك جماعة من السنة ، وعَظُم هذا على الإسماعيلية وأهل التشيع ، وضاقت له صدورهم ، وهاجوا له وماجوا ، ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة المشهورة النورية ، والهيبة المحذورة (٢) .

ولابن منير من قصيدة (٣) :

يانورَ دينِ الله كـم حـادثٍ
دَجَا وأسفرتَ لـه فانشرى
ما حلبُ البيضاءُ مُذْ صُنْتَهـا
إلاّ حرامٌ مثلُ أمّ القُرى
شَيّدْتَ في معمـورِ أرجائهـا
لكلّ باغي عُمْـرةٍ مشْعرا
أبقاكَ للدنيا وللـدينِ مَنْ
جَلاكَ في ليلهما نَيّـرا (٤)

(١) في هامش الاصل (٧ / ظ) ـ (مطلب إبطال نورالدين حي على خير العمل بحلب).
(٢) انظر الخبر مطولا في : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠١ ، الروضتين ج١ ص ٥٧ ، ابن العديم : تاريخ حلب ج ٢ ص ٦٥٦ .
(٣) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم (١) ص (٢٠٠) .
(٤) انظر قصيدته في: الروضتين ١ : ٥٧ ، شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ص ٢٧٠ — ٢٧١ حيث يورد / ١٤ / بيتاً من القصيدة ورد فيها البيت الأول والثاني والرابع .

ثم دخلت سنة أربع وأربعين (١) :

ففيها جمع صاحب أنطاكية (٢) إفرنج بلاده للإفساد في الأعمال الحلبية . فبرز إليهم نور الدين وأنجده معين الدين بعسكر من دمشق ، مقدمه مجاهد الدين بُزان بن مامين ، فاجتمع لنور الدين ستة آلاف مقاتلة ، سوى الأتباع والسواد ، فنهض بهم إلى الإفرنج في الموضع المعروف بإنب (٣) ، وهم في نحو أربعمائة فارس وألف راجل ، فقتلوهم ، وغنموهم ، ووُجد اللعين البرنس (٤) مقدمهم صريعاً / بين حماته وأبطاله فعرف وقطع رأسُه ، وحمل إلى نور الدين . [٧/ و]

وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية ، وشدة البأس ، وقوة الحِيَل ، وعِظَم الخِلْقَة ، مع اشتهار الهيبة ، وكثرة السطوة ، والتناهي في الشر ، وكان ذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر .

---

(١) انظر تاريخ ابن القلانسي ص ٣٠٣ - ٣٠٥ ، الكامل ج ١١ : ص ١٤٤ ، والباهر ص ٩٨ - ٩٩ ، الروضتين ج ١ ص ٥٧ - ٥٨ بتصرف تاريخ حلب ج ٢ ص ٦٦٢ - ٦٦٣ ، الكواكب الدرية ص ١٣٠ ، الأخبار السنية ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) هو : والد بيمند .

(٣) حصن إنب : (في ياقوت) : بكسرتين وتشديد النون والباء الموحدة : حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب .

(٤) في ابن القلانسي :(ووجد اللعين البلنس مقدمهم صريعاً بين حماته وأبطاله، فعرف وقطع رأسه، وحمل إلى نور الدين ... وكان هذا اللعين من أبطال الأفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس ، وقلة الحيل ، وعظم الخلقة مع اشتهار الهيبة ، وكبر السطوة ، والتناهي في الشر ، وذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر سنة ٤٤) ، انظر ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٥ ، وفي ابن الأثير : (صاحب انطاكية وكان عاتياً من عتاة الفرنج ، وعظيماً من عظمائهم) انظر الكامل ج ١١ ص ١٤٤ .

ثم نزل نور الدين في العسكر على باب أنطاكية ، (وقد خلت من حماتها) (١) والذابّين عنها ، ولم يبق فيهـا غيرُ أهلها ، مع كثرة أعدادهم وحصانة بلدهم ، وترددت المراسلات بينه وبينهم في طلب التسليم إليه وإيمانهم وصيانة أموالهم ، فاحتجوا بأن هذا أمر لايمكنهم الا بعد انقطاع آمالهم ممّن ينصرهم ، وحملوا تحفاً ومـالاً ، واستمهلوا فأُمهلوا . ثم رتب نور الدين بعض العسكر للإقامـة عليها ، ونهض في بقية العسكر إلى ناحية أفامية ،وكان قد رتّب عليها عسكراً لمضايقتها ، فالتمسوا الأمان فأومنوا ، وسلموا البلد ثامن عشر ربيع الأول ، ورجع نور الدين إلى ناحية أنطاكية . وقـد انتهى إليه الخبر بنهوض الفرَنج من ناحية الساحل إلى صوب أنطاكية لإنجاد مَن بها ، فاقتضت الحال مهادنة مَن في أنطاكية ، وتقرير أن يكون ماقَرُب من الأعمال الحلبية له ، وما قَرُب من أنطاكية لهم . ورحل عنهم وقد ملك مما حول أنطاكية (٢) من الحصون والمعاقل والقلاع وغيرها مغانم جَمّة ، هذا قول أبي يعلى التميمي (٣) .

---

(١) في الأصل (٧ / و) مكررة .

(٢) أنطاكية (في ياقوت) : بالفتح ثم السكون ، والياء مخففة ،وأنطاكية بلد عظيم ذو سور وفصيل ولسوره ثلاثمائة وستون برجاً يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس ... وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل ، والسور يصعد مع الجبل إلى قلته فتتم الدائرة وفي رأس الجبل داخل السور قلعة تبين لبعدها من البلد صغيرة ... . ونقول : هي حالياً مدينة تقع في أراضي لواء اسكندرون الجزء السليب من القطر السوري . انظر الأطلس .

(٣) انظر ترجمته ص ١٦١ .

وقال ابن الأثير : سار نور الدين إلى حصن حارم (١) ، وهو للفرنج فحصره وخرب رَبَضَه ونهب سواده ، ثم رحل عنـه إلى حصن إنّب فحصره ، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية ، وساروا إليه ليرحّلوه عن إنّب ، فلم يرحل بل لقيهم ، وتصافّ الفريقان ، فاقتتلوا وصبروا ، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب عـلى حداثة سنه ، ماتعجّب الناس منه ، فانجلت الحرب عـن هزيمة الفرنج ، وقتل المسلمون منهم خَلْقاً كثيراً . وفيمن قتل البرنس صاحب أنطاكية ، وكان عاتياً من عُتاة الفرنج ، وذوي التقدم فيهم والملك ، ولما قتل البرنس ، خلّف ابناً صغيراً وهو / بيمند فبقي مع أمّه بأنطاكية ، فتزوجت أمه بإبرنس آخر (٢) [٧ / ظ] فأقام معها بأنطاكية ، يدبر الجيش ويقودهم ، ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند .

ثم إن نور الدين غزا بلد الإفرنج غزوة أخرى وهزمهم ، وقتل منهم وأسر ، وكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أم بيمند فلما أسره تملك بيمند أنطاكية بَلَدَ أبيه وتمكن منـه ، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين على مانذكره . وأكثرَ الشعراءُ

(١) بالعربية حارم – بالفرنجية كاستروم هارنك هارينش وهارم الخ . الوصف : قلعة ومدينة في شمالي سوريا تقع في الشعاب الغربية في جبل باريشا وتطل على السهل المحيط ببحيرة العمق وتسيطر على الطريق الرئيسي بين أنطاكية وحلب (انظر القلاع أيام الحروب الصليبية) . فيڤر – مركز الدراسات العسكرية وانظر الكامل ٩ / ٢٥ .

(٢) هي كونستانس ، وقد تزوجت فتى مغامراً ، اسمه رينودي تشاتيون أرناط حبشي : نور الدين والصليبيون ، ص / ٨٤ ، انظر الحاشية ٩٩ في الباهر .

مدحَ نور الدين في تهنئته بهذا الفتح وقتْل البرنس فممن قال فيه القيسراني الشاعر واسمه محمد بن نصر من قصيدة أولها :(١)

هذي العزائم لا ما تدّعي القُضُب (٢)

يقول فيها :

مايومُ إنّبَ والأيامُ دائلةٌ
مِنْ يومِ بَغْرا(٣) بَعيدٌ لا ولا كَثَبُ

مَنْ كانَ يَغْزو بلادَ الشِّرْكِ مُكْتَسِباً
مِنَ الملوكِ فنُورُ الدينِ مُحْتَسِبُ

فملّكوا بسَلَبِ الإبْرِنْسِ قاتِلَهُ
وهل له غيرُ أنطاكيّةٍ سَلَبُ

عَجِبْتُ للصَّعْدةِ السمراءِ مُثْمِرَةً
برأسهِ إنَّ إثمار القنا عَجَبُ

فانْهض إلى المسجدِ الأقصى بذي لَجَبٍ
يُوْلِيكَ أقصى المُنى فالقُدْسُ مُرْتَقِبُ

---

(١) الكامل ج١١ ص ١٤٥ وفيه البيت الأول وستة أبيات غير هذه ، وفي الباهر ص ١٠٠ ذكر (١٧) بيتاً، الروضتين ج١ ص ٥٩ - ٦٠ ذكر (٥٢) بيتاً من القصيدة، شعر الجهاد في الحروب الصليبية ص ٩٨ - ١٠٠ ذكر (٢٢) بيتاً من بينها ذكر البيت الرابع والخامس ومطلع القصيدة .

(٢) عجزه في الكامل : « وذي المكارم لا ما قالت الكتب » .

(٣) في الأصل « يغرا » والتصحيح من الروضتين ٥٩/١ .

يامَنْ أعادَ ثُغورَ الشامِ ضاحِكةً
مِنَ الظُّبى عن ثغورٍ زانَها الشَّنَبُ

إنْ لايكنْ أحدُ الأبدالِ في فلَكَ التـ
قوى فلا (يتُمارى) (١) أنك القُطُبُ

هذا وهل كان في الإسلامِ مَكْرُمَةٌ
إلا شَهِدْتَ وعُبّادُ الهوى غُيُبُ

وقال ابن الأثير (٢) : « وسار نور الدين إلى حصن فامية ، وكان مَن به من الإفرنج يُغيرون على أعمال حماة وشَيْزَر وينهبونها ، فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصَّغار ، فحصره وضيّق عليه ومنَع من بـه مـن القرارَ ليلاً ونهاراً ، وتابع عليهم القتـال ليُمْنَعوا الاستراحة ، فاجتمعت الفرَنجُ من سائر بلادها ، وساروا نحوه ، فلم يصلوا إلاّ وقـد ملك الحصن ، وملأه ذخائرَ من طعامٍ ومالٍ وسلاحٍ ورجالٍ وجميع مايحتاج إليـه ، فلما بلغه قرب الفرنج ، سار نحوهم فحين رأوا جدّهُ في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم ؛ وكان قصاراهم أنْ صالحوه على ماأخذ .

ومدحه الشعراء وأكثروا ، منهم : أبو الحسين أحمد بن منير من قصيدة :

(١) في الروضتين ج١ ص ٦٠ (نتمار) .

(٢) انظر : الباهر ص ١٠١ ، الكامل ج ١١ ص ١٤٩ بتصرف ويذكر ابن الأثير هذه الحادثة في سنة ٥٤٥ هـ ، الروضتين ج١ ص٦٢ ، السيرة النورية ١٣١ ، تاريخ حلب ج٢ ص ٦٦٥ .

/ أَنْشَرْتَ يا محمودُ (١) مِلَّـةَ أحمدٍ [٨ / و]

مِنْ بَعْدِ ماشَمِلَ البِلى أبشارَها (٢)

في كلِّ يومٍ من فتوحِـكَ سُوْرَةٌ

للدين يحمل سَفْرُهُ أسفارَهـا

وأحَقُّ مَنْ مَلَكَ البلادَ وأهلَهـا

رؤوف تكنف عدلهُ أقطارهـا (٣)

أدركتَ ثأرَكَ في البغـاةِ وكُنْتَ يا

مُختارَ أمة أحمـدٍ مُختارهَـا

وفي هذه السنة : توفي بدمشق معين الدين أنُر (٤) .

قلت : وهو واقفُ المدرسة المعينية الحنفية (٥) .

---

(١) انظر : الكامل ج ١١ ص ١٤٩ — ١٥٠ حيث أورد ستة أبيات من القصيدة ليس منها إلا البيت الأخير ، والباهر ص ١٠١ حيث أورد أيضاً ستة أبيات ، : الروضتين ج١ ص ٦٢ — ٦٤ حيث أورد (٥٦) بيتاً من القصيدة .

(٢) في الروضتين ج ١ ص ٦٢ (أصحارها) .

(٣) في الروضتين ج ١ ص ٦٢ (أورد قبل البيت الثاني) .

(٤) انظر القلانسي : ٣٠٦ ، وفي الروضتين ج ١ ص ٦٤ (وقضى نحبه في ليلة الثالث والعشرين من ربيع الآخر ودفن في إيوان الدار الأتابكية التي كان يسكنها، ثم نقل بعد ذلك الى المدرسة التي عمرها،قلت قبره بمقابل العونية شمالي دار البطيخ الآن ، واسمه مكتوب على بابها ، فلعله نقل من ثم إليها) . وانظر الكامل ج ١١ ص ١٤٧ .

(٥) في هامش الأصل : « مدرسة المعينية » .

وتوفي بمصر المستخلَف بها الملقب بالحافظ بن الآمر ابن المستنصر(١).

واستخلف بعدَه ولدُه الظافر .

وتوفي بالموصل (٢) سلطانُها : سيف الدين غازي ، أخو نور الدين الأكبر ، وولي بعده بالموصل أخوهما قطب الدين مودود .

قال ابن الأثير : لما توفي سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل ، كان أخوه قطب الدين مودود بالموصل ، فاتفقت كلمة جمال الدين الوزير وزين الدين على توليته طلباً للسلامة ، فإنه كان ليِّنَ الجانب ، حسنَ الأخلاق ، ولما استقر في الملك ، تزوج امرأة أخيه التي مات عنها ولم يدخل بها وهي : الخاتون ابنة حسام الدين تَمُرتاش صاحبُ ماردين ، فولدت لقطب الدين أولادَه الذين ملكوا الموصل بعدَه ، ولم يملكها من أولاد قطب الدين أحدٌ من غير أولادها ؛ وكانت هذه الخاتون يَحِلُّ لها أن تضع خِمارها عند خمسة عشر ملكاً من آبائها ، وأجدادها ، وإخوتها ، وبني إخوتها ، وأزواجها ، وأولادها وأولادِ أولادها ، ثم ذَكَرهم وسمّاهم، ثم ذكر أنها أشبهت في ذلك فاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوج عمر ابن عبد العزيز ، كان لها أن تضعَ خِمارها عند ثلاثة عشر خليفة وهم :

---

(١) هو : الحافظ عبدالمجيد بن الآمر بن المستنصر ، توفي في خامس جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وولي بعده ولده الأصغر أبو منصور إسماعيل ولقب بالظاهر) . انظر : القلانسي ٣٠٨ ، الروضتين ج١ ص ٦٥ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٢٦ .

(٢) الباهر ٩٤ – ٩٥ الكامل ج ١١ ص ١٣٨ – ١٣٩ . الروضتين ج ١ ص ٦٦ – ٦٧ بتصرف، ابن العديم : تاريخ حلب ج٢ ص ٦٦٠ – ٦٦١ ، السيرة النورية ١٣٢ – ١٣٣ .

معاوية ، ومن بعده إلى آخر خلفاء بني أمية ، سوى مروانَ بنِ محمد آخرهم ، فإنه ابن عم لها ، ليس بِمَحْرَم ، والباقون محارِم .

وهذا الذي قاله مبني على أن أمَّها عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فيكون معاوية (١) جدَّ أمها ، ويزيدُ جدُّها لأمها (٢) ومعاوية بن يزيد خالُها (٣) ومروان (٤) جدّها لأبيها ، وعبد الملك أبوها . والوليد (٥) وسليمان (٦) ويزيد (٧) وهشام (٨) إخوتُها ، وعمر ابن عبد العزيز زوجُها ، والوليد بن يزيد(٩) ، ويزيد بن الوليد(١٠) . وإبراهيم بن الوليد (١١) ، أولادُ إخوتها ، وهؤلاء كلهم خلفاء ، وعِدَّتُهم ثلاثة عشر ،ولكن ليست أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية . بل أمها امرأةٌ مخزومية ، فالصواب أن يقال : كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرةٍ من الخلفاء وهم : مروان بن الحكم ، وعقبه ، سوى مروان بن محمد ، وأما عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فالجميع محارم لها سوى عمر بن عبد العزيز ، ومروان بن محمد ؛ بقي اثنا

---

(١) هو معاوية بن أبي سفيان .

(٢) هو (يزيد بن معاوية بن أبي سفيان) .

(٣) هو (معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان) .

(٤) هو مروان بن الحكم .

(٥) هو (الوليد بن عبد الملك بن مروان) .

(٦) هو سليمان بن عبد الملك بن مروان .

(٧) هو (يزيد بن عبد الملك بن مروان) .

(٨) هو (هشام بن عبد الملك بن مروان) .

(٩) هو (الوليد بن يزيد بن عبد الملك) .

(١٠) هو (يزيد بن الوليد بن عبد الملك) .

(١١) هو (ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك) .

عشر خليفة : معاوية جدُّها ، ويزيد أبوها ، ومعاوية بن يزيد أخوها ، ومروان بن الحكم حَمُوها . وعبد الملك ابنه زوجُها ، ويزيد بن عبد الملك ابنُها ، وإخوته ، الوليد ، وسليمان ، وهشــام ، أولاد زوجها . والوليد بن يزيد ابن ابنها ، ويزيد بن الوليد ، وإبراهيم بن الوليد ، ابنا ابن زوجها .

وما ذكره ابن الأثير من أمر الخاتون بنت حسام الدين (١) تَمُرتاش فأكثرُ منه ست الشام بنت أيوب واقفة المدرستين بدمشق(٢) وظاهرها ، يجتمع لها من الملوك الذين هم محارُمها أكثر من ثلاثين ملكاً من إخوتها الأربعة : المعظّم تُورانشاه ، والسلطان صلاح الدين ، والعادل سيف الدين ، وسيف الإسلام ، ومن أولادهم ، وأولاد أولادهم ، وأولاد أخيها الأكبر شاهِنْشاه بن أيوب ، تقي الدين وذريتــه أصحاب حماة ، وفَرُّخْشاه ، وابنه الأمجد صاحب بَعْلَبَكّ مايطولُ الكلامِ بتعدادهم .

قــال أبو يعلى (٣) : وبلغ نورَ الدين إفساد الإفرنج في الأعمال الحَوْرانية ، بالنهب والسبي ، فعزم على قصدهم، وكتب إلى مَنْ بدمشق يستدعي منهم معونةً على ذلك بألف فارس ، وقد كانوا عاهدوا الفرنج أن يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من المسلمين ، فاحتُج عليه

(١) في هامش الأصل (٨ / ظ) : (ست الشام بنت أيوب واقفة المدرستين بدمشق).

(٢) هما الشاميتان الجوانية والبرانية .

(٣) القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٨ – ٣٠٩ بتصرف ، الروضتين ج ١ ص ٦٩ – ٧٠ بتصرف وتقديم وتأخير .

وغُولط ، فلما عَرَف ذلك ، رحل وترك عسكره بمرج يبوس (١) ويَعفور (٢) وعَرَف من بدمشق خَبَرَه ، ولم يعلموا أين قَصْدُه ، وقد كانوا راسلوا الإفرنج بخبره ، وقرروا معهم الإنجاد عليه ، وكانوا قد نهضوا إلى ناحية عَسْقَلان (٣) لعمارة غَزَّة (٤) ووصلت أوائلهم إلى بانياس (٥) ، وعرف نور الدين خَبَرَهم ، فلم يحفل بهم وقال : لاأنحرف عن جهادهم ، وهو مع ذلك ، كافٌ أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضِّياع ، وآمرٌ بإحسان الرأي في الفلاحين ، والتخفيفِ عنهم ، والدعاءُ له مع ذلك متواصلٌ ، من أهل دمشق وأعمالها ، وسائر البلاد وأطرافها ، وكان الغيث قد انحبس عن حَوْران والمَرْج والغُوطَة ، ونزح أكثر أهل حَوران عنها للمَحْل ، واشتداد الأمر .

---

(١) مرج يبوس : قصد بها المنطقة الواقعة بالقرب من جديدة اليبوس القريبة من الحدود اللبنانية ويمتد هذا المرج على طول طريق جديدة اليبوس باتجاه دمشق . انظر الأطلس.

(وفي ياقوت) مرج يبوس : بالفتح ثم السكون والجيم ، وهي الأرض الواسعة فيها نبت كثير تمرج فيها الدواب أي تذهب وتجيء . ، يبوس: اسم جبل بالشام بوادي التيم من دمشق .

(٢) يعفور : وهي قرية على طريق دمشق بيروت وتبعد عن دمشق حوالي ٢٠ كم (انظر مصور القطر السوري) وفي الروضتين ج ص ٦٩ (بيعضور) وهو تصحيف .

(٣) عسقلان : (في ياقوت) وهي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين .

(٤) غزة : بفتح أوله ، وتشديد ثانيه وفتحه ، وهي مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر ، بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل ، وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان .

(٥) بانياس : هنا ليس المقصود بها بانياس الساحل، إنما بانياس هنا هي مدينة صغيرة تقع على نبع نهر بانياس على الحدود اللبنانية الفلسطينية وهي تابعة لمحافظة القنيطرة وهي حالياً في الأراضي المحتلة من قبل إسرائيل . (انظر مصور القطر السوري) . وفي الأصل المخطوط : « تانياس » .

فلما وصل نور الدين إلى بَعْلَبَكّ (١) اتفق نزول الغيث ، يوم
[٨/ظ] الثلاثاء ثالث / ذي الحجة ، وأقام إلى مثله ، فروّى الإكام والوِهاد ، وجرَت الأودية ، وزادت الأنهار ، وامتلأت بِرَك حَوْران ، ودارت أَرْحِيَتُها (٢) ، وعاد ما صَوَّح (٣) من الزرع والنبات غَضّاً طرّياً ، وضجّ الناس بالدعاء لنور الدين ، وقالوا : هذا ببركته وحسن مَعْدَلَتِه ، ثم رحل من منزله بالأعوج (٤) ، ونزل بجسر الخشب (٥) المعروف بمنازل العساكر ، وراسل مجير الدين (٦) صاحب دمشق ، والرئيس ابن الصوفي : إنني ماقصدت بنزولي هذا المنزل طلباً لمحاربتكم ، وإنّما دعاني كثرةُ شِكاية المسلمين من أهل حَوْران بأن الفلاحين أُخذت أموالهم ، وسُبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الفَرَنْج ، وعُدِمَ الناصر لهم ، ولايسعني مع ماأعطاني الله ، وله الحمد ، من الاقتدار على نصرة

---

(١) بالعربية وباليونانية: هليوبوليس بالفرنجية : بالبك وماوبلك ... الخ ، الوصف : مدينة صغيرة في البقاع ، أو الهضبة المرتفعة الواقعة ما بين سلسلتي لبنان الغربية والشرقية ، اشتهرت بمعابدها القديمة ، وقد حولت أرابض المعبد الكبير الذي يعود تاريخه الى حقب مختلفة من عصر الإمبراطورية الرومانية إلى قلعة ، وأضيف إليها تحسينات خلال العصور الوسطى من أسوار محيطية جديدة مع أبراج . انظر : القلاع أيام الحروب الصليبية ص ٦٧ .

(٢) أرحيتها : جمع رحى الطاحون ، تصنع من الحجر البازلتي .

(٣) صوح : تصوح البقل وصوح : تم يبسه ، وقيل إذا أصابته آفة ويبس (انظر لسان العرب) .

(٤) الأعوج : نهر ينبع من جبل الشيخ ومجراه يدخل في مدينة الكسوة .

(٥) جسر الخشب : يقع في أرض داريا من جهة دمشق (الروضتين ١ — ٨٠) .

(٦) هو مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغدكين أتابك ويقال : طغتكين أتابك . انظر : الباهر ١٠٦ ، والأصل (١٣ / ظ) والروضتين ج ١ ص ٩٤ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ١٥٢ .

المسلمين ، أن أقعد عنهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم ، الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفَرَنْج على محاربي ، وبَذْلِكُم لهم أموالَ الضعفاء والمساكين من الرَّعيّة ، وهذا مالا يُرضي الله تعالى ، ولا أحداً من المسلمين ؛ ولا بُدَّ من المعونة بألف فارس مُزاحي العلّة ، تُجَرَّد مع من يُوثَق بشجاعته من المقدَّمين لتخليص ثغر عَسْقَلان ، وغَزَّة . فكان الجواب عن هـذه الرسالة : « ليس بيننا وبينك إلاّ السيف وَسَيُوافينا من الإفرنج مايُعيننا على دَفْعك ، إن قَصَدْتَنا ، ونزلتَ علينا » ، فلما سمع هذا الجواب ، عزم على الزحف إلى البلد من الغد ، فأرسل الله من الأمطار وتَدارُكها ودوامها مامنعه من ذلك .

ودخلت سنة خمس وأربعين :

ففي مستهل المحرم (١) تقرر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق ، والسبب في ذلك : أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها ، واتفق أنهم بذلوا له الطاعة وإقامة الخطبة على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان السلجقي وكذا السكة ، ووقعت الأيمان على ذلك وفي ذلك يقول القيسراني من قصيدة (٢) :

لك الله إن حاربت فالنصر والفتح
وإن شئت صلحاً عُدّ من حزمك(٣) الصلحُ

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ٣٠٩ – ٣١٠ بتصرف ، الروضتين ١ – ٧٠ بتصرف ، واختصار السيرة النورية ١٣٥ – ١٣٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٢٨ .

(٢) (انظر الروضتين ١ : ٧٠) حيث أورد عشرين بيتاً من القصيدة .

(٣) الروضتين (حزبك) .

وما (١) أنت إلا السيف في كل حالةٍ
فطوراً له حدٌّ وطوراً له صفحُ

إذا ما دمشق ملّكتكَ عنـــانها
تيقّنَ من في إيليا (٢) أنه الذبـــحُ

إذا سار نور الدين في الجيش غـــازياً
فقولا لليل الأفك قد طلع الصبحُ

[١٠/و] / وله من قصيدة أخرى سيأتي بعضها (٣) :

ليهن دمشقاً أن كرسيّ ملـــكها
حُبي منك صدراً ضاق عن همه الصدرُ

وأنك نور الدين ، مذ زرت أرضهـــا
سمت بك حتى انحط على نسرها النسرُ

خطبتَ فلم يحجبـــك عنها وليّهـــا
وخطبُ العلى بالسيف مادونه سترُ

فإن صافحـــت يمناك من بعد هجرها
فأحلى التلاقي مــــا تقدّمه هجرُ

---

(١) الروضتين (وهل) .

(٢) إيليا (في ياقوت) إلياء بكسر أوله واللام ، وياء، وألف ممدودة : اسم مدينة بيت المقدس ؛ قيل : معناه بيت الله .

(٣) الروضتين ح ١ – ٧٢ – ٧٤ حيث أورد ٥١ بيتاً من القصيدة ، والكامل ١١ : ١٥٥ أورد ست أبيات من القصيدة في أسرجوسلين ، الخريدة ١ : ١٥٧ – ١٥٩ حيث يورد أربعاً وعشرين بيتاً من القصيدة من بينها البيتان الأول والثاني .

قال ابن الأثير : (١) سار نور الدين إلى بلاد جوسلين وهي القلاع التي شماليّ حلب ، منهـا : تل باشر (٢) وعين تاب (٣) وعزاز (٤) وغيرها من الحصون ، فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم ولقوا نور الدين ، فكانت بينهم حرب شديدة ، أجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج ، فأحضر نور الدين جمـاعة من التركمان ، وبذل لهم الرغائب من الإقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين إمّا قتلاً وإمّا أسراً ، فاتفق أن جوسلين خرج يوماً في عسكره وأغار على طائفة من التركمان ، فنهب وسبى فاستحسن من السبي امرأة منهم فخلا بها تحت شجرة فعاجله التركمان فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً ، فصانعهم على مـال بذله لهم فرغبوا فيه وأجابوه إلى ذلك ، وأخفوا أمره عن نور الدين ، فأرسل جوسلين في إحضار المال فأتى بعض التركمان إلى نائب نور الدين بحلب فأعلمـه به ، فسيّر معه عسكراً أخذوا جوسلين من التركمان قهراً ، وكان نور الدين حينئذ بحمص .

---

(١) انظر : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٠ ، الكامل ج ١١ ص ١٥٤ – ١٥٥ (بخلاف فهو يذكر الحدث في أحداث عام ٥٤٦ هـ) ، الباهر ١٠١ – ١٠٣ ، الروضتين ج ١ ص ٧٢ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٢٨ ، تاريخ حلب ج٢ ص ٦٦٥ – ٦٦٧ ، الأخبار السنية ١٠٢ – ١٠٣ .

(٢) تل باشر (في ياقوت) الشين معجمة : قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب ، بينها وبين حلب يومان ، وأهلها نصارى أرمن ، ولها ربض وأسواق ، وهي عامرة آهله .

(٣) عين تاب (في ياقوت): قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية وكانت تعرف بدلوك ودلوك رستاقها ، وهي الآن من أعمال حلب (أي زمن ياقوت) .

(٤) عزاز (في ياقوت) : بفتح أوله ، وتكرير الزاي ، وربما قيلت بالألف في أولها : وهي بلدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب بينهما يوم .

وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين ، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج شديد العداوة للمسلمين وكان مقدماً على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدة عداوته للملة الإسلامية وقسوة قلبه على أهلها ، وأصيبت النصرانية كافة بأسره ، وعظمت المصيبة عليهم بفقده ، وسهل أمرهم على المسلمين بعده ، وكان كثير الغدر والمكر لايقف عند يمين ولا يفي بعهده طالما صالحه نور الدين وهادنه فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر ، فلمّا أسرَهُ تيسر فتح كثير مـن بلادهم وقلاعهم فمنهـا عـين تاب وعزاز وقورس (١) [١٠/ظ] والراوند (٢) وحصن / البارَة (٣) وتل خالد (٤) ، وكفرلاثا (٥) ، وكفرسوت (٦) ، وحصن بصرفوث (٧) بجبـل ابن عـاـيم ،

---

(١) قورس : بالضم ثم السكون ، وراء مضمومة ، وسين مهملة : مدينة أزلية بها آثار قديمة وكورة من نواحي حلب وهي الآن (أي زمن ياقوت) خراب وبها آثار باقية ، وبها قبر أوريان بن حنان ، طولها أربع وستون درجة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، داخلة في الاقليم الرابع بخمس وأربعين دقيقة ...) .

(٢) الراوندان : (في ياقوت) : قلعة حصينة وكورة طيبة ممشبة ومشجرة ، من نواحي حلب .

(٣) البارة (في ياقوت) : بليدة وكورة من نواحي حلب ، وبها حصن ، وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة .

(٤) تل خالد (في ياقوت) قلعة من نواحي حلب .

(٥) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٥ ص ٢٠٢ .

(٦) كفر سوت (في ياقوت) بضم السين ، ثم واو آخره تاء مثناة ، من أعمال حلب الآن — أي في عصر ياقوت — قرب بهسنا ، بلد فيه أسواق حسنة عامرة .

(٧) انظر تعريفنا له في الحاشية رقم ٥ ص ٢٠٢ .

ودلوك (١) ومرعش (٢) ، ونهر الجوز (٣) ، وبرج الرصاص (٤) .

قال : وكان نور الدين إذا فتح حصناً لايرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر يكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء ، وفي أسر جوسلين وأخذ حصونه يقول القيسراني من قصيدة ذكر فيها أيضاً قتل البرنس الذي تقدم ذكره ، ثم قال (٥) :

كما أهدت الأقــدار للقمص أسرَه
وأسعَدُ قِرنٍ مِنْ حواهُ لكَ الأسْرُ

طغى وبغى عــــدواً على غُلوائه
فأوْبَقَهُ (٦) الكُفرانُ عَدواهُ والكُفْرُ

---

(١) دلوك : (في ياقوت) : بضم أوله وآخره كاف . بليدة من نواحي حلب بالعواصم .

(٢) مرعش : (في ياقوت) : بالفتح ثم السكون والعين مهملة مفتوحة وشين معجمة مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الشام وبلاد الروم ولها سوران وخندق،وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني . بناه الخليفة مروان بن محمد،المعروف بمروان الحمار .

(٣) لم أعثر على تعريف له والأرجح أنه من أعمال حلب ويقع الى الشمال منها .

(٤) برج الرصاص : (في ياقوت) : قلعة ولها بساتين ، من أعمال حلب قرب أنطاكية .

(٥) تنظر الخريدة ١ / ١٥٧ — ١٥٩ ، الكامل ١١ / ١٥٥ ، الباهر وفيه ثمانية أبيات منها فقط ، الروضتين ١ / ٧٢ — ٧٤ وفيه ٥١ بيتاً .

(٦) أوبقه : ذلله ، وأوبقه : أهلكه (لسان العرب) .

وألقت (١) بأيديها إليكَ حصـــونهُ
ولو لم تُجِبْ طوعاً لجاءَ بها القَسْرُ

وأمستْ عزّاز كاسْمِها بكَ عِزّةً
يَشُقّ على النّسريْن لو أنّها وَكرُ(٢)

فسر واملأ (٣) الدّنيا ضياءً وبهجةً
فبالأُفق الدّاجي إلى ذا السَّنا فَقْرُ

كأني بهـذا العزمِ لافُلّ حَـدّهُ
وأقصاهُ بالأقصى وقد قُضيَ الأمْرُ

وقد أصبح البيتُ المقدّس طاهـراً
ولَيْسَ سوى جاري الدّماء له طُهْرُ

وإن تيمم ساحِل البحر مالكـاً
فلا عجبٌ أن يملك الساحلَ البَحْرُ

رددت الجهـاد الصعب سهلاً سبيله
وياطالما أمسى ومسلكه وعْـرُ

وله من قصيدة أخرى (٤) :

ولما نزا بالقُمص (٥) عُجب هوى به
على أم رأس البغي والغدر عُجْبُهُ

---

(١) في الخريدة : فألقت .

(٢) في الروضتين : الوكر ، وكذا في الخريدة .

(٣) في الخريدة : "تملاء .

(٤) أبو شامة : الروضتين ج١ ص٧٤ – ٧٥ يذكر له تسع وثلاثون بيتاً من القصيدة .

(٥) في الروضتين (يرى بالقمص) .

وأصبح في (١) الحجلين ينكر خطوه

بعيد عن الرحلين في السعي قربُهُ

تُعاقبه البشرى بأخـــذ حصونـــه

فيا عائباً ضَرْب البشائر ضَرْبُـــهُ

فإن يكن المقهور (٢) من ثُلّ عرشـــه

فهذا عمود الكفر قد طاح طنْبهُ (٣)

فقـــل لمـــلوك الخافقـــين نصيحـــة

كذا عن طريق الليث تزأر غلبهُ

وخلوا عن الآفـــاق فالشرق شـــرقه

بحكم الردينيات (٤) والغرب غرْبُهُ

/ أمتخذ الإخـــلاص لله جنـــةً [١١ / و]

ومن يعتصم بالله فالله حسْبُهُ

أبوك اســـترد الشام بالسيف عنـــوة

وللروم بأس طالمـــا غال خطْبُهُ

إذا ذب عن أضغاث دنيـــاه مالك

فأنت الذي عن حوزة الدين ذَبُّهُ

---

(١) الروضتين (فأصبح في).

(٢) الروضتين (المعهود : ثل).

(٣) طنب : الطنب والطنب معاً : حبل الخباء والسرداق ونحوهما . انظر لسان العرب .

(٤) ردينة : اسم امرأة ، والرماح الردينية منسوبة إليها ، انظر لسان العرب .

قال ابن الأثير (١) : ولما سار نور الدين إلى قلاع جوسلين ملك بعضاً وبقي بعضاً فاجتمعت الفرنج ، والتقوا مع نور الدين بدلوك ، فهزمهم واستولى على دلوك وغيرها ففيها يقول أحمد بن منير من قصيدة (٢) :

أعـــدتَ بعصرك هـــذا الأنيق

فتوح النّبي وأعصـــارَهـــا

وكانَ مهـــاجرُها تابعيـــنك

ونُصّار (٣) رأيكَ أنصارَها

فجدّدْتَ إســـلامَ سلمـــانها

وعمّر جـــدّك عمّـــارَها

وما يوم إنّبَ إلاّ كتيـــــاك

بل (٤) طالَ بالبُوعِ (٥) أشبارَها

---

(١) انظر الحدث مع قصيدة ابن منير في: ابن الأثير: الكامل ١١ ص ١٦٣ — ١٦٤ (بخلاف فهو يذكره في أحداث ٥٤٧ هـ) ، والباهر ١٠٤ بتصرف (بخلاف أيضاً حيث يذكره في أحداث عام ٥٤٦ هـ) ، القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٠ ، الروضتين ١ : ٧٦) .

(٢) انظر أبيات الشعر في : الكامل ج ١١ ص ١٦٣ — ١٦٤ ، الباهر ١٠٤ — ١٠٥ ، الروضتين ج ١ ص ٧٦ — ٧٧ . محمد علي هرفي : شعر الجهاد في الحروب الصليبية ٢٨٢ — ٢٨٣ .

(٣) كذا في الأصل (١٢ / خ) ، وفي الكامل ج ١١ ص ١٦٣ ، والروضتين ج ١ ص ٧٦ ، وشعر الجهاد ٢٨٢ (وأنصارها) .

(٤) في الكامل ١١ : ١٦٣ (كذلك) .

(٥) بوع : الباع والبوع والـ[illegible] : مسافة ما بين الكفين إذا بسطتها ، والجمع أبواع . انظر لسان العرب .

صدمتَ عزيمتهـــا صدمـــةً
أذابتْ مـــع الماءِ أحجـــارَها
وفي تلَّ باشرَ بـــاشَرْتَهُـــمْ
بزحفٍ تَسَـــوّرَ أسوارَهـــا
وإنْ دالكتْهُـمْ دُلُوكُ فقَـــدْ
شددتَ فصدقْتَ أخبـــارَها

ثم دخلت سنة ست وأربعين وخمسمائة (١)

ففيها (٢) حاصر نور الدين دمشق لمعاضدة أهلها الفرنج ، واستنصارهم بهم وكان ابن منير يحرضه على ذلك في قصائد اه (٣) .

وأرسل نور الدين (٤) إلى ولاة البلد يقول : أنا ماأوثر إلا صلاح المسلمين ، وجهاد المشركين وخلاص من في أيديهم من الأسارى ، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق ، وتعاضدنا على الجهـــاد ، فذلك المراد ، فلم يعد الجواب إليه بما يرضاه ، فنزل في أرض مسجد القدم وما ولاهُ ، وأمسك عن القتال خوفاً من سفك الدماء ، ثم بلغه مجيء الفرنج نجدة للدمشقيين ، فرحل إلى ناحية الزبداني ووصل في هذه الأيام الأسطول (٥) المصري إلى ثغور الساحل في سبعين مركباً حربية ،

---

(١) في هامش الأصل (١٢ / ظ) : وفي سنة ست وأربعين وخمسمائة .

(٢) انظر تاريخ دمشق للقلانسي ٣١٢ — ٣١٤ ، وانظر الخبر مفصلا في الروضتين ج ١ ص ٧٧ ، السيرة النورية ٣٧ — ٣٨ .

(٣) انظر قصائده في الروضتين ج ١ ص ٧٨ — ٧٩ .

(٤) انظر الروضتين ج ١ ص ٨٠ — ٨١ بتصرف .

(٥) في الأصل (١٢ / ظ) (الاصطلول) وهو تصحيف .

فقتلوا من العدو ، وأسروا وأحرقوا ، وظفروا بعدة من المراكب وذلك بيافا(١) ، وعكا (٢) ، وصيدا (٣) ، وبيروت واطرابلس (٤) ، وكان نور الدين قد وعد بمسيره إلى ناحية الأسطول المذكور لإعانته / فاتفق [١١/ظ] اشتغاله بأمر دمشق ، ثم عاد إليها ووقعت المناوشة من غير حرب وقال : لاحاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً وأنا أوفرهم ليكون بذل نفوسهم في الجهاد ، وترددت المراسلات في عقد الصلح مع أهل دمشق على شروط واقتراحات فتم ذلك ، ورحل نور الدين رحمه الله .

---

(١) يافا : بلدة ساحلية تقع في وسط الساحل الفلسطيني وهي ميناء هام وهي محتلة الآن بيد الصهاينة . انظر مخطط فلسطين .

(٢) بالعربية : عكا ، باليونانية بتوليماس Ptolemais بالفرنجية : سان جان داكر Saint-Jeand'Acre وآكري Acri الخ ... .

الوصف : مرفأ بحري في شمالي فلسطين (المحتلة) يقع فوق بقعة من الأرض بارزة قليلاً في البحر إلى جوار خليج حيفا ورغم أن عكا كانت المرفأ الفرنجي الرئيسي ، في زمن الحروب الصليبية ، فهي لم تحتفظ إلا بالقليل من الذخائر العائدة للفرنجيه فيها ... انظر القلاع أيام الحروب الصليبية -- لفيلر -- مركز الدراسات العسكرية ص ٩٤ .

(٣) بالعربية : صيدا Saida ، باليونانية واللاتينية : صيدون وسيدون Sidon بالفرنجية ساجيت Sagette وسايت Sayette وصيد Seyd الخ ... . مدينة وقلعة على الساحل الجنوبي من لبنان في موقع صيدون سابقاً . التي كانت مرفأ فينيقياً ، احتل مكانة هامة على مر العصور ... انظر القلاع لفيلر مركز الدراسات العسكرية ٩٥ .

(٤) بالعربية طرابلس Trablus وأطرابلس ، والقلعة نفسها قلعة صنجيل ، باليونانية Tripolis الخ ... ، الوصف : مدينة ومرفأ على القسم الشمالي من الساحل اللبناني ، تشغل موقعاً لمستوطنة قديمة ، فظلت مرفأً هاماً لدمشق لعدة قرون . انظر القلاع أيام الحروب الصليبية . لفيلر . مركز الدراسات العسكرية ص ٩ — ١١ .

ثم دخلت سنة سبع وأربعين

ففيها : نزل نور الدين (١) في عسكره على حصن أنطرطوس (٢) ففتحه ، وقتل من كان فيه من الفرنج ، وطلب الباقون الأمان على النفوس ، فأجيبوا إلى ذلك ، ورتب فيه الحفظة ، وعاد عنه ، وملك عدة من الحصون بالسبي ، والسيف ، والإخراب ، والإحراق ، والأمان ، وظفر رجال عسقلان بالفرنج المجاورين لهم بغزة ، بحيث هلك منهم العدد الكثير وانهزم الباقون . ولابن منير من قصيدة :

غادرت(٣) أنطرطوس(٤) كالطرس امّحى
رسماً وحمّر رَدعُها يحمورا

أبداً يباشر وجه غزوك ضــاحكاً
وتؤوب منه مظفراً (٥) منصوراً

لامُلك إلاّ ملك محمـــود الذي
تخذ الكتاب مظاهراً ووزيرا

---

(١) انظر : ذيل تاريخ دمشق ٣١٨ بتصرف في اللفظ ، الروضتين ج١ ص ٨٦ بتصرف ، السيرة النورية ١٤١ .

(٢) بالعربية : طرطوس Tartus (وقديماً أنطرسوس) . بالفرنجيه تورتوزا Tortosa ، تورتوس Tortouse الخ ... : ميناء بحري من العصور الوسطى ، ومحطة للحجيج يشغل موقع المستوطنة الكبيرة القديمة على الساحل السوري ، كان للمدينة الصغيرة سور يحيط بها تحرسه أسوار مع قليعة قوية في الزاوية الشمالية الغربية . وثمة خنادق وأسوار خارجية تحيط بالسور الداخلي مقواة بأبراج مستطيلة ... وإلى جوار اليحرمباشرة ينتصف برج محصن قوي ماتزال الآثار من أساساته موجودة ... . انظر القلاع أيام الحروب الصليبية ص ٦١ .

(٣) في الروضتين أورد البيت الثاني قبل البيت الأول .

(٤) في الروضتين ١ : ٨٦ (أنطرطوسي) .

(٥) في الروضتين ج ١ : ٨٦ (مؤيداً) .

وفي هذه السنة (١) : ولد لنور الدين بحمص ابن سمّاه : أحمد وهنأه به ابن منير [في بعض قصائده (٢) . ثم توفي بدمشق ، وقبره بدمشق عند (قبر معاوية بباب الصغير) (٣)] (٤) .

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين (٥) :

ففيها (٦) : أخذت الفرنج — خذلهم الله — مدينة عسقلان (٧) وبقيت في أيديهم إلى سنة ثلاث وثمانين .

وكان مجير الدين صاحب دمشق (٨) . قد توجه إلى نور الدين في جمهور عسكره ، للتعاضد على الجهاد ، واجتمع معه في ناحية الشمال ، وقد ملك نور الدين الحصن المعروف بافليش (٩) وهو في غاية المنعة والحصانة ، وقتل من كان فيه من الفرنج والأرمن ، وحصل للعسكر من المال والسبي الشيء الكثير . ونهضوا طالبين ثغر بانياس (١٠) ،

---

(١) انظر الروضتين ج ١ ص ٨٨ بتصرف .

(٢) انظر القصيدة في الروضتين ج ١ ص ٨٨ — ٨٩ .

(٣) ما بين (القوسين) مكررة في هامش الأصل (١٢ / و) .

(٤) ما بين [ ] القوسين لم يرد في نسخة المغرب .

(٥) في هامش الأصل (١٢ / و) : (ذكر أخذ الفرنج مدينة عسقلان) .

(٦) انظر : ذيل تاريخ دمشق ٣٢١ — ٣٢٢ ، الكامل ج ١١ : ١٨٨ — ١٨٩ ، الروضتين ج ١ : ٨٩ — ٩٠ ابن شهبة : الكواكب الدرية ١٤٤ ، الأخبار السنية ١٠٤ — ١٠٥ .

(٧) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٢١ .

(٨) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٦ ص ٢٢٢ .

(٩) لم أعثر على تعريف له . والمرجح أنه يقع بين حماة وبانياس على الساحل السوري .

(١٠) بانياس مدينة تقع حالياً على الساحل السوري . انظر الأطلس .

ونزلوا عليه في آخر صفر وقد خلا من حماته ، وتسهلت أسباب ملكته ، وقد تواصلت استغاثة أهل عسقلان ، واستنصارهم بنور الدين ، فقضى الله تعالى بالخلف بينهم وتفرقوا ، وعاد مجير الدين إلى دمشق ، ونور الدين إلى حمص ، وطلب أهل / عسقلان من الفرنج الأمان ، فأجيبوا ، [١٢/و] وخرج من أمكنة الخروج في البر والبحر إلى ناحية مصر .

[وفاة الفقيه برهان الدين علي البلخي الحنفي رحمه الله] : (١)

وفي هذه السنة (٢) توفي الفقيه الإمام برهان الدين أبو الحسن علي البلخي رئيس الحنفية ، ودفن في مقابر باب الصغير المجاورة لقبور الشهداء ، وكان إمام وقته في الفقه على مذهبه مع ماهو مشهور به من الورع والدين والعفاف وحفظ ناموس العلم والتواضع والتودد إلى الناس . رحمه الله تعالى .

وفيها (٣) توفي أيضاً : شاعر الشام في وقتهما أبو عبدالله محمد بن نصر بن صغير الخالدي ، ابن القيسراني (٤) وأبو الحسين ، أحمد ابن منير الأطرابلسي (٥) ، وقد تقدم من شعرهما في نور الدين مافيه كفاية .

---

(١) ما بين القوسين [ ] وردت في هامش الأصل (١٣ / ظ) .

(٢) انظر الخبر في : تاريخ دمشق ٣٢٢ ، الروضتين ج ١ ص ٩١ .

(٣) في هامش الأصل (١٣ / ظ) : (مطلب وفاة شاعري الشام في وقتهما محمد الخالدي وابن منير) .

(٤) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٣ ص (٢٠٠) .

(٥) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ١ ص (٢٠٠) .

ثم دخلت سنة تسع وأربعين (١) :

ففيها : (٢) ملك نور الدين دمشق ، وأخذها مـن صاحبها مجير الدين أبق بن محمد ، وكان للفرنج قطيعة على أهل دمشق يجيء رسولهم ويجبيها من أهل البلد في كل سنة ، وزالت هيبة مجير الدين ، وطمع فيه العـامة ، وحصروه بالقلعة مـع رئيس البلد المؤيد بن الصوفي(٣) ، فلما كانت الأمور هكذا ، خاف أهلها وأشفقوا من العدو ، وخاف نور الدين ، إن حاصرها أن يستعين أهلها بالفرنج على عادتهم ، فأعمل الحيلة ، وراسل أهل البلد ، فسلموه إليه من الباب الشرقي ، فدخله بالأمان في عاشر صفر ، وحصر مجير الدين في القلعة ، وراسله ، وبذل له الإقطاع الكثير من جملته مدينة حمص فأجاب إلى تسليم القلعة وسار إلى حمص ، ثم أحضر نور الدين عند ذلك اليوم أماثل الرعية من القضاة والفقهاء والتجار (وخوطبوا)(٤) بما زاد في إيناسهم ، وحسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم ، فأكثروا الدعاء له ، (وتلا ذلك) (٥) إبطال حقوق دار البطيخ (٦)

---

(١) في هامش الأصل (١٣ / ظ) : (في هذه السنة ملك نورالدين دمشق وهي سنة ٥٤٩) .

(٢) انظر : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٧ ، الكامل ج ١١ ص ١٩٧ — ١٩٨ ، الباهر ص ١٠٦ — ١٠٨ ، الروضتين ج ١ ص ٩٤ — ٩٩ ، تاريخ حلب ج٢ ص ٦٦٧ — ٦٦٩ ،الكواكب الدرية ص ١٤٤ — ١٤٦ ،الأخبار السنية ١٠٥-١٠٦ .

(٣) في ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٩ (مؤيد الدين بن الصوفي) ت (٥٤٩ هـ) .

(٤) في الأصل (١٣ / ظ) مشوهة والاضافة عن نسخة المغرب .

(٥) في الأصل (١٣ / ظ) بياض والاضافة عن نسخة المغرب .

(٦) دار البطيخ تقع حالياً ما بين السوق الطويل أو مدحة باشا وإلى الشمال من حارة اليهود وفيه مسجد يعرف بمسجد الإجابة . انظر موقعها سابقاً في مخطط دمشق رقم ١ في تاريخ دمشق لابن عساكر وص ٦٢ ، تهذيب تاريخ دمشق ج ١ ص ٢١٩ .

وسوق البقل وضمان الأنهار وكتب بذلك (منشوراً) (١) قرىء على المنبر بعد صلاة الجمعة، واستبشر الناس بصلاح الحالة وصار جميع مابالشام من البلاد الإسلامية بيد نور الدين، ولما ملك دمشق، خافه الفرنج كافة وعلموا أنه لايقعد عن حربهم وغزو بلادهم والمبادرة إلى قتالهم، فراسله كل كند وقمص وتقربوا إليه، ثم إن من بتل باشر راسلوه وبذلوا له تسليمها إليه، فتسلمها نائبه وحصّنها ورفع إليها ذخائر كثيرة.

وأما مجير الدين فإنه أقام بحمص، ثم راسل أهل دمشق في إثارة الفتنـــة، فأنهى الأمر إلى نور الدين، فخاف أن يحدث مايشق تلافيه — بل ربما تعذّر — لاسيما مع مجاورة الفرنج، فأخذ حمص من مجير الدين، وعوضه عنها مدينة بالس (٢)، فلم تطب لـــه / [١٣/ظ] ولم يرضها، وسار عن الشام إلى العراق، فأقام ببغداد، وابتنى داراً تجاور المدرسة النظامية، وتوفي بها.

وفي هذه السنة (٣) توفي بدمشق رئيسها المؤيد بن الصوفي، وبمكة أميرها هاشم بن فليتة، وولي مكانه ولده قاسم بن هاشم، وقتل بمصر المستخلف بها الظافر ابن الحافظ (٤) وولي ابنه الملقب بالفائز وهو صغير.

---

(١) في الأصل (١٣ / ظ) غير واضحة والإضافة عن نسخة المغرب.

(٢) بالس (في ياقوت): بلدة بالشام بين حلب والرقة.

(٣) انظر: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٩، الكامل ج ١١ ص ١٩١ — ١٩٢، الروضتين ج ١ ص ٩٧ — ٩٩، ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية ١٤٦.

(٤) هو: الظافر بالله أبو منصور اسماعيل بن الحافظ لدين الله عبدالمجيد بن محمد بن المستنصر العبيدي قتل سنة ٥٤٩. انظر: الشذرات ج ٤ ص ١٥٢، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٣١ — ٢٣٢.

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة :

ففيها :(١) تسلم نور الدين بعلبك (٢) .

وفيها : ولي أسطول مصر مقدم شديد البأس (٣) ، بصير بأشغال البحر فاختار جماعة من رجال البحر ، يتكلمون بلسان الفرنج ، وألبسهم ثيابهم ، ونهض بهم في عدة من المراكب (الأسطولية)(٤) ، وأقلع في البحر لكشف الأماكن والمكامن ، والمسالك المعروفة بمراكب مكامن الروم ، وتعرف أحوالها ، ثم قصد ميناء صور ، وقد ذكر له أن فيه شختورة رومية كبيرة ، فيها رجال كثر ، ومال وافر ، فهجم عليها وملكها ، وقتل من فيها ، واستولى على ماحوته ، وأقام ثلاثة أيام ، ثم أحرقها ، وعاد عنها في البحر ، فظفر بمراكب حجاج الفرنج فقتل،وأسر ، وانتهب ، وعاد إلى مصر بالغنائم والأسرى ، وذلك في وزارة الصالح طلائع بن رزيك بها (٥) .

(١) انظر الخبر مطولا في:ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٠ ، الكامل ج١١ ص٢٢٧-٢٢٨ بخلاف حيث ذكرها في أحداث عام ٥٥٢ هـ ، وذكر أنها كانت بيد إنسان يقال له: ضحاك البقاعي ، منسوب إلى البقاع بعلبك ، وكان قد ولاه إياها صاحب دمشق ،(أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٩٩ ، ابن شهبة : الكواكب الدرية ص ١٤٧) .

(٢) انظر تعريفها في حاشيتنا ١ ص ٢٢٢ .

(٣) في حاشية كتاب ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣٣٢ ذكر : أن قائد الاسطول كان: (قرا أرسلان بن شكمان بن داود أرتق) وهذا هو : اسم الوزير المتسلط في مصر الذي استعان بنور الدين ووفد عليه ...) . أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٠٠ .

(٤) ما بين قوسين في الأصل (١٤ / و) (الاصطولية) وهو تصحيف وما ثبتناه هو الصحيح .

(٥) هو الملك الصالح أبو الغارات فارس الدين طلائع بن رزيك ، وزير الخليفة العاضد أبو القاسم عيسى بن إسماعيل الظافر الفاطمي بمصر،قتل عام ٥٥٦هـ / ١١٦١م . انظر : الكامل ج ١١ ص ٢٧٤ – ٢٧٦ ، الروضتين ج ١ ص ٩٧ – ١١٥ و ١٣٠ – ١٦٥ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٤٢ – ٢٤٤ ، الخطط ج٢ ص ٢٩٣ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ١٧٧ .

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين :

ففيها :(١) حاصر نور الدين قلعة حارم،وهي غربي حلب بالقرب من أنطاكية وضيق على أهلها ، فاجتمعت الفرنج من قرب منها : ومن بعد وساروا لمنعه ، وراسلوا نور الدين في الصلح على أن يعطوه حصته من أعمال حارم ، فأبى أن يجيبهم إلاّ على مناصفة الولاية ، فأجابوه إلى ذلك ، فصالحهم ثم عاد . هذا قول ابن الأثير .

وقال أبو يعلى : توجه نور الدين في بعض عسكره إلى ناحية حلب في الرابع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنج إليه بعيثهم في أعمال حلب وإفسادهم ، وصادفه في طريقه المبشر **بظفر** عسكره الحلبي بالفرنج المفسدين على حارم ، وقتل جماعة منهم ، وأسرهم ووصل مع المبشر عدة وافرة من رؤوس الفرنج المذكورين وطيف بها في دمشق ، وعاد نور الدين إلى دمشق في رمضان سالماً بعد تهذيب حلب وأعمالها وتفقد أحوالها ، وفي شوال تقررت الهدنة بينه وبين ملك الإفرنج مدة سنة كاملة ، أولها شعبان . فغدر الفرنج في العشر الأخير من ذي الحجة لقوة شوكتهم، بوصول عدة وافرةمن الفرنج في البحر فنهضوا / إلى ناحية الشعراء (٢) [١٣/و]

---

(١) انظر ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٣ — ٣٣٩ ، الكامل ج ١١ ص ٢٠٨ ، الباهر ص ١٠٩ ،وانظر الخبر مطولا في الروضتين ج ١ ص ١٠٠ — ١٠٣ ، تاريخ حلب ج ٢ ص ٦٧٠ — ٦٧١ ، الأخبار السنية ص ١٠٩ .

(٢) الشعراء : (في لسان العرب) الشعراء أو الشعران: على وزن فعلان من الشعر ، كأنه سمي بذلك على التشبيه بشعر الرأس لكثرة نباته . وكما في الأصل (١٣ / و) الشعراء المجاورة لبانياس .

المجاورة لبانياس ، وقد اجتمع فيها من جشارات (١) خيول العسكر والرعية وعوامل فلاحي الضياع ومواشي الجلابين والعرب والفلاحين شيء كثير للرعي بها سكون إلى الهدنة المستقرة ، فاستاقوا جميع ماوجدوه وأفقروا أهله منه مع من أسروه من تركمان وغيرهم .

وفي هذه السنة (٢) توفي الشيخ الزاهد أبو البيان ، نبـا ابن [الشيخ](٣) محمد ، المعروف بابن الحوراني ، وكان حسن الطريقة ، منذ نشأ متديناً ، تقياً عفيفاً سخياً محباً للعلم ، والأدب والمطالعة للغة ، ودفن بمقبرة باب الصغير ، وكان له يوم مشهود من كثرة المتأسفين عليه .

وفيها أيضاً : (٤) توفي القاضي أبوالفتح محمود بن إسماعيل بن قادوش ، كاتب الإنشاء للمصريين ، وأصله من دمياط ، وهو أحد من اشتغل عليه القاضي الفاضل ، وكان يعظمه ويسميه ذا البلاغتين . وكان لايتمكن من اقتباس فرائده وفوائده غالباً ، إلا في ركوبه من القصر إلى منزله ، ومن منزله إلى القصر ، فيسايره الفاضل ، ويجاريه في فنون الكتابة والشعر .

---

(١) جشارات : (في لسان العرب) ، وجشروا الخيل : أرسلوها في الجشر. والجشر : أن يخرجوا بخيلهم فيرعوها أمام بيوتهم وأصبحوا قشراً وجشراً إذا كانوا يبيتون مكانهم لا يرجعون الى أهليهم ، والجشار : صاحب الجشر وقوم جشر وجشر : عزب في إبلهم ... .

(٢) انظر : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٣ ، الروضتين ج ١٠٣ .

(٣) ما بين قوسين إضافة عن نسخة المغرب .

(٤) انظر الخبر مطولا في : ذيل تاريخ دمشق ٣٣٤ – ٣٣٥ ، الروضتين ج ١ ١٠٣ .

وفي هذه السنة (١) فتحت الديار المصرية : سار إليها أسد الدين مرة ثالثة ، فهزم العدو ،وقتل شاوراً وولي مكانه ، ثم مات فوليها صلاح الدين؛ وسبب ذلك أن الفرنج كانوا في النوبتين الأوليين اللتين استعان بهم شاور فيهما (٢) / على أسد الدين ، قد خبروا الديار [٢٥/و] المصرية واطّلعوا على عوراتها ، فطمعوا فيهـا ، ونقضوا ما كان استقر بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد ، فجمعوا وأظهروا أنهم على قصد حمص ، وتوجهوا من عسقلان (٣) في النصف من المحرم ، ووصلوا أول يوم من صفر إلى بلبيس (٤) فملكوها قهراً ، ونهبوها وسبوا أهلها ، وأقاموا بها خمسة أيام ، ثم أقاموا على القاهرة وحصروها عاشر صفر فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبيس ،فحفظوا البلد ، وقاتلوا دونه(٥) ، وأحرق شاور مصر خوفاً عليها من الفرنج ، وأخذ في مراسلة الفرنج في الصلح ، وجمع لهم مالاً ، فأرسل العاضد (٦) خليفة مصر إلى

---

(١) انظر : الكامل ١١ : ٣٣٥ — ٣٤١ ، الباهر ١٣٧ — ١٤٠ ، الروضتين ١ : ١٥٤ — ١٧٤ ، سنا البرق ٧٤ — ٨٠ ، السلوك ج١ ق١ : ٤٣ — ٤٩ ، تاريخ حلب ٢ : ٦٩٠ — ٦٩٤ ، الأخبار السنية ١٣١ — ١٣٧ .

(٢) في حاشية الأصل ٢٥ / و عبارة : (أخذ مصر من الفرنج) .

(٣) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم (٣) ص ٢٢١ .

(٤) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم (٢) ص ٢٦٧ .

(٥) في حاشية الأصل ٢٥ / ظ العبارة : (في إحراق مصر) .

(٦) هو العاضد لدين الله ،أبو محمد الإمام عبدالله بن يوسف ابن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبدالمجيد بن أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد ابن الظاهر لاعزاز دين الله أبي الحسن بن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور بن العزيز بالله أبي منصور بن نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد بن المنصور بالله أبي الظاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد ابن المهدي بالله أبي محمد عبيدالله،وهو أول العلويين من هذا البيت الذين خطب لهم بالخلافة ، وخوطبوا بإمرة المؤمنين . توفي العاضد سنة ٥٦٧ هـ يوم عاشوراء من هذه السنة .

انظر الكامل ج ١١ — ٣٦٨ ، البداية والنهاية ج ١٢ : ٢٦٤ — ٢٦٨ ، شذرات الذهب ج ٤ : ٢١٩ — ٢٢٠ ، الروضتين ١ : ١٩٩ ، والأصل ٢٥ / ظ .

نور الدين يستغيث به . وبذل له ثلث ديار مصر ويكون أسد الدين شيركوه مقيماً عنده في عسكر وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثُلث الذي لنور الدين . فجهز نور الدين مع أسد الدين العسكر ، ورحلوا على قصد مصر ، مستنزلين من الله تعالى النصر ، وذلك منتصف ربيع الأول . وخيّم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء (١) ، وأقام ينتظر ورود المبشرات ، فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القـــاهرة عائدين إلى بلادهم لمّا سمعوا بوصول عسكر نور الدين ، ووصل أسد الدين إلى القاهرة سابع ربيع الآخر (٢) ، واجتمع بالعاضد خليفة مصر ، فخلع عليه وأكرمه ، وأُجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة ، ثم شرع شاور يماطل أسد الدين في تقرير ماكان بُذل له من المال والإقطاع للعساكر وإفراد ثلث البلاد لنور الدين ، فاتّفق صلاح الدين وعز الدين جُرديك النوري وغيرهما من الأمراء على قبض شاور فبغتوه في موكبه وقبض عليه وأُكفي عن فرسه وسجن في خيمة ،

---

(١) يذكر البنداري في سنا البرق ص ١٧٧ (أن نورالدين خيم فيمن معه برأس الماء نازلا بمنزلة الفقيع) .

ورأس الماء بين بلدة جاسم وبلدة نوى الى الشمال الشرقي من تل يطلق عليه اسم (تل الهش)، ويخرج من هذا النبع وادٍ يطلق عليه اسم الفقيع يمر بقرية تحمل هذا الاسم وتقع الى يمين طريق دمشق درعا وتبعد ٧٠ كم عن دمشق ، (زيارة ميدانية) .

(٢) في سنا البرق ٧٧ (سابع عشر ربيع الآخر) وفي الكامل ١١ : ٣٣٩ كان وصوله إلى القاهرة (سابع جمادى الآخر) وفي الباهر ١٣٩ (وصل إلى القاهرة سابع ربيع الآخر ودخلها) ، وفي النوادر السلطانية ٢٦ - ٢٧ (وكان وصولهم إلى مصر في أثناء ربيع الأول) وفي الروضتين ١ : ١٥٦ (وصل أسد الدين القاهرة سابع ربيع الآخر ...) فما جاء في الكامل تصحيف لأن ابن الأثير يذكر التاريخ الصحيح (في الباهر) لوصول أسدالدين ، أما العماد : فربما اختلط عليه الامر بين تاريخ مقتل شاور وبين دخول أسدالدين إلى القاهرة .

فأرسل العاضد في الوقت إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور ، فقتل سابع عشر ربيع الآخر ، وحُمل رأسه إلى القصر ، فأنفذ إلى أسدالدين خلعة الوزارة ، فلبسها وسار ودخل القصر وترتب وزيراً ، وتلقب بالملك المنصور أمير الجيوش فأقام في الوزارة شهرين وخمسة أيام ثم توفي فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من شهر جمادى الآخرة ، وفوّض الأمر بعده إلى ابن أخيه / صلاح الدين . [٢٥/ظ]

(١) قال القاضي ابن شداد: فاستتبت الأحوال على أحسن نظام، وبذل المال ، وملك الرجال وهانت عنده الدنيا ، فملكها وشكر نعمة الله عليه ، فتاب عن الخمر ،وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجدّ والاجتهاد، وما عاد عنه ولا ازداد إلاّ جداً إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته . ولقد سمعت منه رحمه الله يقول (١) : لمّا يسّر الله تعالى بالديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل، لأنه أوقع ذلك في نفسي . قال : ومن حين استتب له الأمر ما زال يشن الغارات على الفرنج إلى الكرك (٢)

---

(١) في حاشية الأصل ٢٦ / والعبارة (وصف السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب مديحاً) .

(١) انظر : النوادر السلطانية ٢٦ – ٢٧ ، الروضتين ١ : ١٦٠ – ١٦١ .

(٢) بالعربية : الكرك ، باليونانية : كراكموبا **charachmoba** ، بالفرنجية – اللاتينية : كراك دومونتريال **de Montréal Le Crac** أوبيترا ديزرتي **Petra deserti** ، سيفيتاس بيتراسنسيس **Civitas Petracensis**

الوصف : مدينة وقلعة في جنوبي الأردن على بعد عشرة أميال تقريباً إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت تقع فوق أنف جبل صخري تنحدر سفوحه من الجانبين بشدة حتى وادي الكرك الذي ينشعب الى وادي الست ووادي الفرنجة أسفل المدينة الحصينة تماماً، وإلى الجنوب من المدينة مباشرة تنتصب القلعة ذاتها وتحميها من الهجوم من الاتجاه الوحيد الصالح من جهة الأرض المرتفعة المجاورة ...) . انظر تعريفها مفصلا في القلاع أيام الحروب الصليبية ص ٥٥ .

والشوبك (١) وبلادهما وغشى الناس من سحائب الأفضال والنعم مالم يؤرخ من غير تلك الأيام ، هذا كله وهو وزير تابع للقوم . وهم على تلك البدعة (٢) المعروفة منهم لكنه ناشر لمذهب أهـــل السنة ، غارس في البلاد أهل العلم والفقه والتصوف. والدين والناس يهرعون إليه من كلّ صوب ، ويفدون إليه من كل جانب ، وهو، رحمه الله ، لايخيّب قاصداً .

والحافظ أبي القاسم بن عساكر مؤرخ دمشق وحافظها من قصيدة يهنىء بها نور الدين ، رحمه الله ، باستيلاء عسكره على مصر ، وكان قد أعفى أهل دمشق من المطالبة والخشب (٣) :

لما سمحتَ لأهلِ الشّام بالخشـــبِ

عوّضتَ مصر بما فيها من النّشَبِ

---

(١) الشوبك : بالفرنجية Montreal مونتريال : بلد صغير كثير البساتين ، معظم ساكنيه من النصارى ، وهو شرقي الغور على طرف الشام من جهة الحجاز ، وينبع من ذيل قلعتها عينان إحداهما عن يمين القلعة والأخرى عن يسارها ، كالعين للوجه وتخترقان بلدتها ومنهما تشرب بساتينها . وهي في وادٍ من غربي البلد وفواكهها من المشمش وغيره مفضلة وتنقل الى ديار مصر ، وقلعتها مبنية بالحجر الأبيض وهي على تل مرتفع أبيض مطل على الغور من شرقيه) . انظر (تقويم البلدان لأبي الفداء ص ٢٢٥)، (القلاع أيام الحروب الصليبية ٢٤) .

(٢) قصد : تشيعهم للفاطميين .

(٣) انظر القصيدة في الخريدة ج ١ : ٢٧٦ — ٢٧٧ ، الروضتين ١ : ١٥٩ — ١٦٠ .

ومنها :

فأحزَمُ الناس مَنْ قوّى عزيمته
حتى ينالَ بها العالي من الرتبِ

فالجِدُّ والجَدُّ مقرونان في قَرنٍ
والحزم في العزم والإدْراكُ بالطلبِ

قال ابن الأثير : (١) وثبت قـدم صلاح الدين ، ورسخ ملكه ، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين ، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ، ولا يتصرفون إلا عن أمره .

وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين في تلك الحـال بالأمير الأسَفَهْسَلاّر (٢) ، ويكتب علامته في الكتب تعظيماً أن يكتب اسمه ، ولا يفرده بكتاب ، بل يكتب الأمير الاسفسهلاّر صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية / يفعلون كذا وكذا . قال : واستمال [٢٦/ و] صلاح الدين قلوب الناس وبذل لهم الأموال ، ممّا كان أسد الدين قد جمعَهُ ، وطلب من العاضد شيئاً يخرجه فلم يمكنه منعه ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه ، وضعف أمر العاضد ، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه ، وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يسيِّر إليه إخوته فقال : أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فيفسد البلاد . ثم إن الفرنج اجتمعوا

---

(١) انظر : الباهر ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) الاسفهسلار : هو زمام كل زمام وإليه أمور الأجناد . انظر الخطط المقريزية ١ : ٤٠٣ .

ليسيروا إلى مصر . فسيّر نور الدين - رحمه الله - العساكر وفيهم إخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب (١) ، وهو أكبر من صلاح الدين ، فلمّا أراد أن يسير قال له : إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تَسِرْ ، فإنّكَ تفسد البلاد وأُحضِركَ حينئذ وأعاقبكَ بما تستحقه ، وإنْ كنتَ تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني فسِر إليه واشدد أزره ، وساعدهُ على ماهو بصدده فقال : أفعلُ معه من الخدمة والطاعة مايصل إليك إن شاء الله تعالى . فكان كما قال .

وقال العماد : (٢) وشرع صلاح الدين في نقض إقطاع المصريّين فقطع منهم الدابر من أجل منْ معه من العساكر ، وكان بالقصر خصي يُدعَى مؤتمن الخلافة (٣) متحكّم في القصر فاجتمع هو ومن معه على أن يكاتبوا الفرنج ويقبضوا على الأسدية والصلاحية ففعلوا ، وعلم صلاح الدين فتربّص بالمؤتمن خروجه من القصر ، وكان له بقرب قليوب(٤) قصر فخلا فيه يوماً للذته فأنهض إليه صلاح الدين

---

(١) هو : فخرالدين تورانشاه بن أيوب بن شاذي شقيق صلاح الدين وفاتح اليمن (ت ٥٧٦ هـ) بالاسكندرية . انظر : الروضتين ١ : ٢١٦ ، سنا البرق ١٤٠ ، الخطط المقريزية ٢ : ٣٧ — ٣٨ : البداية والنهاية ج١٢ ص ٣٠٦ .

(٢) انظر الخبر في : سنا البرق ٨١ — ٨٤ ، الروضتين ١ : ١٦١ — ١٦٢ ، الأخبار السنية ١٤٠ — ١٤٢ .

(٣) هو : مؤتمن الخلافة جوهر أحد الأستاذين المحنكين بالقصر . انظر الخطط المقريزية : ج ٢ ص ٢ .

(٤) كانت له منظرة بناها بناحية الخرقانية في بستان . الخطط المقريزية : ج٢ ص ٣ .

من أخـــذ رأسه ، ولمّا قتل غـــار السودان وثاروا وكانوا أكثر من خمسين ألفاً ، وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه فحسبوا أنّ كل بيضاء شحمة ، فثار إليهم أصحاب صلاح الدين واتصلت الحرب بين القصرين يومين فهُزم السودان وأُخرجوا إلى الجيزة (١) وأُخربت محلة لهم كانت على باب زويلة (٢) ولم يجدوا إلى الخلاص سبيلاً وأينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً .

/ ومما نظمه العماد الكاتب قصيدة حسنة في مرثية أسد الدين [٢٦/ظ] وولاية صلاح الدين منها (٣) :

أيا يوسف الإحسان والحسن خير من
حوى الفضل والإفضال والنّهيَ والأمرا

أبـــوه أبى إلا العلاء (٤) وعمُّـــه
بمعروفه عمّ الورى البدو والحضرا

ولمّـــا رأى الدنيـــا بعين ملالـــة
أغذّ من الأولى المسير (٥) إلى الأخرى

---

(١) الجيزة : قرية كبيرة جميلة البنيان على النيل من جانبه الغربي تجاه مدينة الفسطاط بمصر . انظر الخطط المقريزية :ج١ ص ٢٠٥ .

(٢) لما نزل القائد جوهر بالقاهرة اختطت كل قبيلة خطة عرفت بها ، فزويلة بنت الحارة المعروفة بها والبئر التي تعرف ببئر زويلة في المكان الذي يعمل فيه الآن – أي زمن المقريزي – الروايا والبابان المعروفان ببابي زويلة . انظر الخطط المقريزية: ج٢ ص ٤ .

(٣) انظر القصيدة في : الروضتين ١ : ١٧٩ .

(٤) في الروضتين (المعالي) .

(٥) في الروضتين (مسيرا) .

وقــام صلاح الدين بالملك كـافلا
وكيف ترى شمس الضحى يخلف البدرا

ولمّا صبت مصر إلى عصر يوســف
أعاد إليها اللّــه يوسف والعصــرا

وأجرى (١) بها من راحتيــه بجــوده
بحاراً فسمّاها الورى أنمــلاً عشرا

فلا تهملوا (٢) البيت المقدس واعزموا
على فتحه غازين وافترعوا البكرا

يديمون بالمعــروف طيب ذكركــم
وما المُلْكُ إلاّ أن تديموا لكُم ذكرا

ثم دخلت سنة خمس وستين (٣) :

ففي أولها :(٤) خرج نور الدين إلى داريا ، فأعاد عمارة جامعها ، وعمر مشهد أبي سليمان الداراني . رحمه الله .

وفي أول صفر نزل الفرنج خذلهم الله على دمياط .

قال ابن الأثير : كان فرنج الساحل لمّا ملك أسد الدين مصر قد

---

(١) في الروضتين (فأجرى) .
(٢) في الروضتين (ولا) .
(٣) في حاشية الأصل : « عمر مشهد أبي سليمان الداراني نورالدين الشهيد » .
(٤) الكامل ج ١١ / ٣٥١ - ٣٥٢ ، الباهر ١٤٣ - ١٤٤ ، النوادر السلطانية : ٢٧ ، الروضتين ١ / ١٨٠ - ١٨١ ، سنا البرق : ٨٦ - ٨٨ ، الأخبار السنية : ١٤٢ - ١٤٤ .

خافوا ، فكاتبوا فرنج الأندلس وصقلية يستمدونهم ويعرفونهم ماتجدد من ملك مصر وأنهم خائفون على البيت المقدس من المسلمين ، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح ، واتّعدوا على النزول على دمياط (١) ظناً منهم أنهم يملكونها ، ويتخذونها ظهراً . يملكون به ديار مصر ، فحصروها وضيقوا ، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ماهو فيه من المخاوف ، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج ، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء وخرجوا من طاعته ، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه ، فجهز نورالدين / إليه العساكر إرسالاً كلّما [٢٧/ و] تجهزت طائفة أرسلها ، فساروا إليه يتلو بعضها بعضاً ، ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر ، فدخل بلاد الفرنج فنهبها ، فلمّا رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر بدخول نور الدين بلادهم ونَهْبِها وإخرابها رجعوا خائبين ، وكان مدّة مقامهم على دمياط خمسين يوماً .

قال القاضي ابن شداد : لمّا نزل الفرنج على دمياط سرق فرنج الشام حصن عكار (٢) من المسلمين وأسروا صاحبهُ (٣) ولما رأى

---

(١) دمياط : مدينة قديمة بين تنيس ومصر ، على زاوية بحر الروم الملح (الأبيض المتوسط) والنيل ، وهي ثغر من ثغور الإسلام .

(٢) حصن عكار : قلعة صغيرة خربة الآن تقع في شمالي لبنان ، على بعد نحو ٢٥ ميلا الى الشمال الشرقي من طرابلس ، تربض فوق جرف جبلي على السفوح الشمالية لجبل عكار (القلاع أيام الحروب الصليبية ص : ٦٠) .

(٣) واسمه خطلخ العلمدار ، وذلك في ربيع الآخر من هذه السنة ، وكان مملوكاً لنورالدين (النوادر السلطانية : ٢٧ ، الروضتين ١ /١٨٠) .

نور الدين ظهور الفرنج ، قصد شغل قلوبهم ، فنزل على الكرك محاصراً لها ، فقصده فرنج الساحل فرحل عنها ، وقصد لقاءهم فلم يقفوا له ، ثم بلغه وفاة نائبه مجد الدين ابن الداية بحلب والزلزلة التي أخربت كثيراً من البلاد ووفاة أخيه قطب الدين بالموصل .

قال العماد : لما وصل خبر نزول الفرنج على دمياط اهتمّ واغتمّ ، وأنهض عسكراً ثقيلاً مقدمه الأمير قطب الدين خُضر والهذياني ، فوصل قبل رحيل الفرنج بأسبوع .

قال المؤلف (١) : وبلغني من شدة اهتمام نور الدين ، رحمه الله ، بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرىء بين يديه جزء حديث له كان له به رواية ، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسُّم ، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتبسم ليتم السلسلة على ماعُرف من عادة أهل الحديث فغضب من ذلك ، وقال : إني لأستحيي من الله تعالى أن يراني مُبتسماً والمسلمون محاصَرون بالفرنج . وبلغني أيضاً (٢) : أن إماماً لنور الدين ، رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي صلّى الله عليه وسلم ، فقال له : أعلمْ نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة ، فقال : يارسول الله ربما لايصدقني ، فاذكر لي علامة يعرفها ، فقال : قل له بعلامة ماسجدت على تل حارم ، وقلت ياوب انصر

---

(١) في حاشية الأصل ٢٧ / ظ العبارة : (في اهتمام السلطان نورالدين بأمر المسلمين سراً وجهراً) .

(٢) في حاشية الأصل ٢٧ / ظ العبارة : (في صلاح الايمان لنورالدين الشهيد (غير واضحة) برحيل الافرنج (غير مفهومة) الرؤيا (مشوهة)) .

دينك ولا تنصر محموداً . من هو محمود الكلب حتى يُنصر ؟
قال : فانتبهت ، ونزلت إلى المسجد وكان من عادة نور الدين أنه
ينزل إليه بغلس (١) ولا يزال يتركع فيه حتى يصلي الصبح قال :
فتعرضت له فسألني عن أمري فأخبرته بالمنام ، وذكرت له / العلامة [٢٧/ظ]
إلاّ أنني لم أذكر لفظة الكلب . فقال نور الدين، رحمه الله : أذكر
العلامة كلها ، وألحَّ عليّ في ذلك فقلتها فبكى رحمه الله وصدّق
الرؤيا ، فأرَّخْتُ تلكَ الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج فيها .

* * *

فصل :

وفي هذه السنة (٢)، سار نجم الدين أيوب والد صلاح الدين إلى
مصر بباقي أولاده وأهله ، واجتمع معهم من التجار، وممّن كان له
مع صلاح الدين أنس ومودّة ، خلقٌ ، فخاف نور الدين عليهم
من قصد الفرنج لهم فشيعهم ، ثم توجه إلى الكرك فحاصرها ،
فوصل الخبر أن الفرنج تجمّعوا في مائتي فارس وألف تركبلي(٣)
وخلق كثير من الرجالة فرحل نحوهم نور الدين ، فرجعوا فتوسط

---

(١) الغلس: ظلام آخر الليل، وأول الصبح حتى ينتشر في الآفاق . انظر لسان العرب .

(٢) انظر : الكامل ١١ : ٣٥٢ - ٣٥٣ ، الباهر ١٤٤ ، النوادر السلطانية ٢٨ ، الروضتين ١ : ١٨٣ - ١٨٤ ، سنا البرق ٨٩ ، تاريخ حلب ٢ : ٦٩٣ - ٦٩٤ ، الأخبار السنية ١٤٤ - ١٤٥ .

(٣) تركبلي : تعريب **Turcopoll** : هم جند في خدمة الفرنج ، آباؤهم أتراك أوعرب وأمهاتهم يونان : انظر الحاشية رقم ٤ ص ١٤٤ في الباهر .

بلادهم ، ونهب ماكان على طريقه ، ونزل بِعَشْتَرا (١) وأقام ينتظر حركة الفرنج ، ليلقاهم فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه .

وأمّا نجم الدين أيوب فإنّه فرق موجوده قبل رحيله من دمشق ، ووصل إلى مصر في (السابع والعشرين) (٢) من رجب ، وخرج العاضد بنفسه لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح (٣) عند شجرة الاهليلج (٤) ، ولم تجر بذلك عادة لهم ، وكان من أعجب يوم شهده الناس ، وخلع العاضد عليه ولقبه الملك الأفضل ، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا ، وأظهر السلطان من برّه وتعظيم أمره ، ماأحرز

---

(١) عشترا : (في ياقوت) : بفتح أوله وسكون ثانيه ، وفتح التاء المثناة من فوق ثم الراء، والقصر : موضع بحوران من أعمال دمشق . نقول : تقع على الطريق الذاهب من مدينة نوى في حوران باتجاه بحيرة المزيريب والى الجنوب من قرية الشيخ سعد وتبعد عن نوى باتجاه الجنوب بحوالي ٧ كم ويمر من شمالها خط التابلين وهي هضبة الآن تدل على وجود بناء سابق في المنطقة وفيها نبع غزير جار تكثر فيها زراعة الخضروات والأشجار المثمرة . (زيارة ميدانية) .

(٢) في الأصل (٢٨ / و) (الرابع والعشرين من رجب) وهو تصحيف وقد ثبتنا ما هو صحيح عن الروضتين ١ : ١٨٣ ، سنا البرق ٨٩ ، وفي النوادر السلطانية يذكر أن وصوله كان في : (أثناء جمادى الأخرى :) وعلى ما يبدو أنه ليس متأكداً من صحة التأريخ الذي وصل فيه فأصحف في ذلك .

(٣) باب الفتوح من أبواب القاهرة وضعه القائد جوهر دون موضعه الآن وبقي منه إلى يومنا هذا – أي أيام المقريزي – عقده وعضادته اليسرى وعليه أسطر من الكتابة بالكوفي وهو برأس حارة بهاءالدين من قبليها دون جدار الجامع الحاكمي ، وأما الباب المعروف اليوم بباب الفتوح فإنه من وضع أمير الجيوش وبين يديه باشورة قد ركبها الآن الناس بالبنيان لما عمر ما خرج عن باب الفتوح . انظر الخطط المقريزية ج١ ص ٣٨١ .

(٤) يعرف بموضع الريدانية من جهة باب الفتوح ، وهذا الشجر من أصل هندي . انظر الخطط المقريزية ٢ : ١٣٨ .

به الشكر والأجر ، وأفرد له داراً إلى جانب داره ؛ وأقطعه الإسكندرية ودمياط والبُحيرة (١) وأقطع شمس الدولة أخاه قوص (٢) وأُسوان (٣) وعيذاب (٤) قال ذلك ابن أبي طي . وقال القاضي ابن شداد : أنفذ صلاح الدين في طلب والده ليكمل له السرور ، وتجمع القصة مشاكلة ماجرى للنبي يوسف عليه الصلاة والسلام فوصل والدهُ نجم الدين إليه ، وسلك معه من الأدب ماكان عادته وألبسه الأمر كله ، فأبى أن يلبسه وقال : ياولدي مااختارك الله لهذا الأمر إلاّ وأنت كُفْءٌ له فلا يبغي أن يغيّر موقع السعادة ، فحكّمه في الخزائن بأسرها . قلتُ : وما أحسن ماقال عمارة (٥) في قصيدة مدح بها صلاح الدين ذكر فيها أمرَ دمياط واجتماعه بوالده وأهلهِ ، يقول فيها (٦) :

---

(١) البحيرة : (في ياقوت) بحيرة الاسكندرية : وهذه ليست بحيرة ماء ، إنما هي كورة معروفة من نواحي الاسكندرية بمصر تشتمل على قرى كثيرة ودخل واسع .

(٢) قوص : (في ياقوت) بالضم ثم السكون وصاد مهملة ، وهي قبطية : هي مدينة كبيرة عظيمة واسعة ، قصبة صعيد مصر ، بينها وبين الفسطاط إثنا عشر يوماً ، وأهلها أرباب ثروة واسعة ، وهي محط التجار القادمين من عدن وأكثرهم من هذه المدينة ، وهي شديدة الحرارة لقربها من البلاد الجنوبية وبينها وبين قفط فرسخ وهي شرقي النيل وبين بحر اليمن خمسة أيام أو أربعة ، وقوص في الإقليم الأول وطولها من جهة المغرب خمسة وخمسون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها أربع وعشرون درجة وثلاثون دقيقة .

(٣) أسوان (في ياقوت) بالضم ثم السكون وواو ، ونون : وهي مدينة كبيرة وكورة في آخر صعيد مصر أول بلاد النوبة على النيل في شرقيه .

(٤) عيذاب (في ياقوت) بالفتح ثم السكون وذال معجمة وآخره باء موحدة : بليدة على ضفة بحر القلزم وهي مرسى المراكب التي تقوم من عدن الى الصعيد .

(٥) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٥٥ .

(٦) انظر الروضتين ١ : ١٨١ — ١٨٣ .

[٢٨/و] / منْ شاكرٌ والله أعظمُ شاكر
ماكان من نعمى بني أيــــوب

طلب الهدى نصــراً فقال وقــد أتوا
حسبي فأنتم غايةُ المطلـــوبِ

جلبــوا إلى دمياط عند حصــارها
عزّ القويّ وذلّـــة المغلــوبِ

وجلــوا عن الإسلام فيها كربةً
لو لم يجلّــوها أتت بكروبِ

فالنّــاس في أعمـــال مصر كلّها
عُتقاؤهــم من نازح وغــريبِ

إن لم تظنّ النّاس قشراً فــــارغاً
وهم اللّبابُ فأنْتَ غـيرُ لبيبِ

ومنها :

صحّت به مصرٌ وكانت قبلهُ
تشكو سقاماً لم يُعن بطبيـــبِ

عجباً لمعجــزة أتَتْ في عصــرهِ
والدّهرُ ولاّد لكــلّ عجيــبِ

رد الإله بـــه قضيّـــة يوســـف
نسقاً على ضرب مـــن التقريـــبِ

جاءته إخوتـــه ووالـــده إلـــى
مصرٍ على التدّريج والترتيـــبِ

وله أيضاً فيه من أخرى (١) :

أبـوك الذي أضحى ذخـيرة مجـدكم
وأنت له خير النفائس والذُّخُـرِ

ومن كنتَ معروفـاً له فاستفزه
بمثلك تيه فهو في أوسـع العُذْرِ

فكيف أبٌ أصبحتَ نار زناده وإلاّ (٢)
كنورِ البدرِ من سُنّـة البَـدْرِ

توقـره وسـط النديّ كرامـةً
وتحمل عنه مايؤود (٣) من الوقْرِ

وتخلفهُ حربـاً وسلمـاً خلافـةً
تؤلّف أضداداً من المـاء والجمْرِ

وكم قمـت في بأس وجود ورتبـة
بما سرّهُ في الخطبِ والدست والثغْرِ

وحُكي أنهما لما اجتمعا بدار الوزارة ، وقعدا على طراحة واحدة ، ذكر نجم الدين (٤) أن صلاح الدين ولد ليلة إخراجه من قلعة تكريت قال : فتشاءمت له وتطيرت لما جرى عليّ ،

---

(١) انظر الروضتين ١ : ١٦٣ – ١٦٤ .
(٢) في الروضتين ١ ص ١٦٣ (اللا) .
(٣) في الأصل : مايوذ . تصحيف .
(٤) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٦٢ .

وكان معي كاتب نصراني فقال : يامولاي من يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيماً عظيم الصيت جليل المقدار . قال : فعطفني كلامه عليه . فتعجبّت الجماعة من هذا الاتفاق. رحمة الله تعالى عليهم أجمعين .

[٢٨/ظ] / وفي ثاني عشر شوال (١) كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها ، عمّت أكثر البلاد من الشام ومصر والعراق وغيرها إلاّ أنّ أشدها وأعظمها كان بالشام ، فخربت بعلبك وحمص وحماة وشيزر وبارين (٢) وغيرها ، وتهدّمت أسوارها وقلاعها ، وسقطت الدور على أهلها وخرج ، وهلك من الناس ماخرج عن العدّ والإحصاء ، فسار نور الدين إلى بعلبك ، ورتّب بها من يحميها ، ويعمرها ، وسار إلى حمص ، ففعل مثل ذلك ، ثم إلى حماة ، ثم إلى بارين وكان شديد الحذر على البلاد من الفرنج ، ثم أتى حلب وباشر عمارتها بنفسه ، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين ، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها وأسوار جميع البلاد وجوامعها ، وأخرج من الأموال مالا يقدر قدره . وأمّا بلاد الفرنج فإنها أيضاً فعلت بها الزلزلة قريباً من هذا ، وهم أيضاً يخافون من نور الدين على بلادهم ، فاشتغل كل منهما بعمارة بلاده عن قصد بلاد الآخر .

وفي سابع عشر (٣) شوال وقع صاحب (٤) البيرة (٥)

---

(١) انظر الكامل ١١ : ٣٥٤ — ٣٥٥ . سنا البرق ٩١ — ٩٣ ، الروضتين ١ : ١٨٤ ، تاريخ حلب ٢ : ٦٩٤ — ٦٩٥ .

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٩٠ .

(٣) انظر : الكامل ١١ : ٣٥٣ — ٣٥٤ ، الباهر ١٤٥ — ١٤٦ ، الروضتين ١ : ١٨٦ ، البرق ١٠٦ — ١٠٧ .

(٤) هو : شهاب الدين الياس بن محمد إيلغازي بن أرتق صاحب قلعة البيرة . انظر الكامل ١١ : ٣٥٣ .

(٥) انظر حاشيتنا رقم (٣) ص ١٩٣ .

دخول بلادهم ومنازلة طرابلس ، فبينما الناس في بعض الأيام في خيامهم وسط النهار ، لم يرعهم إلاّ ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن فكبسوهم فأراد المسلمون دفعهم ، فلم يطيقوا ، فانهزموا ووضع الفرنج السيف وأكثروا القتل والأسر ، وقصدوا خيمة الملك العادل ، فظهر من ظهر خيمته عَجِلاً بغير قباء (١) فركب فرساً هناك للنوبة، ولسرعته ركبه وفي رجله شبحة(٢) ، فنزل إنسانٌ من الأكراد فقطعها فنجا نور الدين وقُتل الكردي ، فسأل نور الدين عن مُخلّفي ذلك الكردي ، فأحسن إليهم جزاءً لفعله ، وكان أكثر القتل في السوقة والغلمان .

وســـار نور الدين إلى مدينة حمص ، وأقام بظاهرها ، وأحضر منها مافيها من الخيام ، ونصبها عـــلى بحيرة قدس على فرسخ من حمص وبينها وبين مكان الوقعة أربعة فراسخ وكان الناس يظنون أنّه لايقف دون حلب ، وكان رحمه الله أشجع من ذلك وأقوى عزماً ، ولمّا نزل على بحيرة قدس اجتمع إليه كل مَنْ نجا من المعركة فقال له بعض أصحابه : ليس من الرأي أن نقيم هاهنا فإنّ الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ، ونحن عـــلى هذه الحال ، فوبّخه

---

(١) القباء (في لسان العرب) : نوع من الثياب ، مشتق من ذلك لاجتماع أطرافه ، والجمع أقبية .

(٢) شبحة الفرس : سلسلة تربط بها قدم الحصان (من المعدن أو الصوف المغزول) وهي طويلة بحيث تسمح للفرس أو غيرها من الحيوانات بالرعي لمسافة محدودة وتثبت نهايتها بوتد من المعدن أو الخشب في الأرض . وهذا ما يسمى بعصرنا : بقيد الفرس ، وهذا الاسم لا يزال يطلق على قيد الفرس في حوران وغيرها من مناطق القطر السوري . انظر معجم دوزي ١ / ٧١٩ .

وأسكته وقال : إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي قلّوا أم كثروا ، ووالله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري .

ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق ، وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام وسائر مايحتاج إليه الجند فأكثر ، وفرّق ذلك جميعه على من سَلِم ، وأمّا من قُتِل فإنّه أقر إقطاعه على أولاده فإنْ لم يكن له ولد فعلى بعض أهله، فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه أحد .

وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة لأنها أقرب البلاد إليهم ، فلمّا بلغهم مقام نور الدين عندها / قالوا : إنّه لم يفعل هذا إلاّ وعنده من القوّة مايمنعنا . [١٧/ظ]

وكان نور الدين ،رحمه الله ، قد أكثر الخرج إلى أن قسم في يوم واحد مائتي ألف دينار سوى غيرها من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك ، وتقدم إلى ديوانه أن يحضروا الجند ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أُخذ منه فكلّ من ذكر شيئاً أعطوه عوضه ، فذكر أن بعض الجند حضر وادّعى شيئاً كثيراً علم بعض النوّاب كذبه فيما ادّعاه لمعرفتهم بحاله ، فأرسلوا إلى نور الدين ينهون إليه القضية، ويستأذنونه في تحليفه على ماادّعاه ، فأعاد الجواب : لا تكدّروا عطاءنا ، فإنّي أرجو الثواب على قليله وكثيره ، وقال له أصحابه : إنّ لك في بلادك إدرارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقرّاء فلو استعنت بها الآن لكان أمثل (١) ، فغضب من هذا وقال : والله إنّي لاأرجو النّصر إلاّ بأولئك ، فإنّما ترزقون

(١) في هامش الأصل (١٨ / و) : (فصل الكرم عند الفقهاء والعوام) .

وتنصرون بضعفائكم (١) ، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لاتخطىء . وأصرفها إلى من لايقاتل عني إلاّ إذا رآني بسهام قد تخطىء وتصيب ، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم كيف أعطيه غيرهم ! فسكتوا .

وهذا القول منه — رحمه الله — يشير به إلى مافي صحيح البخاري عن مصعب بن سعد قال : رأى سعد [رحمه الله](٢) ورضي عنه ، أن له فضلاً على من دونه ، فقال النبي ، صلى الله عليه وسلم : (هل تُنصرون وتُرزقون إلاّ بضعفائكم) (٣) .

وفي جامع الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :(ابغوني ضعفاءكم فإنما تُرزقون أو تُنصرون بضعفائكم) (٤) .

وقال فيه الترمذي ، حسن صحيح .

وعن سعد رضي الله عنه عن النّبي صلّى الله عليه وسلم قال : (إنّما ينصرُ الله هذه الأمّة بضعيفها ، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم)(٥) أخرجه النسائي (٦) .

(قال العماد الكاتب في الخريدة :(٧) كانت نوبة البقيعة نوبة

(١) في هامش الأصل (١٨ / و) : (فضل الصدقة) .
(٢) الإضافة عن نسخة المغرب .
(٣) انظر معجم المفهرس باب ضعف ٣ : ٥١٣ .
(٤) انظر المعجم المفهرس باب ضعف ٣ : ٥١٣ .
(٥) انظر المعجم المفهرس ٣ : ٥١٣ .
(٦) ما بين (القوسين) لم يرد في الروضتين ١ : ١٢٨ .
(٧) انظر الخريدة ج٢: ٢٨٨ — ٢٨٩ ، تاريخ حلب ج٢ ص ٦٧٧ — ٦٧٩ .

عظيمة على المسلمين وأُفلِتَ نور الدين في قُلٍّ من عسكره ، ثمّ كَسَّرَ الفرنج بعد ثلاثة أشهر على حارم ، وقُتل منهم في معركة واحدة عشرون ألفاً ، وأَسَرَ من نجا / وأخذَ القومص والبرنس [١٨/ و] والدوقس وجميع ملوكهم ، وكان منحاً عظيماً وفتحاً مبينــاً ، قلت : ستأتي هذه الوقعة في أخبار السنة الآتية . ثمّ إنّ الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم إليها ، فتركوا عند الحصن من يحميه ، وعادوا إلى بلادهم ، وتفرقوا) (١) .

ولأبي الفرج عبد الله بن أسعد الموصلي النحوي المعروف بالدهان(٢) نزيل حمص قصيدة فائقة في هذه الواقعة تحت حصن الأكراد أولها(٣):

ظُبى المواضي وأطراف القنا الذبل
ضوامنٌ لكَ مــاحازوه من نفَــلِ

وكافلٌ لكَ كــاف ماتحــــاوله
عز وعزم وبأس غــير منتحــلِ

وما يَعيبك (ماحازوه) (٤) من سـلب
بالختل ، قد (تؤسر) (٥) الآساد بالحيلِ

---

(١) ما بين (القوسين) لم يرد في الروضتين ١ : ١٢٨ .

(٢) هو : أبو الفرج عبدالله بن أسعد بن علي بن الحسن ، ابن الدهان الموصلي وفي حاشية الخريدة يذكر أنه عند ابن خلكان : المعروف بابن الدهان ، ويعرف بالحمصي أيضاً. أنظر الخريدة ج ٢ : ٢٧٩ ، الروضتين ج١ ص ١٢٨ .

(٣) انظر الخريدة ج ٢ ص ٢٨١ و ٢٩٠ – ٢٩٢ ، الروضتين ج١ ص ١٢٨ .

(٤) في الخريدة (b نالوه) .

(٥) في الخريدة (توتر) .

وإنّمـــا أخلدوا جُبناً إلَى خُـــدع
إذ لـــم يكن لهم بالجيش من قِـبَلِ
واستيقظـــوا وأراد الله غفلتـــكم
لينفـــذ القدر المحتوم في الأزلِ
قنيٌّ لقا وقســـيٌّ غير مُـــوْتَرَةٍ
والخيـــل عازبـــة ترعى مـــع الحملِ
مايصنـــع الليث لانـــاب ولا ظفـــر
بما حواليه مـــن غفر ومن وَعَـــلِ
(لكم) (١) بيوم حنين أســـوة وهم
خير الأنام وفيهم خاتم الرُسُـــلِ (٢)
كم قد تجلت بنور الدين من ظُلـــم
للظلْم وانجاب [ما كان] للإضلال من ظُلَلِ (٣)

ثم دخلت سنة تسع وخمسين :

ففيها : سارَ أسد الدين شيركوه إلى مصر عازماً على ملك الديار المصرية واستضافتها إلى المملكة النورية على تدريج وتدبير بقدر ،

(١) في الروضتين ١ : ١٢٨ (لهم) وكذا في الخريدة .

(٢) قصد معركة حنين بقيادة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وانتصار الكفار على المسلمين فيها : ونزول الآية الكريمة فيها : « (... ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ...) » التوبة – آية ٢٥ .

(٣) في الروضتين ورد البيت التاسع :

(وكم تجلى بنور الدين من ظلم   وانجاب ما كان للاضلال من ظلل)

وتكرر مسيره إليها ثلاث دفعات ، الأولى : في هذه السنة ، والثانية : في سنة اثنتين وستين ، والثالثة : في سنة أربع وستين .

وفيها : توزّر أسد الدين بها ، ثم تولّى ابن أخيه صلاحُ الدين بعده ، وفي سنة سبع وستين انقرضت الدولة المصرية ، وتملّكها صلاح الدين نيابة عن نور الدين ، رحمه الله ، ثم استقلّ بالملك بمصر والشام بعد موت نور الدين من سنة سبعين إلى سنة تسع وثمانين ، ففيها توفي رحمه الله ، كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى (١) ، ونبدأ قبلَ ذكر ماجرى في هذه السنة لهم بالتعريف بهم ، ووصف حالهم في اتصالهم بالدولة / النورية ، وسبب مسيرهم إلى الديار المصرية فنقول : [١٨/ظ]

كان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب(٢) ، وهو (أكبر)(٣)

---

(١) مقدمة مختصرة لما يجري في الأعوام التالية ذكرها المؤلف .

(٢) انظر الكامل : ج١١ ص ٢٩٨ — ٣٠١ ، الباهر ص٤٣ — ٤٦ و ١١٩ — ١٢٢ ، النوادر السلطانية ص ٢٣ — ٢٤ ، الروضتين ج١ ص ١٢٩ — ١٣٠ ، سنا البرق ص ٦٠ — ٦١ ، الكواكب الدرية ص ١٦٤ — ١٦٦ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٤٧ — ٢٤٨ ، المقريزي : السلوك ج ١ ق١ ص ٤٠ — ٤٣ (بخلاف فهو ذكرها في أحداث عام٥٥٨ هـ وذكر : زعم اسماعيل بن طغتكين بن ايوب في نسب الأيوبيين إلى أصل عربي) ، تاريخ حلب ج ٢ ص ٦٧٩ — ٦٨٢ .

(٣) في الأصل (١٩ / و) (الأكبر) وهو تصحيف وثبتنا ما هو صحيح . وهو : نجم الدين أيوب بن شاذي والد صلاح الدين يوسف ، وأخي أسد الدين بن شيركوه (ت٥٦٨ هـ / ١١٧٣ م) . انظر الروضتين ج١ ص ١٢٩ — ١٣٠ و ١٨٣ و ٢٠٩ — ٢١١ ، شذرات الذهب ج٤ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٧٠ — ٢٧٢ (ويذكر أنه من بلدة ادرين انظر ص ٢٥٩) .

أبناء شاذي ، من بلد دُوين (١) ، وهي بلدة من آخر بلاد أذربيجان مما يلي الروم ، وأصلهما من الأكراد الروادية . وهـذا القبيل هو أشرف الأكراد ، وقدما العراق ، وخدما مجاهد الدين بهروز الخادم(٢) وهو شحنة العراق . فرأى من نجم الدين عقلاً ورأياً وحسن سيره فجعله دُزداراً (٣) بقلعة تكريت (٤) ، وكانت لبهروز هذا ، فسار إليها ومعـه أخوه أسد الدين ، فلمّا انهزم أتابك زنكي والد نور الدين بالعراق مـن (قراجه) (٥) الساقي وهو أتابك داود ابن السلطان محمود في وقعة جرت زمن المسترشد بالله ، سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وصل إلى تكريت ، فخدمه نجم الدين أيوب وأقام له السُّفن ، فعبر دجلة هناك وتبعه أصحابه ، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيّرهم ، ثم إنّ أسد الدين قتل إنساناً نصرانياً بتكريت لملاحاة جرت بينهما ، فأرسل مجاهد الدين بهراز إليه وإلى أخيه نجم الدين فأخرجهما من

---

(١) دوين (في ياقوت) : بفتح أوله وكسر ثانيه وياء مثناة من تحت ساكنه وآخره نون : بلدة من نواحي آران في آخر حدود أذربيجان بقرب من تفليس ، ومنها ملوك الشام بنو أيوب . وفي (معجم ما استعجم) بضم أوله على لفظ التصغير : حصن من حصون سر وحمير وهي عشرة مذكورة هناك .

(٢) لم أعثر على ترجمة له في المصادر .

(٣) دزدار : كلمة فارسية معناها (حاكم حصن) انظر :
Enc. IS 1. DIZ ç

(٤) تكريت (في ياقوت) : بفتح التاء والعامة يكسرونها : بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، وهي الى بغداد أقرب ، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً ، ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راكبة على دجلة ، وهي غربي دجلة ... .

(٥) في الأصل (٣٦ / و) (قرابة) وهو تصحيف وثبتنا ما هو صحيح لأنه هو : القائد قراجة الساقي صاحب فارس وقوزستان . انظر الحدث مطولا في الكامل ج ١٠ ص ٦٧٥ – ٦٧٦ ، .

تكريت ، فقصدا الأتابك زنكي بالموصل . فأحسنَ إليهما ، وعرفَ لهما خدمتهما ، وأقطعهما إقطاعاً حسناً ، وصارا من جملة جنده ، فلمّا فتح زنكي حصن بعلبك جعل نجم الدين دزداراً فيه ، فلمّا قُتل زنكي حصر عسكرُ دمشق نجم الدين ببعلبك فأرسل إلى سيف الدين غازي وقد قام بالملك بعد والده ينهي الحال إليه فلم يتفرغ له ، وضاقَ الأمر على مَنْ ببعلبك ، وخافَ نجمُ الدين أَنْ يُؤخذَ عنوة ، ويناله أذىً ، فأرسل في تسليم القلعة ، وطلب من صاحب دمشق إقطاعاً ذكره ، فأجيب إلى ذلك ، وسلّم القلعة وتسلّم الإقطاع ، وصار عنده من أكابر الأمراء ، واتّصل أخوه أسد الدين شيركوه بعد قتل زنكي بولده نور الدين ، وحسّن له مملكة حلب ، وكان يخدمه في أيام والده ، فقرّبه نور الدين وأقطعه ، وكان يرى منه في حروبه ومشاهده آثاراً يعجز عنها غيره لشجاعته وجُرأته ، فزاده إقطاعاً وقرباً ، حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما ، وجعله مقدم عسكره ، فلما تعلّقت الهمة النورية بِمُلْكِ دمشق ، أمر أسد الدين ، فراسل أخاه نجم الدين وهو بها في ذلك / [١٩/و] وطلب منه المساعدة في فتحها ، فأجاب إلى ذلك ، وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيراً من الإقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها ، فبذل لهما ماطلبا منه ، وحلف لهما عليه ، ووفى لهما لمّا ملكها ، وصارا عنده في أعلى المنازل لاسيما نجم الدين فإنّ جميع الأمراء كانوا لايقعدون عند نور الدين إلاّ أنْ يأمرهم أو أحدهم بذلك إلاّ نجم الدين ، فإنّه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك .

فلمّا كان سنة تسع وخمسين هذه ، وعزم نور الدين ، رحمه الله، على إرسال العسكر إلى مصر ، لم يرَ لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع من أسد الدين ، فسيره .

وسبب ذلك أن وزير خليفة مصر يومئذ وهو المسمّى بشاور (١) كان قد وصل إلى دمشق في سنة ثمان وخمسين سادس ربيع الأول مستنجداً بنور الدين على مَنْ أخذَ منه منصبه قهراً .

وكانت عادة المصريّين أنّهم إذا غلب شخص صاحب المنصب ، وعجز صاحب المنصب عن دفعه وعرفوا عجزه ، وقّعوا للغالب منهم ، ورتّبوه ومكّنوه ، فإن قوّتهم إنّمـــا كانت تكون بعسكر وزيرهم وهو الملقب عندهم بالسلطان ، وما كانوا يرون المكاشفة ، وأغراضهم مستتبة وقواعدهم مستقرة ، وكان شاور قد غلّب على الوزارة وانتزعها من رُزيك وهو الملقب بالعادل بن الصالح طلائع بن رُزيك وقتله ، واستقل بالأمر ، ثم خرج على شاور نائب الباب وهو أمير يُقال له : ضرغام بن سوار وتلقب بالمنصور ، فجمع جموعاً كثيرة لم يكن لشاور بها قِبل فغلبه ، وأخرجه من القاهرة ، واستولى على الوزارة .

فرحلَ شاور إلى الشام مستصرخاً بنور الدين ومستنصراً فأحسن لقاءه وأكرم مثواه ، فطلب منه إرسال عسكر إلى مصر ، ليردّوا إليه

---

(١) هو : شاور السعدي ، وزير العاضد لدين الله الفاطمي صاحب مصر ، الذي انتزع الوزارة من بني رزيك وقتل العادل بن الصالح بن رزيك الذي وزر بعد أبيه واسمه رزيك ويلقب بالناصر أيضاً (قتله صلاح الدين سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م) (انظر الباهر ص ١٢٠ ، الروضتين ج١ ص ١٣٠ ، الأخبار السنية ص ١١٧ — ١٢١ .

منصبه ، ويكون لنور الدين حصّته في البلاد عينها واتفقا عليها ، ويتصرف شاور على أمره ونهيه واختياره . ونور الدين يقدم في ذلك رجلاً ويؤخر أخرى ، تارة تحمله رعاية قصد شاور وطلب الزيادة في الملك ليقوى على الفرنج وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الفرنج فيه ، إلاّ أن توغلوا في البر فيتعرضوا لخطر آخر مع الخوف من الفرنج ، ثم استخار الله تعالى .

[١٩/ظ] وأمر أسد الدين بالتجهيز للمسير معه ، قضاء / (لحق الوافد المستصرخ وجساً للبلاد وتطلّعاً على أحوالها ، وسار مع شاور (١) في جمادى (الأولى) (٢) ، واستصحب معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، وجعله مقدم عسكره وصاحب رأيه ، وكان لايفصل أمراً ، ولا يقدر حالاً ، إلا بمشورته ورأيه لما لاخ له من آثار الإقبال والسعادة الصحيحة ، واقتران النصر بحركاته ، وسكناته . كذا قال القاضي أبو المحاسن بن شداد . قالوا : وأمر نور الدين أسد الدين بإعادة شاور إلى منصبه ، والانتقام ممن نازعه في الوزارة . وساروا جميعاً . وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الإسلام ، مما يلي الفرنج بعساكره ، ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين . فكان قصارى

(١) في النوادر السلطانية يذكرسير أسد الدين شير كوه الى مصر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة انظر ص ٢٣ – ٢٤ ، وربما يعود ذلك لاختلاط الأمر عليه بين تاريخ قدوم شاور الى نورالدين سنة ثمان وخمسين ، ومسير أسدالدين الى مصر سنة تسع وخمسين ، وكذا في ابن كثير : البداية والنهاية ١٢ ص ٢٤٧

(٢) في الأصل (٢٠٠ / g) (الآخرة) وكذا في (٢٦ / و) وكذا في الروضتين : ١٣٠ وهو تصحيف لأن كافة المصادر تذكره في (جمادى الأولى) انظر ابن الأثير : الباهر ص ١١٩ ، والكامل ١١ ص ٢٩٨ ، وسنا البرق ص ٦٠ – ٦١ ، الحريري : الأخبار السنية ص ١١٨ .

الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين ووصل أسد الدين سالماً إلى مصر ، هو ومن معه ، فهرب المنازع له في الوزارة ، وقُتل ، وطيف برأسه ، وعاد شاور وزيراً وتمكن من منصبه ، ولم يُغلب وزير للمصريين ثم عاد سوى شاور هذا . وكانت مدة أخذ الوزارة (إليه) (١) إلى أن عادت إليه تسعة أشهر ، وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ،وغدر به شاور ، وعاد عما كان قدره لنور الدين من البلاد المصرية ، ولأسد الدين أيضاً ، وأرسل إليه يأمره بالعودة إلى الشام ، فأرسل أسد الدين نوابه ، فتسلموا مدينة بلبيس (٢) ، وحكموا على البلاد الشرقية ، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ، ويخوفهم من نور الدين ، إن مَلَكَ مصر . فتركوا في بلادهم من يحفظها ، وسار ملك القدس (٣) في الباقين إلى مصر ، فأقام أسد الدين ببلبيس ، وحصروه بها ثلاثة أشهر لم ينالوا منه غرضاً ، فجاءهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم ، وأخذ نور الدين الحصن ، ومسيره إلى بانياس ، كما سنذكره ، فراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام ومفارقة مصر ، فأجابهم ، وعاد إلى الشام سالماً .

وقال العماد : بذلوا له قطيعة ، فانصرف عنهم وعاد إلى الشام وفي قلبه من شرّ شاور الإحَن ، وكيف تمّت بغدره تلك المِحَن .

---

(١) لعلها (منه) .

(٢) في ياقوت بلبيس : بكسر الباءين ، وسكون اللام ، وياء وسين مهملة ، كذا ضبطه نصر الإسكندري ، قال : والعامة تقول بلبيس : مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام ... .

(٣) هو : أموري – أماريك الأول – انظر الأخبار السنية ص ١٢٠ ، القلاع أيام الحروب الصليبية ص ١٩ .

قال القاضي : وشــاهد أسد الدين البلاد ، وعرف حالها ، وعرف أنها بلاد بغير رجــال ، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهــام والمحال ، فأقام بالشام مدبراً لأمره ، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية محدثاً بذلك نفسه ، مقدراً لقواعد / ذلك مع نور الدين [٢٠/و] إلى سنة اثنتين وستين كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

فصل في كسرة حارم المشهورة :

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر (١) : كَسَرَ نور الدين الروم والفرنج والأرمن على حارم وكان عدتهم ثلاثين ألفاً ، ووقع بيمند (٢) في أسره في نوبة حارم ، وباعه نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد .

وقال العماد الكاتب : اغتنم نور الدين خلو الشام من الفرنج – يعني بسبب رحيلهم إلى مصر – وقصدهم ، واجتمعوا على حارم ، فضرب معهم المصاف ، فرزقه الله الانتقام منهم فأسرهم ، وقتلهم ، ووقع في الأسارى برنس أنطاكية ، وقومص طرابلس وابن الجوسلين ، ودوك الروم (٣) ، وذلك في رمضان .قال : وقتل منهم في المعركة عشرون ألفاً .

---

(١) انظر : ابن عساكر ١٣٠ – ٣٣٨٠ ورقة ١٤٨ / أب المكتبة الظاهرية بدمشق، الكامل ج ١١ ص ٣٠١ – ٣٠٣ ، الباهر ص ١٢٢ – ١٢٦ ، الروضتين ج ١ ص ١٣٣ – ١٣٤ ، سنا البرق ص ٦١ – ٦٢ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٤٨ ، ابن العديم ج ٢ ص ٦٨٢ – ٦٨٥ ، الأخبار السنية ١٢١ – ١٢٢ ، .

(٢) بيمند صاحب انطاكية انظر الأصل (٢١ / ظ) ص ١٧٣ .

(٣) في تاريخ حلب ج ٢ ص ٦٨٣ هو : بيمند ، وكذا في مفرج الكروب ١ – ١٤٦ ، وفي الأخبار السنية ص ١٢٢ هو : بوهيموند صاحب انطاكية ، ورايمند صاحب طرابلس .

قال ابن الأثير: والسبب في هذا الفتح، أن نور الدين — رحمه الله — لمّا عاد منهزماً، كما سبق من غزوة ناحية حصن الأكراد، أقبل على الجد والاجتهاد، والاستعداد للجهاد، والأخذ بثأره، وغزو العدو في عقر داره، ليرتق ذلك الفتق، ويمحو سمة الوهن، ويعيد رونق الملك، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل، وفخر الدين قرا أرسلان (١) بالحصن ونجم الدين ألبي (٢) بماردين، وغيرهم من أصحاب الأطراف.

فأما قطب الدين فإنه جمع عساكره وسار مجداً وعلى مقدمة عسكره زين الدين علي نائبه، وأما فخر الدين قرا أرسلان فبلغني أن خواصه قالوا له: على أي شيء عزمت؟ قال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشّف (٣) من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك، وكلهم وافقه على ذلك. فلما كان الغد أمر بالنداء في عسكره بالتجهيز للغزاة فقال له أولئك:

ماهذا مما بدا، فارقناك بالأمس على حال، ونرى الآن ضدّها، فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده، خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد عن يدي فإنه كاتب زهّادها وعُبّادها والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج، وما نالهم من الأسر والقتل والنهب ويستمد منهم الدعاء. ويطلب

---

(١) هو: فخر الدين قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق، صاحب حصن كيفا. (انظر: الكامل ١١: ٣٠٢).

(٢) هو: نجم الدين ألبي بن تمرتاش بن إيلغاز بن أرتق، صاحب ماردين. (انظر: الكامل: ٣٠٢).

(٣) تحشف: اكتسى الأطمار.

منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة ، وقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه / وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ، [٢٠/ظ] ويلعنونني ويدعون عليّ ، فلا بدّ من إجابة دعوته ، ثم تجهز أيضاً ، وسار إلى نور الدين بنفسه .

وأما نجم الدين ألبي ، فإنه سيّر عسكراً .

فلما اجتمعت العساكر ، سار نور الدين نحو حارم فنزل عليها وحصرّها ، وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالساحل لم يسر إلى مصر ، فحشدوا وجاؤوا ومقدم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية والقمص صاحب أطرابلس وأعمالها وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها ، والدوك وهو رئيس الروم ومقدمها ، وجمعوا معهم من الراحل ، مالا يقع عليه الإحصاء ، قد ملؤوا الأرض ، وحجبوا بقسطلهم السماء ، فحرّض نور الدين أصحابه ، وفرّق نفائس الأموال على شجعان الرجال ، فلمّا قاربه الفرنج ، رحل عن حارم إلى أرتاح وهو إلى لقائهم مرتاح ، وإنّما رحل طمعاً أن يتبعوه ، ويتمكن منهم إذا لقوه ، فساروا حتى نزلوا على عم (١) وهو على الحقيقة تصحيف ما لقوه من الغم ، ثم تيقنوا أنه لاطاقة لهم بقتاله، ولا قدرة لهم على نزاله ، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كل خير ، وتبعهم نور الدين فلما تقاربوا ، اصطفوا للقتال ، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين ، وبها عسكر حلب وفخر الدين ، فبدّدوا نظامهم ،

---

(١) عم : (في ياقوت) بكسر أوله وتشديد ثانيه ،ولا أراها الا أعجمية لا أصل لها في العربية . وهي قرية غناء ذات عيون جارية وأشجار متدانية ، بين حلب وأنطاكية وكل من بها اليوم نصارى .

وزلزلوا أقدامهم ، وولوهم الأدبار ، وتبعهم الفرنج ، وكانت تلك الفرّة من الميمنة عن اتفاق ورأي دبّروه ، ومكر بالعدو مكروه ، وهو أن يبعدوا عن راجلهم(١) ، فيميل عليهم من بقي من المسلمين ، ويضعوا فيهم السيوف ، ويرغموا منهم الأنوف ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين ، لم يلقوا راجلاً يلجأون إليه ، ويعود المنهزمون في آثارهم ، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم فكان الأمر على ما دبّروا ، فإن الفرنج لمّا تبعوا المنهزمين ، عطف زين الدين(٢) في عسكر الموصل على راجلهم ، فأفناهم قتلاً وأسراً . وعادت خيالهم ، ولم يمعنوا في الطلب خوفاً على راجلهم من العطب ، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفّرين ، وبدمائهم مضرّجين فسقط في أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلّوا ، وخضعت رقابهم ودلّوا ، فلما رجعوا / ، عطف المنهزمون أعنّتهم وعــادوا ، فبقي العدّو في [٢١/و] الوسط ، وقد أحدق بهم المسلمون مــن كل جانب ، فحينئذ حمي الوطيس ، وباشر الحرب المرؤوس والرئيس ، وقاتل الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة ، وحاربوا حراب من أيس من الحياة ، وانقضّت العساكر الإسلاميــة عليهم انقضاض الصقور على بغاث الطيور ، فخرقوهم بدداً ، وجعلوهم قدداً ، فألقى الفرنج بأيديهم إلى الأسار ، وعجزوا عن الهزيمة والفرار ، وأكثر المسلمون فيهم القتل ، وزادت

---

(١) قصد بها : أن الفارس المدرع الثقيل غير المدعم بقوى من المشاة ومحروس من قبلها يفقد فاعليته في المعركة ، وهذا ما تنبه إليه نورالدين وقادة جيشه ، مما يدل على حنكة عسكرية : (انظر زكار حطين ص ١٠٧) .

(٢) في تاريخ حلب ج ٢ ص ٦٨٤ هو (زين الدين علي كوجك)

عدة القتلى على عشرة آلاف (١) ، وأمّا الأسرى فلم يحصوا كثرة ، ويكفيك دليلاً على كثرتهم ، أن ملوكهم أسروا ، وهم الذين قبل ذُكروا .

وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم ، فملكها في الحادي والعشرين من شهر رمضان .

وأشار عليه أصحابه بالمسير إلى أنطاكية ليملكها ، لخلوّها ممّن يحميها ، ويدفع عنها ، فلم يفعل ، وقال : أمّا المدينة فأمرها سهل ، وأمّا القلعة التي لها ، فهي منيعة لاتؤخذ إلاّ بعد حصار طويل ، وإذا ضيّقنا عليهم ، أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية ، وملّكوه إيّاها ومجاورة بيمند أحبُّ إليَّ من مجاورة ملك الروم ، ثم بثّ سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهبوا ، وسبوا ، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسويداء(٢) ، وغير ذلك ، وعادوا سالمين .

ثم إن نور الدين أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمال جزيل أخذ منه ، وأسرى كثيرة أطلقهم .

قلت : وبلغني أنّ نور الدين ، رحمه الله ، لمّا التقى الجمعان أو قُبيله ، انفرد تحت تل حارم ، وسجد لربه عز وجل ، ومرغ وجهه وتضرع وقال : يارب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك ، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك ، فانصر أولياءك على أعدائك ، إيش فضول

---

(١) في الروضتين ١ / ١٣٣ نقلا عن العماد الكاتب» وقتل في معركة واحدة منهم عشرين ألفاً ».

(٢) السويداء : (في ياقوت) بلدة مشهورة ... قرب حران بينها وبين بلاد الروم ... أهلها نصارى أرمن في الغالب .

محمود في الوسط ، يشير إلى أنك يارب إنْ نصرت المسلمين فدينك نصرت ، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق النصر .

وبلغني أنه قال : اللّهم انصر دينك ، ولا تنصر محموداً ، من هو محمود الكلب حتّى ينصر؟ (١) وجرى بسبب ذلك منام حسن . نذكره في أخبار سنة خمس وستين ، عند رحيل الفرنج عن دمياط ، بعد نزولهم عليها ، وهذا فتح عظيم ، ونصر عزيز ، أنعم الله به على نور الدين والمسلمين ، مع أن جيشه عامئذ ، كان منه طائفة / كثيرة [٢١/ظ] بمصر مع أسد الدين شيركوه ، كما سبق . وهذا من عجيب ماوقع واتفق .

« فصل في ذكر وزير الموصل ، جمال الدين أبي جعفر محمد ابن علي بن أبي منصور الأصفهاني الجواد الممدّح » .

(٢) وكانت وفاته في هذه السنة في شهر شعبان رحمه الله ، وكان قد خدم الشهيد أتابك فولاه نصيبين ، وظهرت كفايته ، فأضاف إليه الرحبة وتمكن عنده ، وصار مشرف ديوانه إلى أن مات زنكي ، فولي الوزارة لولديه سيف الدين غازي (٤) ثم قطب الدين مودود (٥) .

---

(١) في حاشية الأصل (٢١ / ظ) (... تواضع نور الدين الشهيد وأن (بياض ربما نعمه) النصر معهم ولو لم ينصر) .

(٢) انظر : الكامل ج ١١ ص ٣٠٦ — ٣١٠ ، الباهر ١٢٧ — ١٢٩ ، الروضتين ١ ص ١٣٤ — ١٣٧ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٤٨ .

(٤) هو سيف الدين غازي بن زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر صاحب الموصل (ت ٥٤٤ هـ) . انظر البداية والنهاية ج١٢ ص ٢٢٥ — ٢٢٦ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ١٣٩ .

(٥) هو قطب الدين مودود بن زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر تسلم الملك بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي بالموصل (ت ٥٦٥ هـ) . انظر : البداية والنهاية ج١٢ ص ٢٦١ ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢١٦ ، والأصل (٢٢ / و) ص ١٧٤ .

قال العماد(١) : فعاش بنداه الجود ، وعشا(٢) إلى ناديه الوفود . وعادت به الموصل قبلة الإقبال وكعبة الآمال ، فأنارت مطالع سعوده ، وسارت في الآفاق صنائع جوده ، وعمّر الحرمين الشريفين ، وشمل بالبرّ أهلهما ، وجمع بالأمن شملهما ، وأجرى بحر السماح ، ونادى حيّ على الفلاح ، وصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح ، وأتوا إليه من كل فج عميق ، وقصد من كل بلد سحيق ، وقصده العظماء ، ومدحه الشعراء .

قال ابن الأثير : كانت الموصل في أيامه ملجأً لكل ملهوف ومأمناً لكل خائف ، ثم سعى به الحساد إلى قطب الدين وقيل له : إنه يأخذ أموالك ، فيتصدق بها ، فقبض عليه وحبسه بقلعة الموصل . فبقي فيه نحواً من سنة ، ثم مرض ومضى لسبيله عظيم القدر والخطر ، كبير المروءة ، كامل الفتوة ، ولم يُروَ في كتب القدماء أن أحداً اتسعت نفسه ومروءته ، كما اتسعت له نفس جمال الدين هذا ، قال : وحكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم الصوفي(٣) ، وكان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه ، قال : لم يزل الجمال مشغولاً بأمر آخرته مدة حبسه ، وكان يقول : كنت أخشى أن أنقل من الدست (٤) إلى القبر ، فلمّا مرض ، قال لي : ياأبا القاسم إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرِّفني ، فقلت في نفسي : قد اختلط الرجل ، فلما كان

---

(١) في حاشية الأصل (٢٢ / و) عبارة : مديح .

(٢) عشا ، يعشو : إذا أتى ناراً للضيافة ... انظر لسان العرب .

(٣) لم أعثر على ترجمة له .

(٤) الدست : أي الوزارة .

الغد، أكثر السؤال عن ذلك الطائر (الأبيض) (١) ، وإذا بطائر أبيض لم أر مثله قد سقط فقلت له : قد جاء الطائر الأبيض . فاستبشر ، ثم قال : جاء الحق ، وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى وتوفي ؛ فلما توفي طار ذلك الطائر ، قال : فعلمت أنه رأى شيئاً في معناه ؛ ودُفنَ بالموصل نحو سنة (٢) ، وكان بينه وبين أسد الدين عهد / أنّ [٢٢/و] مَنْ مات منهما قبل صاحبه ، حمله إلى مدينة النبي صلّى الله عليه وسلم ، فحمله أسد الدين بمال صالح ، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية ، ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النزول ، وعند الرحيل وقدوم مدينة تكون في الطريق ، وينادون في البلد الصلاة على فلان ، فلمّا كان في الحلّة (٣) : اجتمع الناس للصلاة عليه ، فإذا شابّ قد ارتفع على موضع عال ، وأنشد بأعلى صوته (٤) :

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما ... سرى برّه فوق الركاب ونائله

يمر على الوادي فتثني رماله ... عليه وفي النادي فتبكي أرامله

---

(١) ما بين القوسين الإضافة عن نسخة المغرب .

(٢) في حاشية الأصل (٢٢ / و) عبارة : وفيه فيمن حمل بعد موته الى المدينة الشريفة ودفن بها .

(٣) الحلة (في ياقوت) : بالضم : قرية مهجورة في طرف دجيل بغداد من ناحية البرية بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ ، تنزلها القفول .

(٤) في حاشية الأصل (٢٢ / ظ) عبارة : قلت : هذان البيتان قديمان ، قيلا : في ابن أبي دواد . وفي حاشية نسخة المغرب مثل ذلك .

فلم ير باكياً أكثر من ذلك اليوم ، ولمّا أنشد ذاك الشّاب هذين البيتين ، ارتجل الحيص بيص (١) الشاعر المشهور هذين البيتين :

سرى نعشه فـوق الرقاب وإنّـه
لأجدَرُ من يسري عليها ومن يرقى

فما عنقٌ إلاّ له منـه منّـةٌ
تلازمه كالطوق(٢) في عنق الورقا

ثم وصلوا به إلى مكة ، فطافوا به حول الكعبة ، وصلّوا عليه بالحرم ، وحملوه إلى المدينة فصلّوا عليه أيضاً ، ودفنوه بالرباط الذي أنشأه بها . وكان قد بنى سوراً على مدينة الرسول صلّى الله عليه وسلم ، وعمّر أيضاً المسجد الذي على جبل عرفات ، وعمل الدرج الذي يُصعد إليه فيها . وكان الناس يلقون شدّة في صعودهم ، وعمل بعرفات أيضاً مصانع للماء ، وجدّد بناء مسجد الخيف ، وكان يحمل كل سنة من المال والغلة والكسوة الشيء الكثير إلى أهل الحرمين ، فلمّا حملوا نعشه إليهما ، خرج أهل كل منهما عند وصوله إليه يتلقونه بالبكاء والترحم عليه وكثرة الأسف بحيث يكون ذلك يوماً مشهوداً ، وكان له في كل يوم مائة دينار أميرية ، يتصدق بها على باب داره . ومآثره كثيرة جداً ، وهو مدفون في الرباط الذي أنشأه بالمدينة النبوية . وبينه وبين الحائط الشرقي من مسجد النبي صلّى الله عليه وسلم عرض الطريق ، وهو الرباط المدفون فيه بعد ذلك

---

(١) هو أبو الفوارس سعد بن محمد الصفي الشاعر المعروف بحيص بيص ، انظر ترجمته مع قصيدة له في مدح وزير الموصل جمال الدين في الروضتين ١ : ١٣٥ .

(٢) في الأصل (كالمطوق) .

أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب ، رحم الله الجميع / : [٢٢/ظ]
وقد جرى نحو هذا للوزير أبي الفضل ، جعفر بن الفضل ابن الفرات ، المعروف بابن حنزابة (١) كان أبوه وزيراً للمقتدر (٢) ووزر هو لكافور الإخشيدي(٣) بمصر ،ومات بها سنة إحدى وتسعين وثلاث مائة ، وحمل منها إلى الحرمين ، فخرجت الأشراف من مكة والمدينة ، فحجّوا به ، وردّوه إلى المدينة ، فدفنوه في الدار التي كان قد أعدّها لذلك بجوار مسجد النبي صلّى الله عليه وسلم ، وكان مكرماً لأهل العلم وله معروف كثير ، فجرى للوزير أبي جعفر ، ما كان جرى للوزير جعفر رحمهما الله تعالى .

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة :

ففيها (٤) : فتح نور الدين – رحمه الله – قلعة بانياس (٥) من

---

(١) هو جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات ، أبو الفضل ، المعروف بابن حنزابة الوزير ، ولد سنة ثمان وثلاثمائة ببغداد ، ونزل الديار المصرية ووزرها لكافور الاخشيدي ، توفي سنة ثلاثمائة وإحدى وتسعين ، انظر ترجمته في ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٣٢٩ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٢ ، ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٩ و ٦٣ و ٩٨ و ج ٩ ص ١٦٨ .

(٢) هو : الخليفة العباسي المقتدر بالله، أبو الفضل جعفر بن المعتضد أحمد ، انظر الكامل ج ٨ ص ٨ ، تاريخ الطبري ١١ ص ٢٨ – ٢٩ .

(٣) هو : أبو المسك كافور الحبشي الأسود اللون الخادم الأخشيدي مولى محمد بن طغج الأخشيدي ، استقل بأمر مصر سنة خمس وخمسين (ت ٣٥٧ هـ) . انظر البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٦٦ ، شذرات الذهب ج ٣ ص ٢١ – ٢٢ .

(٤) انظر : الباهر ١٣٠ – ١٣١ بتصرف ، الروضتين ١ : ١٣٩ – ١٤١ ، البداية والنهاية ١٢ : ٢٤٨ ، تاريخ حلب ٢ : ٦٨٥ – ٦٨٦ ، الأخبار السنية ١٢٢ – ١٢٣ .

(٥) انظر حاشيتنا رقم (٥) ص ٢٢١ .

الفرنج ؛ وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم ، وأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعودة إلى بلادهم ، وأظهر أنه يريد طبرية ، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها ، وتقويتها ، فسار نور الدين مجدّاً إلى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحُماة الممانعين عنها ونازلها وضيّق عليها وقاتلها . وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه ، فلمّا رآه نور الدين قال له : لو كُشف لك عن الأجر الذي أُعد لك لتمنّيت أن تذهب الأخرى . ثم جدّ في حصارها حتى فتحها وملأها عدّة وذخائر ورجالاً وعاد إلى دمشق . ولمّا فتح الحصن كان ولد معين [الدين] (١) أنر الذي سلّم بانياس إلى الفرنج قائماً على رأسه ، فالتفت نور الدين إليه وقال له : للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك أنت فرحتان ، فقال : كيف ذلك ؟ قال : لأن الله تعالى اليوم برد جلدة والدك من نار جهنم ، وقد تقدم أنه كان صانع بها عن دمشق ، لمّا نزل الفرنج عليها .

وفيها توفي وزير بغداد ، عون الدين أبو المظفر ، يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني من بني ذهل بن شيبان بن ثعلبة . وكان عالماً ديناً ، حنبلي المذهب ، وكان يجتمع في مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب الأربعة والنحاة وغيرهم . وتوفي ساجداً في صلاة الصبح من يوم الأحد ثالث عشر جماد الأول .

* * *

(١) ما بين المعقوفين من (غ) .

/ ثم دخلت سنة إحدى وستين : [٢٣/ و]

ففيها :(١) سار نور الدين إلى حصن المنيطرة (٢) وهو أيضاً للفرنج ، ولم يحشد له ، ولا جمع عساكره ، إنّما سار إليه على غرّة من الفرنج . وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وتجمعوا ، فانتهز الفرصة وسار إلى المنيطرة وحصرها ، وجدّ في قتالها ، فأخذها عنوة وقتل من بها ، وسبى وغنم غنيمة كثيرة ، وقيل : إن ذلك كان سنة اثنتين وستين فالله أعلم .

وفيها :(٣) توفي القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين ابن الحبّاب الأغلبي التميمي السعدي ، جليس صاحب مصر . وكان بارعاً في النظم والنثر ، وتوفي وقد أناف على السبعين . من شعره :

ومن عجب أن السيوف لديهم
تحيض دماء والسيوف ذكورُ

وأعجب من ذا أنها في أكفهم
تأجج ناراً والأكف بحورُ

---

(١) انظر : الباهر ١٣١ ، الروضتين ١ : ١٤١ ، النوادر السلطانية ٢٤ ، البداية والنهاية ج ١٢ : ٢٥١ ، في شذرات الذهب ٤ : ١٩٧ (فيها : أخذ نورالدين من الفرنج حصن صافيتا) ، تاريخ حلب ٢ : ٦٨٦ .

(٢) المنيطرة : (في ياقوت) مصغر ، بالطاء المهملة : حصن بالشام قريب من طرابلس .

(٣) انظر : الروضتين ١ : ١٤١ ، البداية والنهاية ١٢ : ٢٥١ .

وله أيضاً يشكو طبيباً :

وأصلُ بليّتي من قد غـزاني
من السقم الملحّ بعسكرين

طبيب طبهُ كغرابِ بين
ففرّق (١) بين عافيتي وبيني

أتى الحمى وقد شاخت وباخت
فرد لها الشباب بنسختينِ

ودبّرها بتدبير لطيف
حكاه عن سنان أو حنينِ

وكانت نوبة في كل يوم
فصيّرها بحذقٍ نوبتينِ

ثم دخلت سنة اثنتين وستين :

ففيها : غرة ربيع الأول توفي بمرو ، الحافظ الكبير أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني صاحب (الأنساب) رحمه الله (١) .

---

(١) في الروضتين ١ : ١٤٢ (يغرق) .

(٢) هو : الحافظ أبو سعد السمعاني تاج الاسلام عبدالكريم بن محمد بن منصور المروزي ، الشافعي ، صاحب الأنساب (ت ٥٦٢ هـ) . انظر الروضتين ١ : ١٤٩ ، الأنساب ١ : ٢٧ ، شذرات الذهب ٤ : ٢٠٥ — ٢٠٦ .

وفيها : (١) عاد أسد الدين إلى مصر تاسع ربيع الآخر وسيّر معه نور الدين جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف ، وهذه هي النوبة الثانية (٢) . وهي المعروفة بوقعة البابين (٣) وكان أسد الدين قد اشتد طمعه في البلاد لمّا دخلها وكشفها ، فكان أبداً يتحدث بالعزم على العود إليها ، وبلغ ذلك شاور ، فقرّر مع الفرنج العود إليه ليساعدوه فوصلوا بعد أن وصلها أسد الدين ، وتصرّف في البلاد الغربية ، وأقام بها نيفاً وخمسين يوماً . وسار نحو الصعيد بعسكره ، وسارت العساكر / المصرّية والفرنج وراءهم فثبتوا لهم ، فوقعت [٢٣/ ظ] الوقعة بموضع يعرف بالبابين فانهزم المصريون والفرنج ، وهذه الوقعة من عجيب مايؤرخ ، وذلك أن ألفي فارس بعيدة عن بلادها ، هزمت عساكر مصر في بلادها ، وفرنج الساحل ، ثم سار أسد الدين إلى الإسكندرية وجبى مافي طريقها من القرايا ، والسواد من الأموال وسلم الإسكندرية أهلها إليه ، فاستناب بها صلاح الدين ، وعاد هو إلى الصعيد ، وتملكه ، وجبى خراجه . وأمواله ، وأقام به حتى صام شهر رمضان ، ثم تجمع الفرنج والمصريون ، وحصروا الإسكندرية ، فسار أسد الدين نحوهم ، فجاءته رسل المصريين والإفرنج ، يطلبون

---

(١) انظر الكامل ١١ : ٣٢٤ - ٣٢٨ ، الباهر ١٣٠ - ١٣٤ ، في النوادر السلطانية (اثني عشر ربيع الأول) ص ٢٤ - ٢٥ ، الروضتين ١ : ١٤٢ - ١٤٣ ، في سنا البرق : (في النصف من ربيع الأول) ص ٦٣ - ٦٦ ، تاريخ حلب ٢ : ٦٨٦ - ٦٨٨ ، الأخبار السنية ١٢٣ - ١٢٦ .

(٢) في حاشية الأصل ٢٣/ظ عبارة : (عود أسدالدين شيركوه الى مصر المرة الثانية).

(٣) وقعت المعركة تحت أسوار الفسطاط وعرفت المعركة بوقعة البابين . والفسطاط (في ياقوت) قيل لمدينة مصر التي بناها عمرو بن العاص الفسطاط .

الصلح ، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ماأخذوه من البلاد ، فأجابهم ، وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصرَ . ولا يتسلّمون منها قرية واحدة ، وعاد إلى الشام ، فوصلها ثامن عشر ذي القعدة ، وأنفذ الكامل بن شاور مالاً جزيلاً إلى نور الدين . وسأله إصلاح الحال ، وجمع كلمة الإسلام وبذل مالاً يحمله كل سنة . فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها ، فكان مانذكره في أخبار سنة أربع وستين .

قال القاضي ابن شداد: في أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المنيطرة (١) بعد مسير أسد الدين في شهر رجب ، وخرب قلعة أكاف (٢) بالبرية . وفي رمضان منها ، اجتمع نور الدين ، وأخوه قطب الدين ، وزين الدين بحماة للغزاة ، وساروا إلى بلاد الفرنج فخرّبوا هونين (٣) في شوال منها .

قال ابن الأثير : أرسل نور الدين إلى أخيه قطب الدين ، أن يعبر الفرات إليه بعساكره فسار هو وزين الدين في العساكر الكثيرة ، حتى اجتمعوا بنور الدين على حمص ، فدخل بالعساكر الإسلامية بلاد الفرنج واجتاز على حصن الأكراد (٤) فأغاروا ، ونهبوا ، وسبوا وقصدوا عرقة (٥) ونزلوا عليهـا ، وحصروها ، وحصروا جلبة (٦)

---

(١) انظر تعريفنا لها في حاشيتنا رقم (٢) ص ٢٧٩ .

(٢) أكاف : لم أعثر على تعريف لها . والمرجح أنها في المنطقة الجنوبية الغربية وأقرب الى الساحل السوري منها الى الداخل .

(٣) انظر تعريفنا لها في حاشيتنا رقم (٣) ص ٢٤٢ .

(٤) انظر تعريفنا لها في حاشيتنا رقم (٤) ص ٢٥٦ .

(٥) انظر تعريفنا لها في حاشيتنا رقم (٥) ص ١٩٠ .

(٦) جلبة : لم أعثر على تعريف لها ، والمرجح أنها واقعة بين عرقة والعديمة في المنطقة الساحلية الجنوبية من سوريا .

وأخربوها ، وتوجهت عساكر المسلمين يميناً وشمالاً تغير وتنهب وتخرب البلاد ، وفتح العُريمة (١) وصافيتا (٢) ، وعاد إلى حمص فصام بها شهر رمضان ، ثم سار إلى بانياس (٣) وقصد قلعة هونين وهي للفرنج أيضاً ، فانهزم الفرنج عنها وأحرقوها ، فوصلها نور الدين من / الغد وخرّب سورها جميعه ، وأراد الدخول إلى بيروت ، [٢٤/و] فتجدّد في العسكر خُلْفٌ أوجب التفريق، فعاد وسار قطب الدين إلى الموصل ، وأقطعه مدينة الرقة فأخذها في طريقه .

وفي شعبان من هذه السنة قدم العماد الكاتب الأصفهاني (٤) دمشق ، فأنزله القاضي كمال الدين الشهرزوري (٥) بالمدرسة النورية (٦) بباب

---

(١) انظر تعريفنا لها في حاشيتنا رقم (٤) ص ٢٠٩ .

(٢) صافيثا: بالعربية صافيتا Safita وصافيثا وبرج صافيتا Burg. as-safita بالفرنجية القصر الأبيض Chstel Blanc . الوصف : بلدة صغيرة وقلعة في عمق المنطقة الساحلية من سوريا ، تقع على ارتفاع ١٠٠٠ قدم فوق سطح البحر وتربض فوق هضبة مستديرة صخرية في الشعاب الجنوبية لجبال (النصيرية ...) . انظر القلاع أيام الحروب الصليبية ص ٦٣ .

(٣) انظر تعريفنا لها في حاشيتنا رقم (٥) ص ٢٢١ .

(٤) هو : عمادالدين أبو عبدالله محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد ابن نفيس الدين أبي الرجاء حامد بن محمد عبدالله بن علي بن محمود بن هبه الله ابن أله الكاتب الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ) . انظر : سنا البرق الشامي ٧ – ١٠ و ٦٦ ، خريدة القصر ١٠ – ١٧ ، الروضتين ١ : ١٤٤ ، الذيل على الروضتين ٢٧ ، البداية والنهاية ج ١٢ : ٢٥٣ ، شذرات الذهب ٤ : ٣٣٢ – ٣٣٣ .

(٥) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم (١) ص (٢٤٥) .

(٦) المدرسة النورية : هي من دور الحديث ، أنشأها نورالدين محمود بن زنكي لهذا الغرض ، تولى مشيختها في عصره الحافظ أبو القاسم بن عساكر (ت ٥٧١ هـ) وهذه هي النورية الكبرى وفيها قبر نورالدين . أما النورية الصغرى فهي في العصرونية بين دار الحديث الأشرفية ومدرسة العصرونية أمام العادلية الصغرى ، وقد حرقت في الحريق الأخير . انظر خطط الشام ٦ : ٧٤ .

الفرج (١) وهي المعروفة بالعمادية نسبة إلى العماد الكاتب هذا ، وذكر القاضي لنور الدين حاله وعرّفه به ، وعرض عليه قصيدة له في مدحه منها (٢) :

قد جاءكم نور من الله فمن
به اهتدى فإنه رشيدُها

جلا ظلامَ الظلم نورُ الدين عن
أرض الشآم فله تحميدُها

قد أسبغ الله لنا بِعَدله
ظلال أمن وافرٍ (٣) مديدُها

ودأبهُ ثلم ثغور الكفر لا
لثم ثغور نافع برودُها

يابن قسيم الدولة المَلك الذي
خرَّت له من الملوك صِيدُها (٤)

---

(١) باب الفرج : يقع إلى الشمال من باب الفراديس – باب الحديد الموجود في محلة العمارة – وهو محدث أحدثه الملك العادل نور الدين وسماه بهذا الاسم تفاؤلا لما وجد من الفرج بفتحه ، وكان بغربه باب يسمى باب العمارة فتح عند عمارة القلعة ثم سد بعد . وأثره باق في السور . أنظر : تهذيب تاريخ دمشق الكبير ١ : ٢٦٣ .

(٢) انظر القصيدة كاملة في الروضتين ١ : ١٤٨ – ١٤٩ (لكنه ذكر البيت الرابع قبل البيت الثالث ، والثامن قبل الخامس) ، سنا البرق ٦٦ .

(٣) في الروضتين ١ : ١٤٨ (وارف) .

(٤) الصيد جمع الأصيد : وهو الذي يرفع رأسه كبراً ، ومنه قيل للملك : أصيد لأنه لا يلتفت يميناً ولا شمالاً . انظر : لسان العرب .

مامثل الدنيـــا لمن يجمعهـــا
بالحرص إلا قزّةٌ ودودُهـــا

أنت (١) الذي ترفُضها عن قدرةٍ
فـــلا يشوب زهدَهُ زهيدُها

وإن مصراً لك تعنـــو بعـــدما
لسيفك الصعب (٢) عنا صعيدُها

فرتبه نور الدين في ديوانه منشئاً لاستقبال سنة ثلاث وستين بعد أن استعفى كاتبه أبو اليسر شاكر بن عبدالله من الخدمة وقعد في بيته .

ثم دخلت سنة ثلاث وستين :

فذكر العماد (٣) أنّ نور الدين رحل إلى حمص ، ثم مضى إلى حماة ، ثم شتى بقلعة حلب وكان الأمير غازي بن حسان صاحب منبج ، قد ساءت أفعاله ، فبعث إليه نور الدين من حاصره وانتزعها منه وأعطاها لأخيه ينال بن حسان (٤) وكان بالرها فنقله

---

(١) في الروضتين ١ : ١٤٩ (أين) .

(٢) في الأصل ٤٧ / ظ (العضب) ، وثبتنا ما هو صحيح عن الروضتين ١ : ١٤٨ .

(٣) انظر الخبر مطولاً في سنا البرق ٦٧ – ٦٩ ، الباهر ١٣٢ ، الروضتين ١ : ١٥٠ ، تاريخ حلب ج ٢ : ٦٨٨ – ٦٨٩ (ويذكر الحدث في سنة ٦٦٢ هـ) .

(٤) في سنا البرق ص (٦٩) يذكر أنه (أعطاها لقطب الدين ينال بن حسان عم غازي صاحب منبج) ، وهذا تصحيف فهو شقيق غازي . انظر الباهر ١٣٢ ، الروضتين ١ : ١٥٠ ، تاريخ حلب ج ٢ : ٦٨٩ .

إليها مقطعاً . وأقام نور الدين بقلعة الرها مدة ، فمدحه العماد بقصيدة ذكر فيها معظم أخلاقه الحسنة (١) :

يامحيي العدل الذي في ظلـــه
من عدله رعت الأسود مع المها

يامن أطاع الله في خلـواته
متأوباً من خـوفه متأوهاً

[٢٤/ظ] / أبداً تُقَـدم في المعاش لوجهـه
عملاً يبيض في المعاد الأوجُها

ماصين عناك الصين لو حاولتهـا
والمشرقان فكيف منبـج والرها

إن الملوك لَهَوْا وإنّك من غـدا
وبماله والملك عنه (٢) ما لها

شرهت نفوسهم إلى دنيـاهم
وأبى لنفسكَ زهدها أن تَشْرَها

مانمتَ عن خير ولم يك نائمـاً
من لايزال على الجميل منبّها

وبما به أمر الإلـه أمرتهم
من طاعةٍ ونهيتهم عمّـا نهى

---

(١) انظر القصيدة كاملة في الروضتين ١ : ١٥٠ – ١٥١ ، سنا البرق ٦٩ .
(٢) في الروضتين ١ : ١٥٠ (منه .

أتعبتَ نفسك كي تنالَ رفـــاهةً
من ليس يتعب لايعيش مرفها
وأراكَ تحلم حين تصبح ساخطـاً
ويكاد غيرك ساخطاً أن يسفها

وفي ذي الحجة من هذه السنة (١) : توفي زين الدين علي بن بكتكين والد مظفر الدين صاحب إربل (٢) وذلك بعدما هرم وأصابه عمى وصمم ، وكان خيّراً عـادلاً حسن السيرة جواداً ، وبنى مدارس وربطاً . رحمه الله .

ثم دخلت سنة أربع وستين :

ففي أولها (٣) : ملك نور الدين قلعة جعبر وهي التي قُتل أبوه على حصارها كما تقدم (٤) ، وصعد نور الدين إليها ، فأنشده العماد بها قصيدة منها : (٥)

---

(١) انظر الخبر مطولا في الباهر ١٣٥ - ١٣٦ ، النوادر السلطانية ٢٥ ، الروضتين ١ : ١٥٢ .

(٢) إربل (في ياقوت) اسم لمدينة صيداء التي بالساحل من أرض الشام عن نصر ، وتلقنه عنه الحازمي ، والله أعلم .

(٣) انظر الخبر مطولا في الباهر ١٣٦ - ١٣٧ ، الكامل ١١ : ٣٣٤ ويذكر ابن الأثير بدء أحداثها في سنة ٥٦٣ هـ وأنه تسلمها في أول سنة ٥٦٤ هـ) ، سنا البرق ٧١ - ٧٣ ، الروضتين ١ : ١٥٢ ، وفي تاريخ حلب ج ٢ : ٦٨٩ يذكر أنه (ملكها سنة ٥٦٣ هـ صلحاً) .

(٤) انظر الخبر في الأصل (٤ / و ظ) ص ٢٧٧ - ٢٧٩ .

(٥) انظر سنا البرق ٧٣ ، الروضتين ١ : ١٥٣ .

يامحيي العـــدل بعد ميتتـــه

ورافع الحـــق بعـــدما اتضعا

ونور دين الهدى الذي قمع الشـ . . .

ـرك وعفّى الضلال والبدعا

حزت التقى(١) والحياء والكرم الـ . . .

مَحْضَ وحسن اليقين والورعا

أسقطت أقساط ماوجدت من الـ . . .

مكس بعدلٍ والقاسط ارتدعـا

ولم تدع في ابتغاء مصلحة الديـ...

...ـن لنـا باقيـاً ولن تدعـا

وكل مافي الملـــوك مفـــترق

من المعـــالي لملكك اجتمعـا

همتّك الربط (٢) والمدارس تبنيـ...

...ـها ثواباً وتهـدم البيعـا

---

(١) في الروضتين ١ : ١٥٣ (البقا) .

(٢) الربط : مفردها : الرباط ويقال في جمعها رباطات ، ويقال للرباط التكية بالتركية قال الأميري : (والخانقاه بالكاف يعني الخانكاه وهي بالعجمية دار الصوفية ولم يتعرضوا للفرق بينهما وبين الزاوية والرباط وهو المكان المسبل للأفعال الصالحة والعبادة ... وكان لنورالدين محمود بن زنكي يد طولى في الاستكثار من الربط والخوانق بني منها في جميع مملكته للصوفية ووقف عليها الوقوف الكثيرة وأدر عليها الإدرارات الصالحة ... ويؤخذ مما قاله المقريزي : أن الرباط دار يسكنها أهل طريق الله ، والرباط والمرابطة ملازمة ثغر العدو ثم صار لزوم الثغر رباطاً ، والرباط المواظبة على الأمر ، وقيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط ، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه ، والمقيم في الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاد عن العباد والبلاد ، فالرباط بيت الصوفية ومنزلهم ، ولكل قوم دار والرباط دارهم) . خطط الشام ٦ : ١٣٤ ، المقريزي : الخطط ٢ : ١٢٧ ، في رحاب دمشق ٦٧ — ٧٩ .

وفي هذه السنة (١) فتحت الديار المصرية : سار إليها أسد الدين مرة ثالثة ، فهزم العدو ، وقتل شاوراً وولي مكانه ، ثم مات فوليها صلاح الدين؛ وسبب ذلك أن الفرنج كانوا في النوبتين الأوليين اللتين استعان بهم شاور فيهما (٢) / على أسد الدين ، قد خبروا الديار [٢٥/و] المصرية واطّلعوا على عوراتها ، فطمعوا فيها ، ونقضوا ماكان استقر بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد ، فجمعوا وأظهروا أنهم على قصد حمص ، وتوجهوا من عسقلان (٣) في النصف من المحرم ، ووصلوا أول يوم من صفر إلى بلبيس (٤) فملكوها قهراً ، ونهبوها وسبوا أهلها ، وأقاموا بها خمسة أيّام ، ثم أقاموا على القاهرة وحصروها عاشر صفر فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبيس، فحفظوا البلد ، وقاتلوا دونه(٥) ، وأحرق شاور مصر خوفاً عليها من الفرنج ، وأخذ في مراسلة الفرنج في الصلح ، وجمع لهم مالاً ، فأرسل العاضد (٦) خليفة مصر إلى

---

(١) انظر : الكامل ١١ : ٣٣٥ – ٣٤١ ، الباهر ١٣٧ – ١٤٠ ، الروضتين ١ : ١٥٤ – ١٧٤ ، سنا البرق ٧٤ – ٨٠ ، السلوك ج١ ق١ : ٤٣ – ٤٩ ، تاريخ حلب ٢ : ٦٩٠ – ٦٩٤ ، الأخبار السنية ١٣١ – ١٣٧ .

(٢) في حاشية الأصل ٢٥ / و عبارة : (أخذ مصر من الفرنج) .

(٣) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم (٣) ص ٢٢١ .

(٤) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم (٢) ص ٢٦٧ .

(٥) في حاشية الأصل ٢٥ / ظ العبارة : (في إحراق مصر) .

(٦) هو العاضد لدين الله، أبو محمد الإمام عبدالله بن يوسف ابن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبدالمجيد بن أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد ابن الظاهر لاعزاز دين الله أبي الحسن بن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور بن العزيز بالله أبي منصور بن نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد بن المنصور بالله أبي الظاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد ابن المهدي بالله أبي محمد عبيدالله، وهو أول العلويين من هذا البيت الذين خطب لهم بالخلافة، وخوطبوا بإمرة المؤمنين . توفي العاضد سنة ٥٦٧ هـ يوم عاشوراء من هذه السنة .

انظر الكامل ج ١١ – ٣٦٨ ، البداية والنهاية ج ١٢ : ٢٦٤ – ٢٦٨ ، شذرات الذهب ج ٤ : ٢١٩ – ٢٢٠ ، الروضتين ١ : ١٩٩ ، والأصل ٢٥ / ظ .

نور الدين يستغيث به ، وبذل له ثلث ديار مصر ويكون أسد الدين شيركوه مقيماً عنده في عسكر وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثُلث الذي لنور الدين ، فجهز نور الدين مع أسد الدين العسكر ، ورحلوا على قصد مصر ، مستنزلين من الله تعالى النصر ، وذلك منتصف ربيع الأول . وخيّم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء (١) ، وأقام ينتظر ورود المبشرات ، فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم لمّا سمعوا بوصول عسكر نور الدين ، ووصل أسد الدين إلى القاهرة سابع ربيع الآخر (٢) ، واجتمع بالعاضد خليفة مصر ، فخلع عليه وأكرمه ، وأُجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة ، ثم شرع شاور يماطل أسد الدين في تقرير ماكان بُذل له من المال والإقطاع للعساكر وإفراد ثلث البلاد لنور الدين ، فاتّفق صلاح الدين وعز الدين جُرديك النوري وغيرهما من الأمراء على قبض شاور فبغتوه في موكبه وقبض عليه وأُكفي عن فرسه وسجن في خيمة ،

---

(١) يذكر البنداري في سنا البرق ص ١٧٧ (أن نورالدين خيم فيمن معه برأس الماء نازلا بمنزلة الفقيع) .

ورأس الماء بين بلدة جاسم وبلدة نوى الى الشمال الشرقي من تل يطلق عليه اسم (تل الهش) ، ويخرج من هذا النبع وادٍ يطلق عليه اسم الفقيع يمر بقرية تحمل هذا الاسم وتقع الى يمين طريق دمشق درعا وتبعد ٧٠ كم عن دمشق ، (زيارة ميدانية) .

(٢) في سنا البرق ٧٧ (سابع عشر ربيع الآخر) وفي الكامل ١١ : ٣٣٩ كان وصوله إلى القاهرة (سابع جمادى الآخر) وفي الباهر ١٣٩ (وصل إلى القاهرة سابع ربيع الآخر ودخلها) ، وفي النوادر السلطانية ٢٦ — ٢٧ (وكان وصولهم إلى مصر في أثناء ربيع الأول) وفي الروضتين ١ : ١٥٦ (وصل أسد الدين القاهرة سابع ربيع الآخر ...) فما جاء في الكامل تصحيف لأن ابن الأثير يذكر التاريخ الصحيح (في الباهر) لوصول أسدالدين ، أما العماد : فربما اختلط عليه الامر بين تاريخ مقتل شاور وبين دخول أسدالدين إلى القاهرة .

فأرسل العـــاضد في الوقت إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور ، فقتل سابع عشر ربيع الآخر ، وحُمل رأسه إلى القصر ، فأنفذ إلى أسدالدين خلعة الوزارة ، فلبسها وسار ودخل القصر وترتب وزيراً ، وتلقب بالملك المنصور أمير الجيوش فأقام في الوزارة شهرين وخمسة أيام ثم توفي فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من شهر جمادى الآخرة ، وفوّض الأمر بعده إلى ابن أخيه / صلاح الدين . [٢٥/ظ]

(١) قال القاضي ابن شداد: فاستتبت الأحوال على أحسن نظام، وبذل المال ، وملك الرجال وهانت عنده الدنيا ، فملكها وشكر نعمة الله عليه ، فتاب عن الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجدّ والاجتهاد ، وما عاد عنه ولا ازداد إلاّ جداً إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته . ولقد سمعت منه رحمه الله يقول (١) : لمّا يسّر الله تعالى بالديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل، لأنه أوقع ذلك في نفسي . قال : ومن حين استتب له الأمر ما زال يشن الغارات على الفرنج إلى الكرك (٢)

---

(١) في حاشية الأصل ٢٦ / والعبارة (وصف السلطان صلاح الدين بن يوسف بن أيوب مديحاً) .

(١) انظر : النوادر السلطانية ٢٦ – ٢٧ ، الروضتين ١ : ١٦٠ – ١٦١ .

(٢) بالعربية : الكرك ، باليونانية : كراكموبا **charachmoba** ، بالفرنجية – اللاتينية : كراك دومونتريال **de Montréal Le Crac** أوبيترا ديزرتي **Petra deserti** ، سيفيتلس بيترًاسنسيس **Civitas Petracensis**

الوصف : مدينة وقلعة في جنوبي الأردن على بعد عشرة أميال تقريباً إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت تقع فوق أنف جبل صخري تنحدر سفوحه من الجانبين بشدة حتى وادي الكرك الذي ينشعب الى وادي الست ووادي الفرنجة أسفل المدينة الحصينة تماماً ، وإلى الجنوب من المدينة مباشرة تنتصب القلعة ذاتها وتحميها من الهجوم من الاتجاه الوحيد الصالح من جهة الأرض المرتفعة المجاورة ...) . انظر تعريفها مفصلا في القلاع أيام الحروب الصليبية ص ٥٥ .

والشوبك (١) وبلادهما وغشى الناس من سحائب الأفضال والنعم مالم يؤرخ من غير تلك الأيام ، هذا كله وهو وزير تابع للقوم . وهم على تلك البدعة (٢) المعروفة منهم لكنه ناشر لمذهب أهــل السنة ، غارس في البلاد أهل العلم والفقه والتصوف. والدين والناس يهرعون إليه من كلّ صوب ، ويفدون إليه من كل جانب ، وهو، رحمه الله ، لايخيّب قاصداً .

والحافظ أبي القاسم بن عساكر مؤرخ دمشق وحافظها من قصيدة يهنىء بها نور الدين ، رحمه الله ، باستيلاء عسكره على مصر . وكان قد أعفى أهل دمشق من المطالبة والخشب (٣) :

لما سمحتَ لأهلِ الشّام بالخشــبِ

عوّضتَ مصر بما فيها من النَّشَبِ

(١) الشوبك : بالفرنجية **Montreal** مونتريال : بلد صغير كثير البساتين ، معظم ساكنيه من النصارى ، وهو شرقي الغور على طرف الشام من جهة الحجاز ، وينبع من ذيل قلعتها عينان إحداهما عن يمين القلعة والأخرى عن يسارها ، كالعين للوجه وتخترقان بلدتها ومنهما تشرب بساتينها . وهي في وادٍ من غربي البلد وفواكهها من المشمش وغيره مفضلة وتنقل الى ديار مصر ، وقلعتها مبنية بالحجر الأبيض وهي على تل مرتفع أبيض مطل على الغور من شرقيه) . انظر (تقويم البلدان لأبي الفداء ص ٢٢٥)، (القلاع أيام الحروب الصليبية ٢٤) .

(٢) قصد : تشيعهم للفاطميين .

(٣) انظر القصيدة في الخريدة ج ١ : ٢٧٦ — ٢٧٧ ، الروضتين ١ : ١٥٩ — ١٦٠ .

ومنها :

فأحزَمُ الناس مَنْ قوّى عزيمته
حتى ينالَ بها العالي من الرتَبِ

فالجِدُّ والجَدُّ مقرونان في قَرَنٍ
والحزم في العزم والإدْراكُ بالطلبِ

قال ابن الأثير : (١) وثبت قدم صلاح الدين ، ورسخ ملكه ، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين ، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ، ولا يتصرفون إلا عن أمره .

وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين في تلك الحال بالأمير الأسَفَهْسَلاّر (٢) ، ويكتب علامته في الكتب تعظيماً أن يكتب اسمه ، ولا يفرده بكتاب ، بل يكتب الأمير الأسفسهلاّر صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية / يفعلون كذا وكذا . قال : واستمال [٢٦/ و] صلاح الدين قلوب الناس وبذل لهم الأموال ، مما كان أسد الدين قد جمعَهُ ، وطلب من العاضد شيئاً يخرجه فلم يمكنه منعه ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمرِ والثبات فيه ، وضعف أمر العاضد ، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه ، وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يسيِّر إليه إخوته فقال : أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فيفسد البلاد . ثم إن الفرنج اجتمعوا

(١) انظر : الباهر ١٤٢ – ١٤٣ .

(٢) الاسفهسلار : هو زمام كل زمام وإليه أمور الأجناد . انظر الخطط المقريزية ١ : ٤٠٣ .

ليسيروا إلى مصر . فسيّر نور الدين . رحمه الله ، العساكر وفيهم إخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب (١) ، وهو أكبر من صلاح الدين . فلمّا أراد أن يسير قال له : إن كنتَ تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فــلا تَسِرْ ، فإنّكَ تفسد البلاد وأُحضِركَ حينئذ وأعاقبكَ بما تستحقه ، وإنْ كنتَ تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني فسِر إليه واشدد أزره ، وساعدهُ على ماهو بصدده فقال : أفعلُ معه من الخدمة والطاعة مايصل إليك إن شاء الله تعالى . فكان كما قال .

وقـــال العماد : (٢) وشرع صلاح الدين في نقض إقطاع المصريّين فقطع منهم الدابر من أجل منْ معه من العساكر ، وكان بالقصر خصي يُدعَى مؤتمن الخلافة (٣) متحكّم في القصر فاجتمع هو ومن معه على أن يكاتبوا الفرنج ويقبضوا على الأسدية والصلاحية ففعلوا ، وعلم صلاح الدين فترّبص بالمؤتمن خروجه من القصر ، وكان له بقرب قليوب(٤) قصر فخلا فيه يوماً للذته فأنهض إليه صلاح الدين

---

(١) هو : فخرالدين تورانشاه بن أيوب بن شاذي شقيق صلاح الدين وفاتح اليمن (ت ٥٧٦ هـ) بالاسكندرية . انظر : الروضتين ١ : ٢١٦ ، سنا البرق ١٤٠ ، الخطط المقريزية ٢ : ٣٧ — ٣٨ : البداية والنهاية ج١٢ ص٣٠٦ .

(٢) انظر الخبر في : سنا البرق ٨١ — ٨٤ ، الروضتين ١ : ١٦١ — ١٦٢ ، الأخبار السنية ١٤٠ — ١٤٢ .

(٣) هو : مؤتمن الخلافة جوهر أحد الأستاذين المحنكين بالقصر . انظر الخطط المقريزية : ج ٢ ص ٢ .

(٤) كانت له منظرة بناها بناحية الخرقانية في بستان. الخطط المقريزية : ج٢ ص ٣ .

من أخذ رأسه ، ولمّا قتل غار السودان وثاروا وكانوا أكثر من خمسين ألفاً ، وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه فحسبوا أنّ كل بيضاء شحمة . فثار إليهم أصحاب صلاح الدين واتصلت الحرب بين القصرين يومين فهُزم السودان وأُخرجوا إلى الجيزة (١) وأُخربت محلة لهم كانت على باب زويلة (٢) ولم يجدوا إلى الخلاص سبيلاً وأينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً .

/ ومما نظمه العماد الكاتب قصيدة حسنة في مرثية أسد الدين [٢٦/ظ] وولاية صلاح الدين منها (٣) :

أيا يوسف الإحسان والحسن خير من
حوى الفضل والإفضال والنّهيَ والأمرا

أبوه أبى إلا العلاء (٤) وعمّه
بمعروفه عمّ الورى البدو والحضرا

ولمّا رأى الدنيا بعين ملالة
أغذّ من الأولى المسير (٥) إلى الأخرى

---

(١) الجيزة : قرية كبيرة جميلة البنيان على النيل من جانبه الغربي تجاه مدينة الفسطاط بمصر . انظر الخطط المقريزية :ج١ ص ٢٠٥ .

(٢) لما نزل القائد جوهر بالقاهرة اختطت كل قبيلة خطة عرفت بها ، فزويلة بنت الحارة المعروفة بها والبئر التي تعرف ببئر زويلة في المكان الذي يعمل فيه الآن — أي زمن المقريزي — الروايا والبابان المعروفان ببابي زويلة . انظر الخطط المقريزية : ج٢ ص ٤ .

(٣) انظر القصيدة في : الروضتين ١ : ١٧٩ .

(٤) في الروضتين (المعالي) .

(٥) في الروضتين (مسيرا) .

وقــام صلاح الدين بالملك كـــافلا
وكيف ترى شمس الضحى يخلف البدرا
ولمّا صبت مصر إلى عصر يوســـف
أعاد إليها اللّـــه يوسف والعصـــرا
وأجرى (١) بها من راحتيـــه بجـــوده
بحاراً فسمّاها الورى أنمـــلاً عشرا
فلا تهملوا (٢) البيت المقدس واعزموا
على فتحه غازين وافترعوا البكرا
يديمون بالمعـــروف طيب ذكركـــم
وما المُلْكُ إلاّ أن تديموا لكُم ذكرا

ثم دخلت سنة خمس وستين (٣) :

ففي أولها :(٤) خرج نور الدين إلى داريا ، فأعاد عمارة جامعها ، وعمر مشهد أبي سليمان الداراني . رحمه الله .

وفي أول صفر نزل الفرنج خذلهم الله على دمياط .

قال ابن الأثير : كان فرنج الساحل لمّا ملك أسد الدين مصر قد

(١) في الروضتين (فأجرى) .
(٢) في الروضتين (ولا) .
(٣) في حاشية الأصل : « عمر مشهد أبي سليمان الداراني نورالدين الشهيد » .
(٤) الكامل ج ١١ / ٣٥١ — ٣٥٢ ، الباهر ١٤٣ — ١٤٤ ، النوادر السلطانية : ٢٧ ، الروضتين ١ / ١٨٠ — ١٨١ ، سنا البرق : ٨٦ — ٨٨ ، الأخبار السنية : ١٤٢ — ١٤٤ .

خافوا ، فكاتبوا فرنج الأندلس وصقلية يستمدونهم ويعرفونهم ماتجدد من ملك مصر وأنهم خائفون على البيت المقدس من المسلمين ، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح ، واتّعدوا على النزول على دمياط (١) ظناً منهم أنهم يملكونها ، ويتخذونها ظهراً . يملكون به ديار مصر ، فحصروها وضيقوا ، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ماهو فيه من المخاوف ، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج ، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء وخرجوا من طاعته ، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه ، فجهز نورالدين / إليه العساكر إرسالاً كلّما [٢٧/و] تجهزت طائفة أرسلها ، فساروا إليه يتلو بعضها بعضاً ، ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر ، فدخل بلاد الفرنج فنهبها ، فلمّا رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر بدخول نور الدين بلادهم ونَهْبِها وإخرابها رجعوا خائبين ، وكان مدّة مقامهم على دمياط خمسين يوماً .

قال القاضي ابن شداد : لمّا نزل الفرنج على دمياط سرق فرنج الشام حصن عـكار (٢) من المسلمين وأسروا صاحبهُ (٣) ولما رأى

---

(١) دمياط : مدينة قديمة بين تنيس ومصر ، على زاوية بحر الروم الملح (الأبيض المتوسط) والنيل ، وهي ثغر من ثغور الإسلام .

(٢) حصن عكار : قلعة صغيرة خربة الآن تقع في شمالي لبنان ، على بعد نحو ٢٥ ميلا الى الشمال الشرقي من طرابلس ، تربض فوق جرف جبلي على السفوح الشمالية لجبل عكار (القلاع أيام الحروب الصليبية ص : ٦٠) .

(٣) واسمه خطلخ العلمدار ، وذلك في ربيع الآخر من هذه السنة ، وكان مملوكاً لنورالدين (النوادر السلطانية : ٢٧ ، الروضتين ١ /١٨٠) .

نور الدين ظهور الفرنج ، قصد شغل قلوبهم ، فنزل على الكرك محاصراً لها ، فقصده فرنج الساحل فرحل عنها ، وقصد لقاءهم فلم يقفوا له ، ثم بلغه وفاة نائبه مجد الدين ابن الداية بحلب والزلزلة التي أخربت كثيراً من البلاد ووفاة أخيه قطب الدين بالموصل .

قال العماد : لما وصل خبر نزول الفرنج على دمياط اهتمّ واغتمّ ، وأنهض عسكراً ثقيلاً مقدمه الأمير قطب الدين خُضر والهذياني ، فوصل قبل رحيل الفرنج بأسبوع .

قال المؤلف (١) : وبلغني من شدة اهتمام نور الدين ، رحمه الله ، بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرىء بين يديه جزء حديث له كان له به رواية ، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسُّم ، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتبسم ليتم السلسلة على ماعُرف من عادة أهل الحديث فغضب من ذلك ، وقال : إني لأستحيي من الله تعالى أن يراني مُبتسماً والمسلمون محاصَرون بالفرنج . وبلغني أيضاً (٢) : أن إماماً لنور الدين ، رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي صلّى الله عليه وسلم ، فقال له : أعلمْ نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة ، فقال : يارسول الله ربما لايصدقني ، فاذكر لي علامة يعرفها ، فقال : قل له بعلامة ماسجدت على تل حارم ، وقلت يارب انصر

---

(١) في حاشية الأصل ٢٧ / ظ العبارة : (في اهتمام السلطان نورالدين بأمر المسلمين سراً وجهراً) .

(٢) في حاشية الأصل ٢٧ / ظ العبارة : (في صلاح الايمان لنورالدين الشهيد (غير واضحة) برحيل الافرنج (غير مفهومة) الرؤيا (مشوهة)) .

دينك ولا تنصر محموداً . من هو محمود الكلب حتى يُنصر ؟
قال : فانتبهت ، ونزلت إلى المسجد وكان من عادة نور الدين أنه
ينزل إليه بغلس (١) ولا يزال يتركع فيه حتى يصلي الصبح قال :
فتعرضت له فسألني عن أمري فأخبرته بالمنام ، وذكرت له / العلامة [٢٧/ظ]
إلاّ أنني لم أذكر لفظة الكلب . فقال نور الدين، رحمه الله : أذكر
العلامة كلها ، وألحَّ عليّ في ذلك فقلتها فبكى رحمه الله وصدّق
الرؤيا ، فـأَرَّخْتُ تـلكَ الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج فيها .

* * *

فصل :

وفي هذه السنة (٢)، سار نجم الدين أيوب والد صلاح الدين إلى
مصر بباقي أولاده وأهله ، واجتمع معهم من التجار، وممّن كان له
مع صلاح الدين أنس ومودّة ، خلقٌ ، فخاف نور الدين عليهم
من قصد الفرنج لهم فشيعهم ، ثم توجه إلى الكرك فحاصرها ،
فوصل الخبر أن الفرنج تجمّعوا في مائتي فارس وألف تركبلي(٣)
وخلق كثير من الرجالة فرحل نحوهم نور الدين ، فرجعوا فتوسط

---

(١) الغلس: ظلام آخر الليل، وأول الصبح حتى ينتشر في الآفاق . انظر لسان العرب .

(٢) انظر : الكامل ١١ : ٣٥٢ — ٣٥٣ ، الباهر ١٤٤ ، النوادر السلطانية ٢٨ ، الروضتين ١ : ١٨٣ — ١٨٤ ، سنا البرق ٨٩ ، تاريخ حلب ٢ : ٦٩٣ — ٦٩٤ ، الأخبار السنية ١٤٤ — ١٤٥ .

(٣) تركبلي : تعريب **Turcopoll** : هم جند في خدمة الفرنج ، آباؤهم أتراك أوعرب وأمهاتهم يونان : انظر الحاشية رقم ٤ ص ١٤٤ في الباهر .

بلادهم ، ونهب ماكان على طريقه . ونزل بِعَشْتَرا (١) وأقام ينتظر حركة الفرنج ، ليلقاهم فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه .

وأمّا نجم الدين أيوب فإنّه فرق موجوده قبل رحيله من دمشق ، ووصل إلى مصر في (السابع والعشرين) (٢) من رجب ، وخرج العاضد بنفسه لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح (٣) عند شجرة الاهليلج (٤) ، ولم تجر بذلك عادة لهم ، وكان من أعجب يوم شهده الناس ، وخلع العاضد عليه ولقبه الملك الأفضل ، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا ، وأظهر السلطان من برّه وتعظيم أمره ، ماأحرز

---

(١) عشترا : (في ياقوت) : بفتح أوله وسكون ثانيه ، وفتح التاء المثناة من فوق ثم الراء،والقصر : موضع بحوران من أعمال دمشق . نقول : تقع على الطريق الذاهب من مدينة نوى في حوران باتجاه بحيرة المزيريب والى الجنوب من قرية الشيخ سعد وتبعد عن نوى باتجاه الجنوب بحوالي ٧ كم ويمر من شمالها خط التابلين وهي هضبة الآن تدل على وجود بناء سابق في المنطقة وفيها نبع غزير جار تكثر فيها زراعة الخضروات والأشجار المثمرة . (زيارة ميدانية) .

(٢) في الأصل (٢٨ / و) (الرابع والعشرين من رجب) وهو تصحيف وقد ثبتنا ما هو صحيح عن الروضتين ١ : ١٨٣ ، سنا البرق ٨٩ ، وفي النوادر السلطانية يذكر أن وصوله كان في : (أثناء جمادى الأخرى :) وعلى ما يبدو أنه ليس متأكداً من صحة التأريخ الذي وصل فيه فأصحف في ذلك .

(٣) باب الفتوح من أبواب القاهرة وضعه القائد جوهر دون موضعه الآن وبقي منه إلى يومنا هذا — أي أيام المقريزي — عقده وعضادته اليسرى وعليه أسطر من الكتابة بالكوفي وهو برأس حارة بهاءالدين من قبليها دون جدار الجامع الحاكمي ، وأما الباب المعروف اليوم بباب الفتوح فإنه من وضع أمير الجيوش وبين يديه باشورة قد ركبها الآن الناس بالبنيان لما عمر ما خرج عن باب الفتوح . انظر الخطط المقريزية ج١ ص ٣٨١ .

(٤) يعرف بموضع الريدانية من جهة باب الفتوح ، وهذا الشجر من أصل هندي . انظر الخطط المقريزية ٢ : ١٣٨ .

به الشكر والأجر ، وأفرد له داراً إلى جانب داره ، وأقطعه الإسكندرية ودمياط والبُحيرة (١) وأقطع شمس الدولة أخاه قوص (٢) وأُسوان (٣) وعيذاب (٤) قال ذلك ابن أبي طي . وقال القاضي ابن شداد : أنفذ صلاح الدين في طلب والده ليكمل له السرور ، وتجمع القصة مشاكلة ماجرى للنبي يوسف عليه الصلاة والسلام فوصل والدهُ نجم الدين إليه ، وسلك معه من الأدب ماكان عادته وألبسه الأمر كله ، فأبى أن يلبسه وقال : ياولدي مااختارك الله لهذا الأمر إلاّ وأنت كُفءٌ له فلا يبغي أن يغيّر موقع السعادة ، فحكّمه في الخزائن بأسرها . قلتُ : وما أحسن ماقال عمارة (٥) في قصيدة مدح بها صلاح الدين ذكر فيها أمرَ دمياط واجتماعه بوالده وأهلهِ ، يقول فيها (٦) :

---

(١) البحيرة : (في ياقوت) بحيرة الاسكندرية : وهذه ليست بحيرة ماء ، إنما هي كورة معروفة من نواحي الاسكندرية بمصر تشتمل على قرى كثيرة ودخل واسع .

(٢) قوص : (في ياقوت) بالضم ثم السكون وصاد مهملة ، وهي قبطية : هي مدينة كبيرة عظيمة واسعة ، قصبة صعيد مصر ، بينها وبين الفسطاط إثنا عشر يوماً ، وأهلها أرباب ثروة واسعة ، وهي محط التجار القادمين من عدن وأكثرهم من هذه المدينة ، وهي شديدة الحرارة لقربها من البلاد الجنوبية وبينها وبين قفط فرسخ وهي شرقي النيل وبين بحر اليمن خمسة أيام أو أربعة ، وقوص في الإقليم الأول وطولها من جهة المغرب خمسة وخمسون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها أربع وعشرون درجة وثلاثون دقيقة .

(٣) أسوان (في ياقوت) بالضم ثم السكون وواو ، ونون : وهي مدينة كبيرة وكورة في آخر صعيد مصر أول بلاد النوبة على النيل في شرقيه .

(٤) عيذاب (في ياقوت) بالفتح ثم السكون وذال معجمة وآخره باء موحدة : بليدة على ضفة بحر القلزم وهي مرسى المراكب التي تقوم من عدن الى الصعيد .

(٥) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٥٥ .

(٦) انظر الروضتين ١ : ١٨١ - ١٨٣ .

[٢٨/و] / منْ شاكرٌ والله أعظمُ شاكر

ماكان من نعمى بني أيــــوب

طلب الهدى نصــراً فقال وقــد أتوا

حسبي فأنتم غايةُ المطلـــــوبِ

جلبــوا إلى دمياط عند حصــارها

عزّ القويّ وذلّــــة المغلــوبِ

وجلــوا عن الإسلام فيها كربةً

لو لم يجلّــوها أتت بكروبِ

فالنّـــاس في أعمـــــال مصر كلّها

عُتقاؤهـــم من نازح وغـــريبِ

إن لم تظنّ النّاس قشراً فــــارغاً

وهم اللّبابُ فأنْتَ غـــيرُ لبيبِ

ومنها :

صحّت به مصرٌ وكانت قبلهُ

تشكو سقاماً لم يُعن بطبيــــبِ

عجباً لمعجـــزة أتَتْ في عصــرهِ

والدّهرُ ولاّد لكــلّ عجيــبِ

رد الإله بـــــه قضيّـــة يوســـــف

نسقاً على ضرب مــن التقريــبِ

جاءته إخوتــــه ووالـــده إلــــى

مصرٍ على التدّريج والترتيـــبِ

وله أيضاً فيه من أخرى (١) :

أبــوك الذي أضحى ذخــيرة مجــدكم
وأنت له خير النفائس والذّخــرِ

ومن كنتَ معروفــاً له فاستفزه
بمثلك تيه فهو في أوســع العُذْرِ

فكيف أبٌ أصبحتَ نار زناده وإلاّ (٢)
كنورِ البدرِ من سُنّــة البَــدْرِ

توقــره وســط النديّ كرامــــةً
وتحمل عنه مايؤود (٣) من الوقْرِ

وتخلفهُ حربــــاً وسلمــاً خلافــــةً
تؤلّف أضداداً من المــاء والجمْرِ

وكم قمــت في بأس وجود ورتبــة
بما سرّهُ في الخطبِ والدست والثغْرِ

وحُكي أنهما لما اجتمعا بدار الوزارة ، وقعدا على طراحة واحدة ، ذكر نجم الدين (٤) أن صلاح الدين ولد ليلة إخراجه من قلعة تكريت قال : فتشاءمت له وتطيرت لما جرى عليّ ،

---

(١) انظر الروضتين ١ : ١٦٣ - ١٦٤ .
(٢) في الروضتين ١ ص ١٦٣ (اللا) .
(٣) في الأصل : مايوذ . تصحيف .
(٤) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٦٢ .

وكان معي كاتب نصراني فقال : يامولاي من يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيماً عظيم الصيت جليل المقدار . قال : فعطفني كلامه عليه . فتعجبت الجماعة من هذا الاتفاق. رحمة الله تعالى عليهم أجمعين .

[٢٨/ظ] / وفي ثاني عشر شوال (١) كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها ، عمّت أكثر البلاد من الشام ومصر والعراق وغيرها إلاّ أنّ أشدها وأعظمها كان بالشام ، فخربت بعلبك وحمص وحماة وشيزر وبارين (٢) وغيرها ، وتهدّمت أسوارها وقلاعها ، وسقطت الدور على أهلها وخرج ، وهلك من الناس ماخرج عن العدّ والإحصاء ، فسار نور الدين إلى بعلبك ، ورتّب بها من يحميها ، ويعمرها ، وسار إلى حمص ، ففعل مثل ذلك ، ثم إلى حماة ، ثم إلى بارين وكان شديد الحذر على البلاد من الفرنج ، ثم أتى حلب وباشر عمارتها بنفسه ، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين ، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها وأسوار جميع البلاد وجوامعها ، وأخرج من الأموال مالا يقدر قدره . وأمّا بلاد الفرنج فإنها أيضاً فعلت بها الزلزلة قريباً من هذا ، وهم أيضاً يخافون من نور الدين على بلادهم ، فاشتغل كل منهما بعمارة بلاده عن قصد بلاد الآخر .

وفي سابع عشر (٣) شوال وقع صاحب (٤) البيرة (٥)

---

(١) انظر الكامل ١١ : ٣٥٤ — ٣٥٥ . سنا البرق ٩١ — ٩٣ ، الروضتين ١ : ١٨٤ ، تاريخ حلب ٢ : ٦٩٤ — ٦٩٥ .

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٩٠ .

(٣) انظر : الكامل ١١ : ٣٥٣ — ٣٥٤ ، الباهر ١٤٥ — ١٤٦ ، الروضتين ١ : ١٨٦ ، البرق ١٠٦ — ١٠٧ .

(٤) هو : شهاب الدين الياس بن محمد إيلغازي بن أرتق صاحب قلعة البيرة . انظر الكامل ١١ : ٣٥٣ .

(٥) انظر حاشيتنا رقم (٣) ص ١٩٣ .

باللبوة (١) من أعمال بعلبك على ثلاثمائة فارس من الفرنج غيارة ، فعمهم القتل والأسرُ ، فلم يفلت منهم إلاّ من لايعتد به وجيء بالأسرى ، ورؤوس القتلى إلى نور الدين وهو بعشترا فرأى في الرؤوس رأس مقدم الإسبتارية (٢) صاحب حصن الأكراد (٣) وغيره من مقدمي الإفرنج ومشهوريهم ولله الحمد .

وفي شوال أيضاً (٤) ، توفي صاحب الموصل قطب الدين مودود ابن زنكي ، أخو نور الدين وأوصى بالمُلك لابنه سيف الدين غازي ، واستولى على تدبير الأمور رجل يقال له : عبد المسيح كان نصرانياً فأسلم وقيل : إنه كان باقياً على نصرانيته وله بيعة في داره ، وتتبع أرباب العلم والدين فشتتهم وأبعدهم وآذى المسلمين ، وكان نور الدين رحمه الله يكرهه فلمّا بلغه ذلك سار من وقته .

---

(١) اللبوة : هي قرية بين بعلبك وحمص تقع في البقاع الشمالي بالقرب من منبع نهر العاصي وهي حالياً في الأراضي اللبنانية . (انظر الاطلس مصور لبنان) .

(٢) أسس الأمالفيون الإيطاليون في القرن العاشر في القدس مشفى (تكية - رباط) لمساعدة الحجاج المسيحيين القادمين من أوربة ، وكرسوها على اسم القديس يوحنا ، وفي فترة الحروب الصليبية تحول المشفى إلى مؤسسة فرسان عسكرية (م . م)، كانت أخوية فرسان القديس يوحنا (المعروفة بالاسبتارية م . م) موجودة قبل أن يستولي الفرنجة على القدس . وكانت تتألف من طائفة من الرهبان المقاتلين منذ أوائل القرن الثاني عشر أما أخوية فرسان الهيكل (المعروفة باسم الداوية م . م) فأسسها هوغ دوبايان **Hugues de Payen** عام ١١٢٠ . وكانت مهمتها حماية الحجاج المسافرين ورعايتهم إذا ماوقعوا فريسة المرض ، ولكن سرعان ماطغت على هذه الوظيفة التزامات الفروسية بمحاربة المسلمين العرب . وفي أوائل العام ١١٣٧ م منح الملك فولك فرسان القديس يوحنا (أو الاسبتارية) قلعة بيت جبرين - التي شيدت مجدداً فوق أراضيهم - كقاعدة يحرسون الحدود منها ويدافعون عنها . انظر القلاع أيام الحروب الصليبية ص١٨ .

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٥٦ .

(٤) انظر : الباهر ١٤٦ ، الكامل ١١ : ٣٥٥ - ٣٥٦ ، سنا البرق ٩٣ - ٩٤ ، الروضتين ١ : ١٨٦ .

ودخلت سنة ست وستين :

فعبر نور الدين (١) الفرات عند قلعة جعبر (٢) أول المحرم وقصد الرقة فتسلمها ثم الخابور (٣) ونصيبين (٤) وسنجار (٥) ، ثم جاء الموصل فدخلها ثالث عشر جمادى الأولى وسكن القلعة ، وأقرّ / [٢٩ /و] ابن أخيه سيف الدين غازياً على الموصل ، وألبسه خلعته التي جاءته من بغداد في تلك الأيام ، وولّى بقلعة الموصل خادماً يقال له : سعد الدين كمشتكين (٦) وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر مافتحه من البلاد ، وأمر ببناء الجامع النوري بالموصل ، فبني وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً ، ثم سار إلى الشام فقيل له : إنك تحبُ الموصل والمقام بها ونراك أسرعت العود فقال : قد تغيّر قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت ويمنعني أيضاً أنني هاهنا لاأكون مرابطاً للعدّو ، وملازماً للجهاد . وقيل : إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة

---

(١) انظر : الكامل ١١ : ٣٦٢ — ٣٦٥ ، الباهر : ١٥٢ — ١٥٤ ، الروضتين ١ : ١٨٧ — ١٨٩ ، سنا البرق ٩٤ — ٩٧ ، تاريخ حلب ٢ : ٦٩٥ — ٦٩٧ .

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٥ .

(٣) الخابور : قرية تقع في أقصى الشمال الشرقي للقطر العربي السوري قرب الحدود السورية العراقية . (انظر الأطلس مصور القطر السوري) .

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٨٤ .

(٥) سنجار : قرية تقع في السفح الجنوبي لجبل سنجار وهي الآن تقع في القطر العراقي . (انظر الأطلس المصور للقطر العراقي)

(٦) هو : سعد الدين كمشتكين خادم نور الدين وهو خصي . عينه نور الدين دزداراً — أي قائد حامية — على قلعة الموصل ، لما ملكها نور الدين ، ثم أصبح مقدم العسكر صاحب حصن حارم قتل سنة ، ٥٧٣ هـ ، انظر الباهر ١٧٨ ، الروضتين ١ : ١٧٧ — ٢٣٢ ، ٢٧٤ — ٢٧٥ . الأصل ٦٧ / ظ .

وهو يقول له : جئت إلى بلدك وطاب لك المقام فيه ، وتركت الجهاد وقتال أعداء الدين؟فاستيقظ من منامه وسار سحرة ذالك اليوم ، ولم يلبث ولم يعلم به أكثر الناس حتى خرج ولحقوه . رحمه الله .

وقال العماد : أقام نور الدين بقلعة الموصل سبعة عشر يوماً ، وجدّد مناشير أهل المناصب وأمر بإسقاط جميع المكوس والضرائب وأنشأ بذلك منشوراً يقرأ على الناس فمنه : قد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال فسحقاً للسحت ومحقاً للحرام الحقيق بالمقت وبعداً لما يبعد من رضى الرّب ويقضي من محل القرب ، وقد استخرنا الله تعالى وتقرباً إليه وتوكّلنا في جميع الأحوال عليه وتقدمنا بإسقاط كل مكس وضريبة في كل ولاية لنا.بعيدة أو قريبة وإزالة كل جهة مشتبهة مشوبة ومحو كل سيئة شنيعة ونفي كل مظلمة فظيعة ، وإحياء كل سنّة حسنة وانتهاز كل فرصة في الخير ممكنة وإطلاق كل ماجرت العادة بأخذه من الأموال المحظورة خوفاً من عواقبها الرديئة المحذورة ، فلا يبقى في جميع ولايتنا جَوْرَ جائر جارياً ولا عمل لايكون به الله راضياً إيثاراً للثواب الآجل على الحُطام العاجل وهذا حق لله قضيناه وواجب علينا أدّيناه بل هي سنة حسنة سنناها وحجّة واضحة بيّناها وقاعدة محكمة مهدناها وفائدة مغتنمة أفدناها .

وفي تاسع ربيع الآخر توفي أمير المؤمنين المستنجد (١) بالله / أبو [٢٩/ظ] المظفر يوسف بن المقتفي وكان مولده مستهل ربيع الآخر سنة عشر

(١) انظر : الكامل ١١ : ٣٦٠ – ٣٦٢ ، الباهر ١٥٠ – ١٢٥ ، الروضتين ١ : ١٩٠ – ١٩١ ، سنا البرق ١٠٠ – ١٠١ ، البداية والنهاية ١٢ : ٢٦٢ ، شذرات الذهب ٤ : ٢١٨ – ٢١٩ ، الأخبار السنية ١٤٧ – ١٤٨ .

وخمسمائة ، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وستة أيام (١) وهو الثاني والثلاثون مـــن خلفاء بني العباس وله بحساب الجمل اللام والباء ، وفيه يقول بعض الشعراء من قصيدة :

أصبحت لب بني العباس كلّهـــم
إن عُددت بحساب الجُمّل الخلفا

وكان من أحسن الخلفاء (٢) سيرة مع الرعية عادلاً كثير الرفق وأطلق من المكوس شيئاً كثيراً بحيث لم يترك بالعراق مكساً ، وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس ، حبس رجلا كان يسعى بالناس وأطال حبسه ، فحضر بعض أصحابه ، وبذل فيه عشرة آلاف دينار فقال له : أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنساناً آخر مثله أحبسه لأكفّ شره عن الناس ، وبويع بعده ابنه المستضيء بأمرِ الله أبو محمد الحسن . ومدحه العماد الكاتب بقصيدة منها(٣) :

لهفي على زمن الشبـــاب فإنني
بسوى التأسف عنه لم أتعوّضِ
نُقضت عهود الغانيات وإنها
لولا (انقضاء) (٤) شبيبتي لم يُنقض

---

(١) في البداية والنهاية ١٢ : ٢٦٢ يذكر أن مدة خلافته (إحدى عشرة سنة وشهراً) ، ويذكر في حاشية الأصل ٣٠ / و العبارة (هذا العددبه !) .

(٢) في حاشية الأصل ٣٠ / و العبارة (فيما يشهد بعمل التاريخ بحساب الحروف) .

(٣) انظر : الروضتين ١ : ١٩١ ، سنا البرق ١٠٣ – ١٠٤ .

(٤) في الروضتين (نقاء) .

ياحسن أيّـــام الصبا وكأنّهـــا
أيام مولانا الإمـــام المستضي
ذو البهجة الزهراء يشرق نورهـــا
والطلعـــة الغراء والوجه الوضي

ومنها :

قسم السعادة والشقـــاوة ربُّنا
في الخلق بين مُحِبِّه والمبغـــض
فضُل (الخلائق والخلائف)(١) بالتقى
والفضل والإفضال والخُلق الرضي

وفي هذه السنة (٢) وقف صلاح الدين بمصر مدرسة للشافعية(٣) ومدرسة للمالكية (٤) وقف تقي الدين(٥)ابن أخيه منازل العزّ مدرسة

---

(١) في الروضتين (الخلائف والخلائق) ج ١ ص١٩١ .

(٢) انظر : سنا البرق ١٠٧ — ١١٠ بتصرف ، انظر الخبر مفصلا في : الروضتين ١ : ١٩١ — ١٩٢ بتصرف .

(٣) هي المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق من مدينة مصر من قبليه ... ثم صارت سجناً تعرف بالمعونة فهدمها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في أول المحرم من سنة ست وستين وخمسمائة وأنشأها مدرسة برسم الفقهاء الشافعية ... الخطط ٢ — ٣٦٣ .

(٤) هي المدرسة القمحية : هذه المدرسة بجوار الجامع العتيق بمصر كان موضعها يعرف بدار الغزل فهدمها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأنشأ موضعها مدرسة للفقهاء المالكية ، وكان الشروع فيها للنصف من المحرم سنة ست وستين وخمسمائة ... الخطط ٢ — ٦ .

(٥) هو تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي ابن أخي صلاح الدين (ت ٥٨٧ هـ) . انظر : سنا البرق ١١٠ — ٢٦٢ ، وانظر ترجمته مطولة في خريدة القصر ١ : ص ٨ و ١١٢ مع مختارات من شعره ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩٧ و ٣٤٦ — ٣٤٧ ، (والأصل ١٣١ / ظ) ، شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .

للشافعية (١) وخرج صلاح الدين إلى الغزاة ، وأغار على الرملة (٢) وعسقلان وهجم ربض غزة ، ثم رجع إلى القاهرة ، ثم وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله ، فأشفق عليها وأحبَّ أن يجتمع بها شمله ، فخرج إليها في النصف من ربيع الأول .

وكانت بأيلة (٣) قلعة في البحر قد حصّنها أهل الكفر ، فعمَّر لها مراكب وحملها إلى ساحل أيلة على الجمال ، وركَّبها الصناع هناك ، وشحنها بالرجال ، وفتح القلعة في العشر الأول من ربيع الآخر واستحلها ، واستباح / بالقتل والأسر أهلها وملأها بالعُدّة والعدد ، [٣٠/ و] واجتمع بأهله عليها ، وسار بهم على سمت القاهرة ، ووصلوا إليها في السادس من جمادى الآخرة ، ثم سار إلى الإسكندرية في الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها ، ويرتب قواعدها وهي أول دفعة سار إليها في سلطانه ، وعمَّ أهلها بإحسانه ، وأمر بعمارة أسوارها

---

(١) هذه المدرسة كانت من دور الخلفاء الفاطميين ... وعرفت بمنازل العز ، وكانت تشرف على النيل وصارت معدة لنزهة الخلفاء ... فلما زالت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف أنزل في منازل العز الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فسكنه مدة ثم إنه اشتراها والحمام والاصطبل المجاور لها ... فلما أراد أن يخرج من مصر إلى الشام وقف منازل العز على فقهاء الشافعية ووقف عليها الحمام وما حولها ... الخطط ٢ – ٣٦٤ .

(٢) الرملة (في ياقوت) واحدة الرمل : مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتها قد خربت الآن ، وكانت رباطاً للمسلمين وهي في الإقليم الثالث ، وطولها خمس وخمسون درجة وثلثان ، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وثلثان .

(٣) أيلة : في ياقوت بالفتح : مدينة على ساحل بحر القلزم (الأحمر) مما يلي الشام ، وقيل : هي آخر الحجاز وأول الشام ، أيلة : مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير ....

وأبراجها وأبدانها . وكان سور القاهرة قد تهدم أكثره . وصار طريقاً لايرد داخلاً ولا خارجاً فولاّه قراقوش الخادم (١) وأمره بعمارته ، وقبض على القصور وسلّمها إليه ، وأمر بتغيير شعار الإسماعيلية ، وقطع من الأذان «حي على خير العمل» وشرع في تمهيد أسباب الخطبة لبني العباس .

وقد ذكر عمارة اليمني الشاعر غزوة صلاح الدين غزة فقال من جملة قصيدة مدحه بها (٢) :

أضفت إلى أجر الجهاد زيارة الـ

... خليل فأبشر أنتَ غازٍ موفّقُ

وهيّجت للبيت المقدّس لوعةً

يطول بها منه إليك التشوّقُ

وغزوك هذا سلّم نحو فتحة

قريباً وإلاّ رائد ومطرّقُ

هو البيت إن تفتَحهُ والله فاعل

فما بعده باب من الشام مُغْلَقُ

* * *

---

(١) هو : الأمير الخصي بهاء الدين قراقوش الأسدي . انظر خطط المقريزي ج ١ ص ٣٧٧ .

(٢) انظر : الروضتين ١ – ١٩٣ أورد من القصيدة اثني عشر بيتاً .

ثم دخلت سنة سبع وستين (١) :

فاستفتحها صلاح الدين رحمه الله بإقامة الخطبة في الجمعة الأولى منها بمصر لبني العبّاس ، وفي الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة ، وانقطع ذكر خلفاء مصر منها . وأول خطيب خطب لبني العباس بمصر أبو عبدالله محمد بن المحسّن بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي . ثم توفي العاضد يوم عاشوراء من هذه السنة عقيب انقطاع ذكره من الخطبة وهو آخر المستخلفين بالديار المصرية ، وأزال الله تلك الدولة الرديّة عن رقاب العباد ، وكانوا أربعة عشر متخلفاً : ثلاثة(٢) منهم بإفريقية وهم : الملقّبون بالمهدي والقائم والمنصور ، وأحد عشر بمصر وهم : الملقّبون بالمعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد وهم يدّعون الشرف ، ويسمّون أنفسهم الفاطميين (٣) ، وإنما نسبهم / إلى مجوسي [٣٠/ظ] اسمه عُبيد (٤) فليسوا فاطميين . وإنما كانت الدولة الباطنية . . . وقد ذكر جماعة من الأكابر العلماء وأن المعروف أنهم بنو عُبيد ،

---

(١) انظر الخبر في : الكامل ١١ : ٣٦٨ — ٣٧١ ، الروضتين ١ : ١٩٣ — ٢٠٢ ، سنا البرق ١١١ — ١١٥ ، الأخبار السنية ١٤٨ — ١٤٩ .

(٢) في الكامل ١١ : ٣٧٠ يذكر أربعة منهم في أفريقية ... حيث يعتبر المعز قبل فتحه لمصر .

(٣) في حاشية الأصل ٥٩ / ظ العبارات : (وأقاموا الخطبة بمصر لبني العباس) خلفاء الفاطميين ونسبهم .

(٤) عبيد : وهو تصغير عبدالله وفي (لسان العرب : وفي التصغير تحقير) وأسمه يرد في المصادر الفاطمية عبدالله ، وعلى مايبدو قصد المؤرخون في تلك الآونة تصغير اسمه تحقيراً له وإرضاء للخليفة العباسي في بغداد ، انظر : البداية والنهاية ١١ : ٣٤٥ — ٣٤٦ .

وكان والد عُبيد هذا من نسل القداح المجوسي ، وقيل : كان والد عبيد هذا يهودياً من أهل سلمية من بلاد الشـــام ، وكان حداداً وعُبيد هذا كان اسمه سعيد . فلمّا دخل بلاد المغرب تسمّى بعبيد الله وادّعى نسباً ليس بصحيح ، ذكر ذلك جماعة من علماء الأنساب ، ثم ترقت به الحال إلى أن ملك ، وتلقب بالمهدي ، وبنى المهدية بالمغرب ونسبت إليه ، وكان زنديقاً خبيثاً عدواً للإسلام ، قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة كثيرة ونشأت ذريته على ذلك ، وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها ، وذلك من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى هذه السنة ســـنة سبع وستين وخمسمائة ، وقد بيّن نسبهم هذا وأوضحه جماعة منهم : القاضي أبوبكر محمد بن الطيّب الباقلاني (١) فإنه كشف في أول كتابه المسمى بكشف أسرار الباطنينَ ، عن بطلان نسب هؤلاء إلى علي رضي الله عنه . وكذلك القاضي عبد الجبار أيضاً استقصى الكلام في أصولها وبيّنها بيـــاناً شافياً في أواخر كتاب تثبيت [دلائل] النبوة(٢) ،وبيّن في كتابه بعض مافعلوه من المنكرات والكفريات(٣) :

---

(١) هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني البصري المتكلم من أهل البصرة سكن بغداد ، وكان متكلماً على مذهب الأشعري ... توفي لسبع بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة . انظر : السمعاني : الانساب ٢ : ٥١ ،وانظر ترجمته مع مؤلفاته في البداية والنهاية ج ١١ ص ٣٤٥ - ٣٥١ .

(٢) اسم الكتاب: تثبيت دلائل النبوة ومابين القوسين سقط من الأصل (٣٠/ظ) .

(٣) يقول في كتاب تثبيت دلائل النبوة (... ألا ترى أن من بالاحساء من القرامطة والباطنية ، لما غلبوا شتموا الأنبياء ، وعطلوا الشرائع وقتلوا الحجاج والمسلمين حتى أفنوهم ، واستنجوا بالمصاحف والتوراة والإنجيل ، وجاؤوا بذكيرة الأصفهاني المجوسي ، وقالوا : هذا هو الإله في الحقيقة وعبدوه وكان لهم معه ماهو مذكور معروف . ومثل هذا صنع أبو القاسم الحسن بن جوشب بن زاذان الكوفي النجار =

وقد كتب بعض الشعراء أبياتاً . ووضعها على المنبر لبعض من تقدم ذكره من متخلفيهم وهي (١) :

إنْ كُنتَ فيما تدّعي صـــادقاً

فاكشفْ لنا عن جدّك السابعِ

أَوْ فَدَعِ الأنسابَ مستـــورة

وادخل بنا في النّسب الواسعِ

فإن أنساب بني هـــاشم يقـــل

فيها طمـــع الطـــامعِ

ولمّا انقضت تلك الدولة بانتهاء عصرها ، استطال أهل السنة على الإسماعيلية ، وتتبعوهم وآذوهم . وطارت البشائر بذلك إلى بغداد وسائر البلاد ، واستولى على القصر وأمواله وذخائره ، وقبض السلطان صلاح الدين جميع مـــافي تلك القصور من مال وذخائر وفرش وسلاح وغير ذلك ، ولم يوجد من المال كبير أمرٍ لأن شاوراً قد

=حين ظهر بجبال لاعة من أرض اليمن ... وكذا صنع من كان منهم برقادة والقيروان من أرض المغرب ، إلى أن قام أبو يزيد مخلد بن كيداد – من الخوارج الإباضية النكارة الذين أنكروا إمامة عبد الوهاب بن رستم صاحب تاهرت – بمن معه وحاربهم خمس سنين ، وضيق عليهم ، كما صنع الأصفر بأهل الإحساء فلما انكشف أمر أبي يزيد عمن بالمغرب ، كفوا عن المكاشفة للعامة بشتم الأنبياء وتعطيل الشرائع وصاروا يخدعون الناس سراً ،وينقلونهم عن الإسلام بالحيل والإيمان من حيث لا يشعرون شيئاً فشيئاً ...). انظر النص وغيره في أخبار القرامطة ص ١٤٥ – ١٤٦ وما بعد تحت عنوان كتاب تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم) .

(١) لم أعثر على ترجمة لناظم هذه الأبيات ، والأبيات هذه لم ترد في الروضتين .

ضيعه في إعطائه الفرنج بل وجد فيها ذخائر جليلة (١) / من ملابس [٣١/ و]
وفرش وخيول وخيام وكُتب وجوهر، ومن عجيب ماوجد فيه قضيب
زمرد طوله شبر وزيادة وهو قطعة واحدة ، وكان سمت حجمه
مقدار الإبهام ، ووُجد فيه طبل القولنج وإبريق عظيم من الحجر
المانع ، ووجد فيه من الجوهر سبعمائة يتيمة . فأما قضيب الزمرد
فإن السلطان أحضره ، وأحضر صائغاً ليقطعه فأبى الصائغ قطعه ،
فرماه السلطان فانقطع ثلاث قطع ، وفرقه السلطان على نسائه ، وأما
طبل القولنج فإنه وقع إلى بعض الأكراد ، فلم يدر ماهو فكسره لأنه
ضرب به فحبق (٢) ، وأمّا الإبريق فأنفذه السلطان إلى بغداد . وأزال
الله تلك الدولة الرديئة عن رقاب العباد .

قال المؤلف رحمه الله (٣) : وقد وقفت على كتاب بخط
نور الدين رحمه الله كتب به إلى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون
وهو بحلب ليولّيه قضاء مصر يقول فيه : غير خاف عن الشيخ ما أنا
عليه وفيه وكل مقصودي وغرضي في مصالح المسلمين وما يقربني
إلى الله تعالى والله ولي التوفيق ومطلع على نيّتي ، أنت تعلم أن
مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها فهي من الفتوحات الكبار الله جعلها
دار إسلام بعدما كانت دار كفر ونفاق فلله المنة والحمد ، إلا أنّ
المقدّم قبل كل شيء أمور الدين التي هي الأصل وبها النجاة وأنت
تعلم أن مصر وإقليمها ماهي قليلة وهي خالية من أمور الشرع ،

---

(١) في حاشية الأصل ٣١ / و العبارة : (دولة الفاطميين قبحهم الله تعالى) .

(٢) حبق (في لسان العرب) الحبق والحبق ، بكسر الباء ، والحباق : الضراط .

(٣) انظر الروضتين ١ : ١٧٤ .

ولا أقدر أولي في أمورها . وأقلدها إلا لك ، حتى تبرأ ذمتي عند الله ، فتجب عليك وفقك الله . أن تشمر عن ساق الاجتهاد ، وتتولى قضاءها ، وتعمل ماتعلم أنه يقربك إلى الله ، وقد برئت ذمتي وأنت تجاوب الله .

وللعماد الكاتب يصف ماجرى على ماخلفه العاضد من جملة كلام له : (١) وهم إلى الآن محصورون محسورون ، لم يظهروا وقد نقص عددهم : وقلص مددهم ، ثم عرض من بالقصر من الجواري والعبيد والعدّة والعديد والطريف والتليد ، فوجد أكثرهن حرائر فأطلقهن ، وجمع الباقيات فوهبهن وفرقهن ، وأخلى دوره وأغلق قصوره ، وسلّط جوده على الموجود ، وأبطل الوزن / والعدّ عن [٣١/ظ] الموزون والمعدود ، وأخذ كلّ ماصلح له ولأهله ولأمرائه وخواص مماليكه وأوليائه مـن أخاير الذخائر وزواهر الجواهر ، ونفائس الملابس ومحاسن العرائس ، والدرّة اليتيمة والياقوتة العالية الغالية القيمـة والمصوغات التبرية والمصنوعات العنبريّة والأواني الفضية ، والصواني الصينية والمنسوجات المغربيـة ، والممزوجات الذهبية والمحكوكات النضارية ، والكرائم والتمائم ، والعُوذ والتمائم ، والعقود والنقود ، والمنظوم والمنضود ، والمحلول والمشدود ،والمنعوت والمنحوت ، والدر والياقوت ، والحلي والوشي والعبير والحبير ، والوثير والنغير (٢) ، ومالا يُعـد إحصاء ولا يحد استقصاء ،

---

(١) انظر : سنا البرق ١١١ – ١١٢ بتصرف في اللفظ وتقديم وزيادة ، الروضتين ١ : ١٩٤ – ١٩٥ ، الأخبار السنية ١٤٩ – ١٥٠ .

(٢) النغير (في لسان العرب) طائر يشبه العصفور وتصغيره نغير ، ويجمع نغراناً ... والنغر ، أولاد الحوامل إذا صوتت ووزعت ، أي صارت كالوزغ في خلقتها صغر . . . . .

فوقع فيها الفناء ، وكشف عنها الغطاء ، وأسرف فيها الغطاء ؛ وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق ولبيس وسحيق ، وبالٍ وأسمال ورخيص وغال ، وكل منقول ومحمول ومصوغ ومعمول ، واستمر البيع فيها مدة عشر سنين ، وتنقلت في البلاد بأيدي المسافرين .

ومن كتاب (١) عن السلطان صلاح الدين من إنشاء القاضي الفاضل (٢) إلى وزير بغداد على يد الخطيب شمس الدين بن أبي المضاء المذكور في بعض السنين ، وذلك بعد موت العاضد وانقطاع خطبة بني عُبيد وإقامتها لبني العباس .

(كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ودين الولاء مشروع ، وعلم الجهاد مرفوع ، وسؤدد السواد متبوع ، وحكم السداد بين الأمة موضوع ، وسبب الفساد مقطوع ممنوع ، وقد توالت الفتوح غرباً وشرقاً ومصراً ويمناً وشاماً ، وصارت البلاد بل الدنيا والشهر بل الدهر ، حرَماً حراماً ، وأضحى الدين واحداً . بعدما كان أدياناً ، والخلافة إذا ذكرتها أهل الخلاف لم يخروا عليها [إلاّ] (٣) صُمّاً وعُمياناً ، والبدعة خاشعة والجمعة جامعة ، والمذلّة في شيع الضلال شائعة ذلك بأنهم اتّخذوا عباد الله من دونه أولياء ، وسمّوا أعداء

---

(١) انظر : الروضتين ١ : ١٩٥ .

(٢) هو : محيي الدين أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي البيساني ثم العسقلاني ، ثم المصري صاحب ديوان الإنشاء وشيخ البلاغة (ت ٥٩٦ هـ) .
انظر : خريدة القصر قسم مصر ١ : ٣٥ – ٥٤ ، الكامل ١٢ : ١٥٩ ، الروضتين ١ : ١٥٩ ، والروضتين ٢ : ٢٤١ – ٢٤٣ ، والأصل (٢٩٣ / ظ – ٢٩٦ و) ، والذيل ١٧ ، البداية والنهاية ١٣ : ٥٤ ، شذرات الذهب ٤ : ٣٢٤ .

(٣) الإضافة مابين القوسين عن الروضتين ١ : ١٩٥ لتوضيح المقصود .

الله أصفياء ، وتقطع أمرهم بينهم شيعاً ، وفرقوا (أمر الأمير) (١) وكان مجتمعاً ، وكذبوا بالنار فعُجلت لهم نارُ الحتوف ، ونثرت [٣٢/و] أقلام الظبا حروف رؤوسهم نثر الأقلام والحروف، ومُزقوا / كل ممزّق وأُخذ منهم كل مَخنق ، وقُطع دابرهم ، ووعظَ آتيهم غابرُهم ، ورغمت أنوفهم ومنابرهم وحقّت عليهم الكلمة تشريداً وقتلاً ، وتمّت كلمات ربك صدقاً وعدلاً ، وليس السيف عمّن سواهم من كفار الفرنج بصائم ،ولا الليل عن السير إليهم بنائم ، ولا خفاء عن المجلس الصاحبي أن من شد عقد خلافة وحلّ عُقدَ خلاف وقام بدولة وقعد بأخرى ،قد عجز عنها الأخلاف والأسلاف ، فإنه مفتقر إلى أن يُشكر لـه مانصح ، ويُقلد مـا افتتح ويبلّغ مااقترح ، ويُقدم حقه ولا يطرح ، ويقرب مكانه وإن نزح ، وتأتيه التشريفات الشريفة ، وتتواصل إليه أمداد التقويات الجليلة اللطيفة ، وتلبّى دعوته بما أقام من دعوة ، وتوصل عروته بما وصل من عروة ،وترفع دونه الحجب المعترضة ، وتُرسل إليه السحب المروّضة فكل ذلك تعود عوائده وتبدو فوائده بالدولة التي كشف وجهه لنصرها ، وجرّد سيفه لرفع منارها والقيام بأمرها ، وقد أتى البيوت من أبوابها ، وطلب النجعة من سحابها ، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها ، وأنهض لإيصال ملطفاته وتنجيز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر ، وهو الذي اختاره لصعود المنبر وقام بالأمر قيام مَنْ بَر واستفتح بلبس السواد الأعظم الذي جمع الله عليه السواد الأعظم آملاً أنه يعود إليه بما يطوي الرجاء فضل عقبه ، ويخلد الشرف في عقبه) .

---

(١) في الروضتين ١ : ١٩٥ (أمر الأمة) .

وسيأتي ذكر هذه الرسالة إلى بغداد على يد ابن أبي المضاء في سنة سبعين وخمسمائة مع الكتاب الذي أُرسل صحبته إلى الديوان أدامه الله تعالى .

وفي هذه السنة(١) خرجت مراكب من مصر إلى الشام، فأخذ الفرنج منها في اللاذقية مركبين مملوءين من الأمتعة والتجار . وغدروا بالمسلمين . وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا ، فجمع العساكر وبثّ السرايا في بلادهم بعضها نحو أنطاكية وبعضها نحو طرابلس وحصر هو حصن عرقة (٢) وأخرب ربضه ، وأرسل طائفة من / العسكر إلى حصني صافيتا وعريمة ، فأخذهما عنوة ، وكذلك [٣٢/ظ] غيرهما ونهب وخرب ، وغنم المسلمون الكثير وعادوا إليه وهو بعرقة ، فسار في العساكر جميعها إلى قرب طرابلس يخرب ويحرق ، وأمّا الذين ساروا نحو أنطاكية فإنهم فعلوا في بلادها مثل مافُعِل ببلاد طرابلس فراسله الفرنج وبذلوا إعادة ماأخذوه من المركبين ويُجدّد معهم الهدنة فأجابهم .

وفيها (٣) : أمر نور الدين باتّخاذ الحمام الهوادي(٤) وهي المناسب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتّخذت في جميع بلاده(٥).

---

(١) انظر الكامل ١١ : ٣٧٤ - ٣٧٤ ، الباهر ١٥٤ - ١٥٥ ، الروضتين ١ : ٢٠٣.

(٢) انظر التعريف به في حاشيتنا رقم ٤ ص ١٩٠ .

(٣) انظر الكامل ١١ : ٣٧٥ ، الباهر ١٥٩ ، الروضتين ١ : ٢٠٤ ، الأخبار السنية ١٥٢ .

(٤) هو الحمام الزاجل الذي يستخدم في نقل الرسائل .

(٥) في حاشية الأصل ٣٣ / و العبارة (في تاريخ عمل حمائم الرسائل) .

وفيها : (١) قرئ علي المنبر (٢) بالقاهرة بعد صلاة الجمعة سجل بإسقاط المكوس يقول فيه : ولما تقلدنا أمور الرعية رأينا المكوس الديوانية بالقاهرة ومصر أولى مانقلناه من أن تكون لنا في الدنيا إلى أن تكون لنا في الآخرة ، وأن نتجرد (منها) (٣) لنلبس أثواب الأجر الفاخرة ، ونطهر منها مكاسبنا ، ونصون عنها مطالبنا ، ونكفي الرعية ضرهم الذي يتوجه إليهم ، ونضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم (ونعيدها اليوم) (٤) كأمس الذاهب ونضعها فلا ترفعها من بعدُ يد حاسب ، ولا قلم كاتب . وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين إليهما وإلى ساحل (٥) المقسم(٦) والمنية(٧) بأبواب المكس(٨)

---

(١) في حاشية الأصل ٣٣ / و العبارة (في ابسقاط المكوس) .

(٢) انظر الروضتين ١ : ٢٠٥ .

(٣) في الروضتين ١ : ٢٠٥ (ومنها) .

(٤) في الروضتين ١ : ٢٠٥ (نعيدها) .

(٥) ربما قصد به ساحل المقس أيام كان المقس ساحل القاهرة حيث كانت صبر القمح وغيره من الغلال توضع من جانب المقس إلى باب القنطرة عرضاً وتقف المراكب من جامع المقس إلى منية الشيرج طولاً في أيام النيل من مراكب الغلة وغيرها ما يستر الساحل كله . انظر الخطط المقريزية ٢ : ١٢٤ .

(٦) المقس (في ياقوت) هو : بين يدي القاهرة على النيل وكان قبل الإسلام يسمى أم دنين وكان فيه حصن ومدينة قبل بناء الفسطاط .

(٧) المنية (في ياقوت) منية قوص : وهي ربض مدينة قوص ، وهو كبير واسع فيه منازل التجار وأرباب الأموال .

(٨) المكس : أصل المكس في اللغة الجباية ، مكسه يمكسه مكساً ، والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهلية ، ويقال للعشار صاحب مكس ، والمكس انتقاص الثمن في البياعة . انظر الخطط المقريزية ٢ : ١٢١ .

صادرها وواردها ، فيرد التاجر ويسفر ويغيب عن ماله . ويحضر ويقارض ويتجر براً وبحراً مركباً وظهراً سرّاً وجهراً لايحل ماشدّه ولا يحاول ماعنده ، ولا يكشف ماستره ، ولا يُسأل عمّا أورده وأصدره ولا يستوقف في طريقه ولا يشرق بريقه ، ولا تؤخذ منه طعمة ، ولا تستباح له حرمة ، والذي اشتملت عليه هذه المساحة في السنة من العين مائة ألف دينار مسامحة لايتعقبها تأويل (ولا يتخونها) (١) تحويل ، ولا يعتريها زوال ولا يعتورها انتقال . دائمة بدوام الكلمة ، قائمة ماقام دين القيمة ، مَنْ عارضها رُدَّتْ أحكامه ، ومن ناقضها نقض مرامه ، ومن أزالها زلَّت قدمه ، ومَنْ أحالها حلّ دمه ، ومَنْ تعقبها خُلدت اللعنة فيه وفي عقبه ، ومَن احتاط لدنياه فيها أحاط به الجحيم الذي هو من حطبه ، فمَنْ قرأه أو قرىء عليه من كافة ولاة الأمر من صاحب سيف وقلم ومشارف وناظر فليمتثل / [٣٣ و] ما مُثل من الأمر وليُمضيه على ممر الدهر مُرضياً لربه ممضياً لأمره .

وقال ابن أبي طي الحلبي (٢) : أبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم مما يستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار ، وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار . فسامح بجميع ذلك ، وأمر بكتابة سجل من ديوان الإنشاء ، وأنفذ إلى سائر أعمال مصر يُقرأ على المنبر ، وعُرض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والمعاملين لعدّة سنين متقدمة آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة ، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي

---

(١) في الروضتين ١ : ٢٠٥ (ولا ينحوها) .

(٢) في الروضتين ١ : ١٧٤ (يذكر هذا الحدث في أحداث عام ٥٦٤ هـ) .

ألف إردب (١) غلة ، فسامح بجميع ذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه عــن المعاملين ، وأتى إليه مايستأدى من الحجاج بالحجاز المحروس من المكوس فأنكره وأكبره ، وعوض عنه بعدة ضياع ، فأغاث أهل الحجاز بما أوسعهم من العين والغلة إلى أشياء يطول شرحها . قلت : وسيأتي ذكر مافعله أيضاً بالحجاز ، وما أسقطه أيضاً بطريق الجواز ، رحمة الله عليه وعلى من كان مخرجاً لديه ، وقائماً بين يديه يحفظ أحواله ويفعل أفعاله .

وفي هــذه السنة (٢) توفي الشيخ أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبي النحوي نزيــل الموصل ، وأبو الفتوح (٣) نصر بن عبدالله الإسكندري المعروف بابن قلاقس الشاعر بعيذاب وعمره نحو خمس وثلاثين سنة .

ثم دخلت سنة ثمان وستين (٤) :

ففيها : نزل صلاح الدين على الكرك والشوبك وغيرها من الحصون، وهي أوّل غزوة غزاها من الديار المصرية في سلطانه ، وإنّما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لأنّها كانت أقرب إليه ، وكانت في الطريق

(١) الإردب : مكيال يستخدم لكيل الحبوب .

(٢) الروضتين ١ : ٢٠٥ ، البداية والنهاية ١٢ : ٢٦٩ — ٢٧٠ ، شذرات الذهب ٤ : ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٣) في البداية والنهاية ١٢ : ٢٦٩ (ونصر الله) وكذا في شذرات الذهب ٤ : ٢٢٤ ، السلوك ج ١ ق ١ ٥٠ — ٥١ .

(٤) النوادر السلطانية ٢٩ ، الروضتين ١ : ٢٠٦ — ٢٠٧ ، سنا البرق ١٢٤ — ١٢٦ ، السلوك ج ١ ق ١ ٥٠ .

تمنع من يقصد الديار المصرية من الشام فحاصرها . وجرت بينه وبين الفرنج وقعات . وعاد وفتح نور الدين مرعش(١) في ذي القعدة من هذه السنة وأخذ بَهَسْنا (٢) في ذي الحجة منها .

واتفق (٣) خروج كلب الروم (٤) اللعين في جنود الشياطين بقصد الغارة على ناحية زرع (٥) من حوران ، ونزلوا بقرية سمسكين (٦) ، فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة إليهم فلما عرفوا وصوله ، رحلوا إلى الفوار (٧) ثم إلى السواد (٨) ثم نزلوا

---

(١) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٣ ص ٣٢٦ .

(٢) بهسنا (في ياقوت) : بفتحتين وسكون السين ونون وألف : قلعة حصينة عجيبة بقرب مرعش وسميساط ورستاقها هو رستاق كيسوم مدينة نصر بن شبث الخارجي في أيام المأمون ... وهي اليوم – أي زمن ياقوت – من أعمال حلب .

(٣) انظر الكامل ١١ : ٣٨٥ – ٣٨٦ ، سنا البرق ١٢٧ – ١٢٨ ، خريدة القصر ٥٣ ، الأخبار السنية ١٥٤ – ١٥٥ .

(٤) في الأخبار السنية هو الملك أموري .

(٥) في الروضتين ١ : ٢٠٧ (زرا) وكذا في ياقوت وتدعى اليوم – زمن ياقوت – زرع حوران . نقول ازرع : هو مايطلق عليها في زمننا وهي قضاء تابع لمحافظة درعا ، وتقع إلى الشرق من ناحية الشيخ مسكين وتبعد عنها بحوالي ٧ كم على طريق الشيخ مسكين – السويداء . (زيارة ميدانية) .

(٦) سمسكين : (في ياقوت) ناحية من أعمال دمشق من جهة حوران ... . نقول : هي حالياً يطلق عليها ناحية الشيخ مسكين تابعة لقضاء إزرع تبعد عن دمشق جنوباً بحوالي ٧٥ كم (زيارة ميدانية) .

(٧) الفوار : هو اسم لنبع ماء يقع إلى يمين طريق دمشق القنيطرة ويبعد عن دمشق حوالي ٤٠ كم وحالياً يقام بالقرب منه معسكر لطلائع محافظة القنيطرة (زيارة ميدانية) .

(٨) السواد : (في ياقوت) قرب البلقاء سميت بذلك لسواد حجارتها . ونقول : ربما هي المنطقة الواقعة بين ناحية جاسم وناحية نوى من أعمال حوران ، فأرض حوران أغلبها مغطاة بحجارة سوداء .

[٣٣/ظ] بالشلالة (١) ونزل نور الدين عشترا (٢) / وقد سرّه ما جرى فأنفذ سرية إلى أعمال طبرية واغتنم خلوّها ، فأدلجت تلك الليلة ، وجهدت في شن الغارة غدوّها ، فلمّا عادت لحقها الفرنج عند المخاضة(٣) فوقف الشجعان ، وثبت من ثبّته الإيمان حتى عبرت السرية ، وانفصلت تلك القضية ، ورحل نور الدين من عشترا ، فنزل بظاهر زرع . ومدحه العماد بقصيدة منها (٤) :

أَحْلى أمانيكَ الجهادُ وإنّهُ
لَكَ مُؤْذِنٌ أبداً بِكُلِّ أمانِ

كَمْ وقعةٍ لَكَ بالفِرَنْجِ حديثُها
قَدْ سارَ في الآفاقِ والبُلْدانِ

قَمَّصْتَ قَوْمَصَهُمْ رِداءً من رَدًى
وقَرَنْتَ رأسَ بِرِنْسِهِمْ بِسِنانِ

وَمَلَكْتَ رِقَّ مُلوكِهِمْ وتَرَكْتَهُمْ
بالذُّلِّ في الأقْيادِ والأسْجانِ

---

(١) الشلالة : ربما قصد بها شلالة زيزون بالقرب من قرية زيزون وإلى الجنوب من عشترا بحوالي ٧ كم وبالقرب منها يقام معسكر الطلائع لمحافظة درعا (زيارة ميدانية) .

(٢) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم (١) ص ٣٠٠ .

(٣) لعلها المخاضة الحسينية في جنوب بحيرة طبريا .

(٤) انظر القصيدة في : خريدة القصر ٥٤ – ٦٢ ، الروضتين ١ : ٢٠٧ – ٢٠٨ ، سنا البرق ٢٨ – ٢٩ .

ياخيبة الإفرَنْجِ حينَ تَجَمَّعوا
في حَيْرةٍ وأتوا إلى حَـوْرانِ
فهزمتهم(١) بالرأي قبلَ لقائهمْ
والرأيُ قَبْلَ شجاعةِ الشجعانِ
قل أيْنَ مِثْلُكَ في الملوكِ مجاهداً
لله في سرٍّ وفي إعـــلانِ
أذعَنْتَ لله المُهيمن إذ عَنَتْ
لَكَ أوجهُ الأملاكِ بالإذعـانِ

وفي هذه السنة فتح شمس الدولة (٢) تورانشاه أخو السلطان صلاح الدين بلاد النوبة .

وفيها (٣) : توفي (٤) والدهما نجم الدين أيوب شبّ به فرسه بالقاهرة عند باب النصر وسط المحجر ثامن عشر ذي الحجة(٥)،

---

(١) في الخريدة ص ٥٦ (وهزمتهم) وكذا في الروضتين ١ : ٢٠٨ .

(٢) انظر الكامل ١١ : ٣٨٦ – ٣٨٧ ، الروضتين ١ : ٢٠٨ – ٢١٠ (بالسابع والعشرين من ذي الحجة) ، الأخبار السنية ١٥٥ – ١٥٦ .

(٣) في حاشية الأصل ٣٤ / و العبارة (وفاة السلطان نجم الدين أيوب) .

(٤) انظر النوادر السلطانية ٢٩ – ٣٠ ، الكامل ١١ : ٣٩٣ – ٣٩٤ ، الروضتين ١ : ٢٠٩ – ٢١١ ، الأخبار السنية ١٥٦ – ١٥٧ .

(٥) في النوادر السلطانية يقول : (كانت وفاته في شهور سنة تسع وستين)، وفي الروضتين (توفي في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة) ، وفي الكامل (ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة) ، وفي سنا البرق : سقط عن فرسه (يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة وعاش ثمانية أيام بعد وقوعه وتوفي يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة في الساعة الرابعة) وهكذا تجمع المصادر تقريباً على أن وفاته كانت في السابع والعشرين من ذي الحجة وهو التاريخ الأقرب إلى الصحة برأينا .

فعاش ثمانية أيام ، ثم توفي ، فدفن في جانب أخيه أسد الدين في بيت بالدار السلطانية ثم نُقلا بعد سنتين إلى المدينة الشريفة النبوية ، فدفنا في التربة الجمالية التي تقدم ذكرها . وكان السلطان عند موت أبيه غائباً في حصار الكرك المتقدم ذكره .

ومن كتاب فاضلي (١) عنه إلى عز الدين فرخشاه يعرفه بوفاة والده يقول فيه : صح من المصاب بالمولى الدارج غفر الله له ذنبه ، وسقى بالرحمة تربه ماعظمت به اللوعة واشتدت الروعة ، وتضاعفت لغيبتنا عن مشهده الحسرة فاستنجدنا بالصبر فأبى وانحدرت العبرة ، فيـــا له فقيداً فُقد عليه العزاء ، وانتثر شمل البركة بفقده فهي [٣٤/ و] / بعد الاجتماع أجزاء .

وتخطفته يد الردى في غيبـــتي
هبني حضرت فكنت ماذا أصنع

ولعمارة اليمني من قصيدة يرثيه بها (٢) :

هنياً لملك مـــات والعـــز عزهُ
وقدرتـــه فوق الرجـــال وقـــدرُهُ

وأدرك مـــن طول الحياة مـــراده
وما عاش (٣) إلاّ في رضى الله عمرُه

---

(١) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم (٢) ص ٣١٧ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ١ : ٢١٢ .

(٣) في الروضتين : ح ١ ص ٢١٢ (طال) .

وأسعدُ خلق الله من مات بعدما
رأى في بني أبنائه مايسرُّهُ

شهيد تلقى ربّه وهو صائم
وكان على أجر الشهادة فطرُهُ

وله أيضاً فيه من أخرى (١) :

ما مات أيوب إلاّ بعد معجزة
في المجد لم يؤتها من جنسه بشرُ

مضى سعيداً من الدنيا وليس له
في رتبةٍ أربٌ باق ولا وطرُ

وطوّل الله منه باع أربعة
منها الندى والتقى والملك والعمرُ

وكان مليح بن لاون مقدم بلاد الأرمن قد التجأ إلى نور الدين ، وتطاول بقوته على الروم والأرمن (٢) ، وكانت الدروب

---

(١) الروضتين ١:٢١٢ - ٢١٣ .

(٢) انظر الخبر مفصلا مع خلاف في : سنا البرق ١٣٣ - ١٣٧ حيث يذكر ابن العماد : أن السبب هو تعدي صاحب الروم على بلاد قرا أرسلان ، وهذا تصحيف من ابن العماد : لأن الصواب أن ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس وغيرها من تلك البلاد ، قصده قلج أرسلان ، وأخذ بلاده ، وأخرجه منها طريداً وعلى ذلك التجأ ذا النون إلى نور الدين مستجيراً به : انظر الباهر : ١٦٠ - ١٦١ ، والكامل ١١ : ٣٩١ - ٣٩٢ ، والروضتين ١ : ٢١٣ - ٢١٤ .

[إلى] (١) أذنة (٢) والمصيصة (٣) وسيواس (٤) يحميها كلب الروم ويضبطها بجنده حتى استولى عليها بن لاون . فكسرهم وقتل منهم وأسر وساق إلى نور الدين من مقدمي الروم ثلاثين أسيراً ، فأرسل نور الدين رحمه الله القاضي كمال الدين الشهرزوري (٥) إلى الخليفة المستضيء بأمر الله ومعه هدايا وأسرى ، وكتب معه كتاباً يشرح فيه الكسرة وما فتحه من البلاد . ويقول فيه :

« وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمد الفتوح في مضمار المنافسة ، وكلاهما في (وحشة الظلام) (٦) المدلهم على انتظار صباح المؤانسة والله تعالى بكرمه يُدني قطاف الفتحين لأهل الإســلام ، ويوفق الخادم لحيازه مراضي الإمام » . وفي آخره : (ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ، ماتيسّر في هذه النوبة من افتتاح بعض بلاد النوبة ، والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنابك الخيل الإسلامية

(١) مابين القوسين ، الإضافة من قبلنا عن سنا البرق ١٣٣ — ١٣٤ .

(٢) أذنة : (في ياقوت) ١ — ١٣٢ بكسر الذال المعجمة والنون : خيال من أخيلة حمى فيد ، بينه وبين فيد نحو عشرين ميلا ، ويقال لتلك الأخيلة الآذنات ، والأخيلة علامات يضعونها على حدود الحمى يعرف بها حدها . وأذنه أيضاً بلد من الثغور قرب المصيصة مشهورة .

(٣) المصيصة : (في ياقوت) بالفتح ثم الكسر والتشديد وياء ساكنة وصاد أخرى وهي : مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم وتقارب طرطوس.

(٤) في سنا البرق : ١٣٦ (طرطوس) .

(٥) هو القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبدالله الشهروزي ، قاضي بلاده (أي بلاد نور الدين زنكي) جميعها مع الوقوف والديوان ، (الكامل ١١ — ٣٩٥) .

(٦) في الأصل (٣٤ / ظ) (وجه) وما ثبتناه عن سنا البرق .

في العصور الخالية ، وكذلك استولت عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها ، وتحكموا في محكم / معاقلها وحصونها ، حتى بلغوا [٣٤/ظ] إلى حدود المغرب فاستولى على طرابلس وكثير من بلاد أفريقية فظفروا من السؤل بعنقاء (مُغرب) (١) ومنه : « ونسأل الله التوفيق لاستدناء قواصي المنى وإقصاء عبدة الصليب الأنجاس من المسجد الأقصى . وأن يجعل فتح القـــدس مفتتح مراده ، ومقتدح زناده ومقترحه في جهاده ، وأن يملكه الساحل بجميع بلاده » .

(٢)ووصل شهاب الدين ابن أبي عصرون من بغداد . ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصريفين (٣) وخمسون ديناراً من دنانير النثار التي نثرت يوم دخول الشهاب إلى بغداد ، يبشر بالخطبة لهم بمصر [وزن] (٤) كل دينار عشرة دنانير (ومعه خلعة نفيسة لنور الدين وأخرى لصلاح الدين وألوية ومراكيب لهما . وغير ذلك) (٥) . وكانت ناحيتا درب هارون وصريفين من أعمال العراق مقطعة قديماً لزنكي والد نور الدين ، فسأل نور الدين إحياء ذلك الرسم في حقه ، فأنعم بها الخليفة عليه ، ووجه له مثاله بهما ، وكان

---

(١) عنقاء (في ياقوت) عنقاء : بفتح أوله ، وسكون ثانيه ، ثم قاف ، وألف ممدودة ، يقال : رجل أعنق وامرأة عنقاء ، طويلة العنق وقيل فيهم : طارت بهم العنقاء المغرب ، وقيل العنقاء اسم الداهية وقيل : العنقاء طائر لم يبق في أيدي الناس من صفتها إلا اسمها .

(٢) انظر الروضتين ١ : ٢١٥ بتصرف في اللفظ وابن الاثير : الكامل ١١ — ٣٩٥ ، سنا البرق ١٣٩ بتصرف وتقديم و تأخير .

(٣) صريفين (في ياقوت) : من قرى الكوفة .

(٤) الاضافة من قبلنا عن الروضتين ١ : ٢١٥ لتوضيح القصد .

(٥) مابين القوسين لم ترد في الروضتين ، ولا في المصادر المتوفرة لدينا .

من مراد نور الدين رحمه الله أن يستوهب ببغداد على شاطىء دجلة أرضاً يبنيها مدرسة للشافعية ويقف عليها هاتين الناحيتين طلباً للأجر وحسن الذكر الباقي على مرّ الدهر ، وقيل له ماثم موضع يصلح لهذا إلاّ دار التمر (١) فعاقه القدر عن قدرته على هذا الأمر .

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة (٢) :

(٣) وهي سنة وفاة نور الدين رحمه الله ، ففيها فتحت اليمن وبلادها كلها على يد شمس الدولة تورانشاه أخي صلاح الدين ، وكان قد أرسله إليها مع جيش جرّده صحبته ، وكان باليمن دعيٌ يقال له : ابن مهدي (٤) من الضلال الملحدين ، قد استولى عليه وفعل القبائح المنكرة وسبى الشرائف ، فقتلوه وأراح الله منه . وممن كان صحبة شمس الدولة الأمير سيف الدولة مجد الدين المبارك بن كامل بن منقذ فاستنابه بزبيد . قال فيه العماد الكاتب : كان من الكفاة الكرماء والدهاة ذوي الآراء وهو فاضل من أهل بيت فضل ، وكتب إلي / أبياتاً من نظمه منها (٥) : [٣٥/ و]

---

(١) في الروضتين ١ : ص ٢١٥ (المشمر) .

(٢) في حاشية الأصل ٣٥ / و العبارة : (فيكون مجموع عمر نورالدين زنكي تقدير ثمانية وخمسين سنة) .

(٣) انظر الحدث في : الروضتين ١ : ٢١٦ — ٢١٨ ، سنا البرق ١٣٩ — ١٤١ ، السلوك ج ١ ق ١ ٥٢ — ٥٣ ، الأخبار السنية ١٦٠ — ١٦١ .

(٤) هو : عبد النبي أبو الحسن علي بن مهدي ملك زبيد وخطب لنفسه . انظر الحدث مفصلا في : الكامل ١١ : ٣٩٦ ، سنا البرق ١٤١ ، الخطط المقريزية ٢ : ٣٧ .

(٥) سنا البرق ١٤١ — ١٤٢ ، الروضتين ١ : ٢١٧ — ٢١٨ .

لما نزلتُ الدير قلت لصاحبي
قم فاخطب الصّهباءَ من شمّاسهِ

فأتى وفي يُمناه كأس خِلْتُها
مقبوسةً في الليلِ من نبراسهِ

وكأنّ مافي كأسه من خدّهِ
وكأنّ ما في خدّهِ من كأسهِ

وكأنّ لذّة طعمها من ريقهِ
وأريجها الفيّاح من أنفاسهِ

لم أنس ليلة شربها بغنائه
إذ باتَ يجلوها على جلاسهِ

إذ قام يسقينا المدام وكلّما
عاتبته ردّ الجواب برأسهِ

وقد مدحه أبو الحسن الذروي (١) بقصيدة ذالية في غاية الرقة أوّلها (٢) :

لك الخير عرج بي على ربعهم فذي
ربوع يفوح المسك من(نشرها)(٣) الشذي

وذا ياكليم الشوق وادٍ مقدسٌ
لذي الحب فاخلع ليس تمشيه محتذي

---

(١) هو : أبو الحسن بن الذروي المصري (الروضتين ١ — ٢١٨) .
(٢) في الروضتين ١ : ٢١٨ (ورد البيت الأول والسابع فقط) .
(٣) في الروضتين (عرفها) .

ومنها :

وبي رشأٌ قد كمّل الله خلقَهُ
وقال لأفواه الخــــلائق عــوّذي

جلا تحت ياقوت اللمـــى دُرَّ جوهرٍ
رطيبٍ وأبدى شارباً من زمـــرُّدِ

ولي عُذّل أبدي التشاغل عنهـــم
إذا أخذوا في عذلهـــم كلّ مأخذ

يقولون من هذا الذي مُتَّ في الهوى
به شغفاً ياربّ لا عرفوا الـــذي

ومنها :

(١) مَبارِك وفد العيش باب مُبارك
وهل منقذ الضلال غير ابن منقـــذِ

ومنها :

وأليَنُ يوم السلم من بطن حيّة
وأخشن يوم الروع من ظهر قنفذِ

---

(١) في الروضتين ورد البيت السابع :

مبارك عيش الوفد باب مبارك وهل منقذ القصاد غير ابن منقذ

وفيها : (١) توفي الحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمدالهمذاني بها ، ودفن بمسجده . رحمه الله .

وفيها : رجع نور الدين مـن بلاد الروم (٢) وقد فتح مرعش وغيرها ، ومليح بن لاون ملك الأرمن في خدمته ، ومسعود بن قفجاق (٣) صاحب ملطية ، والأمراء من المجدل . فسرّحهم وأظهر أنه ينزل على قلعة الروم على الفرات ، فقبّل مستخلف الأرمن الأرض ، وحمل خمسين ألف دينار على سبيل الجزية مصانعةً بذلٍّ وصغار ، وعاد إلى دمشق وقد أنجح في كل ماطلب وسار إلى دمشق على طريق قبة [ابن] (٤) ملاعب / والمشهد وسلمية ، فجاءه الخبر أن الفرنج [٣٥/ظ] قد أغارت على حوران فثنى عنانه إلى الجهاد ، وسمع الفرنج به فتفرقوا وقلقوا .

قال العماد: (٥) ثم سيّر نور الدين إلى بغداد بشارة [بأمرين] (٦) : أحدهما فتح اليمن، والآخر كسر الروم مرة ثانية ومقدمهم الدوقس كلمان (٧) ، وكان قديماً أسيراً عند نور الدين من نوبة حارم وفداه

---

(١) هو الحافظ أبو العلاء العطار الحسن بن أحمد الهمذاني (انظر ترجمته في شذرات الذهب ٤ : ٢٣١ — ٢٣٢) .

(٢) الروضتين ١ : ٢١٥ — ٢١٦ بتصرف في اللفظ ، سنا البرق ١٣٧ — ١٣٨ بتصرف في اللفظ .

(٣) هو ضياء الدين مسعود بن قفجاق صاحب ملطية ، الروضتين ١ — ٢١٥ .

(٤) مابين القوسين أضيفت من قبلنا لتوضيح القصد .

(٥) انظر الروضتين : ١ : ٢١٨ ، سنا البرق ١٤٢ .

(٦) مابين القوسين إضافة عن الروضتين وسنا البرق لتوضيح القصد .

(٧) هو بيمند . انظر الأصل ٢٠ / ظ ص ١٧٠ .

بحمسة وخمسين ألف دينار وخمسمائة وخمسين ثوباً أطلساً وأسرى ، وسيّر مع البشارة أسرى من الروم ، وذلك في شعبان سنة تسع وستين ومما تضمنه الكتاب ولم ينج من عشرة آلاف غيرُ عشرة حُمُرٍ (١) مستنفِرَة فرّت من قَسْوَرَةُ (٢) .

وفيها (٣) صُلب الفقيه عمارة اليمني (٤) الشاعر بين القصرين هو والجماعة الذين كانوا اتفقوا عـلى قلب الدولة وإعادتها إلى المصريّين (٥) .

ومن كتاب فاضلي عن صلاح الدين(٦) إلى نور الدين يخبره بهذه القضية : (قصر هذه الخدمة على متجدد سارّ للإسلام وأهله ، وبشارة مؤذنة بظهورِ وعد الله في إظهارهِ على الدين كلّه ، بعد أن كانت لها مقدمات عظيمة إلاّ أنها انفرجت عن النجح وأوائل كالليلة البهيمة ، لكنها أسفرت عن الصبح ، فالإسلام ببركاته البادية وفتكاته الماضية . قد عاد مستوطناً بعد أن كان غريباً ، وضرب في البلاد بجرانه بعد أن كاد الكفر يتمم عليه تخيّلاً عجيباً ، إلاّ أن الله سبحانه اطلع على أمرهـــا من أوله ، وأظهر على سرّها من مستقبله ،

---

(١) حمر : جمع حمار .

(٢) القسورة : الأسد ، وكل شيء شديد ، والرماة أو الصيادون ، المفرد قسور .

(٣) انظر : الروضتين (وفيه بعض قصائد عمارة) ١ : ٢١٩ — ٢٢٤ ، سنا البرق ١٤٧ أ ، البداية والنهاية ١٢ : ٢٧٤ ، الأخبار السنية ١٦١ — ١٦٢ .

(٤) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم (٣) ص ٢٥٥ .

(٥) في حاشية الأصل ٣٦ / و العبارة (تاريخ صلب الفقيه عمارة اليمني) . وعليها عبارة (إنشاء فاضلي) .

(٦) الروضتين ١ : ٢٢٠ — ٢٢٢ ، سنا البرق ١٤٧ .

والمملوك يأخذ في ذكر الخبر ويُعرض عن ذكر الأثر ، ولم يزل المملوك يتوسّم من جند مصر من أهل القصر ، بعد ما أزال الله مـــن بدعتهم ومن نقص من عُرى دولتهم . وخفض من مرفوع كلمتهم ، أنّهم أعداء . وإن قعدت بهم الأيام ، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام ، وكان لايحتقر منهم حقيراً ، ولا يستبعد منهم شراً كبيراً ، وعيونه لمقاصدهم موكلة ، وحظراته في التحرّز منهم مستعملة ؛ لاتخلو سنة تمر ولا شهر يكر من مكر يجتمعون عليه ، وفساد يتسرعون إليه ، وحيلة يرمونها ومكيدة يتممونها ، وكان أكثر مايتعللون به ويستروحون إليه المكاتبات المتواترة والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج خذلهم الله ، التي يوسّعون لهم فيهم سُبل المطامع / ويحملونهم [٣٦/ و] فيها عـــلى العظائم الفظائع ، ويزُينون لهم الاقـــدام والقدوم ، ويخلعون فيها ربقة الإسلام خلع المرتد للخصوم ، ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم، إلاّ أنّهم لايقطعون حبل طمعهم على عادتهم ؛ وكان ملك الفرنج كلمّا سولت له نفسهُ الاستتار في مراسلتهم والتخيل في مفاوضتهم ، سيّر جرج كاتبه رسولاً إلينا ظاهراً وإليهم باطناً ، عارضاً علينا الجميل الذي ماقبلته قط أنفسنا ، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقتـــه علمنا ، ولأهـــل القصر والمصريين في أثناء هذه المدد رسل تتردّد وكتب إلى الفرنج تتجدّد) ثم قال : (والمولى عالم أنّ عادة أوليائه المستفادة من أدبه ، أن لايبسطوا عقاباً مؤلماً ، ولا يُعذبوا عذاباً محكماً ، وإذا طال بهم الاعتقال ولم ينجع السؤال ، أطلق سراحهم وخلّى سبيلهم ، ولا يزيدهم العفو إلاّ ضراوة ،ولا الرقة عليهم إلاّ قساوة ، وعند وصول جرج في هذه الدفعة الأخيرة رسولاً إلينا بزعمه وَرَدَ إلينا كتاب

من لايرتاب به من قومه [يذكر] (١) أنّه رسول مخاتلة لا رسول مجاملة ، وحامل بلية لاحامل هدية ، فأوهمناه الإغفال عن التيقظ لكلّ مايصدر منه وإليه ، فتوصّل مرّة بالخروج ليلاً ، ومرّة بالركوب إلى الكنيسة نهاراً إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدّامه وأمراء المصريين وأسبابهم وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكُتّابهم ، فدسَسْنا إليهم من طائفتهم مَنْ داخلهم فصار ينقل إلينا أخبارهم(٢)، ويرفع إلينا أحوالهم ، ولما تكاثرت الأقوال وكاد يشتهر علمُنا بهذه الأحوال ، استخرنا الله تعالى ، وقبضنا على جماعة مفسدة وطائفة من هذا الجنس متمردة ، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة والسرائر المنافقة فكلاً أخذ الله بذنبه فمنهم من أقرّ طائعاً عند إحضاره، ومنهم من أقرّ بعد ضربه . فانكشفت أمور أخر كانت مكتومة ، ونوب غير التي كانت عندنا معلومة ، وتقديرات مختلفة في المراد متّفقة في الفساد ، وعينوا خليفة ووزيراً) ، ثم قال : (وكانوا فيما تقدم ، والمملوك على الكرك والشوبك ، قد كاتبوهم وقالوا لهم : إنّه بعيد ، والفرصة قد أمكنت ، وفي أثناء هذه المدة / [٣٦/ظ] كاتبوا سناناً صاحب الحشيشية بأنّ الدعوة واحدة والكلمة جامعة وأن مابين أهلها خلاف إلاّ فيما لايفترق به كلمة ولا يجب به قعود عن نصرة ، واستدعوا منه من يتمّم على المملوك غيلة أو يبيّت له مكيدة وحيلة ، والله من ورائهم محيط .

---

(١) الإضافة عن الروضتين لتوضيح المقصود .

(٢) هو الأمير زين الدين علي بن نجا الواعظ ، المعروف بابن نجية ، انظر الكامل ١١ : ص ٣٩٩ .

وكان الرسول إليهم عن المصريين خال ابن قَرجُلّة المقيم والآن هو وابن أخته عند الفرنج ، ولمّا صح الخبر وكان حكم الله أولى ماأُخذ به ، وأدب الله أمضى فيمن خرج عن أدبه ، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى ، وتواترت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغواة الغلاة الدعاة إلى النار ، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلّوه الفجّار ، وشُنقوا على أبواب قصورهم ، وصُلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم ، ووقع التتبع لأتباعهم ، وشُرّدوا ونُفوا ، ونوديَ بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد ، فأمّا مَنْ في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم إلى أن ينكشف وجه رأي يمْضي فيهم ولا أرى فوق رأي المولى والله سبحانه يستخار ، وهو مستشار وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده ، وتمْضي الحدود بتحديده ، ورأي المملوك إخراجهم من القصر فإنهّم مهما بقوا فيه بقيت مادة لاتنحسم الأطماع عنها ، فإنّه قبلة للضلالة منصوبة ، وبيعة للبدع محجوجة محجوبة ، ومما يُطرف به المولى أن ثغر الإسكندرية على عموم مذهب أهل السنة فيه، اطلع البحث على أن فيه داعية خبيثاً أمره محتقراً شخصه عظيماً كفره يُسمى قديداً القفاص (١) ، وأن المذكور مع خموله في الديار المصرية ، قد فشت في الشام دعوته ، وطبقت عقول أهل مصر فتنته ، وأن أرباب المعائش فيه يحملون إليه جزءاً من كسبهم، والنسوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهن، ووجدت في منزله بالإسكندرية عند القبض له والهجم عليه ، كتب مجردّة فيها خلع العذار وصريح الكفر الذي ما عنه

---

(١) في البداية والنهاية ١٢ : ٢٧٧ ، هو (قديد القفاجي) .

[٣٧/ و] اعتذار، ورقاع يُخاطب بها ، وفيها : ما تقشعر منه الجلود / (وكان يدَّعي النسب إلى أهل القصر ، وأنّه خرج منه طفلاً صغيراً ، ونشأ على الضلالة كبيراً) (١) ، وبالجملة فقد كُفي الإسلام أمره ، وحاق به مكره وصرعه كفره (٢) .

---

(١) ما بين القوسين لم يرد في الروضتين .

(٢) في كتاب السلوك للمقريزي ج١ ق١ ص١٥٢ يذكر في أحداث سنة ٥٦٨ هـ : أن صلاح الدين قال لابن القيسراني رسول نور الدين لمطالبة صلاح الدين بالحساب عن جميع ما أخذ من قصور الخلفاء وحصل من الارتفاع – أي من الدواوين عامة – : (وأوقفه صلاح الدين على ما تحصل له ، وعرض عليه الأجناد وعرفه مبالغ إقطاعاتهم وجامكياتهم – أي الرواتب عامة – ورواتب نفقاتهم . ثم قال : وما يضبط هذا الإقليم العظيم إلا بالمال الكبير ، وأنت تعرف أكابر الدولة وعظماءها وأنهم معتادون بالنعمة والسعة ، وقد تصرفوا في أماكن لا يمكن انتزاعها منهم ، ولا يسمحون بأن ينقص من ارتفاعها) .

ويفيد هذا أن صلاح الدين انتزع من رجالات الدولة الفاطمية إقطاعاتهم وجميع صلاحياتهم ، ثم وزعها على قادة جنده ، فأثار تصرفه هذا حفيظة المتضررين من رجالات الدولة الفاطمية . (فاجتمع طائفة من أهل القاهرة على إقامة رجل من أولاد العاضد ، وأن يفتكوا بصلاح الدين ، وكاتبوا الفرنج منهم :

القاضي المفضل ضياء الدين نصر الله بن عبدالله بن كامل القاضي ، والشريف الجليس ، ونجاح الحمامي ، والفقيه عمارة بن علي اليماني ، وعبد الصمد الكاتب ، والقاضي الأعز سلامة العوريس متولي ديوان النظر ثم القضاء ، وداعي الدعاة عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوي ، والواعظ زين الدين بن نجا ، فوشى ابن نجا بخبرهم إلى السلطان . . .) وهكذا تمكن صلاح الدين الأيوبي بقواته المنظمة من القضاء على هذه المؤامرة .

وقصة هذه المؤامرة منشورة بنصها في كتاب تاريخ عمارة اليمني تحت عنوان (نبذة من كتاب السلوك) . إضافة إلى الروضتين ، وسنا البرق .

وكان عمارة هذا (١) فقيهاً شاعراً أديباً قدم من بلاد اليمن. وحج. ثم قدم مصر أيام الصالح طلائع بن رزيك فآواه وأحسن إليه، ورتب له الصلات، ثم اتصل بعده بشاور (٢) وأنشده يوم جلوسه بدار الوزارة، بعد قتل بني رزيك أبياتاً منها (٣) :

زالت ليالي بني رزيك وانصرمت
والحمد والذم فيها غير منصرمِ

كأنّ صالحهم يوماً وعادلهم
في(وسط)(٤) ذا الدستِ لم يقعد ولم يقمِ

كنّا نَظُنّ وبعضُ الظنّ مأثمة
بأنّ ذلك جمع غير منهزمِ

فمذ وقعت وقوع النسر خانهم
من كان (حولهم من)(٥) ذلك الرّخمِ (٦)

وما قصدت بتعظيمي عِداك سوى
تعظيم شأنِكَ فاعذرني ولا تلمِ

(١) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم (٣) ص ٢٥٥ .
(٢) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم(١) ص ٢٦٥ .
(٣) انظر القصيدة في الروضتين ١ : ٢٢٦ - ٢٢٧ .
(٤) في الروضتين (صدر) .
(٥) في الروضتين (مجتمعاً في) .
(٦) الرخم : جمع رخمة : طائر على شكل النسور مبقع بسواد وبياض يسمى الأنوق.

ولو شكرْت لياليهم محافظة
لِعهدها لم يكن بالعهد من قدَمِ
ولو فتحت فمي يوماً بذمّهم
لم يرض فضلك إلاّ أن يَسُدَّ فمي

ولمّا انقرضت دولة بني عُبَيْد (١) انقطع عنه ماكان جارياً عليه ، ولم يحصل له العوض في أيام السلطان صلاح الدين ، ففي ذلك يقول من أبيات (٢) :

فقد صارت الدنيا إليكم بأسرها
فلا تشبعوا منها ونحنُ جياعُ
إذا لم تريدونا ، فكونوا كمن مضى
ففي الناس أخبارٌ لهم وسماعُ
وليس على مرّ العظام إقامة
فهل في ضروع المكرمات رضاعُ

وحمله ذلك على القيام مع جماعة ، والسعي في إعادة دولة المصريين ، فجرى له ماتقدم ذكره ، وانتقد عليه بيت من شعره يقتضي الكفر فقُتل أيضاً به ، . وقد قيل إن هذا البيت أدخل عليه فالله أعلم ، وكان بينه وبين القاضي الفاضل بعض الشيء ، فلمّا أحضر في هذه النوبة بين يدي السلطان ، أخذ القاضي الفاضل يشفع فيه

(١) قصد بذلك الدولة الفاطمية .
(٢) انظر الروضتين ١ : ٢٢٢ .

ويستعطف خاطر السلطان عليه فظن عمارة أنّه يُغريه به ولم يكن يسمع مايقول لبعده ، فقال للسلطان : مولانا لاتسمع منه فإنّه عدوي ، فغضب الفاضل من ذلك وقام ، وقال له السلطان : إنه كان [يشفع فيك] (١) / وقد قبلنا سؤالك فيه ، فلمّا أُخرج ليقتل ، سألَ أن يُمرَّ به على دار القاضي الفاضل ، فلمّا قرب من بابه ، وكان الفاضل جالساً على بابه دخل وأغلق بابه فقال عمارة (٢) : [٣٧/ظ]

عبد الرحيم قــد احتجـب
إن الخلاصَ (من)(٣) العجـــب

ثم شنق والله يرحمه ويغفر له . ومن شعره أيضاً :

(لي في)(٤) هوى الرّشاء العذريّ أعــذارُ
لم يَبْقَ لي مُذْ أقرَّ الدّمْع إنكارُ

لي في القُدود وفي لثْم الخدود وفــي
ضمّ النّهود لُبانات وأوطـــارُ

هذا اختياري فوافِقْ إنْ رضيتَ به
أوْ لا فــدعني وما أهْوى وأختارُ

---

(١) في الأصل [٣٧/ ظ] مطموسة والإضافة عن نسخة المغرب .

(٢) انظر القصيدة في : خريدة القصر ٣ : ١٠٧ – ١٠٨ ، الروضتين ١ : ٢٢٣ – ٢٢٥ .

(٣) في الروضتين (هو) .

(٤) في الخريدة (لم تعرف) .

لُمني جزافاً وسامحني مصارفــة (١)
فالنّـــاس في درجات الحب أطوارُ
(وغُرّ غيري ففي أسري) (٢) ودائرتي
من المهـــا دُرّة قـــلبي لها دارُ

قال ابن أبي طي(٣) : وفي هذه السنة وصل الموفق ابن القيسراني(٤) رسولاً من نور الدين إلى الديار المصرية ، واجتمع بالسلطان الملك الناصر وأنهى إليه رسالة نور الدين ، وطالبه بحساب جميع ماحصله وارتفع إليه من ارتفاع (البلاد) (٥) ، فصعب ذلك على السلطان ، وأراد شق العصا لولا ماثاب إليه من السكينة ، ثم أمرَ النواب بعمل الحساب وعرضه على ابن القيسراني ، وأراه جرائد الأجناد (٦) بمبالغ إقطاعاتهم وكميات جامكياتهم (٧) ورواتب نفقاتهم ، ثم أرسل معه هدية إلى نور الدين على يد الفقيه عيسى الهكاري أحد أمرائه وهي :

---

(١) الصرف (في لسان العرب) : أن تصرف إنساناً عن وجه يريده إلى مصرف غير ذلك .

(٢) في الخريدة ج٣ : ١٠٨ (وخل عذلي ففي داري) ، وكذا في الروضتين .

(٣) انظر : الروضتين ١ : ٢١٩ ، سنا البرق ١٢٣ ، السلوك ج١ ق١ ٥٠ – ٥٢ .

(٤) هو : موفق الدين أبو البقاء خالد بن نصر بن الصغير المعروف بابن القيسراني : انظر : الروضتين ١ : ٢١٩ ، السلوك ج١ ق١ ٥٢ – ٥٥ .

(٥) في الروضتين (مغل) .

(٦) الجرئد : جمع جريدة ، وهي هنا ورقة أو دفتر تكتب فيه أوراق الجند .

(٧) جامكية : مفرد جامكياتهم وهي كلمة تركية الأصل وتعني مصادر رزقهم ، فالمقريزي يقول : (فلما أفضت السلطة إلى قلاون جمعهم ورتب لهم الجوامك والعليق واللحم والكسوة ، ورسم أن يكونوا جالسين على باب القلعة وأسماهم البحرية) ويستدل من ذلك أنه قصد أرزاق الجند من إقطاعاتهم .

خمس ختمات إحداها ثلاثون جزءاً مغشاة بأطلس أزرق ، مكتوبة بذهب بخط يانس ، وختمة بخط راشد مغشاة بديباج فستقي عشرة أجزاء ، وختمة بخط ابن البواب مجلد واحد ، وأخرى بخط مهلهل ، وأخرى بخط الحاكم البغدادي ، وثلاثة أحجار بلخش أحدها وزنه اثنان وعشرون ، والثاني اثنا عشر مثقالاً ، والآخر عشرة مثاقيل ونصف . وست قصبات زمرد منها واحدة وزنها ثلاثة عشر مثقالاً وثلث وربع ، وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل ، وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل (١) ومائة عقد جوهر مختومة وزنها ثمان مائة وسبعة وخمسون مثقالاً / وخمسون قارورة دهن بلسان ، وعشرون [٣٨/ و] قطعة بلّور ، وأربعة عشر قطعة جزع إبريق يشم (٢) وطشت يشم أيضاً . سقرق (٣) مينا مذهب . صحون صيني وزبادي وسكارج(٤) ، أربعون قطعة عود [رطيب] (٥) قطعتان كبيرتان (٦) وزن إحداهما ثلاثون رطلاً بالمصري ، والأخرى أحد وعشرون رطلاً ، مائة

---

(١) في الروضتين (ستة مثاقيل وسدس) وكذا في الكواكب الدرية ٢٢٤ .

(٢) يشم : حجر ثمين قريب من الزبرجد (انظر الحاشية ٣ في السلوك ج ١ ق ١ : ٥٠) .

(٣) سقرق : اسم لنوع من النبيذ الحبشي ، وربما المقصود هنا الوعاء الخاص بهذا الشراب . انظر الحاشية ٣ في السلوك ج ١ ق ١ : ٥٥ .

(٤) سكارج : جمع سكرجة أي الصحفة ، وزبادي جمع زبدية : وهي وعاء الشراب . انظر محيط المحيط ، الكواكب الدرية ٢٢٤ ، الحاشية(١) في السلوك ج ١ ق١ : ٥٥ .

(٥) الإضافة عن الروضتين ١ : ٢١٩ لتوضيح القصد .

(٦) في الكواكب الدرية ٢٢٤ (وكرتان عود قماري) .

ثوب أطلس، أربعة وعشرون بقياراً مذهبة (١) حلة مرايش صفراء مذهبة وغير ذلك من أنواع القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية ، وعدة من الخيل والغلمان والجواري وشيئاً كثيراً من السلاح على اختلاف ضروبه . وخرجوا بهذه الهديّة فلم تصل إلى نور الدين ، لأنهم اتصل بهم وفاته ؛ فمنها ماأعيد ومنها مااستهلك وقيل : إنها وصلت جميعها إلى السلطان صلاح الدين ، لأنه لمّا اتصل به خبر موت نور الدين أنفذ من ردّها وكان منها أيضاً عشرة صناديق مالاً لم يعلم مقداره .

وفي جمادى الأوّل (٢) من هذه السنة أبطل نور الدين ، رحمه الله ، فريضة الأتبان . قال المؤلف : ورأيت منشوره وعلامته عليه: الحمد لله يقول فيه : (وبعد فإن من سنتنا العادلة ، وسيّر أيامنا الزاهرة ، إشاعة المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وإنصاف المظلوم وإعفاء رسم ما سنه الظالمون من الرسوم ، وما نزال نجدّد للرعية رسماً من الإحسان يرتعون في رياضه ويرتوون من حياضه ، ونستقرىء أعمال بلادنا المحروسة ، ونصفيها من الشبه والشوائب ، ونلحق مانعثّر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب تقرباً إلى الله تعالى الكافل لنا بسبوغ المواهب وبلوغ المطالب ، وقد أطلقنا جميع ماجرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة وضياع الغوطة والمرج وجبل سنير

---

(١) بقيار : كلمة فارسية معناها سجادة سوداء مصنوعة من وبر الجمل (Johnson : Dict) ومعناها في (Dozy : op. cit) نوع من العمائم الكبار كالتي يلبسها الوزراء وأصحاب القلم .

(٢) انظر الروضتين ١ : ٢١٦ .

وقصر حجاج والشاغور . والعقيبة (١) ومزارعهـا الجارية في الأملاك . وجميع مايقسط بعد المقاسمة مـن الأتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة ، ووفرناه على أربابه طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه وهرباً من انتقامه وأليم عقابه ، وسبيل الثواب إطلاق ذلك على الدوام وتعفية آثـاره / والاستعفاء من [٣٨/ظ] أوزاره ، والاحتراز من الدنس بأوضاره ، وإبطال رسمه من الدواوين لاستقبال سنة تسع وستين وما بعدها على تعاقب (الأيام)(٢) والسنين) .

قال العماد (٣) : وكلّف نور الدين في هـذه السنة بإفادة الألطاف والزيادة في الأوقاف وتكثير الصدقات وتوفير النفقات ، وكسوة النسوة الأيامى (٤) في أيامها وإغناء فقراء الرعيّة وإنجادها بعد إعدامهـا ، وصون الأيتام والأرامل ببذله ، وعون الضعفاء وتقوية المقْوين بعدله ، وعمارة المساجد المهجورة ، وتعفية آثار الآثام ، وإسقاط كلّ مايدخل في شبهة الحرام فما أبقى سوى الجزية والخراج وما تحصل من قسم الغلاّت على قويم المنهاج قال : وأمر أن يكتب مناشير لجميع أهل البلاد فكتب أكثر من ألف منشور ، وحسبنا ماتصدق به على الفقراء في تلك الأشهر ، فزاد على ثلاثين ألف دينار ، وكانت عادته في الصدقة أنّه يحضر جماعة من أماثل البلد من كل محلة ، ويسألهم

---

(١) العقيبة من أحياء دمشق . انظر تهذيب تاريخ دمشق الكبير ١ : ٢٢٧

(٢) في الأصل [٣٩ / و] (الأعوام) وهو تصحيف ، وثبتنا ماهو صحيح عن الروضتين .

(٣) انظر الخبر مطولا في : سنا البرق ١٤٣هـ - ١٤٦ ، الكواكب الدرية ٣٧ - ٤٠ .

(٤) أيامى مفردها أيم (في المغرب) : امرأة (أيم) : لا زوج لها ، بكراً كانت أو ثيباً ، ورجل (أيم) أيضاً .

عمن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة ثم يصرف إليهم صدقاتهم ، وكان برسم نفقته الخاص في كل شهر (١) من جزية أهل الذمّة مبلغ ألفي قرطيس يصرفه في كسوته ونفقته وحوائجه المهمّة حتى أجرة خياطه وجامكية طباخه ويتفضل منه ما كان يتصدّق به في آخر الشهر ، وأما ماكان يُهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم ، فإنه كان لايتصرّف في شيء منه لاقليل ولا كثير بل إذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ويحصّل ثمنه ، ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة ، وتقدّم بإحصاء مافي محالّ دمشق من ذلك ، فأناف على مائة مسجد ، فأمر بعمارة ذلك كلّه ، وعيّن له وقوفاً .

قال : ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في كلّ بلد لطال الكتاب . ولم أبلغ إلى أمره . ومُشاهدة أبنيته الدّالة على خلوص نيّته تغني عن خبرها بالعيان . ويكفي أسوار البلدان فضلاً عن الربط والمدارس (على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب وفي شرح طوله طول / وعمله لله مبرور مقبول)(٢) ، وواظب على عقد مجالس الوعاظ ، [٣٩/و] ونصب الكراسيّ لهم في القلعة للإنذار والاتعاظ . وأكبرهم الفقيه قطب الدين النيسابوري وهو مشغوف ببركة أنفاسه واغتنام كلامه واقتباسه . ووفد من بغداد ابن الشيخ أبي النجيب الأكبر (٣) وبُسط له في كلّ أسبوع المنبر وشاقه وعظه وراقه معناه ولفظه ،

---

(١) في سنا البرق ص ٣ (سنة) وهو تصحيف ربما نجم ذلك عن الناسخ لأنه يقول بعد ذلك : (ثم يستفضل مايتصدق به في آخر الشهر) .

(٢) مابين القوسين لم يرد في الروضتين .

(٣) هو ابن شيخ المشايخ أبو النجيب عبد القاهر بن حمويه . انظر الروضتين ج ١ ص ١١ .

وكذلك وفد إليه من أصفهان شرف الدين عبد المؤمن بن شَوْرَوَه(١) . وما أيمن تلك الأيام وأبرك تلك الشتوة ، قال : ولمّـا أسقط نور الدين الجهات المحظورة والشبه المحذورة عزل الشحن وعزل عن الرعية تصرفهم المحن ، وقال للقاضي كمال الدين الشهرزوري : انظر أنت في ذلك ، وأحمل أمور الناس فيها على الشريعة قال : ولم يكن لمال المواريث الحشريّة(٢) حاصل ولا لديوانه طائل ، فجعل نور الدين ثلث مايحصل منه لكمال الدين الحاكم فوفّره نوابه وكثّروه ، وما كان نور الدين يحاسب القاضي على شيء من الوقوف ويقول : أنا قد قلّدته على أن يتصرف بالمعروف وما فضل من مصارفها وشروط واقفها بأمره ، يصرفه في بناء الأسوار ، وحفظ الثغور ، وكانت دولته نافذة الأمر منتظمة الأمور .

وقال في موضع آخر :(٣) كان ملك الشام ومالكها والذي بيده ممالكها الملك العادل نور الدين أعفّ الملوك،وأتقاهم وأعدلهم وأعبدهم وأزهدهم وأطهرهم ، وهو الذي أعاد رونق الإسلام في بلاد الشام وقد غلب الكفر ، وبلغ الضرّ ، فاستفتح معاقلها ، واستخلص عقائلها ، وأشاع بها شعارَ الشرع في جميع الحلّ والعقد والإبرام والنقض والبسط والقبض والوضع والرفع ، وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الإسلام بالشام قطائع فقطعها ، وأعفى رسومها

---

(١) في سنا البرق ١٤٦ (الشورة) .

(٢) الحشرية : هي تركات من يموت ولا وارث له ، أو له وارث لا يستغرق ميراثه ، وكان لها ديوان خاص اسمه (ديوان المواريث الحشرية) . انظر صبح الأعشى ج٣ ص ٤٦٤ ، دوزي ج٢ ص ٢٩٠ .

(٣) انظر سنا البرق ٥٥ ، الباهر ١٧٤ - ١٧٥ ، الروضتين ج١ : ١٠ - ١١ .

ومنعها . ونصره الله عليهم مراراً حتى أسر ملوكهم وبدّد سلوكهم ، وصان الثغور منهم وحماها عنهم وأحيى معالم الدين الدوارس ، وبنى للأئمة المدارس ، وأنشأ الخانقاهات للصوفية ، وكثّرها في كلّ بلد / وكثّر وقوفها ووقّر معروفها ، وأدنى للوافدين من جنان جنانه [٣٩/ظ] قطوفها ، وأجدّ الأسوار والخنادق ، وأنمى المرافق ، وحمى الحقائق ، وأمر في الطرقات ببناء الرّبط والخانات ، وهو الذي فتح مصر وأعمالها وأنشأ دولتها ورجالها .

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر (١) في تاريخه في ترجمة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله :

مولده على ماذكر لي كاتبه (٢) أبو اليسر : وقت طلوع الشمس يوم الأحد سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، ولمّا راهق لزم خدمة والده إلى أن انتهت مدّته سنة إحدى وأربعين على قلعة جعبر (٣) ، ثم قصد حلب ورتب فيها وفي القلعة النواب ، واستنقذ الرها (٤) من الفرنج ، ولمّا استتب له الأمر ظهر منه بذل الاجتهاد في القيام بأمر الجهاد والقمع لأهل الكفر والعناد ، والقيام بمصالح العباد وخرج غازياً في أعمال تل باشر (٥) ، فافتتح حصوناً

---

(١) في حاشية الأصل [٤٠ / و] العبارة : (مولد السلطان نور الدين الشهيد) .

(٢) انظر الحدث في الكامل ١١ : ٤٠٣ — ٤٠٥ ، الباهر ١٦٣ — ١٧٤ ، الروضتين ١ : ٥ — ٢٥٨ ، الكواكب الدرية ١٥ — ١٦ و ٢٩ — ٣٠ .

(٣) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٥ .

(٤) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٤ ص ١٩٢ .

(٥) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٢٥ .

كثيرةً ، وافتتح قلعة أفامية ، وحصن الباره ، وقلعة الراوندان (١) ، وقلعة تل خالد (٢) ، وحصن كفرلاثا ، وحصن بسرفوث بجبل بني عليم ، وقلعة عزاز (٣) ، وتل باشر ، ودلوك (٤) ، ومرعش ، وقلعة عين تاب (٥) ونهر الجوز (٦) ، وغير ذلك ، وغزا حصن إنّب ، فقصده الإبرنس متملك أنطاكية ، وكان من أبطال العدوّ وشياطينهم ، فرحل عنها ولقيه دونها فكسره وقتله وثلاثة آلاف أفرنجي كانوا معه . وأظهر بحلب السنّة حتّى أقام شعار الدين وغيّر البدعة التي كانت لهم في التأذين ، وقمع بها الرافضة والمبتدعة، ونشر فيها مذاهب أهل السنة الأربعة ، وأسقط عنهم جميع المؤن ، ومنعهم من التوثب في الفتن ، وبنى بها المدارس ، ووقف الأوقاف ، وأظهر فيها العدل والإنصاف ، وحاصر دمشق مرّتين ، فلم يتيسر له فتحها ، ثم قصدها الثالثة فتمّ له صلحها وسلّم أهلها إليه البلد لغلاء الأسعار والخوف من استعلاء كلمة الكفار ، فضبط أمورها ، وحصّن سورها ، وبنى بها المدارس والمساجد ، وأفاض على أهلها الفوائد ، وأصلح طرقها ، ووسّع أسواقها ، وأدرّ الله على رعيته ببركته أرزاقها / ، وأبطل منها الأنذال ، ورفع عن أهلها الأثقال ، [٤٠/و] ومنع من أخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البطيخ(٧) وسوق البقل

(١) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم (٢) ص ٢٢٦ .
(٢) تل خالد (في ياقوت) : قلعة من نواحي حلب .
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٢٥ .
(٤) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٢٧ .
(٥) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٢٥ .
(٦) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٢٧ .
(٧) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم (٦) ص ٢٣٦ .

وضمان النهر والكيالة وسوق الغنم (١) وغير ذلك من المظالم ، وأمر بترك ما كان يؤخذ على المكس ، ونهى عن شرب الخمر ، وعاقب عليه بالحد والحبس ، واستنقذ من العدوّ ، خذلهم الله ، ثغر بانياس ، وغيره من المعاقل المنيعة كالمنيطرة وغيرها .

قال : (٢) وبلغني أنه في الحرب رابط الجأش ثابت القدم حسن الرمي صليب الضرب يقدم أصحابه عند الكرّة ، ويحمي منهزمهم عند الفرّة ، ويتعرض بنفسه للشهادة ، لما يرجو بها من كمال السعادة ، وسمعَتَهُ كاتبه أبو اليسر ، يسأل الله أن يحشره من بطون السباع ، وحواصل الطير ، وأحسن إلى العلماء وأكرمهم ، وقرب المتدينين واحترمهم ، وتوخى العدل في الأحكام والقضايا ، وألان كنفه ، وأظهر رأفته بالرعايا ، وبنى في أكثر مملكته آدر العدل ، وأحضرها القضاة والفقهاء ، وحضرها بنفسه في أكثر الأوقات ، واستمع من المتظلمين الدعاوى والبيّنات ، وأدرّ على الضعفاء والأيتام الصدقات ، حتى وقف وقوفاً على المرضى والمجانين ، وأقام لهم الأطباء والمعالجين ، وكذلك على جماعة العلماء ، ومعلّمي الخط والقرآن ، وعلى ساكني الحرمين ، ومجاوري المسجدين ، وجهز عسكراً يحفظ المدينة ، وأقطع أمير مكة ، ورفع عن الحجاج ما كان يؤخذ منهم من المكس ، وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحجاج ، وأمر

---

(١) سوق الغنم الذي فيه مسجد الجنائز بباب الصغير . انظر تهذيب تاريخ دمشق الكبير ١ : ٢٢٥ .

(٢) انظر الكامل ١١ : ٤٠٣ — ٤٠٥ ، الباهر ١٢٣ — ١٢٦ و ١٦٣ — ١٧٤ ، سنا البرق ٦١ — ٦٢ ، الروضتين ١ : ٥ — ١٨ و ١٣٣ — ١٣٤ و ٢٢٩ ، الكواكب الدرية ١٧ — ١٨ و ٥٦ — ٥٧ .

بإكمال سور مدينة الرسول ، صلّى الله عليه وسلم ، واستخراج العين التي بأُحُد ، وكانت قد دفنتها كثرة السيول ، وعمّر الربط (١) والخانقاهات ، والبيمارستانات (٢) ، وبنى الجسور في الطرق والخانات (٣) ، ونصب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين ، وأجرى الأرزاق على معلميهم وعليهم ، بقدر كفايتهم ، وكذلك صنع لمّا ملك سنجار ، وحرّان ، والرها ، والرقة ، ومنبج ، وشيزر ، وحماة ، وحمص ، وبعلبك ، وصرخد ، وتدمر ، فما من بلد منها إلاّ وله فيه حسن أثر ، وحصّل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلاّبها ، وجدّد كثيراً من قني / السبيل وأجهد نفسه في [٤٠/ظ] جهاد أعداء الله تعالى ، وبالغ في حربهم ، وتحصّل في أسره جماعة من أمراء الفرنج خذ لهم الله كجوسلين وابنه وابن الفنش وقومص طرابلس وجماعة من صنوفهم ، وكان متملك الروم قد خرج من قسطنطينية ، وتوجه إلى الشام طامعاً في تسلم أنطاكية ، فشغله عن مرامه بالمراسلة إلى أن وصل أخوه قطب الدين في جنده من المواصلة ، وجمع له الجيوش والعساكر ، وأنفق فيهم الأموال والذخائر ، فأيس الرومي من بلوغ ماكان يرجو ، وتمنى منه المصالحة عساه ينجو ، فاستقر رجوعه إلى بلاده ذاهباً ، فرجع من حيث جاء خائباً ، وحمل إلى بيت المال ماحمل ، ولم يبلغ ماأمله وضلّ ماعمل .

---

(١) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم (٢) ص ٢٨٨ .

(٢) البيمارستانات : جمع مفردها بيمارستان : وتعني المستشفت بمفهوم عصرنا .

(٣) الخانات : وهي جمع مفردها خان : وهي أماكن لراحة المسافرين مع رواحلهم ، وبقيت تستخدم في دمشق لهذه الغاية حتى الستينات ، حيث كان منها عدد أحدها بباب الجابية حالياً يستخدم كمستودع للبضائع والثاني بالقرب من سوق الهال القديم وغيرها ، وهي كانت أشبه بما يسمى بالفنادق في عصرنا (زيارة ميدانية) .

وغزا معه أخوه قطب الدين في عسكر الموصل وغيرهم من المجاهدين ، فكسر الفرنج والروم والأرمن على حارم حتى لم يفلت منهم إلاّ الشريد ، وكانت عدتهم ثلاثين ألفاً بين فارس وراجل ، ثم نزل على قلعة حارم فافتتحها ثانية ، وأخذ أكثر قرى عمل أنطاكية ، وكان قبل ذلك قد كسرهم بقرب بانياس ، وقتل جماعة من أبطالهم .

ثم ذكر تسييره الجيوش لفتح مصر مراراً إلى أن فتحت ، وانفصلت القضية قال : وظهرت كلمة أهل السنّة بالديار المصرية ، وأراح اللّعن بها من الفتنة ، ورفع عنهم المحنة ؛ والحمد لله على مامنح ، وله الشكر على مافتح .

ثم قال : ومع ماذكرت من هذه المناقب كلّها ، وشرحت من دقّها وجلّها فهو حسن الخط بالبنان متأتٍ لمعرفة العلوم بالفهم والبنيان ، حريص على تحصيل كتب الصحاح والسنن مقتن لها بأوفر الأعواض والثمن ، كثير المطالعة للعلوم الدينية ، متتبع للآثار النبوية ، مواظب على الصلوات في الجماعات ، مراعٍ لآدابها في الأوقات ، مؤدياً فروضها ومسنوناتها ، معظّم لقدرها في جميع حالاتها ، عاكف على تلاوة القرآن على مرّ الأيام ، حريص على فعل الخير من الصدقة والصيام ، كثير الدعاء والتسبيح ، راغب في صلاة التراويح ، عفيف البطن والفرج ، مقتصد في الإنفاق والخرج ، متحرّ في المطاعم والمشارب والملابس ، متبرّىء من التمادي والتباهي والتنافس ، عريٌّ عن التجبر والتكبّر ، بريءٌ من / التنجيم والتطيّر ، مع [٤١/ ر] ماجمع الله له من العقل المتين ، والرأي الثاقب الرصين ، والاقتداء

بسيرة السلف الماضين ، والتشبّه بالعلماء والصالحين ، والاقتداء بسيرة مـن سلف منهم في حسن سمتهم والاتّباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم (حتّى روى) (١) حديث المصطفى صلّى الله عليه وسلم وأسمعه ، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه ، حرصاً منه على الخير في نشر السنّة بالأداء والتحدث ، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء في الحديث ؛ فمن رآه شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك مايبهره ، فإذا فاوضه رأى مـن ألطافه وتواضعه ماحيّره ، ولقد حكى لي عنه من صحبه في حضره وسفره أنّه لم تُسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا ضجره ، وإنّ أشهى ماإليه كلمة حق يسمعها أو إرشـاد إلى سـنة يتّبعها ، يُحب الصالحين ويؤاخيهم ، ويزور مساكنهم لحسن ظنّـه فيهم ، وإذا احتلم (٢) مماليكه أعتقهم وزوّج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم ، ومتى تكرّرت الشكاية إليه من أحد من ولاته أمره بالكف عن أذى من تظلّم بشكاته ، فمن لم يرجع منهم إلى العدل ، قابله بإسقاط المنزلة والعزل ، ولمّا جمع الله له من شريف الخصال تيسّرَ لَـهُ جميع ما يقصده من الأعمال ، وسهل على يده فتح الحصون والقلاع ، ومكّن له في البلدان والبقاع ، وأكثر ماأخذه من البلدان ، تسلّمه من أهله بالأمان من غير سفك دم .

وإذا استشهد أحد من أجناده حفظه في أهله وأولاده ، وأجرى عليهم الجرايات ، وولّى من كان منهم أهلاً للولايات ، وكلّما

---

(١) في نسخة المغرب (وقد حفظ) .

(٢) احتلم : أي بلغ سن الرشد .

فتح الله عليـــه فتحاً أو زاده ولاية أسقط عن رعيّته قسطاً وزادهم رعاية حتى ارتفعت عنهم الظلامات والمكوس،ودرّت عليهمالأرزاق، وحصل بينهم الاتفاق ، ومناقبه خطيرة وممادحه كثيرة ، وقد مدحه جماعة من الشعراء فأكثروا ، ولم يبلغوا وصف الآية بل قصّروا ، وهو قليل الابتهاج بالشعر زيادة في تواضعه القدر .

قال أبو الفتح بنجير (١) بن أبي الحسن الأشتري — وهو فقيه — كان معيداً بالمدرسة النظامية وجمع لنور الدين ، رحمه الله ، سيرة مختصرة ، قال : كان نور الدين يقعد في الأسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام في دار العدل / للنظر في أمور الرعية وكشف الظلامة لايطلب [٤١/ظ] بذلك درهماً ولا ديناراً ولا زيادةً ترجع إلى خزانته ، وإنّما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله وطلباً للثواب والزلفى في الآخرة ، ويأمر بحضور العلماء والفقهاء ، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليـــه الضعيف والقوي والفقير والغني ويكلّمهم بأحسن الكلام ، ويستفهم منهم بأبلغ النظام ، حتى لايطمع الغني في دفع الفقير بالمال ، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال ، ويحضر في مجلسه المرأة العجوز الضعيفة التي لاتقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه ، فيأمرُ بمساواته لهـــا ، فتغلب خصمها طمعاً في عدله ، ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله ، فيظهر الحق عنده ، فيُجري الله تعالى على لسانه ماهو موافق للشريعة ، ويسأل العلماء والفقهاء عمّا يشكل عليه من الأمور الغامضة ، فلا يجري في مجلسه إلاّ محض الشريعة .

---

(١) في الروضتين ١ : ١٣ (بنجة) .

قال : وأما زمانه فهو مصروف إلى مصالح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهم ، وأما فكره ففي إظهار شعار الإسلام، وتأسيس قاعدة الدين من بناء المدارس والربط والمساجد وترتيب أمرهم والناس آمنون على أموالهم وأنفسهم ، ولولم يكن من هذه الخصال إلاّ ماعلم منه ، وشاع أنّه إذا وعد وفى وإذا أوعد عفا ، وإذا تحدث بشيء عليه ولا يخالف قوله ولا يرجع عن لفظه ومنطقه لكفى ، ولا يجري في مجلسه الفسق والفجور والشتم والغيبة والقدح في الناس والكلام في أعراضهم ، كما يجري في مجلس سائر الملوك ، ولا يطمع في أخذ أموال الناس، ولا يرضى أن يأخذ من أموال (الرعية)(١) شيئاً بغير حق .

قال : وبلغنا بأخبار التواتر عن جماعة ممن يعتمد على قولهم: أنّه أكثر الليالي يصلي ويناجي ربّه مقبلاً بوجهه عليه ، ويؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها ، وسجودها .

قال : وبلغنا عن جماعة من الصوفيّة الذين يعتمد على أقوالهم ، ممّن دخلوا ديار القدس للزيارة حكاية عن الكفار ، أنّهم يقولون : ابنُ القسيم ، لــه مع الله تعالى سِرْ ، فإنّه مايظفر علينــا بكثرة جنده وعسكره ، وإنمّا يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل ، فإنّه يصلي بالليل ، ويرفع يده إلى الله ويدعو ، فالله / سبحانه وتعالى يستجيب [٤٢/ و] دعاءه ، ويعطيه سؤله، وما يَرُدّ يده خائبة ، فيظفر علينا ، فهذا كلام الكفار في حقّه .

---

(١) في الروضتين ج ١ (الشريعة) ص ١٤ .

قال : وحدثنا الشيخ داود المقدسي خادم قبر شعيب عليه الصلاة والسلام قال : حضرت دار العدل في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين ، فقام رجل وادّعى على الملك العادل : أنّ أباه أخذ من ماله شيئاً بغير حق قال : وأنا مطالب لك بذلك . فقال نور الدين : أنا ماأعلم ذلك ، فإن كانت لك بيّنة تشهد بذلك فهاتها وأنا أردّ مايخصني ، فإنّي ماورثت جميع ماله ، كان هناك وارث غيري ، فمضى الرجل يحضر البيّنة ، فقلت في نفسي : هذا هو العدل .

قال : وادّعى رجل على أخي الشيخ أبي البيان وديعة فأنكرها وحلف ، فجعل (المودع) (١) يشنّع عليه وشكاه إلى نور الدين ، والتمس الإنكار عليه ، فقال نور الدين : أليس الله تعالى يقول في كتابه : « (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) » (٢) ، فإذا كان هو يجهل عليك ، ويقول في حقك بالجهل مالا يجوز ، فيجب عليك أن لاتعمل معه مثل معاملته فتكون مثله ، فكأنّك قابلت الإساءة بالإساءة ، ومن حقّك أن تقابل الإساءة بالإحسان ، فقلت في نفسي : الحق ماقال الملك العادل ، إمّا قرأ هذا في كتب التفاسير ، فثبت في قلبه هذا التحقيق ، أو أجراهُ الله على لسانِه وأنطقه به .

قال : وحضر جماعة من التجار وشكوا أنّ القراطيس كان ستون منها بدينار ، فصار سبعة وستون بدينار ، وتنقص وتزيد فيخسرون . فسأل نور الدين عن كيفية الحال ؟فذكروا أن عقد المعاملة على اسم

---

(١) في الأصل [٤٢ / ظ] (نور الدين) وهو تصحيف ربما نجم عن الناسخ ، وثبتنا ماهو صحيح عن الروضتين ١ ص ١٤ .

(٢) الفرقان ٢٥ آية ٦٣ .

الدينار ولا يرى الدينار بالوسط إنمّا يعدون القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار وتارة سبعة وستين . وأشارَ كلّ واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه وتكون المعاملة بالدنانير الملكية ، وتبطل القراطيس بالكليّة . فسكت ساعة ثم قال : إذا ضربتُ الدينار ، وأبطلتُ المعاملة بالقراطيس ، فكأني خرّبت بيوت الرعية، فإنّ كلّ واحد من السوقة عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس أيش يعمل به ؟ فتكون سبباً لخراب بيته . قال : فأيُّ شفقة أعظم وأكثر من هذا على الرعية .

قال : وحضر صبيّ ، وبكى عند نور الدين ، وذكر / أنّ [٤٢/ظ] أباه محبوس على أجرة حُجرة من حُجر الوقف – يعني وقف الجامع – فسأل عن حاله ؟ فقالوا : هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي ، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف ، وليس له قدرة على الأجرة ، وقد حبسه وكيل الوقف ، لأنّه اجتمع عليه أجرة سنة ، فسأل : كم أجرة السنة ؟ قالوا : مائة وخمسون قرطاساً ، وذكروا سيرته وطريقته وفقره فرقّ له وأنعم عليه وقال : نحنُ نعطيه كلّ سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها ، وتقدم بذلك وبإخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كلّ واحد من الحاضرين الفرح حتّى كأنّ الإنعام كانَ في حقه .

وقال أبو الحسن بن الأثير (١) : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا ، فلم أرَ منها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن سيرةً من الملك العادل

---

(١) انظر : الباهر ١٦٣ – ١٦٤ ، الروضتين ١ : ٥ – ٦ .

نور الدين . ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدلٍ ينشرهُ ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمةٍ يُزيلها وعبادةٍ يقوم بها ، وإحسانٍ يوليه ، وإنعام يسديه ، ونحن نذكر مايُعلم به محله في أمر دنياه وأُخراه ، فلو كان في أُمّةٍ لافتخرت به ، فكيف بيت واحد ؟ أمّا زهده وعبادته وعلمه فإنّه كان — رحمه الله — مع سعة مُلكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، لايأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلاّ من مُلْكٍ كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ، أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ مايحلّ له من ذلك فأخذ ماأفتوه بحِلّه ، ولم يتعدّه إلى غيره ألبتة ، ولم يلبس قط ما حرّمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة ، ومنع من شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ومن إدخالها إلى بلدٍ ما ؛ وكان يحدّ شاربها الحدّ الشرعي ، كلّ الناس عنده فيه سواء .

حدثني صديق لنا بدمشق كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين زوجة نور الدين ووزيرها قال : كان نور الدين إذا جاء إليها ، يجلس في المكان المختص به وتقوم في خدمته ، لاتتقدم إليه إلاّ أن يأذن [لها] (١) في أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه إلى المكان المختص بها ، وينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب / الأشغال ، أو في مطالعة [٤٣/و] كتاب أتاه ، ويجيب عنها ، وكان يصلي فيطيل الصلاة ، ولــه أوراد في النهار ، فإذا جاء الليل وصلّى العشاء ونام ، يستيقظ نصف الليل ، ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة ، فيظهر للركوب ، ويشتغل بمهام الدولة .

---

(١) الاضافة مابين القوسين من قبلنا لتوضيح المقصود .

قال : وإنّها قلّت عليها النفقة . فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها ، فلمّا قلت له ذلك تنكر واحمرّ وجهه ثم قال : من أين أعطيها ؟ أما يكفيها مالها ؟ والله لاأخوض نار جهنم في هواها . إن كانت تظنّ أنّ الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظنّ . إنّما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ، ومُعدة لفتق إن كان من عدوّ الإسلام وأنا خازنهم عليها ، فلا أخونهم فيها ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكاً وقد وهبتُها إيّاها ، فلتأخذها قال : وكان يحصل منها قدر قليل .

قال ابن الأثير (١) : وكان — رحمه الله — لايفعل فعلاً إلا بنية حسنة . كان بالجزيرة رجل صالح كثير العبادة والورع شديد الانقطاع عن الناس ، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ، ويرجع إلى قوله فبلغه أنّ نور الدين يُدْمِنُ اللعب بالكرة . فكتب إليه يقول له : ماكنت أظنّك تلهو وتلعب وتعذّب الخيل لغير فائدة دينية . فكتب إليه نور الدين ، رحمه الله ، بخط يده يقول له : والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر ، إنّما نحن في ثغرٍ العدوُّ قريب منّا ، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب ، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً شتاءً وصيفاً ، إذ لابد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً (٢) لاقدرة لها

---

(١) انظر الباهر ص ١٦٤ — ١٦٥ بتصرف في اللفظ يسير ، الروضتين ج١ ص ٦ بتصرف في اللفظ .

(٢) الجمام (في لسان العرب) بالفتح : الراحة ، وجم الفرس : ترك ولم يركب فعفا من تعبه وذهب إعياؤه .

على إدمان السير في الطلب ، ولا معرفة لها أيضاً بسرعة الانعطاف والكرّ والفرّ في المعركة ، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب فيذهب جمامُها ، وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب ؛ فهذا والله الذي يبعثني على اللعب بالكرة .

قال ابن الأثير : فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير ، الذي يقـــلّ في أصحاب الزوايا المنقطعين [إلى العبادة] (١) مثله ، فإنّ من يجيء إلى اللعب يفعله بنية صالحة ، حتى يصير من أعظم العبادات وأكثر القربات / يقلّ في العالم مثله ؛ وفيه دليـــل على [٤٣/ظ] أنه كان لايفعل شيئاً إلاّ بنيـــة صالحة ، وهذه أفعـــال العلماء الصالحين العالمين .

قال : وحُكي لي عنه أن حُمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة ، فلم يُحضرها عنده ، فوصفت له ، فلم يلتفت إليها وبينما هم في حديثها إذ جاءه رجل صوفي ، فأمر بها له فقيل له : إنها لاتصلح لهذا الرجل ولو أُعطي غيرها كان أنفع له فقال : أعطوها له ، فإنّي أرجو أن أعوّض عنها في الآخرة . فسُلّمت إليه ، فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أو سبعمائة . قلت : وقيل إنّه باعها بهمذان بألف دينار .

قال ابن الأثير : وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي ابن الشكري ، وكان خصيصاً بخدمة نور الدين قد صحبه من الصبا ، وأنس به وله معه انبساط ، قال : كنت معه في الميدان بالرُّها والشمس في

---

(١) الاضافة من قبلنا عن الروضتين ج ١ ص ٦ .

ظهورنا ، فكلّما سرنا تقدمنا الظّل ، فلمّا عدنا صار ظلّنا وراء ظهورنا ، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه وقال لي : أتدري لأي شيء أُجري فرسي وألتفت ورائي ؟ قلت : لا ، قال : قد شبّهتُ مانحن فيه بالدنيا ، تهرب ممن يطلبها وتطلبُ مــن يهرب منها . قلت : رضي الله عن مَلك يفكر في مثل هذا . وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى وهما :

مَثلُ الرزق الذي تطلبــهُ
مثَل الظل الذي يمشي معــكْ

أنــت لاتــدركه متبعــاً
وإذا ولّيتَ عنــه تبعــكْ

قال ابن الأثير :(١) وكان — يعني نور الدين رحمه الله — عارفاً بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة ، ليس عنده تعصب بل الإنصاف سجيته في كلّ شيء ، وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر ؛ وعلى الحقيقة فهو الذي جدّد للملوك اتبــاع سنّةِ العدل والإنصاف ، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك ؛ فإنّهم كانوا قبله كالجاهلية ، همةُ أحدهم بطنه وفرجه ، لايعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، حتى جاء الله بدولتهِ ، فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه ، وألزم بذلك أتباعه وذويه ، فاقتدى بــه غيره منهم ، واستحيوا أن يظهر عنهم ماكانوا يفعلونه . (ومن سنّ سنّة حسنة

(١) انظر الباهر ١٦٥ — ١٦٨ ، الروضتين ١ : ٦ — ٨ ، البداية والنهاية ١٢ : ٢٧٧ — ٢٨٤ .

فله أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة) (١) . ثم قال : فإن قال قائل : كيف يوصف بالزهد من كان له الممالك الفسيحة ، وتجبى إليه الأموال الكثيرة ؟ فليذكر نبي الله تعالى (٢) / سليمان [٤٤/و] ابن داود عليهما الصلاة والسلام مع ملكه هو سيد الزاهدين في زمانه ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضرموت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشام إلى العراق وهو على الحقيقة سيد الزاهدين .قال (٣) : وإنمّا الزهد خلوّ القلب من محبة الدنيا لاخلوّ اليد عنها .

قال : وأمّا عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرةً ، وأعدلهم حكماً ؛ فمن عدله أنّه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولاعشراً بل أطلقها جميعها ، في بلاد الشام والجزيرة جميعها والموصل وأعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه .

وكان المكس في مصر يؤخذ من كلّ مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً وهذا لم تتسع له نفس غيره ، وكان يتحرى العدل ، وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان ، القوي والضعيف عنده في الحق سواء ، وكان يسمع شكوى المظلوم ، ويتولى كشف حاله بنفسه ، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير ، فلا جرم سار ذكره في شرق الأرض وغربها .

---

(١) المعجم المفهرس ج ٢ ص ٥٥٢ .

(٢) في حاشية الأصل [٤٤/و] العبارة : كان نور الدين الشهيد عازماً بالفقه على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه .

(٣) في حاشية الأصل ٤٤/ ظ العبارة (الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لا خلو اليد منها) .

قال : ومن عدله أنّه كان يعظّم الشريعة المطهّرة ، ويقفُ عند أحكامها ويقول : نحن شِحَن لها نمضي أوامرها فمن اتّباعه أحكامها : أنّه كان (يلعب بدمشق بالكرة) (١) فرأى إنساناً يحدث آخر ويومىء بيده إليه ، فأرسل إليه يسأل عن حاله فقال : لي مع الملك العادل حكومة ، وهذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني ، فعاد إليه ، ولم يتجاسر يعرّفه ماقال ذلك الرجل وعاد يكتمه ، فلم يقبل منه غير الحق ، فذكر له قوله ، فألقى الجوكان من يده ، وخرج من الميدان ، وسار إلى القاضي وهو حينئذ كمال الدين الشهرزوري وأرسل إلى القاضي يقول له : إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي مثل ماتسلكه مع غيري ، فلمّا حضر ساوى خصْمه وحاكمه ، فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين ، فقال نور الدين رضي الله عنه حينئذ للقاضي ولمن حضر : هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا : لا ، فقال : اشهدوا أنني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه وهو له دوني ، وقد كنت أعلم أنه لاحقّ له عندي ، وإنّما حضرت معه لئلا يظَنّ أنني ظلمته ، فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له .

/ قال ابن الأثير : وهذا غاية العدل والإنصاف ، بل غاية [٤٤/ظ] الإحسان وهي درجةٌ وراء العدل فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق ، الواقفة معه .

قال : ومن عدله أنّه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الأعصار على الظنّة والتهمة ، بل يطلب الشهود على

---

(١) مابين القوسين مكرورة في الأصل [٤٤/ظ] .

المُتّهم . فإن قامت البيّنة الشرعيّة عاقبه العقوبة الشرعيّة من غير تعدٍ ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر مايوجد في غير ولايته مع شدّة السياسة والمبالغة في العقوبة ، وأمنت بلاده مع سعتها ، وقلّ المُفسدون ببركة العدل واتّباع الشرع المطهّر .

قال : وحكى لي من أثق به أنّه دخل يوماً إلى خزانة المال ، فرأى فيها مالاً أنكره فسأل عنه ، فقيل : إن القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا . فقال : إنّ هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء ، وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه ، فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين فردّه إلى الخزانة وقال : إذا سألك الملك العادل عنه فقولوا لـه عنّي : إنّه له . فدخل نور الدين الخزانة مرّة أخرى فرآهُ فأنكر على النوّاب قال : ألم أقُلْ لكم يُعاد هذا المال على أصحابه ؟ فذكروا له قول كمال الدين ، فردّه إليه وقال للرسول : قل لكمال الدين أنتَ تقدر على حمل هذا المال ، وأمّا أنا فرقبتي دقيقة لاأطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى . يُعاد قولاً واحداً .

قال : ومن عدله أيضاً بعد موته وهو من أعجب ما يحكى : أنّ إنساناً كان بدمشق استوطنها وأقام بها لِما رأى من عدل نور الدين ، رحمه الله ، فلمّا توفي تعدّى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه ، فلم يُنصَف ، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شُقّ ثوبه وهو يقول :

يانور الدين لو رأيتنا وما نحن فيـه من الظلم لرحمتنا ، أينَ عدلك ؟ وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق مالا يُحصى وكلّهم

يبكي ويصيح ، فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له : احفظ البلد والرعية وإلاّ خرج عن يدك ، فأرسل إلى ذلك الرجل — وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه — فطيّب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه ، فبكى أشدّ من الأول ، فقال له صلاح الدين : / لم تبكي ؟ [٤٥/و] قال : أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته ، فقال صلاح الدين : هذا هو الحق ، وكل مانحن فيه من عدل فمنه تعلّمناه .

قال : وكان نور الدين، رحمه الله ، أول من بنى دار الكشف وسمّاها دار العدل ، وكان سبب بنائها أنّه لمّا طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراؤه وفيهم أسد الدين شيركوه ، وهو أكبر أمير معه ، وقد عظم شأنه وعلا مكانه ، حتى صار كأنه شريك له في الملك ، واقتنوا الأملاك فأكثروا ، وتعدّى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها ، فكثرت الشكاوى إلى كمال الدين فأنصف بعضهم من بعض ، ولم يُقدم على الإنصاف من أسد الدين شيركوه ، فأنهى الحال إلى نور الدين ، فأمر حينئذ ببناء دار العدل ، فلمّا سمع أسد الدين بذلك أحضر نوّابه جميعهم وقال لهم : اعلموا أن نور الدين ماأمر ببناء الدار إلا بسببي وحدي ، وإلاّ فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين ؟ ووالله لئن أُحضرت إلى دار العدل بسبب أحد منكم لأصلبنّه ، فامضوا إلى كل مَنْ بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معَهُ ، وأرضوه بأي شيء أمكن ، ولو أتى ذلك على جميع مابيدي . فقالوا له : إنّ الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب ، فقال لهم : خروج أملاكي عن يدي أسهل من أن يراني نور الدين بعين ظالم ، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة . فخرج

أصحابه من عنده وفعلوا ماأمرهم . وأرضوا خصماءهم ، وأشهدوا عليهم ، فلمّا فرغت دار العدل ، جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات . وكان يجلس في الأسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء ، وبقي كذلك مدة ، فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين ، فقال نور الدين لكمال الدين : ماأرى أحداً يشكو من شيركوه فعرّفه الحال ، فسجد شكراً لله تعالى وقال : الحمد لله الذي أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا . قال ابن الأثير(١) : فانظر إلى هذه المعدلة ما أحسنها . وإلى هذه الهيبة ما أعظمها ، وإلى هذه السياسة (ماأسدّها) (٢) ، مع أنّه كان لايريُق دماً ، ولا يبالغ في عقوبة ، وإنّما كان يفعل هذا صدقه في عدله وحسن نيته . قال : وأمّا شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما ، فإنّه أصبر [٤٥/ظ] الناس / في الحرب ، وأحسنهم مكيدة ورأياً ، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم ، وبه كان يُضرب المثل في ذلك ، سمعتُ جمعاً كثيراً من الناس لا أحصيهم [يقولون](٣) : إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه ، كأنّما خلق عليه ، لايتحرك ولا يتزلزل . وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها لم يُرَ جوكانُه يعلو على رأسه ، وكان ربّما ضَرَبَ الكرة ويُجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ، ويرميها إلى آخرِ الميدان وكانت يده لا ترى والجوكان فيها ، بل تكون في كم قبائه ، استهانة باللعب .

---

(١) انظر : الباهر ١٦٨ – ١٧٤ ، الروضتين ١ : ٨ – ١٠ .

(٢) في الباهر ١٦٨ (ماأشدها) .

(٣) مابين القوسين الإضافة عن الروضتين ١ : ٨ لتوضيح المقصود .

وكان إذا حضر الحرب ، أخذ قوسين وتركشين (١) وباشر القتال بنفسه ، وكان يقول : طالما تعرّضْتُ للشهادة فلم أدركها . سمعهُ يوماً الإمام قطب الدين النيسابوري وهو يقول ذلك فقال له : بالله لاتخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فإنّكَ عمادهم ، ولئن أُصبْتَ والعياذ بالله في معركةٍ ، لم يبقَ من المسلمين أحـــد إلاّ أخذه السيف ، وأُخذت البلاد ؛ فقال له : ياقطب الدين ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ قبلي مَنْ حَفِظ البـــلاد والإسلام ، ذلك الإلـه الذي لاإله إلاّ هو . قال : وكان رحمه الله يكثر إعمال الحِيَل والمكر والخداع مع الفرنج وأكثر ما ملكه من بلادهم به ؛ ومن جيّـــد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن صاحب الدروب ، فإنّه ما زال يخدعهُ ويستميله حتى جعله في خدمته سـفراً وحضراً ، فكان يقاتل به الفرنج . وكان يقول : إنمّا حماني على استمالته أنّ بلاده حصينة وعرة المسلك ، وقلاعه منيعة ، وليس لنا إليها طريق ، وهو يخرج منها إذا أراد ، فينال من بلاد الإسلام ، فإذا طُلبَ انحجر فيها ، فلا يُقدر عليه ، فلما رأيتُ الحال هكذا ، بذلتُ له شيئاً من الإقطاع على سبيل التـألف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا . وساعدنا على الفرنج . قال : وحيث توفي نور الدين وسلك من بعده غير هذا الطريق ، ملك متولي الأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد الإسلام وحصونهم ، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لايمكن رقعه . قال : ومن أحسن الآراء ماكان يفعله مع أجناده ، فإنّه كان اذا توفي أحدهم وخلف ولداً ، أقر الإقطاع عليه فإن كان الولد كبيراً / استبدّ [٤٦/ و]

---

(١) تركش : كلمة فارسية ، معناها : جعبة ، كنانة (المعجم في اللغة الفارسية)، (وهي التي توضع النبال فيها). انظر الحاشية في الباهر ص ١٦٩ .

بنفسه . وإن كان صغيراً رتّب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه فيتولّى أمره إلى أن يكبر . فكان الأجناد يقولون : هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها ، وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب ، وكان أيضاً يثبت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه وسلاحهم خوفاً من حرص بعض الأمراء وشحّه أن يحمله على أن يقبض على بعض ماهو مقرّر عليه من العدد ، ويقول : كلّ وقت نحن في النفير ، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العَدَد والعُدَد ، دخل الوهن على الإسلام . قال : وأمّا ما فعله في بلاد الإسلام من المصالح ممّا يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم ، من ذلك : أنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها ، فمنها : حلب وحماة وحمص وبارين وشيزر ومنبج وغيرها من القلاع والحصون وحصّنها وأحكم بناءها ، وأخرج عليها من الأموال مالا تسمح به النفوس ، وبنى أيضاً المدارس بحلب وحماة ودمشق وغيرها للشافعية والحنفية ، وبنى الجوامع في جميع البلاد فجامعهُ في الموصل إليه النهاية في الحسن والإتقان ، ومن أحسن ماعمل فيه ، أنّه فوض أمر عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر الملاّ رحمه الله (١) وهو رجل من الصالحين فقيل له : إنّ هذا لايصلح لمثل هذا العمل فقال : إذا ولّيت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكُتّاب أعلَمُ

---

(١) هو : الشيخ عمر بن محمد المشهور بالملاء سمي الملاء : لأنه كان يعمل بملء تنانير الآجر لقاء أجر يتقوت به ، وكان لا يملك سوى مايرتديه من قميص وعمامة ، وكان عالماً بفنون العلوم ، ويزوره جميع الملوك والعلماء والأعيان ويتبركون به . للاستزادة راجع مرآة الزمان ج١ : ٣١٠ - ٣١١ ، الروضتين ٢ : ٦٨ ، شذرات ٤ : ٢٢٩ ، الكواكب الدرية ٣٦ ، والأصل ٩١ / و .

أنّـه يظلم في بعض الأوقات ، ولا يفي الجامع بظلم رجل مسلم . وإذا ولّيتُ هذا الشيخ غلب على ظني أنّه لايظلم ، فإذا ظلم كان الإثم عليهِ لا عليَّ . قال : وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم ، وبنى أيضاً بمدينة حماة جامعاً على نهر العاصي مـن أحسن الجوامع وأنزهها ، وجدّد في غيرها من عمارة الجوامع ماكان قد تهدم إمّا بزلزلة أو غيرها ، وبنى البيمارستانات في البلاد من أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق ، فإنّه عظيم كثير الخرج جداً ، وبنى أيضاً الخانات في الطرق ، فأمن الناس وحُفظت أموالهم ، وباتوا في الشتاء في كن من البرد والمطر ، وبنى أيضاً الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي ، فإذا رأوا من العدّو أحداً ، / أرسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم [٤٦/ظ] واحتاطوا لأنفسهم ، فلم يبلغ العدّو منهم غرضاً ، وكان هذا مـن ألطف الفكر وأكثرها نفعاً .

قال : وبنى الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة ، وأدرّ عليهم الإدرارات الصالحة ، وكان يُحضر مشايخهم عنده ويُقربهم ويُدنيهم ويبسطهم ويتواضع لهم ، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه ، ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته ، ويقبل عليه بحديثه ، وكذلك أيضاً كان يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام ، ويجمعهم عنـد البحث والنظر ، فيقصدونه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها. وبالجملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه ، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك ، وكانوا يقعون عنده فيهم ، فينهاهم ، وإذا نقلوا عن

إنسان عيباً (١) يقول : ومَنْ هو المعصوم . وإنمّا الكامل من تُعدّ ذنوبه . قال : وبلغني أنّ بعض أكابر الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي وكان قد استقدمه من خراسان ، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه ، فحسده ذلك الأمير ، فقال عنه يوماً عند نور الدين فقال له : ياهذا إنْ صَحّ ماتقوله فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها وهي العلم والدين ، وأمّا أنتَ وأصحابك ففيكم أضعــاف ماذكرت . وليست لكم حسنة تغفرها ، ولو عقلت لشغلك عيبكَ عن غيركَ وأنا أحتملُ سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا أحتمل سيئة هذا إنْ صحّت مع وجود حسنة ؟ على أنني والله لاأصدقكَ فيمــا تقول ، وإنْ عُدتَ ذكرتَهُ أو غيره بسوءٍ أدّبتكَ ، فكفّ عنه . قال ابن الأثير : هذا والله هو الإحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بماء الذهب .

وبنى بدمشق أيضاً دار الحديث ، ووقفَ عليها وعلى مَنْ بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفــاً كثيرة ، وهو أوّل مَنْ بنى داراً للحديث فيما علمناه ، وبنى أيضاً في كثير من بلاده مكاتب للأيتام ، وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة ، وبنى أيضاً مساجد كثيرة ووقف عليها وعلى مَنْ يُقرىءُ بها القرآن ، قال : وهذا فعل لم يُسبق إليه . بلغني مِنْ عارف بأعمال الشــام أنّ وقوف نور الدين في وقتنا هذا . وهو سنة ثمان وستمائة كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ، ليس فيها مُلْك غير صحيح شرعي ظاهراً وباطناً ،

---

(١) في حاشية الأصل (٤٧/و) العبارة (الكامل من تعد ذنوب) .

/ فإنّه وقف ما انتقل إليـه ووزن ثمنه وما غلب عليه من بلاد [٤٧/ و] الفرنج وصار سهمه .

قال : وأمّا وقاره وهيبته فإليه النهاية فيهما ، ولقد كان ، كما قيل ، شديداً من غير عنف ، رقيقاً من غير ضعف ، واجتمع له مالم يجتمع لغيره . فإنّه ضبط ناموس المُلْك مـع أجناده وأصحابه إلى غاية لامزيد عليها . وكان يلزمهم بوظائف الخدمة الصغير منهم والكبير . وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم لـه ويمشي بين يديه ، ويجلسه إلى جانبه ، كأنّه أقرب الناس إليه . وكان إذا أعطى أحدهم شـيئاً يقول : إنّ هؤلاء لهم في بيت المال حق ، فإذا قنعوا منّا ببعضه فلهم المنة علينا ، وكان مجلسه ، كما روي في صفة مجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، مجلس حلم وحياء لاتؤبن فيه الحُرم — وهكذا كان مجلسه لايُذكر فيه إلاّ العلم والدين وأحوال الصالحين والمشورة في الجهاد وقصد بلاد العدّو ، ولا يتعدى هذا .

بلغني أنّ الحافظ أبا القاسم بن عساكر الدمشقي رحمه الله حضر مجلس الملك الناصر صلاح الدين يوسف رحمه الله لمّا ملَكَ دمشق ، فرأى فيه من اللفظ وسوء الأدب من الجلوس فيه مالاعهد عليه ، فشرع يُحدّثُ صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين ، فلم يتمكن من القول لكثرة الاختـلاف من المتحدثين وقلّـة استماعهم فقام وبقي مدّة لا يحضر المجلس الصلاحي ، وتكرّر من صلاح الدين الطلب له فحضر ، فعاتبه على انقطاعه فقال : نزّهتُ نفسي عن مجلسك ، فإنني رأيته كبعض مجالس السوقة ، لايُستمع

[فيه] (١) إلى قائل ، ولا يُردّ جواب متكلم ، وقد كُنّا بالأمس نحضر مجلس نور الدين ، فكنا كما قيل : كأنّما على رؤوسنا الطير ، تعلونا الهيبة والوقار ، فإذا تكلم أنصتنا ، وإذا تكلمنا استمع لنا ، فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أنّهم لا يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ . قال ابن الأثير : فهكذا كانت أحواله جميعها ، رحمه الله ، مضبوطة محفوظة . وأمّا حفظ أصول الديانات ، فإنّه كان مراعياً لها لايهملها ولا يمكن أحداً من الناس من إظهار مايخالف الحق ، ومتى أقدم مقدم على ذلك أدّبه بما يناسب بدعته ، وكان يبالغ في ذلك ويقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق والأذى / الحاصل منهما قريب أفلا نحفظ الدين ، ونمنع [٤٧/ظ] عنه مايناقضه وهو الأصل ؟ قال : وحُكي أنّ إنساناً بدمشق يعرف بيوسف بن آدم كان يظهر الزهد والنسك وقد كثر أتباعه ، أظهر شيئاً من التشبيعيّة (٢) فبلغ خبره نور الدين ، فأحضره وأركبه حماراً وأمر بصفعه ، فطيف به في البلد جميعه ونوديَ عليه : هذا جزاء من أظهر في الدين البدع . ثم نفاه من دمشق ، فقصد حران ، وأقام بها إلى أن مات . قلت(٣) : وحدّثني الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله قال : وقفت على رقعة بخط الوزير خالد بن محمد بن نصر بن القيسراني ، كتبها إلى نور الدين ،

---

(١) مابين القوسين الإضافة عن الروضتين لتوضيح المقصود .

(٢) يظهر لنا من ذلك أن كل رأي كان يخالف السنة، كان يعتبر بدعة من البدع .

(٣) انظر الروضتين ١ : ١٢ — ١٣ ، البداية والنهاية ١٢ : ٢٧٧ ، الكواكب الدرية ٦٩ — ٧٠ .

وجوابها (من) (١) نور الدين عـلى رأس الورقة وبين السطور . فنقلت جميع مافيها من خطيهما . قال : وكان ، رحمه الله ، كتب رقعة يطلب من ابن القيسراني . أن يكتب له مايُدعى له به على المنابر ، حتى لايقول الخطيب ماليس فيه ويصونه عن الكذب ، وعمّا هو مخالفٌ لحاله ، ونسخة الورقة بخط خالدٍ المذكور : أعلى الله قدر المولى (في الدارين) (٢) وبلّغه آماله في نفسه وذريته ، وختم لهُ بالخير في العاجلة والآجلة بمنّه وجُوده وفضله وحمده . وقف المملوك على الرقعة ، وتضاعف دعاؤه وابتهاله إلى الله بأنْ يرضى عنه وعن والديه ، وأن يسهلَ له السلوك إلى رضاه والقرب منه والفوز عنده ، قد رأى المملوك مايعرضه عـلى العلم الأشرف زاده الله شرفاً ، وهو أن يذكر الخطيب على المنبر ، إذا أراد الدعاء للمولى : اللّهـم أصلح عبـدك الفقير إلى رحمتك الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، المرابط لأعداء دينك ، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين ، فـإنّ جميعه لايدخله كذب ولا تزيد والرأي في ذلك أعلى وأسمى إن شاء الله تعالى ، فكتب نور الدين عـلى رأس الرقعة بخطه ، ماهذا صورته : مقصودي أن لايكذب على المنبر ، أنا بخلاف كلّ مايُقال [لا] (٣) أفرح بمالا أعمل ، قلّة عقل عظيم ، الذي كتب جيد هو ، اكتب به نسخاً حتى نُسيّره إلى جميع البلاد ، وكتب في آخر الرقعة : ثم

(١) في الأصل ٤٨ / و (إلى) وهو تصحيف ربما نجم عن الناسخ وثبتنا ماهو صحيح عن الروضتين .

(٢) في الأصل ٤٨/و مكررة .

(٣) الاضافة عن الروضتين ليستقيم المعنى .

نبـــدأ بالدعاء : اللّهم أره الحق أسعده . اللّهم وفّقه مـــن هذا الجنش (١) قال : وحدثني والدي قال : استدعانا نور الدين أنا وعمك أبو غانم . وشرف الدين بن أبي عصرون / إلى الميـــدان [٤٨/ و] (الأخضر) (٢) وأشهدنا عليه بوقف حوانيت على سور حمص ، فلمّا شهدنا عليه التفت إلينا فقال : بالله انظروا أيّ شيء علمتموه من أبواب البر والخير دلّونا عليه . وأشركونا في الثواب . فقال له شرف الدين بن أبي عصرون : والله ماترك المولى شيئاً من أبواب البر إلاّ وقد فعله،ولم يترك لأحد بعده فعل خير إلاّ وقد سبقه إليه . قال (٣) : وقال لي والدي (٤) : وصل في أيام نور الدين إلى حلب تاجر موسر فمات بها ، وخلّفَ ولداً صغيراً ومالاً كثيراً ، فكتب بعض من بحلب إلى نور الدين يذكر له أنه قد مات رجل هاهنا رجل تاجر موسر ، وخلّفَ عشرين ألف دينار وفوقها وله ولد عمره عشر سنين ، وحسّن له أنْ يرفع المال إلى الخزانة إلى أن يكبر الصغير ، ويُرضى منه بشيء ، ويُمسَك الباقي للخزانة ، فكتب نور الدين — رحمة الله عليه — على رقعته : أمّا الميت فرحمه الله ، وأمّا الولد فأنشأه الله،وأمّا المال فثمره الله ، وأما الساعي فلعنه الله ، قال : وبلغني هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضاً .

---

(١) الجنش (في لسان العرب) جنشت نفسي : ارتفعت من الخوف ، والجنش: الغلظ .
(٢) في الروضتين ١ : ١٣ (الأول) .
(٣) انظر : الباهر ١٦٧ ، الروضتين ١ : ١٣ ، الكواكب الدرية ٢٥ - ٢٦ .
(٤) في حاشية الأصل ٤٨ / ظ العبارة (في عفاف السلطان نور الدين الشهيد ، وعدم قبوله الوشي في حق اليتيم) .

وحدثني الحاج عمر بن سنقر عتيق (١) شاذبخت النوري قال : سمعت الطواشي شاذبخت الخادم يحكي لنا قال : كنت يوماً أنا وسنقر واقفين على رأس نور الدين وقد صلّى المغرب . وجلس وهو مُفكر فكراً عظيماً ، وجعل ينكت بأصبعه في الأرض فتعجّبنا من فكره وقلنا : ترى في أيّ شيء يفكّر ؟ أفي عائلته أو في وفاء دينه فكأنّه فطن بنا فرفع رأسه وقال : ماتقولان ؟ فقلنا : ماقلنا شيئاً . فقال : بحياتي قولا لي، فقلنا : عجبنا من إفراط مولانا في الفكر ، وقلنا : يفكر في عائلته أو في نفسه . فقال : والله إنّي أفكر في والٍ ولّيته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم . أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني . وأخاف المطالبة بذلك . فبالله عليكم ، وإلاّ فخبزي عليكم حرام لاتريان قصّة تُرفع إليّ ، أو تعلمان مظلمة . إلاّ وأعلماني بها وارفعاها إليّ . وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم قال : كان نور الدين ينفذ كل سنة في شهر رمضان ، يطلب من الشيخ عمر الملاء شيئاً يفطر عليه . فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك ، فكان نور الدين يفطر عليه ، وكان إذا / قدم [٤٨/ظ] الموصل ، لايأكل إلاّ من طعام الشيخ عمر الملاّء . قال : وكان نور الدين ، لمّا صارت له الموصل قد أمر كمشتكين (٢) شحنة الموصل أنْ لايعمل شيئاً إلاّ بالشرع إذا أمره القاضي به ، وأنْ لايعمل القاضي والنوّاب كلهم شيئاً إلاّ بأمر الشيخ عمر الملاّء قال :

---

(١) عتيق (في لسان العرب) : العتق خلاف الرق وهو الحرية ، عتق العبد يعتق عتقاً وعتقاً وعتاقاً وعتاقة ، فهو عتيق وعاتق وجمعه عتقاء . .

(٢) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٦ ص ٣٠٦ .

فكان لايُعمل بالسياسة وبطلت الشحنكيّة فجـاء أكابر الدولـة وقالوا لكمشتكين : قد كثر الزُّعّار وأرباب الفساد ، ولا يجيء من هذا شيء إلاّ بالقتل والصلب ، فلو كتبتَ إلى نور الدين وقلت له في ذلك ، فقال لهم : أنا لاأكتب إليه في هذا المعنى ، ولا أجسُر على ذلك فقولوا للشيخ عمر الملاء يكتب إليه . فحضروا عنده ، وذكروا له ذلك ، فكتبَ إلى نور الدين وقال له : إنّ الزُّعّار والمفسدين وقطّاع الطريق ، قد كثروا ، ونحتاج إلى نوع سياسة فمثل هذا لايجيء إلاّ بقتل وصلب وضرب ، وإذا أخذ مال الإنسان بالبرّية مَنْ يجيء يشهد لـه ؟ قال : فقلّب نور الدين ، رحمه الله ، كتابه ، وكتبَ على ظهره : إنّ الله تعـالى خلق الخلق وهـو أعلم بمصلحتهم ، وإنّ مصلحتهم تحصل فيها شرعه على وجه الكمال فيها ، ولو علم أنّ الشريعة زيادة في المصلحة لشرعهُ فما حاجة إلى زيادة على ماشرعه الله . قال : فجمع الشيخ عمر الملاّء أهل الموصل وقال : انظروا كتاب الزاهد إلى الملكِ ، وكتاب المَلِك إلى الزاهد . وسمعت صقر بن يحيى بن صقر المعدل يقول : سمعت مقلداً يعني الدولعي يقول : لما مات الحافظ المرادي ، وكنّا جماعة الفقهاء قسمين : العرب والأكراد ، فمنا مَنْ مال إلى المذهب ، وأردنا أن نستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون وكان بالموصل ، ومنا مَنْ مال إلى علم النظر والخلاف ، وأراد أنْ نستدعي القطب النيسابوري . وكان قد جاء وزار البيت المقدس ، ثم عاد إلى بلاد العجم ، فوقع بيننا كلام بسبب ذلك ووقعت فتنة بين الفقهـاء . فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة [بحلب] (١) وخرج إليهم

(١) الإضافة من قبلنا عن الروضتين ١ : ١٣ لتوضيح القصد

مجد الدين ، يعني ابن الداية عن لسانه وقال لهم : نحن ماأردنا ببناء المدارس إلاّ نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين ، وهذا الذي جرى بينكم ،لايحسن ولا يليق ، وقد قال المولى نور الدين : نحن نُرضي الطائفتين ، ونستدعي شرف الدين بن أبي عصرون وقطب الدين النيسابوري ، فاستدعاهما جميعاً وولّى مدرسة ابن عصرون لشرف الدين ومدرسة النفري لقطب الدين رحمهما الله تعالى .

أخبرنا مختار الدين عبد المطلب بن الفضل الهاشمي قال (١) :

كان عند قاضي حلب تاج الدين / الكردَري (٢) غلام قد جعله [٤٩/ و] لمجلس الحكم ، يُدعى سُويداً (٣) ، يُحضر الخصوم إلى مجلس الحكم فحضر بعض التجار وادّعى أنّ له على نور الدين دعوى ، فقال الكِردَري لسويد المذكور : امض إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحكم ، وعرِّفه أنّه حضَرَ شخص يطلبُ حضوره ، وكان نور الدين في الميدان فجاء سويد إلى باب الميدان ، فخرج إسماعيل الخزندار (٤) فوجدَه ، فتقدم سويد إليه وقال : قد سيّرني تاج الدين القاضي وقال لي كذا وكذا ، فضحك إسماعيل الخزندار ، ودخل على نور الدين ضاحكاً وقال له مستهزئاً يقوم المولى فقال : إلى أينَ ؟ فقال: قد حضر سويد غلام تاج الدين القاضي وقال : إنّه أرسله يطلب المولى إلى مجلس الحكم ، فأنكر نور الدين على إسماعيل

---

(١) الروضتين ١ : ١٥ .

(٢) هو : تاج الدين عبد الغفور بن لقمان الكردري قاضي حلب . الروضتين ١ : ١٥ .

(٣) لم أعثر على ترجمة له .

(٤) لم أعثر على ترجمته .

استهزاءه وقال : تستهزىء بطلبي إلى مجلس الحكم ؟ ثم قال نور الدين رحمه الله : يُحضر فرس حتى نركب إليه . السمع والطاعة ، قال الله تعالى : (إنمّا كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أنْ يقولوا سمعنا وأطعنا) (١) ثم ركب حتى دخل باب المدينة ، فاستدعى سويداً ، وقال : امض إلى القاضي وسلّم عليه وقل لـــه : أنّي جئت إلى هاهنا امتثالاً لأمر الشرع ، وأحتاج في الحضور إلى مجلسه إلى سلوك هذه الأزقة وفيها الأطيان وهـــذا وكيلي يسمع الدعوى ، وإن توجهتْ عليّ يمين أحضر إنْ شاء الله تعالى . قال : فحضر الوكيل وسمع الدعوى . وتوجهت اليمين فقـــال القاضي : قد توجهت اليمين فليحضر ، فلمّا بلغ نور الدين ذلك ، وعلم أنّه لامندوحة عن حضور مجلسه لليمين ، استدعى ذلك التاجر ، وأصلح الأمر فيما بينه وبينه وأرضاه .

سمعت (٢) قاضي القضاة بهاء الدين (٣) يقول : حكى لي السلطان الملك الناصر صلاح الدين قال : أرسلني الملك العادل نور الدين إلى عمي أسد الدين شيركوه ، وكان لايفعل شيئاً إلاّ بمشورته فقال : امض وقل لأسد الدين : قد خطر لي أنْ أُبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس ، وخُذْ رأيَهُ في ذلك . قال : فجئت إليه ، وأنهيت إليه ماقال لي فقال : امض وقل له : يامولانا إذا

(١) سورة النور ٢٤ الآية ٥١ .

(٢) في حاشية الأصل ٩٩ /ظ العبارة (السلطان من أطاع – نور الدين مهتد للشرع).

(٣) هو أبو الحسن البلخي علي بن الحسن الحنفي وكان يلقب برهان الدين الذي قام بإبطال (حي على خير العمل) من حلب توفي سنة ٥٤٨ هـ . شذرات الذهب ٤ ص ١٤٨ ، وفي البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٢٩ يذكره في وفيات سنة ٥٤٦ هـ .

فعلت ذلك ، فالأجناد الذين أرزاقهم عـــلى هذه الجهات . من أين تعطيهم ؟ وتحتاج إليهم للغزاة وخروج العساكر . فقلتُ لعمي : هذا أمر قد ألهمه الله إيّاه ، فساعدهُ عليه . فصاح في وقـــال : امض إليه وقل له ماأقول لك . قال : فعدت إلى نور الدين فأنهيت إليه ماقال عمي / فقال : امض إليه [وقل له] (١) : إذا كنّـــا [٤٩/ظ] نغزو من هذه الجهات نتركها ونقعد ولا نخرج . قال : فعدتُ إلى عمي وقلت له ما قال، فقال : قـــل له إن تركوك تقعد فجيّد هو ، فراجعته في أن لايثبطه عن ذلك فصاح فيّ وقال : امض إليه وقل له ما أقول لك . قال : فجئت إليه ، وقُلت له ذلك ، فترك ذلك مدة ثم أمضى ماكان عزم عليه .

قـــال لي صقر بن يحيى : بلغني أنّ مـــوفق الدين خالداً رأى في المنام : كأنّ نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها ، فقصّ منامه على نور الدين فتَمعّر (٢) وجه نور الدين ، فخجل موفق الدين ، وبقي أياماً على غاية من الخجل ، فاستدعاه يوماً نور الدين ، وقال : تعال قد آن لك أن تغسل ثيابي ، اقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار . واكتب للمسلمين أنّي قد رفعت عنكم مارفعه الله عنكم ، وأثبَتُّ عليكم ماأثبته الله عليكم ، قال : فكتب موفق الدين توقيعاً .

سمعت خليفة بن سليمان خليفة البقيعة يقول : سمعت أبي يقول :

---

(١) ما بين القوسين الإضافة عن نسخة المغرب لتوضيح القصد .

(٢) تمعر (في لسان العرب) تغير وجهه وعلته صفرة .

لما كسر نور الدين – يعني كسرة البقيعة – تكلم البرهان البلخي(١) ، فقال : أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور . كلا . وكلاماً مع هذا . فلما سمع نور الدين ذلك ، قام ونزع عنه ثيابه تلك ، وعاهد الله تعالى على التوبة ، وشرع في إبطال المكوس إلى أن خرج في نوبة حارم وكسر الفرنج .

سمعت صديقنا شمس الدين إسماعيل بن سودكين بن عبد الله النوري ، وكان أبوه أحد مماليك نور الدين وأعتقه يقول : سمعت والدي يقول : كان نور الدين يلبس في الليل مسحاً ، ويقوم يصلي فيه قطعة من الليل ، قال : وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع ويقول : ارحم العشّار المكّاس .

قال قاضي القضاة بهاء الدين : سيّر نور الدين إلى بغداد كتاباً يُعلم الخليفة بما أطلق ، ويسأله أن يتقدّمَ إلى الوعّاظ ، بأن يستعجلوا من التجار ومن جميع المسلمين له في حلٍّ مما كان قد وصل إليه – يعني من أموالهم – قال : فتقدم بذلك وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك .

حدثني(٢) رضي الدين أبو سالم عبد المنعم بن المنذر : أن نور الدين حين خرج لأخذ شيزر ، خرج أبو غانم بن المنذر صحبته فأمره

---

(١) في الأصل ٥٠/و حاشية : (قال المؤلف : قد مضى أن كسرة البقيعة كانت سنة ثمان وخمسين وموت البلخي (أي برهان الدين) كان سنة ثمان وأربعين ، وإنما هذه هي الكسرة التي كانت سنة ثلاث وأربعين والبلخي حينئذ بحلب والله أعلم . قال كاتبه في صحة هذه الحكاية من خذلان عسكر نور الدين والباقي غير مقروء .

(٢) الروضتين ١ : ١٥ – ١٧ (انظر الخبر مفصلاً) .

نور الدين بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحران وسنجار والرحبة وعزاز وتل باشر وعداد العرب ، فكتب عنه توقيعاً / أولّه : [٥٠/و]

(هذا مايقرّب إلى الله سبحانه وتعالى) إلى أن قال : (علم أن الدنيا فانية ، فاستخدمها للآخرة الباقية فصفح لكافة المسلمين وجميع المسافرين بالضرائب والمكوس ، وأسقطها من دواوينه وحرّمها على كل متطاول إليها ومتهافت عليها تجنباً لإثمها واكتساباً لثوابها ، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه ، وأنفذ الأمر فيه اتباعاً لكتاب الله عز وجل وسنّة نبيّه محمد صلّى الله عليه وسلم في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسين ألف دينار ، جهات ذلك : حلب خمسون ألف دينار ، عزاز عشرة آلاف دينار ، تل باشر أحد وعشرون ألف دينار ، المعرة ثلاثة آلاف دينار ، دمشق عشرون ألف دينار ، حمص ستة وعشرون ألف دينار ، حران خمسة آلاف دينار ، سنجار ألف دينار ، الرحبة عشرة آلاف دينار ، عداد العرب عشرة آلاف دينار . وما وقفه وتصدّق به وأجراه في سُبل الخيرات ومن وجوه البر والصدقات تقدير ثمنه مئتا ألف دينار ، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار ، من ذلك ماوقفه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدرّسيها وفقهائها وما وقفه على آدر الصوفية والربط والجسور والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار ، وماوقفه على السبيل في طريق الحجاز ، وما وقفه على فكاك الأسرى ، وتعليم الأيتام ومُقْرِ الغرباء وفقراء المسلمين وما وقفه على الأشراف العلويّين والعباسيّين ، وما ملكه لجماعة من الأولياء والغزاة

والمجاهدين ، هذا جميعه سوى ماأنعم به على أهل الثغور — حرسها الله تعالى — من أملاكهم فإنّه يُضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه ، جعل ذلك ذريعة عند الله وتقرباً إليـه مضافاً إلى ما أنفقه في الغزاة والجهاد من خزانته وأمواله ، فالواجب على كل إمام عدل ، وسلطان قادر أن يمدّه ويودّه ويشد عضده ويقوي عزمه ، وينفذ حكمه ، وعلى كل مسلم أن يُواصله بالدعاء آناء الليل وأطراف النهار .

وكتب خادم دولته ، وغذي نعمته عبد الرحمن بن عبد المنعم ابن رضوان بن عبد الواحد بن محمد بن المنذر الحلبي إلى كل من يصل إليه من أئمة الدين وفقهاء المسلمين وأصحاب الزوايا المتعبّدين وكافة التجار والمسافرين ليشعروا بذلك مـن حضرهم من التجار [٥٠/ظ] / والمترددين إليهم من السفار ليعرفوا قدر ماأنعم الله به عليه وعليهم ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، ويمدّوه بأدعيتهم ، ويُبرئوا ذمّته ممّا سبق مـن أخذ مؤنتهم ، فإنّه لم يصرف ذلك إلاّ في وجـه برّ وتجهيز جيش ومعونة مجاهد وردع كافر ومعاند فهم شركاؤه في الثواب) .

قال لي رضي الدين أبو سالم بن المنذر : فلما وقف نور الدين — رحمه الله — على قوله : ويبرئوا ذمّته ممّا سبق ، استحسن ذلك كثيراً ووعده بإقطاع حسن ، واتّفق موته — يعني موت الطالب (١) لذلك — بعد ذلك .

---

(١) هو : عبد الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان بن عبد الواحد بن محمد المنذر الحلبي . انظر الأصل ٥٠/ظ ص ٥٥٣ .

قال المؤلف رحمه الله : ونقلت من خطّ الأمين أبي القاسم ابن عبدان (١) أنّ نور الدين ، رحمه الله ، وقف بستان الميدان سوى الغيضة التي من قبليّه عـلى تطييب جامع دمشق وجامع القلعة (٢) والمدرسة النورية(٣) ومسجد ابن عطية(٤) ومسجد ابن لبيد بالفسقار(٥) ومسجد سوق الرياحين (٦) ومسجد الصاغة المعلّق (٧) ومسجد دار البطيخ المعلّق (٨) ومسجد العبّاسي (٩) بسـوق الأحـد . والمسجد الذي جدّده نور الدين جوار بيعـة اليهود (١٠) ، وجامع الصالحين بجبل قاسيون .

---

(١) هو الأمين أبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الخضر بن الحسين بن عبدان الأزدي الدمشقي . انظر الروضتين ج ١ ص ١٧ .

(٢) قصد به الجامع الأموي بدمشق ، وجامع القلعة أي الجامع الذي أنشأه نور الدين . انظر تهذيب تاريخ دمشق ١ : ٢٠٦ — ٢٠٧ و ٢١٧ ، وفي رحاب دمشق ٨٠ .

(٣) انظر تعريفها في حاشيتنا رقم ٦ ص ٢٨٣ .

(٤) هو مسجد باب الجابية الذي يعرف بمسجد ابن عطية رأس درب الأسديين ، سفل كبير له منارة ووقف وإمام . ابن عساكر ٧٧ ، تهذيب تاريخ دمشق ١ : ٢١٧ .

(٥) الفسقار : درب في أول سوق الطويل وهو مسجد ابن عبيد الأنصاري الصحابي قاضي دمشق وفي تهذيب تاريخ دمشق ١ : ٢١٧ (يعرف بابن حفاظ) .

(٦) يقع في طريق الحبالين عند رأس درب الريحان من السوق الكبير ، يعرف بمسجد الريحان . انظر تاريخ دمشق ٥٩ ، وكذا تهذيب تاريخ دمشق ١ : ٢١٧ .

(٧) ربما قصد به جامع اللؤلؤ : انظر تهذيب تاريخ دمشق ١ : ٢١٩ .

(٨) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٢٣٦ .

(٩) في تاريخ دمشق الكبير ص ٧٠ يذكر (أنه يعرف بمسجد العباسي قبلة المطرزين) .

(١٠) مسجد ملاصق لكنيسة اليهود على النهر . تاريخ دمشق الكبير ص ٦٢ ، تهذيب تاريخ دمشق ١ : ٢٢٠ .

قال : وفي تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، أحضر نور الدين أعيان دمشق من القضاة ومشايخ العلم والرؤساء (١) ، وسألهم عن المضاف إلى أوقاف الجامع بدمشق من المصالح ليفصلوها منها ، وقال لهم : ليس العمل إلاّ على ماتتّفقون عليه وتشهدون به ، وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين ، وليس يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلاّ ويذكره ، ولا ينكر شيئاً ممّا يقوله غيره إلاّ وينكره ، والساكت منكم مصدِّقٌ للناطق ومصوِّبٌ لقوله . فشكروه على ماقال ودعوا له ، وفصلوا له المصالح من الوقف، فقال نور الدين : إنّ أهم المصالح سدّ ثغور المسلمين وبناء السور المحيط بدمشق والفضيل والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم ، ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين ؟ فمنهم من أفتى بجواز ذلك عند الحاجة وفراغ بيت المال أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليه المسلمون ومهمّاتهم الدينية . وقال الأكثرون : ليس طريقه إلاّ أن يقترضه مَنْ إليه الأمر في بيت مال المسلمين ، فيصرفه في المصالح ويكون القضاء / واجباً من بيت المال . وعلى الجملة كان [٥١/و] نور الدين ، رحمه الله ، فرداً في زمانه من بين سائر الملوك ومن أحسن مابلغني عنه أنّه سمع في الحديث أن النبي صلّى الله عليه وسلم

---

(١) هم : القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى القرشي ، والفقهاء : شرف الدين بن عصرون ، والخطيب عزالدين أبو البركات ابن عبد ، والإمام عزالدين أبو القاسم علي بن الماسح ، وشرف الإسلام نجم الدين عبد الوهاب الحنبلي . انظر الروضتين ١ : ١٧ .

خرج متقلداً سيفاً (١) ، وكان هـو وجنده عادتهم ربط السيوف بأوساطهم فتعجب من ذلك ، فلمّا كان من الغد ركب وقد تقلّد سيفه وجميع جنده كذلك . وما أحسن ماقال فيه محمد بن نصر القيسراني (٢) من قصيدة : (٣)

١ – ذو الجهادين من عدوٍّ ونفسٍ
فهو طول الحيـاة في هيجـاءِ

٢ – أيها (٤) المالك الذي ألزم النا
س سلوك المحجّـة البيضـاءِ

٣ – قد فضحت (٥) الملوك بالعدل (٦) لمّا
سرت في الناس سيرة الخلفـاءِ

---

(١) في المعجم المفهرس : وردت أربعة أحاديث حول ذلك ١ – (والعدو حاضر وسيوفنا على عواتقنا) الترمذي تفسير سورة ١٠٢ أحمد ابن حنبل ٥ – ٤٢٩ ، ٢ – (فجاوزوا متقلدي السيوف) البخاري صلاة ٤٨ مناقب الانصار ٤٦ ، مسلم بن الحجاج مساجد ٩ زكاة (٧٠) ، ابا داود صلاة ١٣ ، النسائي مساجد ١٢ زكاة ٦٤ أحمد بن حنبل ٣ – ١٢ – ٢ ، ٣٥٨ ٣ – (يحملون سيوفهم على عواتقهم) أحمد بن حنبل ٤ – ٣٨٧ . ٤ – (خيار الرجال الذين يضعون اسيافهم على عواتقهم) . أحمد بن حنبل ٤ – ٣٨٧ وربما هو الحديث المقصود .

(٢) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم (٣) ص (٢٠٠) .

(٣) الروضتين ١ : ١٨ – ١٩ أورد خمس عشر بيتاً ، وفي الكواكب الدرية ٧٥ – ٧٦ أورد ثلاثة عشر بيتاً الخريدة : ١ ، ١٢٣ أورد تسعة أبيات من القصيدة أورد من بينها البيت السابع ، وفي شعر الجهاد في الحروب الصليبية ٢٣٢ – ٣٣٣ أورد اثني عشر بيتاً .

(٤) في الروضتين (فهو) وكذا في شعر الجهاد في الحروب الصليبية .

(٥) في الروضتين ١–١٨ (هديت) وكذا في شعر الجهاد في الحروب الصليبية .

(٦) في الروضتين ١–١٨ (للعدل) وكذا في شعر الجهاد في الحروب الصليبية .

٤ ــ قاسماً ماملكت في الناس حتّى
لقسمت التقى على الأتقيـــاءِ

٥ ــ شيم الصالحين في جتر الـــتر
ك وكم من سكينة في قبـــاءِ

٦ ــ أنت حيناً تقاس بالأسد الور
د وحيناً تُعـــد في الأوليـــاءِ

٧ ــ وكأنّ القبـــاء منك لمـــا ضمّ
... من الطُهر مسجد بقبـــاءِ (١)

٨ ــ أنت إن لا (٢) تكن نبياً فمـــافا
تـــك إلاّ خـــلائق الأنبيـــاءِ

٩ ــ رأفة في شهـــامة ، وعفـــاف
في اقتدار ، وسطوة في حيـــاءِ

١٠ ــ ولعمري لو استطاع فداك ال..
قـــوم بالأمهـّــات والآبـــاءِ

وله فيه أيضاً من أخرى : (٣)

١ ــ يا سائلي عن نْهج سيرتـــه
هل غير مفرق هـــامة الفجـــرِ

---

(١) في الكواكب الدرية ٧٥ ــ ٧٦ (القباء) .

(٢) في الروضتين ١ ــ ١٨ (الا) وكذا في الكواكب الدرية ، وكذا في شعر الجهاد في الحروب الصليبية .

(٣) الروضتين ١ــ ١٩ أورد أربعة عشر بيتاً ، وفي الكواكب الدرية ٧٦ ــ ٧٧ أورد أيضاً أربعة عشر بيتاً . وفي شعر الجهاد في الحروب الصليبية أورد عشر أبيات ص ٢٣١ ــ ٢٣٢ .

٢ ـ عـدل حقيق من تأمّلـه
أن يُحيي العمرين بالـذكرِ

٣ ـ وشهـامة في الله خالِصـة
عقدت عليـه تمائم الأجـرِ

٤ ـ وندى يدٍ ماضـرَّ . واردَهـا
أنْ لا (١) يبيت مجاورَ البحـرِ

٥ ـ هذا المـخيّم في ذُرى حـلبٍ
وثناؤه أبـداً على ظهـرِ

وله فيه أيضاً : (٢)

١ ـ ملك أشبـه الملائك فعـلاً
وشبيهٌ بمالك الأمر جندُه (٣) / [٥١/ظ]

٢ ـ عم إحسانه (٤) فأصـبح يتلى
شكره في الورى ويدرس حمـده

٣ ـ فسقى الله ذكره أينمـا حـل
ولا فـاته من النصـر رفـده

---

(١) الكواكب الدرية ٧٦ (ألا) .

(٢) انظر : الروضتين ١ ـ ٢٠ ، الكواكب الدرية ٧٧ ـ ٧٨ .

(٣) في حاشية الأصل ٥٠ /ظ : وله فيه أيضاً من أخرى :

عم إحسانه فأصبح يتلـى شكره في الورى ويدرس حمده
فسقى الله ذكره أينمـا حـل ولا فاته من النصر رفده

(٤) لم يرد البيتان في الأصل ـ الإضافة عن نسخة المغرب .

وله فيه أيضاً :(١)

١ ـ تدارك ملّة العربيّ ذبّاً
إلى أن عدّه منه معدّ

٢ ـ وحلّ ذرى العواصم وهي نُهبى
فأجلى الشرك وحتى ليس ضدّ

٣ ـ ثنى يده عن الدنيا عفاف(٢)
ومال بها عن الأموال زهدُ

٤ ـ رأى حط المكوس عن الرعايا
فأهدر قبل ماأنشاه بعدُ

٥ ـ ومدّ لها رواق العدل شرعاً
وقد طُوي الرواق ومن يمدُ

٦ ـ وبات وعند باب العرش منها
لدولته دعاء لايُردُ

وله من أخرى :(٣)

١ ـ حصّن بلادك هيبةً لارهبةً
فالدرع (من)(٤) عُدَد الشجاع الحازمِ

(١) انظر : الروضتين ج ١ ص ١٩ .
(٢) في الروضتين (عفافاً) .
(٣) انظر خريدة القصر ج ١ ص ١١٢ - ١١٤ ، الروضتين ج ١ ص ٢٠ ، الكواكب الدرية ٨٦ - ٧٧ .
(٤) في الكواكب الدرية ٧٧ (في) .

٢ – هيهات يطمع في بلادك (١) طامع

طال البناء على يمين الهادم

٣ – كلّفت (٢) همتك السمو (٣) فحلّقت

فكأنمّا هي دعوة في (٤) ظالم

٤ – وأظنّ أنّ الناس لمّا لم يروا

عدلاً كعدلك أرجفوا (٥) بالقائم

ولأبي الحسين أحمد بن منير الأطرابلسي فيه : (٦)

١ – يامحيي العدل ويامنشره

من بين أطباق البلى وقد همدْ (٧)

٢ – محوت ماأثبته الجور مضى

عليه أخلاد الليال مُخْلَدْ

٣ – مِنْ كلّ مكّاس يظلّ قاعداً

لما يسوء المسلمين بالرّصَدْ

---

(١) في الروضتين والكواكب الدرية والخريدة : في محلك .

(٢) في الكواكب الدرية (فكلت) .

(٣) في الخريدة (العلو) .

(٤) في الكواكب الدرية (من) .

(٥) أرجف القوم في الشيء ، وأرجفوا به : خاضوا في الأراجيف ، والأراجيف : جمع إرجاف ، وهي الأخبار السيئة والكاذبة التي يضطرب لها الناس وأخبار الفتن .

(٦) انظر الروضتين ج ١ ص ٢١ .

(٧) همد : الهمدة : السكتة . همدت أصواتهم أي سكتت ، والهمود الموت .

٤ ـ كانت لأرجـاس اليهـود دولة
أزالهـا منك المصور (١) ذو اللُبَدْ

٥ ـ الملك العادل لفظ طـابق الـ
ـمعنى وفي الوصف مُعار مستردْ

٦ ـ خير النعـوت ماجرى الوصف على
صفحته جري النسيم في الومدْ (٢)

٧ ـ عدل جنيت اليوم حُلو رَيعـه
وسوف يُجنى لك أحلى منه غـدْ

٨ ـ مثلك لايسخو به زمـانه
ومثل ماأوتيت لم يؤت أحـدْ

وله فيه من أخرى : (٣) .

١ ـ أيا ملك الدنيا الحلال (٤) والّذي
لـه الأرض دار والبرِّية أعبُـدُ

٢ ـ وليست بدعوى لايقـوم دليلها
[٥٢/و] ولكنّه الحقّ ليس يجحدُ /

---

(١) المصور : الأسد الشديد الذي يفترس ،ويجمع على هواصر .

(٢) الومد : ندى يجيء في صميم الحر من قبل البحر مع سكون الريح ، وقيل هو الحر أياً كان مع سكون الريح .

(٣) انظر الروضتين ج١ ص ٢١ ، الكواكب الدرية ٧٨ ـ ٧٩ .

(٤) في الأصل ٥١/و (الحلاحل) وما ثبتناه عن الروضتين والكواكب الدرية .

٣ – [أخو غزوات كالعقـود تناسقت
تحلّ بأجياد الجيـاد وتقعـدُ

٤ – لسان بذكر الله يكسو نهـاره
بهاء وجفن في الدجى ليس يرقد

٥ – وبذل وعدل أغرقـا وتألّـقا
فلا الورد (١) مشمود(٢) ولا الباب موصدُ

مرام (٣) سمائيٌّ (٤) وحزم مسـدّد
ورأي شهابيّ وعزم مؤيد] (٥)

وله فيه من قصيدة أخرى (٦) :

١ – محمـود المربي على أسـلافِه
أن زاد في حسب (٧) الحسيب نجارُ

٢ – ملك إذا تليت مـآثر قومه
كسدَ اللطيم (٨) وهُجِّنُ (٩) النّوارُ

(١) في الكواكب الدرية ص ٧٨ (الود) .
(٢) مشمود : ثمد الماء : أي قل وشح (لسان العرب) .
(٣) في الكواكب الدرية ٧٩ (قوام) .
(٤) في الكواكب الدرية ٧٩ (سماوى) .
(٥) مابين المعقوفين [ ] في هامش الأصل ٥١ / و ، و في نسخة المغرب في الأصل .
(٦) انظر الروضتين ١ : ٢٢ – ٢٣ .
(٧) في الروضتين ١ : ٢٢ (حب) .
(٨) اللطيم (في لسان العرب) بلا فعل ، من الخيل الذي يأخذ خديه بياض .
(٩) هجن (في لسان العرب) رجل هجين وامرأة هجان : أي كريمة ، وتكون البيضاء من نسوة هجن بينات الهجانة . ورجل هجان : كريم الحسب نقيه .

٣ ــ ملأ الفرنجَ جــور سيفك فيهم
فلهــم على سيف المحــيط جوارُ

٤ ــ عفّى جهادك كلّ رسم مخوفةٍ
وعفت (١) بصفوة عدلك الأكدارُ

٥ ــ ومحا المظــالم منك نظرة راحم
للــّه في خطراته أســــرارُ

٦ ــ غضبان للإسلام مــــال عموده
فلنـــــوره ممّا عـــراه نـــوارُ

٧ ــ لم يبق ماكس مسلم سلقاً ولا
ســاع لمظلمة ولا عشّــارُ (٢)

٨ ــ همدوا كما همدت ثمود وقادهم
(لخســارهم) (٣) ممّــا أتوه قدارُ

٩ ــ العار في الدنيا شقوا بلبــاسهِ
ولبــاسهم يوم الحســاب النّــارُ

١٠ ــ كم سيرة أحييتها عمريّةٍ (٤)
رُفعت لها في الخــافقين منــــارُ

---

(١) في الروضتين ١ : ٢٢ (وصمت) .

(٢) العشار : هو صاحب المكس ، والمكس : انتقاص الثمن في البياعة . انظر الخطط المقريزية ج ٢ ص ١٢١ .

(٣) في الروضتين ج ١ ٢٢ (بخسارهم) .

(٤) عمرية : قصد بها عمر بن الخطاب .

١١ — ونوافــل صــيّرتهنّ لــوازماً
بأقلّهــا تُستعبــد الأحــرار

١٢ — أمّا نهارك فهو ليلٌ مجــاهدٍ
واللّيــل من طول القيــام نهارُ

١٣ — فلذلك النصــر العزيز أدلةٌ
كيف (١) اتّجهت وللفتوح أمــار

* * *

فصل : في وفاة نور الدين ، رحمه الله ، وما جرى بعدها (٢)

قال العماد (٣) : وأمر نور الدين بتطهير ولده الملك الصــالح إسماعيل يوم عيد الفطر ، وركب يوم الأحد وهو يوم العيد على الرسم المعتاد محفوفاً من الله بالإسعاد ، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد ، والقدر يقول : هذا آخر الأعياد ، ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلَق ورمي القبق (٤) ، وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي

(١) في الروضتين (أي) .

(٢) في حاشية الأصل ١٥ / ظ (ذكر وفاة السلطان العادل نور الدين في ١١ شوال من سنة ٥٦٩) (وفاة السلطان العادل نور الدين الشهيد) .

(٣) انظر : الروضتين ج١ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ ، سنا البرق الشامي ١٥٠ — ٥٣ .

(٤) الأصل بالقبق الرمي إلى أعلى ، ويجوز أن ينصب الرامي حلقة معدنية على رمح ويرمي عليها . وهذا النوع من الرمي والضرب شهر في عصر المماليك بشكل خاص أثناء التدريبات ، وهو مظهر من مظاهر الشجاعة . انظر كتاب المماليك للباز العريني ص ١٠٦ — ١١٣ ، دوزي ج ١ ص ٣١٧ وج٢ ص ٣١١ .

الأخضر ، وأمر بوضع المنبر ، وخطب له القاضي شمس الدين ابن الفراش (١) قاضي العسكر بعد أن صلّى به وذكّر ، وعاد إلى القلعة طالع البهجة بهيج الطلعة ، وأنهب سماطه العامّ على رسم الأتراك وأكابر الأملاك ، ثمّ حضرنا على خوانه الخاص وما أوضح بشره وأضوع نشره . وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكّر وركب وحمل الموكب ، وكأنّ الفلك بنيّره جار والطود الثابت يمرّ مرّ السحاب في وقار ، وكأنّه القمر في هالته / والقدر في جلالته والبدر في دائرته [٥٢/ظ] سائر بين سيّارته ، ودخل الميدان والعظماء يسايرونه والفهماء يحاورونه وفيهم : همام الدين مودود ، وهو في الأكابر الأكارم معدود ، وكان قديماً في أوّل دولته [والي] (٢) حلب ، وقد جرّب الدهر بحنكته ولا شطره حلب ، فقال لنور الدين في كلامه عظة لمن يعتزّ بأيامه : هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم في العام القابل ؟ فقال نور الدين قل : هل نكون بعد شهر ؟ فإنّ السنة بعيدة . فجرى على منطقهما ماجرى به القضاء السابق ، فإن نّور الدين لم يصل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى العام . ثمّ شرع نور الدين في اللعب بالكرة مع خواصّه البررة ، فاعترضه أمير (٣) وقال له : باش (٤) فأحدث له الغيظ والاستيحاش ، واغتاظ على خلاف عادته ومذهبه الكريم وخلقه الحليم ،

---

(١) هو : شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش القاضي ، وكان قاضي العسكر في أيام نور الدين وصلاح الدين الأيوبي (ت ٥٨٨ هـ - ١١٩٢م) بملطية . انظر الروضتين ج ٢ ص ٢٠٩ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٥٢ .

(٢) سقط من الأصل ٥٢ /و والإضافة عن نسخة المغرب .

(٣) يذكر في الروضتين أنه : (برتقش) وفي سنا البرق (يرنقش) .

(٤) في الأصل هي كلمة تركية تعني : الرأس ، وهنا ربما قصد بها : انتهى .

وزجره وزيره ونهاه ونهره ، وساق ودخل القلعة ، ونزل واحتجب واعتزل ، فبقي أسبوعاً في منزله مشغولاً بنازله ، مغلوباً عن عاجله بحديث آجله [وذلك بخمود أجله] (١) والنّاس من الختان لاهون بأوطارهم في الأوطان ، فهذا يجود بروحه ، فما انتهت تلك الأفراح إلاّ بالأتراح ، وما صلح الملك بعده إلاّ بملك الصلاح .

قال : واتّصل مرض نور الدين (٢) ، وأشار عليه الأطباء [بالفصد] (٣) ، فامتنع وما روجع ، وكان مهيباً .

قال القاضي ابن شدّاد (٤) : كانت وفاة نور الدين، رحمه الله، بسبب خوانيق اعترته، عجز الأطباء عن علاجها .

قال العماد (٥) : وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من دار الفناء إلى مرتع البقاء ، ولقد كان من أولياء الله المؤمنين وعباده الصالحين ، وصار إلى جنات عدن أعدّت للمتّقين ، وكانت له صفّة في الدار التي على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال ، وكان جلوسه عليها في جميع الأحوال ، فلمّا جاءت سنة الزلزلة بنى بإزاء تلك الصفّة بيتاً من الأخشاب مأمون الاضطراب ، فهو يبيت فيه

---

(١) في الأصل (٥١/ و) حاشية (بجود وذلك بخمود) ومابين القوسين ثبتناه عن نسخة المغرب .

(٢) في الأصل ٥١/و حاشية (ذكر أن سبب وفاة نور الدين بالخوانيق رحمه الله سنة خمسمائة وتسع وستون) .

(٣) سقط من الأصل ٥١ / و والاضافة عن سنا البرق ص ١٥٣ .

(٤) انظر النوادر السلطانية ص ٣٠ ، الروضتين ج١ ص ٢٢٨ .

(٥) انظر سنا البرق ص ١٥٣ ، الروضتين ج ١ ص ٢٢٨ .

ويصبح ، ويخلو بعبادته ولا يبرح ، فَدُفِنَ في ذلك البيت الذي اتّخذه حمى من الحمام وآذن بناؤه لبانيه بالانهدام .

قال الحافظ أبو القاسم (١) ابن عساكر (٢) : دُفن نور الدين ــ رحمه الله ــ بقلعة دمشق ، ثم نُقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة جوار الخواصين في الشارع الغربي ، رحمه الله ، ورضي عنه . قلتُ : وقد ألقى الله تعالى محبته في قلوب الخلق ، فلا ترى إلاّ مترحماً عليه ، زائراً لقبره ، متوسلاً به إلى الله تعالى في قضاء حاجته / ، وقد أخبرني جماعة أنّه جرّب [٥٣/ و] استجابة الدعاء عند قبره (٣) .

قال ابن الأثير (٤) : وكان أسمر طويل القامة (٥) ، ليس له لحية إلاّ في حنكه ، وكان واسع الوجه ، حسن الصورة ، حلو العينين ، وكان قد اتّسع ملكه جدّاً ، فملك الموصل وديار الجزيرة ، وأطاعه أصحاب ديار بكر ، وملك الشام والديار المصرية واليمن ، وخُطب له بالحرمين الشريفين مكّة والمدينة ، وطبق الأرض ذكره بحسن سيرته وعدله ، ولم يكن مثله إلاّ الشاذ النادر ، رحمة الله عليه ورضوانه . قال العماد : وقلت في ذلك :(٦)

---

(١) في الأصل ٥٢/ و الحاشية (قف على أن نور الدين الشهيد دفن أولا بقلعة دمشق ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته) .

(٢) انظر الروضتين ١ ص ٢٢٨ .

(٣) في حاشية الأصل (٥٢/ ظ) الحاشية (مطلب أن الدعاء عند قبره مستجاب مجرب) .

(٤) في حاشية الأصل (٥٢ /ظ) الحاشية (ذكر صفته واتساع ملكه) .

(٥) انظر الباهر ص ١٦٢ ، الروضتين ج ١ ص ٢٢٨ .

(٦) انظر الروضتين ج ١ ص ٢٢٨ .

عجبت من الموت كيف اهتدى (١)

إلى ملك في سجاياه ملَكْ

وكيف ثوى الفلك المستدير

في الأرض والأرض وسط الفلَكْ

وله فيه أيضاً :

يا مالكاً أيّامه لم تزل

لفضله فاضلة فاخرة

غاضت بحار الجود مذ غيبت

أنمله (٢) الفائضة الزاخرة

ملكت دنياك وخلّفتها

وسرت حتى تملك الآخرة

وقال أيضاً (٣) :

١ – لفقد الملك العادل

ل يبكي الملك والعدلُ

٢ – وقد أظلمت الآفا

ق لا شمس ولا ظلُّ

---

(١) في الروضتين (أتى) .

(٢) في الروضتين (أنملك) .

(٣) انظر الخريدة ج ١ ص ٦٧ – ٧٢ ، الروضتين ج ١ ص ٢٣١ .

٣ ـ ولمّـا غـاب نُور الـديـن عنّـا أظلـم الحفـلُ

٤ ـ وزال الخـصب والخـير وزاد الـشرّ والمحـلُ

وقال أيضاً (١) :

١ ـ الدين في ظُلَمٍ لغيبة نوره والدهر في غممٍ لفقد أمـيرهِ

٢ ـ فليندب الإسلام حامي أهـله والشامُ حافظ ملكه وثغـوره

٣ ـ ماأعظم المقدار في أخطـاره إذ كان[هذا الخطب في](٢) مقدورهِ

٤ ـ ماأكثر المتأسفـين لفقد من قرّت [نواظرهم بفقد نظيره](٣)

٥ ـ ماأغوص الإنسان في نسيـانه [أو ما كفاه الموت في تذكيرهِ](٤)

٦ ـ من للمسـاجد والمدارس بانيـاً [لله طوعاً عن خلوص](٥) ،ضميرهِ ؟

---

(١) انظر خريدة القصر ج ١ ص ٧٢ فهو يذكر أن القصيدة تقارب مائة وعشرة أبيات ، لكنه لم يذكر منها سوى البيت الأول ، الروضتين ج١ ص ٢٤٤ – ٢٥٤ .

(٢)و(٣) و(٤) و(٥) مابين القوسين في الأصل ٥٢ مطموسة والإضافة عن نسخة المغرب .

٧ – من ينصر الإسلام في غـــزواته

فلقد أصيب بركنـــه وظـــهيرهِ ؟

٨ – من للفرنج ومن لأسر ملـــوكها

من للهُدى يبغي فكاك أسيرهِ ؟

٩ – من للخطـــوب مذللاً لجماحها

من للزمان مسهلاً لوعورهِ ؟ / [٥٣/ظ]

١٠ – [من كاشف للمعضلات برأيـــه

من مشرق في الداجيـــات بنورهِ ؟

١١ – من للكريم ومَنْ لنعش عثـــاره

من لليتيم ومَنْ لجبر كسيرهِ ؟

١٢ – من للبلاد ومن لنصر جيوشهـــا

من للجهاد ومن لحفظ أمورهِ ؟

١٣ – من للفتوح محـــاولاً أبكارهـــا

برواحه في غزوه وبكورهِ ؟](١)

١٤ – من للعلى وعهودها من للندى

ووفوده من للحجى ووفورهِ ؟

١٥ – ماكنت أحسب نور دين محمـــد

يخبو وليل الشرك في ديجورهِ (٢)

---

(١) مابين القوسين وردت في حاشية الأصل ٥٢ وفي نسخة المغرب جاءت في الأصل .

(٢) ديجور (لسان العرب) الظلمة .

١٦ — أعزِز عليَّ بليث غابٍ للهدى
يخلو الشرى من زوره وزئيرهِ

١٧ — أعزز عليَّ بأن أراه مغيَّباً
عن محفل متشرِّف بحضورهِ

١٨ — لهفي على تلك الأنامل إنّها
مذ غيِّبت غاض الندى ببحورهِ

١٩ — ولقد أتى من كنت تجري رسمه
فضع العلامة منك في منشورهِ

٢٠ — [ولقد أتى من كنت تكشف كربَه
فارفع ظلامته بنصر عشيرهِ

٢١ — ولقد أتى من كنت تؤمن سربَه
وقع له بالأمن من محذورهِ] (١)

٢٢ — ولقد أتى من كنت تؤثر قربَه
فأدم له التقريب في تقديرهِ

٢٣ — والجيش قد ركب الغداة لعرضهِ
فاركب لتُبْصِرَهُ أوان عبورهِ

٢٤ — أنت الذي أحييت شرع محمد
وقضيت بعد وفاته بنشورهِ

---

(١) مابين القوسين لم يرد في نسخة المغرب .

٢٥ — كم قد أقمت من الشريعة معلَماً
هو منذ غبت مُعرّض لدثوره(١)

٢٦ — كم قد أمرت بحفر خندق معقلٍ
حتى سكنت اللّحد من محفوره (٢)

٢٧ — كم قيصر للروم رمت بقسره
إرواء بيض الهند من تاموره (٣)

٢٨ — أوتيتَ فتح حصونه وملكت عقـ
ـر بلاده وسبيت أهل قصوره

٢٩ — أزهدت في دار الفناء وأهلها
ورغبت في الخلد المقيم وحوره

٣٠ — أو ماوعدت القدس أنّك منجز
ميعاده في فتحه وظهوره

٣١ — فمتى تجير القدس من دنس العدا
وتقدّس الرحمن في تطهيره ؟

٣٢ — ياحاملين سريره مهلاً فمن
عجب نهوضكم بحمل ثبيره (٤)

---

(١) دثر (في لسان العرب) : الدروس ، وقد دثر الرسم وتداثر ودثر الشيء يدثر دثوراً واندثر : قدم ودرس .

(٢) في الروضتين ١ : ٢٤٥ (في) .

(٣) تاموره (في لسان العرب) يقال : احذر الأسد في تاموره ومحرابه وغيله وعرزاله ، وأسد في تاموره أي في عرينه .

(٤) ثبير (في لسان العرب) جبل بمكة . ويقال : أشرق ثبير كيما نغير ، وهي أربعة أثبرة : ثبير غيناء ، وثبير الأعرج ، وثبير الأحدب ، وثبير حراء .

٣٣ — ياعابرين بنعشــه أنشــقتم
من صالح الأعمال نشر عبيره ؟

[٥٤/ و] ٣٤ — / [نزلت ملائكة السماء لدفنــه
مستجمعــين على شفير حفيره

٣٥ — ومن الحفاء له مقامي بعـــده
هلاّ وفيت وسرت عند مسيره

٣٦ — حيّاك معتل الصبا بنسيمه
وسقاك منهل الحيــا بدروره

٣٧ — ولبست رضوان المهيمن ساحباً
أذيال سندس خزّه وحريره

٣٨ — وسكنت عليين في فردوســـه
جذلَ المسرّة ظافراً بأجوره] (١)

قال ابن الأثير (٢) : لمّا توفي نور الدين ، رحمه الله ، (٣) جلس ابنه الملك الصالح (٤) في الملك وحُلف له ولم يبلغ الحلم ،

---

(١) مابين القوسين ورد في حاشية الأصل ٥٣/ و ، وذكرها في نسخة المغرب في الأصل .

(٢) في حاشية الأصل ٥٣ / ظ (مطلب جلوس ولده الملك الصالح في الملك بعده ولم يبلغ الحلم واسمه إسماعيل) .

(٣) انظر سنا البرق ١٥٤ — ١٥٥ ، الباهر ١٦٢ ، الروضتين ١ : ٢٣٠ ، السلوك ج ١ ق ١ ٥٥ ، البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٤) هو : إسماعيل بن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي (ت ٥٧٧ هـ) . الباهر ص ١٦٢ — ١٦٣ ، الكامل ١١ : ٤٠٥ — ٤٠٦ و ٤٧٢ — ٤٧٣ ؛ الروضتين ١ : ٢٣٠ .

وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام، وصلاح الدين بمصر خطب له بها وضرب السكة باسمه ، وتولّى تربيته شمس الدين بن المقدّم (١) .

وكتب العماد الكاتب عن الملك الصالح بن نور الدين كتاباً إلى الملك الناصر صلاح الدين يعزّيه (٢) بوالده ترجمته : (إسماعيل ابن محمود) (٣) وفيه : (أطال الله بقاء سيّدنا الملك الناصر . وعظّم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل ، ندب الشام بل الإسلام حافظ ثغوره وملاحظ أموره) ومنه : (وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره على أنّه يعزّ أن يرى الزمان نظيره ، وما ههنا يشغل السرّ ، ويقسم الفكر إلاّ أمر الفرنج ، خذلهم الله تعالى ، وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلاّ لمثل هذا الحادث الجلل ، والصرف الكارث المذهل ، فقد ادّخره لكفايات النوائب وأعدّه لحسم المعضلات اللّوازب (٤) ، وأمّله ليومه ولغده ، ورجاه لنفسه ولولده ، ومكّنه قوّة لعضده . فما فُقد ، رحمه الله ، إلا صورةً والمعنى باق ، والله تعالى حافظ لبيته واق . وهل غيرهُ ، دام سموّه ، من مؤازر ، وهل سوى السيّد الأجل الناصر من ناصر ، وقد عرفناه المقترح ليروض برأيه من الأمر ماجمح ، والأهمّ شغل

---

(١) هو : الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم ، متولي بعلبك) . انظر : سنا البرق ١٥٦ و ٢١٩ . الباهر ١٦٢ ، الكامل ١١ ص ٤٠٨ ، الروضتين ج ١ ص ٢٣١ — ٢٦١ ،

(٢) في حاشية الأصل ٥٣ / ظ (قف على كتابة العماد الكاتب عن الملك الصالح كتاباً إلى الملك الناصر صلاح الدين يعزيه بأبيه) .

(٣) الروضتين ج ١ ص ٣٢٠ .

(٤) اللوازب : جمع لزب وهو الضيق .

الكفّار عن هذه الديار بما كان عازماً عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البدار . ويجري على العادة الحسنى في إحياء ذكر الوالد هناك بتجديد ذكرنا ، راغباً في اغتنام ثنائنا وشكرنا) .

وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الدين ، رحمه الله (١) ، فأرسل ابتداء منه كتاباً بالإنشاء الفاضلي من جملته : (ورد خبر من جانب العدوّ اللّعين عن المولى نور الدين ، أعاذ اللهُ فيه من سماع المكروه . ونوّر بعافيته القلوب والوجوه ، واشتد به الأمر وضاق به الصدر ، وانقصم بحادثه الظهر ، وعزّ فيه التثبّت وأعوز الصبر ، فإن كان — والعياذ بالله — قد تمّ ، وخصّه الحكم الّذي عمّ . فالحوادث تدّخر النصال ، وللأيام تصطنع الرجال ، وما رتّب المملوك ممالكهـا إلا لأولادها ، ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلا ليؤدي حقّها يوم حصادها ، فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي / . فتبلغ الأعداء مرادهـا ، وتعدم الآراء رشادها . (٥٤/ظ) وتنتقل النعم التي تعبت الأيام [فيها] (٢) إلى أن أعطت قيادها ، فكونوا يداً واحدة وأعضاداً متساعدة ، وقلوباً يجمعها ودّ ، وسيوفاً يضمّها غمد ، ولا تختلفوا فتنكلوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا ، وقوموا على أمشاط الأرجل ، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنمل ؛ فالعداوة محدقة بكم من كلّ مكان ، والكفر مجتمع على الإيمان ، ولهذا البيت منّا ناصر لا نخذله ، وقائم لا نسلّمه ، وقد كانت وصيّته إلينا سبقت ، ورسالته عندنا تحقّقت ، بأنّ ولده القائم بالأمر وسعد الدين كمشتكين

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) ساقطة من الأصل (ب) أخذت من (م) .

الأتابك بين يديه ، فإن كانت الوصيّة ظهرت وقُبلت ، والطاعة في الغيبة والحضور أُدّيت وفُعلت ، وإلاّ فنحن لهذا الولد يد على من ناوأه ، وسيف على من عاداه . وإنْ أسفر الخبر عن معافاة فهو الغرض المطلوب . والنذر الذي يحل على الأيدي والقلوب) .

ثم ورد كتاب صلاح الدين (١) معزّياً لابن نور الدين ومُجيباً عن كتابه المتقدّم بالإنشاء الفاضلي (٢) وفي آخره : (وأمّا العدوّ ، خذله الله ، فوراءه من الخادم من يطلبه طلب ليلٍ لنهاره . وسيلٍ لقراره ؛ إلى أن يزعجه من مجاثمه . ويستوقفه عن مواقف مغانمه ؛ وذلك من أقلّ فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه ؛ أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذي القعدة ، وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم ، وصُرّح فيه بذكره في الموقف العظيم ، والجمع الذي لالغو فيه ولا تأثيم ، وأشبه يوم الخادم فيه أمسه في الخدمة . ووفّى مالزمه من حقوق النعمة وجمع كلمة الإسلام عالماً أنّ الجماعة رحمة ، والله تعالى يخلّد ملك المولى الملك الصالح ، ويصلح به وعلى يديه . ويؤكد عهود النعماء الراهنة لديه ، ويجعل الإسلام واقية باقية عليه ، ويوفّق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشييده . ومضاعفة ملكه ومزيده ، وتسيير كلّ أمر صالح ، وتقريب بعيده) .

---

(١) في حاشية الأصل ٥٤ / و : (ذكر ورود كتاب صلاح الدين لابن نور الدين معزياً ومجيباً عن كتابه المتقدم ذكره) . وانظر الروضتين ١ ، ٢٣٠ .

(٢) انظر ترجمته في حاشيتنا ٢ ص ٣١٧ .

ومن كتاب آخر : (الخادم مستمر على بدأته من الاستشراف لأوامرها ، والتعرّض لمراسمها . والرفع لكلمتها ، والإيالة لعساكرها ، والتحقق بخدمتها في بواطن الأحوال وظواهرهـا . والترقّب لأن / يـُؤمر فيمتثل ، ويُكلّف فيحتمل ، وأن يُرمى بـه في نحر عدوّه ، فيُسدّد بجهده ، ويوفّى أيام الدولة العالية يوماً يكشف الله للمولى ضمير عبده) . [٥٥/ و]

(قال العمـاد) : (١) واتّفق نزول الفرنج (٢) على الثغر وقصدهم بانياس ، فخرج ابن المقدّم (٣) وهادنهم . وغلب سيف الدين صاحب الموصل (٤) على جملة مـن البلاد ، فحُسّن لابن نور الدين المسير إلى حلب وكثر الحلف ، وحُبس بعض الأمـراء الكبار ، وخيف على البلاد من الفرنج ، وكانت مهادنة الفرنج قـد اشتملت على بذل شيء لهم من أساراهم ومن المال ، فأنكر ذلك صلاح الدين ، وكتب إلى جماعة من الأعيان كتباً دالّة على التوبيخ والملام ، ومن جملتها كتاب بالمثال الفاضلي إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون يخبره فيه : (أنّه لمّا أتاه كتاب الملك الصالح بقصد الفرنج ، تجهّز وسار أربع مراحل ، ثمّ جاءه الخبر بالهُدنة المؤذنة بذلّ الإسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى ، وسيّدنا الشيخ أولى من جرّد لسانه الّذي تُغمد له السيوف وتجرد ، وقام في سبيل

---

(١) مابين القوسين إضافة عن نسخة المغرب .

(٢) سنا البرق ١٥٥ – ١٦٩ ، الباهر ١٧٥ – ١٧٦ ، الكامل ج ١١ ص ٤٠٨ ، الروضتين ج ١ ص ٢٣١ – ٢٣٤ .

(٣) انظر ترجمته في حاشيتنا ١ ص ٤٠٣ .

(٤) انظر ترجمته في حاشيتنا ٤ ص ٢٧٣ .

الله قيام من يقطع عادية من تعدى وتمرّد) . وقال في آخره : (وكُتب من المنزل بفاقوس (١) والفجر قد همّ أن يشق ثوب الصباح ، لولا أنّ الثريا تعرّضت تعرّض (أبناء) (٢) الوشاح ؛ وهذه اللّيلة سافرة عن نهار يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجّة بلّغه الله فيه أمله ، وقبل عمله بالغاً أسنى المراد وأفضله) .

وفي آخر هذه السنة (٣) تسع وستين : هلك مُري (٤) الفرنجي لعنه الله ، الّذي كان حاصر القاهرة ، وأشرف على أخذ الديار المصرّية . ومن كتاب فاضلي يخبر بموته : [ورد كتاب من الداروم(٥) يذكر أنّه لمّا كان عشيّة الخميس تاسع ذي الحجة هلك مُري ملك الإفرنج لعنه الله ، ونقله إلى عذاب كاسمه مشتقاً ، وأقدمه على (نار تلظى لايصلاها إلاّ الأشقى) (٦) .

---

(١) فاقوس (في ياقوت) بالقاف وآخره سين مهملة : اسم مدينة في حوف مصر الشرقي من مصر إلى مشتول ثمانية عشر ميلا ومن مشتول إلى سفط طرابية ثمانية عشر ميلا ومنها إلى مدينة فاقوس ثمانية عشر ميلا ، وهي في آخر ديار مصر من جهة الشام في الحوف الأقصى .

(٢) في الروضتين ج ١ ص ٢٣١ (أثناء) .

(٣) انظر الخبر حول قدوم مري إلى مصر غازياً في الروضتين ج ١ص ١٦٩ — ١٧١ ، والأصل ٢٥/و — ٢٥ / ظ ص ١٨٥ — ١٨٦ .

(٤) هو الملك أملرك صاحب القدس . انظر الامبراطورية الإسلامية لبروكلمان ص ٢٢٤ .

(٥) الداروم (في ياقوت) قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر الواقف فيها يرى البحر إلا أن بينها وبين البحر مقدارفرسخ .

(٦) سورة الليل — الآية ١٤ و ١٥ : « فأنذرتكم ناراً تلظى * لايصلاها إلا الأشقى ».

ولمّا بلغ (١) صلاحَ الدين سوءُ تدبير الأمراء في أمر الملك الصالح بن نور الدين ، كتب إليهم ونهاهم عن ذلك ، فكتب إليه ابن المقدم يردعه عن هذه العزيمة ، ويقول له : « لايقال عنك أنك طمعت في بيت مَنْ غرسك وربّاك وأسّسك ، وأصفى مشربك ، وأضفى ملبسك ، وأجلى سكونك لملك مصر ، وفي دسته أجلسك ؛ فمـا يليق بحالك ، ومحاسن أخلاقك وخلالك / غـير فضلك وإفضالك » . فكتب إليه صلاح الدين بالإنشاء الفاضلي كتاباً من جملته : « إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ماجمع شملهم ، وألّف كلمتهم ، وللبيت الأتابكيّ ـ أعلاه الله ـ إلا ماحفظ أصله وفرْعه ، ودفع ضُرّه وجلب نَفعْه ؛ فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة ، والمحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العُداة ؛ وبالجملة ، نحن (٢) في واد ، والظانون بنا ظنّ السوء في واد ، ولنا من الصلاح مراد ، ولمن يُبعدنا عنه مراد ، ولا يقال لمن طلب الصلاح : إنك قادح ، ولا لمن ألقى السلاح : إنك جارح »(٣) .

[٥٥/ ظ]

* * *

(١) انظر سنا البرق ١٦٨ – ١٦٩ ، وفي الروضتين ١ ص ٢٣٤ يذكر هذا الحدث في عام سبعين وخمسمائة .

(٢) في الروضتين ١/٢٣٤ وسنا البرق ١٩٦ : « أنا » .

(٣) سنا البرق : « خارج » .

فهرس الجزء الأول

الموضوع	الصفحة
ودخلت سنة خمس وأربعين وخمسمئة	
وفيها تقرر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق	٢٢٣
سير نور الدين إلى بلاد جوسلين	٢٢٥
أسر جوسلين وفتح كثير من بلاد الفرنج	٢٢٥
ثم دخلت سنة ست وأربعين وخمسمائة وفيها حاصر	
نور الدين دمشق لمعاضدة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم	٢٣١
وصول الأسطول المصري إلى ثغور الساحل وظفره بعدة	
مراكب للفرنجة	٢٣١
عقد الصلح مع أهل دمشق	٢٣٢
ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة	
نزول نور الدين في عسكره على حصن أنطرطوس وفتحه	٢٣٣
وفيها ولد لنور الدين بحمص ابن سماه أحمد	٢٣٤
ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة	
وفيها استولى الفرنج على عسقلان	٢٣٤
استيلاء نور الدين على حصن افليش	٢٣٤
وفيها توفي الفقيه برهان الدين علي البلخي الحنفي	٢٣٥
وتوفي الشاعر أبو عبدالله ، محمد بن نصر	
القيسراني ، والشاعر أحمد بن منير الأطرابلسي	٢٣٥
ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة	
ملك نور الدين دمشق	٢٣٦

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
وفيها قتل وزير مصر الصالح طلائع بن رزيك	٢٥٥
ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة	
مسير نور الدين بالعساكر إلى قلعة حارم	٢٥٦
ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة	
نزول نور الدين بالبقيعة وكبس الفرنج لهم	٢٥٦
مسير نور الدين إلى حمص	٢٥٧
كسر نور الدين للفرنج على حارم	٢٦٠
ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة	
مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر عازماً على ملكها	٢٦١
التعريف بالأيوبيين ، وحالهم في اتصالهم بالدولة النورية .	٢٦٢
استنجاد شاور وزير خليفة مصر بنور الدين	
ومسير نور الدين معه وذكر ماجرى	٢٦٥
إعادة شاور إلى الوزارة بمصر ، وغدر شاور	
به واستنجاده بالفرنج ، وعود أسد الدين إلى الشام	٢٦٧
فصل في كسرة حارم المشهورة	٢٦٨
فصل في ذكر وزير الموصل ، جمال الدين	
أبي جعفر ، وكانت وفاته في هذه السنة	٢٧٣
الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابة	٢٧٧
ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة	
فتح نور الدين قلعة بانياس	٢٧٧

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

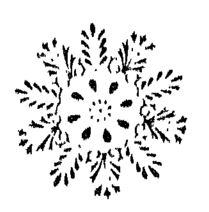
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *







الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩١

في الأقطار العربية ما يعادل

٢٥٠ ل.س